

الحقائق الوجودية الكبرى

دراسة مفاهيمية حول حقيقة الحقائق والعماء والهباء والقلم الأعلى
واللوح المحفوظ والعرش والطبيعة والإنسان والخيال
في رؤية الشيخ الأكبر ابن العربي

تأليف

عبد الباقي مفتاح

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم الفتح العليم الواحد الأحد الذي ليس
كمثله شيء وهو السميع البصير

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
الضَّالِّينَ .

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه ومن
اتبع هداه وسلم تسليما .

أما بعد:

فهذا مبحث في الحقائق الكلية للتركيبية الوجودية والتشكيلية الكونية والنشأة الإنسانية والقوة الخيالية ، تبعا لما وضحه الشيخ الأكبر محمد محيي الدين ابن العربي (560 – 638 هـ) في العديد من كتبه ، لا سيما موسوعته العرفانية العظمى " الفتوحات المكية " ، مع الاستشهاد أحيانا بكلام غيره من الناهلين من مشربه . ومصدر هذه الحقائق والمعارف هو الفتح الإلهي والكشف الرباني، النابعين من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، بالفهم الذي يخص به الحق تعالى من شاء من أوليائه الذين وفقهم لحقيقة التقوى، ومكنهم في معارج الإحسان، وعلمهم من لدنه علما . يقول الشيخ في الباب 88 من الفتوحات :

[فأصل رياضتنا ومجاهدتنا وجميع أعمالنا التي أعطتنا هذه العلوم والآثار الظاهرة علينا إنما هو من عملنا بالكتاب والسنة (...)] وفيضنا روحاني وإلهي لكوننا سلكنا على طريقة إلهية تسمى شريعة فأوصلتنا إلى المشرع وهو الله تعالى لأنه جعلها طريقا إليه .

وفي الباب 181 يقول :

لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنبياء عن الله

ويقول أيضا في كتابه (مواقع النجوم):

ما نال من جعل الشريعة جانبا شيئا ولو بلغ السماء مناره

وحيث أن الحقيقة واحدة في كل الأزمنة والأمكنة ، فإن جل ما عبر عنه الشيخ الأكبر من هذه المسائل المتعلقة بالتركيب الكونية والنشأة الإنسانية قريبة جدا ، بل متطابقة في الكثير منها - رغم اختلافات كبيرة في أشكال التعبير- مع ما هو مؤصل عند حكماء وعرفاء جل الأمم الحائزة على تراث روحي نابع من الوحي الإلهي . وهذا التطابق لا يعني بتاتا اقتباس اللاحق من السابق كما يدعيه الكثير من الباحثين المعاصرين بلا دليل مقنع ، وإنما يعني أن الحقيقة الواحدة يفتح الله بها على من شاء من عباده في أي مكان وأي عصر وأي ملة . فيما أن الأصل واحد وهو الدين الإلهي الواحد الموحى به إلى جميع الأنبياء من آدم إلى خاتمهم سيدنا محمد - على جميعهم السلام - فلا عجب أن تكون فروع ومستلزمات ذلك الأصل متماثلة أو متطابقة . والمتفق عليه عند أهل هذا الشأن أن المصادر الأولى للعلوم الإلهية والكونية للبشرية الراهنة هي مما أوحى الله تعالى به إلى آدم الذي علمه الأسماء كلها ، وإلى ابنه شيث ، ثم إلى النبي إدريس الذي رفعه الله مكانا عليا - على جميعهم السلام - . وإدريس هو المسى عند الحكماء القدامى بـ "هرمس الهرامسة" ، وهو الذي سماه الشيخ الأكبر بـ "مداوي الكلوم" وخصص لبيان بعض العلوم التي علمها للناس البابين 14 و15 من الفتوحات ؛ ومن مدرسته بالخصوص انتشرت تلك العلوم وتوارثتها كل الأمم .

وقد صرح الشيخ الأكبر أن ما فصله في كتبه من حقائق لم يكن نتيجة دراسات فكرية نظرية ولا اقتباسات من آراء فلسفية ، وإنما هو فتح رباني من لباب النصوص الشرعية ، فهو يقول مثلا في الباب الثاني من الفتوحات خلال كلامه عن الأركان الطبيعية الأربعة وأصلها الخامس : [... ثمة موجود خامس هو أصل لهذه الأركان، وفي هذا خلاف بين أصحاب علم الطبائع عن النظر، ذكره الحكيم في الأسطفسات ، ولم يأت فيه بشيء يقف الناظر عنده. ولم أعرف هذا من حيث قراءتي علم الطبائع

على أهله، وإتّما دخل به عليّ صاحب لي وهو في يده، وكان يشتغل بتحصيل علم الطب . فسألني أن أمشيّه له من جهة علمنا بهذه الأشياء من جهة الكشف لا من جهة القراءة والنظر. فقرأه علينا فوقفت منه على هذا الخلاف الذي أشرت إليه، فمن هناك علمته، ولو لا ذلك ما عرفت هل خالف فيه أحد أو لا، فإنّه ما عندنا فيه إلاّ الشيء الحق الذي هو عليه، وما عندنا خلاف . فإنّ الحق تعالى الذي نأخذ العلوم عنه بخلّو القلب عن الفكر، والاستعداد لقبول الواردات ، هو الذي يعطينا الأمر على أصله من غير إجمال ولا حيرة، فنعرف الحقائق على ما هي عليه .]

ويرد الشيخ الأكبر على الذين يزعمون أن هذه العلوم الكشفية الحاصلة لأولياء الله -تعالى - مقتبسة من النظريات الفلسفية فيقول في مقدمة الفتوحات :

[ولا يحجبك أيها الناظر في هذا الصنف من العلم الذي هو العلم النبوي الموروث منهم صلوات الله عليهم، إذا وقفت على مسألة من مسائلهم قد ذكرها فيلسوف أو متكلم أو صاحب نظر في أي علم كان، فتقول في هذا القائل الذي هو الصوفي المحقق إنه فيلسوف ، لكون ذلك الفيلسوف ذكرتك المسألة وقال بها واعتقدها، وأنه نقلها منهم أو أنه لا دين له، فإنّ الفيلسوف قد قال بها ولا دين له . فلا تفعل يا أخي، فهذا القول قول من لا تحصيل له . إذ الفيلسوف ليس كل علمه باطلا، فعسى أن تكون تلك المسألة فيما عنده من الحق، ولاسيما إن وجدنا الرسول – صلى الله عليه وسلم - قد قال بها، ولاسيما فيما وضعوه من الحكم والتبري من الشهوات ومكايد النفوس وما تنطوي عليه من سوء الضمائر (...) وأما قولك إن قلت سمعها من فيلسوف أو طالعتها في كتبهم، فإنك ربما تقع في الكذب والجهل . أما الكذب فقولك سمعها أو طالعتها وأنت لم تُشاهد ذلك منه ، وأما الجهل فكونك لا تفرق بين الحق في تلك المسألة والباطل . وأما قولك عن الفيلسوف: لا دين له، فلا يدلّ كونه لا دين له على أنّ كل ما عنده باطل . وهذا مدرك بأول العقل عند كل عاقل . فقد خرجت باعتراضك على الصوفي في مثل هذه المسألة عن العلم والصدق والدين، وانخرطت في سلك أهل الجهل والكذب واليهتان ونقص العقل والدين وفساد النظر والانحراف].

وفي هذا السياق نقل ابن سودكين - التلميذ النجيب للشيخ الأكبر - في كتابه (لوائح الأسرار ولوائح الأنوار/ مخطوط تيمور ، صفحة 68) ما سمعه من الشيخ في شأن العلوم الإدريسية، وهو قوله :

[عملت على كشف الحقيقة الإدريسية ، وذلك أني نظرت إلى أحوال الفلاسفة ونقلهم عنهم واختلافهم عليه ، فقلت أريد أن آخذ هذا الأمر من بابه وأعلم من أين دخل عليهم الغلط ، فأقمت

في الخلوة ستة وثلاثين يوما ، فعلمت الأمر منه على ما هو عليه . وحصلت لي من الصحف التي سلمت من صحائف داود اثنتي عشر صحيفة . ورأيت الغلط إنما دخل على القدماء من أنفسهم ، وذلك أنه بلغهم من كلامه فتأولوا فاختلفوا ، كما بلغنا نحن حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - فأحل هذا شيئا وحرمه الآخر، على قدر قوتهم في فهم الكلام [.

وقد قسمنا هذا البحث على خمسة أقسام ، في كل قسم عدة فصول :

*** القسم الأول :** يتعلق بما يسمى بالمراتب المكتوبة الأولى ؛ وكان لزاما علينا، ونحن نعالج هذا الموضوع، أن يحضر في ذهننا، الإنكار القائم ضد أهل العرفان والولاية، عبر التاريخ، وهو إنكار، عبّر في مختلف المراحل، عن سوء فهم بين الفريقين، فارتأينا، دفعا لكل لبس ، أن نبدأ بعرض الشروط الموضوعية والمنهجية لبحثنا، وأن نبين، مجموعة من المفاهيم الأساسية الضرورية ، لفهم الساحة المعرفية التي نتحرّك خلالها، وهو ما حاولنا تحقيقه في الفصل الأول من هذا القسم الأول .

أما الفصل الثاني، فقد قررنا فيه معنى أوسع إطار للتعلل وهو ما يسمى بـ: "حقيقة الحقائق" انطلاقا من حقيقة الألوهية ، وفصلنا فيه خصائصها ، ومختلف الاصطلاحات التي تطلق عليها.

وفي الفصل الثالث، عرضنا حقيقة مرتبة "العماء" ومختلف مظاهرها، مع ذكر مختلف العبارات التي تطلق عليها .

وكان موضوع " الهباء النوري الأول" محور الفصل الرابع من هذا البحث، حيث عرّفنا القارئ بحقيقة هذا الجوهر الأول وما ظهر فيه من صور المحدثات .

وتلاه الفصل الخامس، الذي تناول موضوع " الهباء الجسمي" ومرتبته في التعلل كمجلى لكل الصور الطبيعية والجسمية والشكلية .

وختمنا هذا القسم الأول بالفصل السادس المشتمل على خلاصة ما كتبه الشيخ الأكبر والشيخان عبد الكريم الجيلي والأمير عبد القادر الجزائري حول القلم الأعلى أو العقل الكلي واللوح المحفوظ أو النفس الكلية .

وقد ساهم في إثراء وترتيب وإخراج هذا القسم الأول الباحث صديقنا ضاوي محمد الصالح ، فجازاه الله خيرا على الجهد الذي بذله في كل ذلك .

* أما القسم الثاني من هذا البحث : فيشتمل على خمسة فصول فيها تفصيل مسهب يتعلق بالعرش المحيط ، وبمراتب الوجود الكوني في الإيجاد وفي تسلسلها من حيث المكان والمكانة ، وعلى مفهوم الزمن ومظاهر الدهر كالأزل والأبد والقدم وأيام الله ، ودوراته الكبرى والصغرى . كما يحتوي على توضيحات للمفهوم التراثي الأصيل للعناصر ، وللكيمياء عند الحكماء والصوفية . وفي الفصل الخامس الأخير ترجمة من الفرنسية لبحث هام حول شروط الوجود الحسي كتبه العارف العلامة الفرنسي المسلم الشيخ عبد الواحد يحيى .

* والقسم الثالث : يتألف من سبعة فصول ، تتميز بتوسع في بيان حقيقة الطبيعة ومرتبها الوجودية وأركانها الأربعة وأصلها الخامس ، ومساقطها عبر مراتب الوجود ، لكل ركن فصل . وفي الفصل السابع عرض لمظاهر الرباعيات في آفاق الوجود الكوني والإنساني وفي عوالم الولاية .

* والقسم الرابع : من ثلاثة فصول ، ويشتمل على مباحث مختصرة من كلام الشيوخ ابن العربي وعبد الكريم الجيلي والأمير عبد القادر الجزائري وشهاب الدين السهروردي مؤلف " عوارف المعارف " ، كلها حول حقائق الإنسان ونشأته الحسية والروحية ، ومرتبته الجامعة وقواه ، وأطوار الروح فيه ومراتب نفسه ، وعلاقتها بالقلب والعقل والبصيرة والفكر . وهي في تقديري أنفس ما كتبتة أقلام العارفين في هذه المواضيع .

* وخصص القسم الخامس الأخير المشتمل على فصلين ، لتوضيح حقيقة الخيال ومرتبته وأهميته الكبرى ، وأنواع عوالمه ، ووسعه الأشمل الذي لا يجارى رغم كونه شعبة من قوى الجسم ، وعلاقته بالإنسان الكامل والقدرة الخلاقة . وختم البحث حوله بمحاولة شرح وحل لألغاز الباب الثامن من الفتوحات المتعلقة بعوالم الخيال وعنوانه : " في معرفة الأرض التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم - عليه السلام - وهي أرض الحقيقة وذكر بعض ما فيها من الغرائب والعجائب " . ويمكن للقارئ أن يعتبر كل قسم من الكتاب مستقلا عن بقية الأقسام الأخرى ويقرأه على حدة ، ولهذا الاعتبار توجد بعض المسائل القليلة التي تتكرر بين قسم وآخر تبعاً لما يقتضيه سياق الكلام .

وقبل أن نختم هذه المقدمة ، ينبغي القول أن العلوم المتعلقة بالكون وبالطبيعة في هذا الميدان العرفاني مختلفة تماماً جملة وتفصيلاً عن نظريات العلم الحديث المنحصر في الحس الذي تدركه

الحواس البشرية ، أي في شعبة صغيرة جدا من شعب أضييق مراتب الوجود ، وهي مرتبة الحس الكثيف . ومن الخطأ الشائع في عصرنا ، خصوصا عند بعض المحبين للعلوم التراثية الأصيلة ، محاولة إيجاد نقاط تطابق أو تماثل بينها وبين نظريات العلم الحديث . وهي في تقديري محاولات خالية من كل صحة ولا جدوى منها ، وطريقها مسدود ، لأنها تعتمد على مقارنة أمور مبادئها متباينة أو متعاكسة ، وتنتمي إلى مستويات ومناهج ووجهات نظر مختلفة تماما. فمنبع العلم التراثي الأصيل الوحي الإلهي للأنبياء والكشف للأولياء العرفاء ، ولهذا كانت حقائقه ثابتة ، لم تتغير مبادئه ونتائجه بتغير الأزمنة والأمم ، رغم اختلافها في كيفيات التعبير عنه . أما مصدر العلم الحديث برمته فهي التجارب البشرية ، وهو في كل لحظة عرضة لتغيرات بل انقلابات ، تبعا لمعطيات التجارب المتجددة، المنحصرة تماما في دائرة الحس الكثيف باعتباره جملة منغلقة ، ومبتورا عن مبادئه وأصوله في مراتب الوجود الوسطى والعليا التي فوقه ، والتي يستمد منها وجوده وقوانينه ؛ فهو في الحقيقة مرتبط بها ارتباطا أساسيا و"عضويا" إن صح القول ، وهي التي حاولنا إعطاء لمحة عنها في هذا الكتاب . فكل نظريات العلم الحديث - بما فيها ما يسمى بعلم النفس الحديث الذي يزعم دراسة النفس بدون أي اعتبار لحقيقتها الروحية وأصلها الرباني - ، ليس لها أية قيمة تفسيرية حقيقية ، وإنما لها قيمة وصفية لما تدركه حواس الإنسان والآلات التي يستعملها، ثم يستغل تلك القوانين الوصفية في إنجاز التقنيات للسيطرة بقدر الإمكان على العالم المادي الكثيف بواسطة قوانينه . وهنا يبرز النجاح الباهر للعلم الحديث ، ولكنه في نفس الوقت نجاح خادع إلى أبعد الحدود لمن لم يعرف حدوده وحقيقته ، لخلوه كما ذكرنا من كل تفسير عميق لحقائق الوجود ، ولمبادئه ولغاياته ، بل حتى لأبسط هذه الحقائق في عالم الحس ، وهو الذي يعمل جاهدا منذ قرون على سبر أغوارها بدون أن يصل إلى نتيجة مقنعة ، وهي حقيقة المادة والزمان والمكان والحياة والفكر والعقل والشعور والإدراك . لكن تفصيل هذا كله يحتاج إلى كتاب مستقل ، ولم نرد هنا سوى التنبيه على وجوب الكف عن كل محاولة لإقامة تقارب بين العلم التراثي الأصيل الثابت ونظريات العلم الحديث السطحية الرجراجة . وإنما يدرس كل منهما على حدة ، بدون محاولة أي مقارنة بينهما . ونشير إلى أن أحسن من فصل هذا الفارق، ونبه عليه بكل قوة تفصيلا وافيا وحجج حاسمة ، العلامة الصوفي، الفرنسي المنشأ، المصري المهجر، الشيخ عبد الواحد يحيى (روني جينو: 1886 - 1951) في الكثير من مقالاته والعديد من كتبه النفيسة ، مثل كتاب " هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان " ، وكتاب " أزمة العالم الحديث " وكتاب " الشرق والغرب " وغيرها .

ولا ندعي في هذا البحث أننا أحطنا بالموضوع إلا من خلال ما عرضناه من نصوص عرفانية ، قمنا باستجلاء معانيها، وقراءة محتواها المفاهيمي، ومقارنة بعضها ببعض، حتى تنجلي تلك الصورة المهمة التي صاحبت هذا الموضوع في الدراسات الصوفية والفلسفية والشرعية . ونرجو من الله العلي القدير أن يتقبل عملنا بقبول حسن، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه هو وحده الموفق لذلك .
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ملاحظة: نسخة الفتوحات المكية المعتمدة في البحث هي: الفتوحات المكية، دار صادر بيروت، 4 أجزاء.

القسم الأول

(ساهم في إثرائه وإعداده الباحث ضاوي محمد الصالح)

- مفاهيم أولية .
- حقيقة الحقائق .
- مرتبة العماء .
- مرتبة الهباء .
- القلم الأعلى أو العقل الكل .
- خلاصة
- اللوح المحفوظ أو النفس الكلية .

الفصل الأول

مفاهيم أولية

لو اطلعتم على الحقائق كما أطلعنا عليها، وعلى عالم الأرواح والمعاني، لرأيتم كل حقيقة وروح ومعنى على مرتبته، فافهمم والزم.

الشيخ الأكبر: محي الدين بن العربي

الفتوحات: الباب الثاني، الفصل الثاني

أصل موضوع بحثنا، هو: حقيقة الحقائق، وما ينبثق عنها من مواضيع، مثل: العماء والهباء... وهو بحث لم يعتد عليه القارئ العربي المعاصر، بل الكثير من القراء قد يتفاجأ بالموضوع: من ناحية أنهم غير معتادين على مثل هذه المباحث في الثقافة الإسلامية الحديثة، ومن ناحية أخرى أنه موضوع، موروث الحكم عليه، من قرون، من خلال الحرب التي شنها بعض العلماء على ابن العربي... ومن ناحية ثالثة: قد يجيب هذا البحث عن مختلف الأسئلة الوجودية التي، ربّما، طرحها القارئ خلال تأملاته في حقائق الوجود.

على أن مفاجأة القارئ العربي لطرح هذا الموضوع، تجربنا على الاحتياط من بعض الفخاخ، التي يمكن له أن يسقط فيها، نتيجة حساسية الموضوع. لذلك نعد في البداية إلى التأكيد على جملة من المفاهيم الأولية، التي نعتبرها مفاتيح أساسية للولوج إلى هذا الموضوع، من دونها، لا يمكن للقارئ أن يستوعب البحث، بل ربما يحيد به عن مقاصده.

أولاً: عندما نبحت موضوع الحقيقة الأولى التي لها عدّة مسمّيات، لا بدّ أن نتعرض إلى مفاهيم حرجة وحساسة، مثل: "الله" أو "الحق" و"الخلق" أو "العالم" و"الواجب" و"الممكن" و"القديم" و"المحدث" وغيرها... وهذه المفاهيم تدفعنا إلى تحديد المساحة المعرفية التي نتحرك فيها.

الاعتبار الأول: للغة القائمة بحمل هذه المفاهيم، والاعتبار الثاني: أن هذه اللغة مشترك بيننا للتواصل في هذا الموضوع، فإننا نؤكد أن ساحتنا المعرفية هي العقل، بما هو قابل وبما هو مفكر، أي بما هو موضوع وبما هو منهج.

فالعقل¹، من حيث هو موضوع، يجمع في ساحتها كل المواضيع، بلا استثناء، ويقبل كل "الأشياء"، المتجانسة والمتنافرة (المركبة بواسطة الخيال)، الخاضعة لقواعد المنطق العقلي عموماً، والمخالفة لها. فهو من هذه الجهة: عقل قابل.

¹ عرف العلماء والحكماء العقل بعدة تعريفات، منها:

أ-تعريف الإمام الغزالي رضي الله عنه :

"في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: {أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ} وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين، ولا معنى للاشتغال بالأسماء فإن الاصطلاحات مختلفة، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة، كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية، ولنسم تلك الغريزة عقلاً بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها الهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تدم، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبيعتها المعرفة والعلم وهي لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها".

ويقول أيضاً في موضع ثان:

"العقل يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة. ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه، والصفة غير الموصوف، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك، وهو المراد بقوله: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلُ»: فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه، ولأنه لا يمكن الخطاب معه. وفي الخبر: أنه قال له تعالى أقبِلْ فأقبِل، ثم قال له أدبر فأدبر... الحديث".

ب-تعريف الإمام الرازي رضي الله عنه:

العقل غريزة يتبعها العلم بالنظريات عند سلامة الآلات.

ج-تعريف الإمام أبي إسحاق الشيرازي رضي الله عنه:

العقل صفة يميزها بين الحسن والقبیح.

د- تعريف الإمام الشافعي رضي الله عنه:

العقل آلة التمييز.

هـ-تعريف بعض الحكماء:

العقل جوهر مجرد غير متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف (كذا في الكتاب) ولعل الصواب: متعلق بالبدن.

والعقل من حيث هو منهج، محدود الأدوات، لا يستطيع التفكير إلا في مساحة ضيقة، خاضعة لقواعد المنطق الذاتي له، ولا يتجاوزها. وهو من هذه الجهة: عقل مفكر.

فموضوع: "الله" هو موضوع لا يستطيع العقل التفكير فيه (في ذاته وماهيته)، ولكنه يقبل التعامل معه كمعطى لغوي ومعرفي... وقس على ذلك كل المواضيع المشابهة... ولكن هذا التعامل خاضع لشرط: ليس كل ما يستحيل عقلاً، يستحيل نسبة إلهية، وليس كل جواز عقلي تقبله النسبة الإلهية.... وعليه، فإن العقل مضطر، في تعامله مع هذه المواضيع، أن يستند إلى الوحي، باعتباره مصدراً للشروط المنسوبة للمواضيع الإلهية، بعيداً عن كل وصاية عقلية على مثل هذه المواضيع. لذلك قال الشيخ الأكبر في مسأله التي ذكرها في مقدمة المجلد الأول من كتابه: الفتوحات المكية:

"أما بعد فإن للعقول حداً تقف عنده من حيث ما هي مفكرة لا من حيث ما هي قابلة، فنقول في الأمر الذي يستحيل عقلاً قد لا يستحيل نسبة إلهية، كما نقول فيما يجوز عقلاً قد يستحيل نسبة إلهية"².
انتهى

ثانياً: يترتب على ما سبق تقريره، تعريف جديد للعلم، باعتباره إدراكاً لكل ما هو قابل للإدراك العقلي. أما ما هو خارج عن الإدراك العقلي، بحكم موضوعه، فإن الشعور بعدم الإدراك، والإحساس بقصور الإدراك، هو حقيقة العلم به، أي العلم بحدوده.

و-تعريف آخر لبعض الحكماء وأكثر المعتزلة:

العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله وهو النفس الناطقة التي يشير إليها كل واحد بقوله: أنا.

ز- تعريف بعض المعتزلة:

. العقل جوهر لطيف في البدن ينبعث شعاعه فيه كالسراج في البيت

عن: شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، من كتابه: "الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة" (ص98-100). نقلاً عن أحد المواقع الإلكترونية.

عرّف ابن تيمية العقل بقوله: وقد

الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، ولكنه ليس مستقلاً بذلك، فهو غريزة في النفس، وقوة "العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح القرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإذا انفرد بنفسه لم فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها، فإن عُزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أموراً حيوانية قد يكون فيها حجية ووَجْد وذوق كما باطلة" مجموع الفتاوى (3/338). للهيمة، فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة والأقوال المخالفة بالعقل يحصل

² الفتوحات المكية، المقدمة، الفصل الرابع: في معرفة التخليص والترتيب باللسان اليميني.

فالإدراك لكل مدرّك (بفتح الراء) واللا إدراك لكل ما هو " ميتا إدراك " (أي ما فوق الإدراك). وهذا ما جعل الصديق رضي الله عنه يقول: العجز عن درك الإدراك: إدراك.

ولا ينتج عن اللا إدراك لكل ما جاوز الحدّ العقلي، قصور عام في الإدراك... لأن هذا النوع من المدركات، نشهدها من حيث آثارها لا من حيث عينها... وعلى هذا: لا تحصل المعرفة من الكسب العقلي، وإنما من المجال الآخر: الوحي، بما هو المعرفة القلبية عموماً.

قال الشيخ الأكبر في الفتوحات:

"فإن قيل لك: فما هو العلم؟ فقل: درك المدرّك على ما هو عليه في نفسه، إذا كان دركه غير ممتنع. وأما ما يمتنع دركه، فالعلم به هو لا دركه، كما قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك. فجعل العلم بالله هو لا دركه، فاعلم ذلك. ولكن لا دركه من جهة كسب العقل، كما يعلمه غيره، ولكن دركه من وجوده وكرمه ووهبه كما يعرفه العارفون أهل الشهود لا من قوة العقل من حيث نظره"³. انتهى

ثالثاً: نستنتج مما سبق، أن معرفة الله تعالى، لا تتم بالعقل الكسبي النظري، إلا من حدّ الآثار... أي من حيث العلم بالوجود، أي افتقار الممكنات له، وما جاوز ذلك، فإنه من اختصاص الكشف الرباني، أي الوحي. فمعرفة الإنسان لربه تقف عند هذا الشعور (المدرّك بالعقل) بالافتقار إلى موجد ومكون... وما عدا ذلك يعجز العقل عن البحث فيه، فنضطر إلى الاستنجاد بالمعرفة السماوية، التي تقف على تماس الإدراك العقلي، لتهب لنا معرفة بالأسماء والصفات والأفعال، من باب التشبيه اللغوي (الخيال)، ومن باب أيضاً: الحقائق المنزلة (الكشف). لذلك يرى الشيخ الأكبر، في الفتوحات:

"...أن الله تعالى لا يعلم بالدليل أبداً، لكن يعلم أنه موجود، وإن العالم مفتقر إليه افتقاراً ذاتياً لا محيص له عنه البتة. قال الله تعالى: "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد"، فمن أراد أن يعرف لباب التوحيد فليُنظر في الآيات الواردة في التوحيد من الكتاب العزيز التي وحد بها نفسه، فلا أحد أعرف من الشيء بنفسه، فلتنظر بما وصف نفسه، وتساءل الله تعالى أن يفهمك ذلك، فستقف على علم إلهي لا يبلغ إليه عقل بفكره أبد الآباد"⁴. انتهى

³ الفتوحات المكية، المقدمة، الفصل الثالث: في معرفة العلم والعالم والمعلوم.

الفتوحات المكية، المقدمة، الفصل الثالث: في معرفة العلم والعالم والمعلوم.⁴

رابعاً: يظهر لنا إشكال: من كون العقل **قاصراً** عن إدراك الكثير من المواضيع، في حين أن الله تعالى أمرنا أن نتخذه إماماً في عديد من الآيات: "أولم يتفكروا" و"لقوم يتفكرون"... بل إن الإشكال يتعاضد، حين نقرب أهمية التفكير في القرآن، في حين كنا أقررنا أن المعرفة القلبية المستندة إلى الوحي، هي حقيقة الإدراك؟؟؟.

ولإزالة هذا اللبس، الذي هو في الحقيقة، فهم مغلوط لما طلبه منا الله عز وجل، نقول: إن الله تعالى، لما خلق العقل قاصراً عن الإدراكات الغيبية الإلهية، أمره بالتفكير في أن علمه بها، لا يكون إلا به، من وحيه ومصدره، لا مستقلاً بنفسه. وهذا ما غفل عنه أكثر الناس، حيث مجدوا العقل وأعلنوا استقلاله، وهذا ما عرفه أهل العرفان، فعمدوا إلى قلوبهم، ففرغوها من التعلق بما سوى الله تعالى، وجعلوها قابلة للكشف والإلهام، حاكمين بذلك على العقل بالاتباع للوحي.

قال الشيخ الأكبر في الفتوحات:

"وذلك لأن العقل خلق ساذجاً، ليس عنده من العلوم النظرية شيء، وقيل للفكر: مَيِّز بين الحق والباطل، الذي في هذه القوة الخيالية، فينظر بحسب ما يقع له، فقد يحصل في شبهة، وقد يحصل في دليل عن غير علم منه بذلك، ولكن في زعمه أنه عالم بصور الشبه من الأدلة، وأنه قد حصل على علم، ولم ينظر إلى قصور المواد التي استند إليها في اقتناء العلوم، فيقبلها العقل منه ويحكم بها، فيكون جهله أكثر من علمه بما لا يتقارب.

ثم إن الله كلف هذا العقل معرفته سبحانه ليرجع إليه فيما لا إلى غيره، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحق بقوله تعالى: "أولم يتفكروا" "لقوم يتفكرون" فاستند إلى الفكر، وجعله إماماً يقتدى به، وغفل عن الحق في مراده بالتفكير، أنه خاطبه أن يتفكر فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلا بتعريف الله، فيكشف له عن الأمر على ما هو عليه، فلم يفهم كل عقل هذا الفهم، إلا عقول خاصة الله من أنبيائه وأوليائه. يا ليت شعري هل بأفكارهم قالوا بلى، حين أشهدهم على أنفسهم في قبضة الذرية من ظهر آدم؟؟ لا والله، بل عناية، إشهادهم ذلك عند أخذه إياهم عنهم من ظهورهم، ولما رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة في معرفة الله، لم يجتمعوا قط على حكم واحد في معرفة الله، وذهب كل طائفة إلى مذهب، وكثرت القالة في الجنب الإلهي الأحمى، واجتروا غاية الجراءة على الله، وهذا كله من الابتلاء الذي ذكرناه من خلقه الفكر في الإنسان، وأهل الله افتقروا إليه في ما كلفهم من الإيمان به في معرفته، وعلموا أن المراد منهم رجوعهم إليه

في ذلك، وفي كل حال، فمنهم القائل: سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته، ومنهم من قال: العجز عن درك الإدراك إدراك، وقال صلى الله عليه وسلم " لا أحصي ثناء عليك " وقال تعالى: "ولا يحيطون به علماً"، فرجعوا إلى الله في المعرفة به، وتركوا الفكر في مرتبته، ووفوه حقه، لم ينقلوه إلى ما لا ينبغي له التفكير فيه.

وقد ورد النهي عن التفكير في ذات الله، والله يقول: "ويحذركم الله نفسه" فوهيم الله من معرفته ما وهيم، وأشهدهم من مخلوقاته ومظاهره ما أشهدهم، فعلموا أنه ما يستحيل عقلاً من طريق الفكر لا يستحيل نسبة إلهية...⁵ أنتهى

خامساً: كيف يعرف الله؟ يجيب الشيخ الأكبر على هذا السؤال في الفتوحات بقوله:

"..... إن الإنسان إنما يدرك المعلومات كلها بإحدى القوى الخمس:

القوة الحسية، وهي على خمس، الشم والطعم واللمس والسمع والبصر، والبصري سبحانه ليس بمحسوس، أي ليس بمدرك بالحس عندنا في وقت طلبنا المعرفة به، فلم نعلمه من طريق الحس.

وأما القوة الخيالية، فإنها لا تضبط إلا ما أعطها الحس: إما على صورة ما أعطها، وإما على صورة ما أعطاه الفكر من حمله بعض المحسوسات على بعض، وإلى هنا انتهت طريقة أهل الفكر في معرفة الحق، فهو لسانهم ليس لساننا، وإن كان حقاً، ولكن ننسبه إليهم، فإنه نقل عنهم، فلم تبرح هذه القوة كيفما كان إدراكها عن الحس البتة، وقد بطل تعلق الحس بالله عندنا، فقد بطل تعلق الخيال به.

وأما القوة المفكرة، فلا يفكر الإنسان أبداً إلا في أشياء موجودة عنده، تلقاها من جهة الحواس وأوائل العقل، ومن الفكر فيها في خزانة الخيال، يحصل له علم بأمر آخريه وبين هذه الأشياء التي فكر فيها مناسبة، ولا مناسبة بين الله وبين خلقه، فإذن لا يصح العلم به من جهة الفكر، ولهذا منعت العلماء من الفكر في ذات الله تعالى.

الفتوحات المكية، الباب السابع: في معرفة بدء الجسوم الإنسانية.⁵

وأما القوة العقلية فلا يصح أن يدركه العقل، فإن العقل لا يقبل إلا ما علمه بديهية أو ما أعطاه الفكر، وقد بطل إدراك الفكر له، فقد بطل إدراك العقل له من طريق الفكر، ولكن مما هو عقل، إنما حده أن يعقل ويضبط ما حصل عنده، فقد يهبه الحق المعرفة به فيعقلها، لأنه عقل لا من طريق الفكر، هذا ما لا نمنعه، فإن هذه المعرفة التي يهبها الحق تعالى لمن شاء من عباده لا يستقل العقل بإدراكها، ولكن يقبلها، فلا يقوم عليها دليل ولا برهان، لأنها وراء طور مدارك العقل.

ثم هذه الأوصاف الذاتية لا تمكن العبارة عنها، لأنها خارجة عن التمثيل والقياس، فإنه ليس كمثله شيء، فكل عقل لم يكشف له من هذه المعرفة شيء، يسأل عقلاً آخر قد كشف له منها، ليس في قوة ذلك العقل المسؤول العبارة عنها ولا تمكن، ولذلك قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك. ولهذا الكلام مرتبتان، فافهم.

فمن طلب الله بعقله من طريق فكره ونظره فهو تائه، وإنما حسبه التهيؤ لقبول ما يهبه الله من ذلك، فافهم.

وأما القوة الذاكرة، فلا سبيل أن تدرك العلم بالله، فإنها إنما تذكر ما كان العقل قبل علمه، ثم غفل أو نسي، وهو لم يعلمه، فلا سبيل للقوة الذاكرة إليه، وانحصرت مدارك الإنسان بما هو إنسان وما تعطيه ذاته، وله فيه كسب، وما بقي إلا تهيؤ العقل لقبول ما يهبه الحق من معرفته جل وتعالى، فلا يعرف أبداً من جهة الدليل إلا معرفة الوجود، وإنه الواحد المعبود لا غير، فإن الإنسان المدرك لا يتمكن له أن يدرك شيئاً أبداً إلا ومثله موجود فيه، ولولا ذلك ما أدركه البتة ولا عرفه، فإذا لم يعرف شيئاً إلا وفيه مثل ذلك الشيء المعروف، فما عرف إلا ما يشبهه ويشاكله، والباري تعالى لا يشبه شيئاً، ولا في شيء مثله، فلا يعرف أبداً.

ومما يؤيد ما ذكرناه أن الأشياء الطبيعية لا تقبل الغذاء إلا (مما) شاكلها، فأما ما لا يشاكلها فلا تقبل الغذاء منه قطعاً. ألا ترى النفس لا تقبل من العقل إلا ما تشاركه فيه وتشاكله، وما لم تشاركه فيه لا تعلمه منه أبداً، وليس من الله في أحد شيء، ولا يجوز ذلك عليه بوجه من الوجوه، فلا يعرفه أحد من نفسه وفكره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملائمة الأعلى يطلبونه كما يطلبونه أنتم" فإخبر عليه السلام بأن العقل

لم يدركه بفكره ولا بعين بصيرته، كما لم يدركه البصر، وهذا هو الذي أشرنا إليه فيما تقدم من بابنا، فله الحمد على ما ألهم، وأن علمنا ما لم نكن نعلم، وكان فضل الله عظيماً⁶. انتهى

سادساً: انطلاقاً مما سبق، نقول: أن كل كلامنا سوف يكون عن الله تعالى، لا باعتباره ذاتاً، وإنما باعتبار ألوهته. ونحن نفرق بين الذات، هويتها وعين وجودها، التي منعنا من التحدث فيها، ولا نستطيع العلم بها، لأنها خارج دائرة المعلومات، والمعقولات والمتخيلات والمدركات، وبين الألوهة، باعتبارها نسبة للذات، وأول تعين لها: أي أول مراتبها المعرفية في دائرة العقل⁷.

والألوهة، هي الطالبة لإيجاد المألوه، لأنها هي "سبب" الإيجاد، وشرطه. وعند بروز المألوه لعينه، تبادلاً الطلب في عملية الخلق المتجدد على الدوام، (كل يوم هو في شأن) وإذا ما ارتفع هذا السر (الطلب المزدوج) انتفت الألوهة.

يقول الشيخ الأكبر:

"الألوهة مرتبة للذات لا يستحقها إلا الله، فطلبت مستحقها ما هو طلبها، والمألوه يطلبها وهي تطلبه، والذات غنية عن كل شيء، فلو ظهر هذا السر الرابط لما ذكرنا لبطلت الألوهة، ولم يبطل كمال الذات، وظهرنا بمعنى: زال، كما يقال: ظهرنا عن البلد أي ارتفعوا عنه، وهو قول الإمام⁸: للألوهية سر لو ظهر لبطلت الألوهية"⁹. انتهى

ويقول في موضع آخر من مقدمة الفتوحات، في الجزء الأول:

⁶ الفتوحات المكية، الباب الثالث: في تنزيه الحق تعالى عما في طيّ الكلمات.
⁷ كثيراً ما يعتمد الباحثون في الفلسفة والتصوف الإسلامي، إلى إرجاع أصولهما إلى الحضارات القديمة... فمن ذلك التركيز على الأصول الهرمسية (اليونانية المصرية) للعرفان الإسلامي، نظراً لأن الثقافة الهرمسية تحتوي على كثير من النظريات، نجدها مكررة، وإن بشكل مختلف نسبياً، عند المتصوفة المسلمين. والحقيقة، أن وحدة المصدر المعرفي، في مثل هذه المواضيع، تجعل من التشابه في النظريات، شيئاً عادياً. فالأصل المعرفي: هو الوحي، وإن اختلفت المصطلحات من خلال الترجمة. فكلمة إله، لا تعني غالباً: التصور التعددي للآلهة، وإنما تعبير عن بعض القوى الروحانية، مثل: الملك (الملائكة) والروح، وفي بعض الأحيان تعني: أسماء إلهية، مثل الأسماء الحسنى عندنا.

ولذلك نجد في النظرية الهرمسية (كتاباتها منذ القرن 2 بعد الميلاد) تقسيماً لفكرة الألوهة: إله غير معقول، (وهو الذات المبطنة في غيب الغيب)، وإله معقول، صدر عنه العالم، (وهو الألوهية وما تطلبته من تعينات).

⁸ المقصود بالإمام: سهل بن عبد الله التستري رحمه الله (ت 283هـ).

انظر: شرح الكلمات الصوفية والرد على ابن تيمية، من كلام الشيخ الأكبر معي الدين ابن العربي لمحمود محمود الغراب. ص 212 وما بعدها.

⁹ مقدمة الفتوحات، الفصل الرابع في معرفة التخليص والترتيب باللسان اليمني: المسألة رقم 24.

"المتوجه على إيجاد كل ما سوى الله تعالى هو الألوهة بأحكامها ونسبها وإضافاتها وهي التي استدعت الآثار، فإن قاهراً بلا مقهور وقادراً بلا مقدور: صلاحية ووجوداً وقوة وفعلاً محالاً"¹⁰
انتهى

ونحن نؤكد على أن الألوهة هي منطلقنا، وأنها هي ساحة تفكيرنا، وأنها لا تعدو أن تكون مرتبة للذات، وهذه المرتبة هي عقلية، معرفية، أدركتها عقولنا، لعجزها عن إدراك الذات.... فكل إضافة أو حكم أو نسبة لله، إنما هي للألوهة، وليس للذات، وكل تحليلنا لا يخرج عن المعرفة. ومنطلق ذلك كله، السنة النبوية، من حديث: كان الله ولا شيء معه.

يقول ابن العربي:

" فأقول بما أعطاه الكشف الاعتصامي: أن الله كان ولا شيء معه، إلى هنا انتهى لفظه عليه السلام، وما أتى بعد هذا فهو مدرج فيه، وهو قولهم: وهو الآن على ما عليه كان، يريدون في الحكم، فالآن وكان: أمران عائدان علينا، إذ بنا ظهراً وأمثالهما، وقد انتفتت المناسبة، والمقول عليه: كان الله ولا شيء معه، إنما هو الألوهة لا الذات، وكل حكم يثبت في باب العلم الإلهي للذات إنما هو للألوهية، وهي أحكام نسب وإضافات وسلوب، فالكثرة في النسب لا في العين، وهنا زلت أقدام من شرك، بين من يقبل التشبيه وبين من لا يقبله عند كلامهم في الصفات، واعتمدوا في ذلك على الأمور الجامعة التي هي الدليل، والحقيقة والعلة والشرط، وحكموا بها غائباً وشاهداً، فأما شاهداً فقد يسلم وأما غائباً فغير مسلم."¹¹ انتهى

ولذلك، لا يمكن، والحال هذه، أن نتكلم عن الله تعالى ونصفه بعلة العلل، لأنه لا مناسبة أصلاً بين الذات وبين الخلق كله. لأن الذات غنية بذاتها، لا ترتبط بمعلول، أما الألوهة، فشرطها وجود المألوه، لأنها تقبل الإضافات، بخلاف الذات. ومن هنا قال الشيخ الأكبر:

" من وجب له الكمال الذاتي والغنى الذاتي لا يكون علة لشيء، لأنه يؤدي كونه علة توقفه على المعلول، والذات منزهة عن التوقف على شيء، فكونها علة محال، لكن الألوهة قد تقبل الإضافات، فإن قيل إنما يطلق الإله على من هو كامل الذات غني الذات لا يريد الإضافة ولا النسب، قلنا: لا مشاحة في اللفظ، بخلاف العلة، فإنها في أصل وضعها ومن معناها تستدعي

¹⁰ ن.م.

¹¹ ن.م.

معلولا، فإن أريد بالعلة ما أراد هذا بالإله فسلم، ولا يبقى نزاع في هذا اللفظ إلا من جهة الشرع، هل يمنع أو يبيح أو يسكت.¹² انتهى

سائعا: أية مناسبة بين الحق الواجب الوجود بذاته، وبين الممكن، وإن كان واجباً به، عند من يقول بذلك؟

سؤال طرحه الشيخ الأكبر، وأجاب عليه:

"... لا يصح أن يجتمع الخلق والحق في وجه أبداً من حيث الذات، لكن من حيث أن هذه الذات منعوتة الألوهة فهذا حكم آخر تستقل العقول بإدراكه، وكل ما يستقل العقل بإدراكه عندنا يمكن أن يتقدم العلم به على شهوده، وذات الحق تعالى بائنة عن هذا الحكم، فإن شهودها يتقدم على العلم بها، بل تُشهد ولا تُعلم، كما أن الألوهة تُعلم ولا تُشهد، والذات تقابلها، وكم من عاقل ممن يدعي العقل الرصين من العلماء النظاريقون أنه حصل على معرفة الذات من حيث النظر الفكري وهو غالط في ذلك، وذلك لأنه متردد بفكره بين السلب والإثبات، فالإثبات راجع إليه، فإنه ما أثبت للحق الناظر إلا ما هو الناظر عليه من كونه عالماً قادراً مريداً إلى جميع الأسماء، والسلب راجع إلى العدم والنفى، لا يكون صفة ذاتية، لأن الصفات الذاتية للموجودات إنما هي ثبوتية، فما حصل لهذا المفكر المتردد بين الإثبات والسلب من العلم بالله شيء".¹³ انتهى

وهذا النص، يؤكد لنا، أن لا مناسبة بين الله تعالى (ذاته) وبين العالم (الخلق). ويفسر الشيخ الأكبر هذه المسألة تفسيراً رائعاً، فيقول:

"فلنقل إن الحقائق أعطت لمن وقف عليها أن لا يتقيد وجود الحق مع وجود العالم بقبلية ولا معية، ولا بعدية زمانية، فإن التقدم الزماني والمكاني في حق الله ترمي به الحقائق في وجه القائل به على التحديد، اللهم إلا أن قال به من باب التوصيل، كما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، ونطق به الكتاب، إذ ليس كل أحد يقوى على كشف هذه الحقائق، فلم يبق لنا إلا أن نقول :

أن الحق تعالى موجود بذاته لذاته، مطلق الوجود غير مقيد بغيره، ولا معلول عن شيء ولا علة لشيء، بل هو خالق المعلولات والعلل والملوك القدوس الذي لم يزل، وإن العالم موجود بالله تعالى لا بنفسه ولا لنفسه، مقيد الوجود بوجود الحق في ذاته، فلا يصح وجود العالم البتة إلا بوجود

¹² ن.م.

¹³ ن.م.

الحق. وإذا انتفى الزمان عن وجود الحق وعن وجود مبدأ العالم فقد وجد العالم في غير زمان، فلا نقول من جهة ما هو الأمر عليه: إن الله موجود قبل العالم، إذ قد ثبت أن القبل من صيغ الزمان، ولا زمان، ولا إن العالم موجود بعد وجود الحق، إذ لا بعدية، ولا مع وجود الحق، فإن الحق هو الذي أوجده وهو فاعله ومخترعه، ولم يكن شيئاً، ولكن كما قلنا: الحق موجود بذاته، والعالم موجود به. فإن سأل سائل ذو وهم: متى كان وجود العالم من وجود الحق؟ قلنا: متى، سؤال زماني، والزمان من عالم النسب، وهو مخلوق لله تعالى، لأن عالم النسب له خلق التقدير لا خلق الإيجاد، فهذا سؤال باطل، فانظر كيف تسأل، فإياك أن تحجبك أدوات التوصيل عن تحقيق هذه المعاني في نفسك وتحصيلها، فلم يبق إلا وجود صرف خالص لا عن عدم وهو وجود الحق تعالى، ووجود عن عدم عين الموجود نفسه، وهو وجود العالم، ولا بينية بين الوجودين ولا امتداد إلا التوهم المقدر الذي يحيله العلم ولا يبقى منه شيئاً. ولكن وجود مطلق ومقيد، وجود فاعل ووجود منفعل. هكذا أعطت الحقائق والسلام".¹⁴ انتهى

ثامناً: ثمة تعريفات أساسية لا بد من توضيحها، في هذه المفاهيم، من ذلك:

* افتقار الممكن للواجب، واستغناء الواجب عن الممكن يسمى: إلهاء. قال ابن العربي:

"افتقار الممكن للواجب بالذات، والاستغناء الذاتي للواجب دون الممكن، يسمى إلهاء".

* تعلق الألوهة بالحقائق، وجوداً أو عدماً (أي في الأعيان الثابتة) يسمى: علماً. قال ابن العربي:

"وتعلقها بنفسها وبحقائق كل محقق وجوداً كان أو عدماً يسمى علماً"

* تعلق الألوهة بالممكنات من حيث حالة الإمكان، يسمى: اختياراً. قال ابن العربي:

"تعلقها بالممكنات من حيث ما هي الممكنات عليه يسمى اختياراً"

* تعلق الألوهة بالممكن قبل تكونه (أي في علم الله) يسمى: مشيئة. قال ابن العربي:

"تعلقها بالممكن من حيث تقدم العلم قبل كون الممكن يسمى مشيئة"

* تعلق الألوهة بالممكن من حيث ترجيح أحد الجائزين (الإمكان أو العدم)، يسمى: إرادة. يقول

ابن العربي:

¹⁴ مقدمة الفتوحات، الفصل الثاني في معرفة الحركات التي تتميز بها الكلمات وهي الحروف الصغار.

"تعلقها بتخصيص أحد الجائزين للممكن على التعيين يسمى إرادة"

* تعلق الألوهة بإيجاد الكون يسمى: قدرة. يقول ابن العربي:

"تعلقها بإيجاد الكون يسمى قدرة"

* تعلق الألوهة بإسماع المكون لكونه، يسمى: أمراً. يقول ابن العربي:

"تعلقها بإسماع المكون لكونه يسمى أمراً وهو على نوعين بواسطة وبلا واسطة، فبارتفاع الوسائط لا بد من نفوذ الأمر، وبالواسطة لا يلزم النفوذ، وليس بأمر في عين الحقيقة إذ لا يقف لأمر الله شيء".

* تعلق الألوهة بإسماع المكون لكونه من أجل صرفه عن كونه، يسمى: نهياً. يقول ابن العربي:

"تعلقها بأسماع المكون لكونه أو كونه ما يمكن أن يصدر منه يسمى نهياً، وصورته في التقسيم صورة الأمر"

* تعلق الألوهة بتحصيل ما هي عليه، أو غيرها، يسمى: إخباراً واستفهاماً ودعاءً وكلاماً. قال ابن العربي:

"تعلقها بتحصيل ما هي عليه، هي أو غيرها من الكائنات، أو ما في النفس، يسمى إخباراً، فإن تعلقت بالكون على طريق أي شيء يسمى استفهاماً، فإن تعلقت به على جهة النزول إليه بصيغة الأمر يسمى دعاء، ومن باب تعلق الأمر إلى هذا يسمى كلاماً"

* تعلق الألوهة بالكلام، باشتراط العلم به يسمى: فهماً، وبغير اشتراط العلم به يسمى: سمعاً. يقول ابن العربي:

"تعلقها بالكلام من غير اشتراط العلم به يسمى سمعاً، فإن تعلقت وتبع التعلق الفهم بالمسموع يسمى فهماً"

* تعلق الألوهة بكيفية النور، يسمى بصراً ورؤية. يقول الشيخ الأكبر:

"تعلقها بكيفية النور وما يحمله من المرئيات يسمى بصراً ورؤية".

* تعلق الألوهة بإدراك كل مدرك، بحيث لا يصح تعلق من هذه التعلقات كلها إلا به يسمى: حياة. يقول ابن العربي:

"تعلقها بإدراك كل مدرك الذي لا يصح تعلق من هذه التعلقات كلها إلا به يسمى حياة".

وهذه الكثرة لا يجب أن تحجب عنا الوحدة الذاتية. يقول:

"والعين في ذلك كله واحدة تعددت التعلقات لحقائق المتعلقات والأسماء للمسميات".

¹⁵ انتهى

¹⁵ مقدمة الفتوحات، الفصل الرابع في معرفة التخليص والترتيب باللسان اليمني.

الفصل الثاني

حقيقة الحقائق

إن حقيقة الشيء عندهم (العارفون): اسم إلهي هو مبدأ لتعيين ذلك الشيء ووجوده. وذلك الشيء كالظل والعكس لذلك الاسم. والاسم واسطة الفيوض بين الحضرة القدسية وبين ذلك الشيء. كما أن الشأن الذاتي واسطة بين ذلك الاسم المقدس وبين الذات المنزه العلي، على ما جرت عليه العادة الإلهية من توسط الوسائط ورعاية المناسبات بين المفيض والمستفيض.

الشيخ محمد بك الأوزبكي

رسالة: عطية الوهاب الفاصلة بين الخطأ والصواب، تأليف الشيخ محمد بك. في كتاب الرحمة الهابطة في أحوال الإمام الرباني. وقف الإخلاص مكتبة الحقيقة تركيا.

بعد اتفاننا على مجموعة من المفاهيم الأولية، نتجه، بحول الله، إلى تبين معنى: حقيقة الحقائق، من حيث أصل وجودها، وخصائصها.

وفي البداية، لا بدّ من التذكير، أننا نتحرك في مساحة معرفية صرفة. فلا يمكن أن يؤخذ علينا إلا ما يؤخذ على أهل العرفان والشهود. وهؤلاء لا يتكلمون عن الله تعالى، إلا من خلال المراتب والتعينات التي عقلتها عقولهم وشهدتها قلوبهم، وحاشى لله أن يكونوا تحدّثوا عن الذات الإلهية الصرفة.

فأول شيء وجب تبينه هو: أننا ننطلق من تعيين أول للذات المطلقة، تعيين نعقله بفعل جمعه لكل الصفات والأسماء والنسب، قبل ظهورها أصلاً. تعيين، فرض العقل علينا، الإقرار بكماله الذاتي

المطلق، وبكل صفات السلب الخاصة بواجب الوجود: "ليس كمثله شيء"¹⁶. تعيّن، وصفه الأمير عبد القادر في كتابه "المواقف" بـ: "التعين الأول العلمي الإجمالي الذاتي". وهو تعيّن أولي للذات، أطلق عليه العالمون بالله، اسم: الأحدية. قال أيمن حمدي، في قاموسه للمصطلحات الصوفية¹⁷:

"الأحدية: هي مرتبة ظهور الحق بمرتبة تفرّده في الوجود حيث لا وجود لشيء معه سبحانه وتعالى.

والأحدية هي تجليه بذاته لذاته عن ذاته، مع محو جميع النسب من الأسماء والصفات والكثرة والغيرية". انتهى

وقد عبّر صاحب رسالة: كشف الستر لأهل السرّ، عن هذه الرتبة وهذا التعيّن للذات الإلهية، في الساحة المعرفية، فقال:

"وكان الحق سبحانه في كماله الذاتي، يرى ذاته في ذاته، رؤية ذاتية، غير زائدة على ذاته ولا متميزة عنها، لا في العقل والتعقل، ولا في الواقع والخارج، ويرى أسماءه وصفاته ونعوته وتجلياته، وأفعاله وآياته أيضاً، كذلك نسبا ذاتية، لها شؤون عينية غيبية مستهلكة الأحكام، تحت قهر الأحدية، غير ظاهرة الآثار، ولا متميّزة الأعيان بعضها عن بعض، منطمسة في حيلة جلال الصمدية، مضمحلة في أنوار الواحدية، كائنة في عين الفردية، وكيونتها فيها وكمونها ككينونة النصفية، والثلثية والرابعة وغيرها من النسب في الواحد. هذا من حيث كماله الذاتي الأحدي..."¹⁸ انتهى

ونكاد نجد إجماعاً على هذا المفهوم عند كل العارفين بالله والمهتمين بالمفاهيم العرفانية¹⁹، لأن لها منطلقاً واحداً هو حديث الرسول الأكرم، صلى الله عليه وسلّم، لابن الحصين، حيث قال:

¹⁶ قال الشيخ الأكبر في كتابه: "كنه ما لا بدّ للمريد منه"، ناصحاً إياه:

"وأما تنزيهه، فهو أكد عليك، من أجل المشبهة والمجسمة الظاهرين في هذا الزمان، فاعقد على قوله: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" وحسبك هذا. فكل وصف يناقض هذه الآية مردود، ولا تزد ولا تبرح من هذا الموطن".

¹⁷ أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية: دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء، ط. 2000، دارقبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

¹⁸ رسالة كشف الستر لأهل السرّ، نسبت خطأ للشيخ الأكبر، وهي ليست من تأليفه، وإنما هي شرح مختصر لفقرة من فص إسماعيل من كتاب "فصوص الحكم" للشيخ الأكبر. وهو ما أكدّه الشيخ عبد الباقي مفتاح.

انظر: الرسالة الوجودية، المنسوبة خطأ للشيخ الأكبر، وهي لأوحد الدين البلياني (توفي سنة 684هـ).

¹⁹ انظر: معجم اصطلاحات الصوفية، تصنيف عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق وتقديم وتعليق: د. عبد العال شاهين، ط. 1 سنة 1992، دار المنار، القاهرة.

"كان الله ولم يكن شيء غيره.."20.

يقول ص: 51، في الهامش، معلقاً عن تعريف الكاشاني لمصطلح الأحد:
"يتفق الكاشاني في تعريفه للأحد مع ما جاء في كتب الصوفية. انظر التعريفات للجرجاني وكشاف اصطلاحات الفنون
للهاموي.... معجم مصطلحات الصوفية للدكتور عبد المنعم حفي... ودستور العلماء للقاضي عبد النبي عبد الرسول الأحمـد كرى...."
على أن بعض العارفين، ذكروا مراتب عديدة للتعينات الأزلية، من باب التدقيق، كما هو الحال مع الشيخ محمد بك، الذي
قال:

"وعند الشيخ أحمد (السرهندي النقشبندي) رحمه الله باعتبار الظهور: مراتب: مرتبة اللاتين وهو مرتبة الذات البحث، وعند
الصوفية يطلق عليه هذه الأسماء: الأحدية الذاتية، والأحدية المطلقة، والأحدية الصرفة، وعالم اللاهوت، وأزل الأزل، وخفاء الخفاء،
وبطون البطون، وغيب الهوية. والثاني: مرتبة التعين الوجودي والحبي. والثالث: مرتبة الحياة، والرابع: مرتبة العلم الجملي، وهي مرتبة
الوحدة، والشأن الفصلي، وهو الواحدية، والأعيان الثابتة، وهي مرتبة الأسماء عند القوم، وعالم الجبروت...."
انظر: رسالة: عطية الوهاب الفاصلة بين الخطأ والصواب، تأليف الشيخ محمد بك كتاب الرحمة الهابطة في أحوال الإمام
الرباني. وقف الإخلاص مكتبة الحقيقة تركيا. ص 181/179

20 رواه البخاري بلفظ: "كان الله ولم يكن شيء غيره.." في كتاب بدء الخلق.

قال سعيد عبد الفتاح في: رسائل ابن عربي، معلقاً على هذا الحديث:

"ورواه ابن حبان والحاكم، وابن أبي شيبه عن بريدة رضي الله عنه، وفي رواية: ولم يكن شيء قبله. قال القاري: ثابت، ولكن
الزيادة وهي قوله: وهو الآن على ما عليه فتأويلها أنه تعالى ما تغير بحسب ذات الكمال وصفات الجلال على ما كان عليه. انظر العجلوني
في كشف الخفاء: حديث رقم 2-11، ج 2 ص 130. وفيه تفصيل."

رسائل ابن عربي، القطب والنبقاء وعقلة المستوفز، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح، نشر: مؤسسة الإنتشار العربي. عقلة
المستوفز ص 78.

ويرى الشيخ الأكبر في جوابه على السؤال الثالث والعشرين من أسئلة الحكيم، أن الزيادة التي نسبها القاري للمتصوفة، هي
"من فعل علماء الرسوم من المتكلمين، ممن لا علم له بعلم "كان". يقول الشيخ:

"السؤال الثالث والعشرون: ما معنى قوله عليه السلام: كان الله ولا شيء معه؟

الجواب: لا تصحبه الشئئية، ولا تطلق عليه، وكذلك هو ولا شيء معه، فانه وصف ذاتي له، سلب الشئئية عنه، وسلب معية
الشئئية، لكنه مع الأشياء وليست الأشياء معه، لأن المعية نابعة للعلم، فهو يعلمنا فهو معنا، ونحن لا نعلمه فلسنا معه.
فاعلم أن لفظة: "كان" تعطي التقييد الزمني، وليس المراد هنا به ذلك التقييد، وإنما المراد به الكون الذي هو الوجود،
فتحقيق "كان" أنه حرف وجودي لا فعل يطلب الزمان، ولهذا لم يرد ما يقوله علماء الرسوم من المتكلمين، وهو قولهم: وهو الآن
على ما عليه كان. فهذه زيادة مدرجة في الحديث ممن لا علم له بعلم كان، ولا سيما في هذا الوضع، ومنه كان الله عفوفاً غفوراً وغير
ذلك مما اقترنت به لفظة كان. ولهذا سماها بعض النحاة هي وأخواتها حروفاً تعمل عمل الأفعال، وهي عند سيبويه حرف وجودي وهذا
هو الذي تعقله العرب وان تصرفت تصرف الأفعال، فليس من أشبه شيئاً من وجه ما يشبهه من جميع الوجوه، بخلاف الزيادة بقولهم:
"وهو الآن" فان "الآن" تدل على الزمان الفاصل بين الزمانين الماضي والمستقبل، ولهذا قالوا في "الآن" إنه حد الزمانين، فلما كان مدلولها
الزمان الوجودي لم يطلقه الشارع في وجود الحق، وأطلق "كان" لأنه حرف وجودي، وتخيل فيه الزمان لوجود التصرف من "كان ويكون"،
فهو كائن ومكُون، كقتل يقتل فهو قاتل ومقتول، وكذلك "كن" بمنزلة "أخرج". فلما رأوا في الكون هذا التصرف الذي يلحق الأفعال
الزمانية تخيلوا أن حكمها حكم الزمان، فأدرجوا الآن تنمة للخبر، وليس منه، فالمحقق لا يقول قط: وهو الآن على ما عليه كان، فإنه لم
يُرد، ويقول على الله ما لم يطلقه على نفسه، لما فيه من الإخلال بالمعنى الذي يطلبه حقيقة وجود الحق، خالق الزمان، فمعنى ذلك: الله
موجود ولا شيء معه، أي ما ثم من وجوده واجب لذاته غير الحق، والممكن واجب الوجود به، لأنه مظهره، وهو ظاهر به، والعين الممكنة
مستورة بهذا الظاهر فيها، فاتصف هذا الظهور والظاهر بالإمكان. حكم عليه به عين المظهر الذي هو الممكن، فاندرج الممكن في واجب
الوجود لذاته عيناً، واندرج الواجب الوجود لذاته في الممكن حكماً، فتدبر ما قلناه....."

ونلاحظ أن الشيخ الأكبر كثيراً ما ينطلق من هذا الحديث، عند ذكره البدايات الأولى، وفي غيرها من المواضيع... كما ورد في الفتوحات المكيّة، الفصل الأول من الباب 371 من "الفتوحات المكيّة"، حيث قال:

"... كان الله ولا شيء معه... فأحبّ أن يعرف ليجود على العالم بالعلم به عز وجل... فلمّا اتصف لنا بالمحبة، والمحبة حكم يوجب رحمة الموصوف بها بنفسه، ولهذا يجد المتنفس راحة في تنفسه، فبروز النفس من المتنفس عين رحمته بنفسه. فما خرج عنه تعالى إلا الرحمة التي وسعت كل شيء، فانسحبت على جميع العالم... انتهي

وفي الباب السادس من الفتوحات، في بسطه للباب يقول:

"كان الله ولا شيء معه... فلما أراد وجود العالم وبدأه على حد ما علمه بعلمه بنفسه، انفعل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تجل من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية... انتهي

وفي كتابه: عقلة المستوفز، يقول الشيخ الأكبر:

"كان الله ولا شيء معه... فتجلّى الحق بنفسه لنفسه بأنوار السبحات الوجيهية، من كونه عالماً مريداً، فظهرت الأرواح المهيمية من الجلال والجمال، وخلق في الغيب المستور الذي لا يمكن كشفه لمخلوق، العنصر الأعظم، وكان هذا الخلق دفعة واحدة من غير ترتيب سببي، أو على ترتيب نسبي لا سبيل إلى ذلك..."²¹ انتهى

ويظهر لنا من خلال هذه النصوص، أن حديث: كان الله ولا شيء معه، يؤسس لحقيقة أولية، تعيّن من باطن غيب الذات الإلهية، وهي أول حقيقة يمكن للمعرفة الإنسانية أن تدركها، وهي منطلق قصّة الخلق وأطوار النشأة في الذهنية الإنسانية... ولا نستطيع أن نعقل ما وراءها... فقد كانت

رسائل ابن عربي، القطب والنقباء وعقلة المستوفز، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح، نشر: مؤسسة الانتشار العربي، عقلة²¹
المستوفز، ص 79.

في حالة الخفاء المطلق والكمون التام، تماما كما عبّر عنه لفظ: الكنز المخفي²²، حيث شاع لدى العارفين بالله في شكل حديث، لم يثبت إلا كشافا²³.

ويربط الشيخ الأكبر بين الحديثين، ويعتبرهما: وحدة أولية معرفية، منطلق كل فهم للخلق والنشأة. يقول صاحب رسالة كشف الستر:

".. لأن الأسماء الإلهية كانت في قبض قهر الأحدىّة الجمعية الإلهية الذاتية، أحدىّة في الحضرة الأحدىّة، لا ظهور لها لعدم مظاهرها، وهي العوالم، وكلّها عالم: "كان الله ولا شيء معه" وكانت كثرة الأسماء مستهلكة مكمونة مجملة في أحدىّة عين الذات، ولسان تعيّنه بكنى حرف التاء [كنت/ فأحببت]، وهو تعيّنه في ذات اللاهوت، كنزا جامعا لجواهر حقائق الأسماء والمسميات، إذ الكنز ذهب وفضّة وجواهر مجتمعة في الغيب، فالذهب صورة الذات، والفضة صورة الصفات، والكنز مخفي عن الأغيار، فأحب الحق بمشيئته من حيث الأسماء أن يعطيها التحقق في أعيانها بالوجود والإيجاد، وتحقق في حقائقها للشهود والإشهاد على رؤوس الأشهاد، كما قال سبحانه: "كنت كنزا مخفيا لا أعرف، فأحببت أن أعرف"، أي أن يعرفني كل تعيّن من تعيّناتي في مظاهري ومجالي ومراتي،

²² قال الجرجاني في كتابه التعريفات:

"الكنز المخفي: هو الهوية الأحدىّة المكنونة في الغيب، وهو أبطن كلّ باطن."

²³ روى أبو السعود في تفسيره الآيات 190-200 من سورة آل عمران:

"والغاية القصوى من الخلق على ما نطق به عز وجل: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) أي ليعرفون كما أعرب عنه قوله عليه الصلاة والسلام: يقول الله تعالى: «كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِأَعْرَفَ» وإنما طريقها النظر والتفكير فيما ذكر من شؤونه تعالى". انتهى

وقد نفى كثير من العلماء أن يكون هذا الحديث من كلام النبي عليه السلام، مثل ابن تيمية وقال: ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعرف له سند صحيح، ولا ضعيف، وتبعه في هذا الحكم الحافظ ابن حجر في اللآلئ والسيوطي والزرکشي، وغيرهم، ولكن القاري قال: لكن معناه صحيح ومستفاد من قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) أي ليعرفوني، كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما، وقد اعتمد الصوفية هذا الحديث وقرروه في كتبهم وأصلوا منه الأصول والقواعد. وذكره العجلوني، في كشف الخفاء، تحت رقم: 2016، في المجلد 2 صفحة 132.

إلا أن الشيخ الأكبر، في عقلة المستوفز، ينسب هذا الحديث إلى أحد الأنبياء، حين سأل الله تعالى: لم خلقت الخلق؟ فقال الله تعالى لهذا النبي: كنت كنزا مخفيا... الحديث... وقد صحّ هذا الحديث عند الشيخ كشافا، فاعتمده.

انظر: رسائل ابن عربي، القطب والنقباة وعقلة المستوفز، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح، نشر: مؤسسة الإنتشار العربي، عقلة المستوفز ص 78.

التي ليست ذات الألوهية، بل بسببها يظهر السرّ الكامل بالتجلي الحق، التجلي التعرّفي، في قوله: "فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق وتعرّفت إليهم بالنعم، في عرفوني"....²⁴ انتهى

وهذا النص، على قدر كبير من الثراء المعرفي، حيث يبيّن لنا مجموعة من المفاهيم، تتحد لتكوّن حقيقة، نسعى إلى فهمها واستيعابها:

أولاً: إن مرتبة الأحدية، هي حضرة يحتوي على حضرات الأسماء والصفات... وهي عالم جامع مثل الكنز، الذي يجمع صنوف الذهب (الذات) والفضة (الصفات)، ومستهلك في كمون الذات وغيرها... حضرة جامعة لكل شيء في كل شيء بكل شيء..

ثانياً: إن حضرات الأسماء والصفات كانت كامنة مختفية في حضرة الغيب، غير متحقق مظاهرها. وكانت مشيئة الله تعالى هي إظهار هذه الحضرات، بإظهار تحققها في أعيانها بالوجود والإيجاد، أي شاء الله أن يظهر بحقيقة تختلف عن حقيقة الأحديّة الأولى، حقيقة جديدة، هي حقيقة الواحدية، أو الحقيقة الإسمائية، التي سوف تتعيّن وتظهر في أعيانها (أصول أعيانها) بالكون والوجود.

ثالثاً: إنّ سبب الظهور والتجلي للأسماء، هو إرادة الله تعالى أن يُعرف، في كل مراتبه ومظاهره ومجاليه، من قبل التعينات المختلفة للأسماء والصفات، لا من قبل الذات نفسها. "بل بسببها، يظهر السرّ الكامل بالتجلي الحق، التجلي التعرّفي".. فالله سبحانه وتعالى أراد وأحبّ أن يوجد حقائق مختلفة المراتب، ولها تعينات مختلفة نسبة للذات، قصد إقامة "حركية تعرّف" بينها لألوهيته...

وهنا نصل إلى نقطة جديرة بالاهتمام، ومفيدة لبحثنا، حين نحوصل ما ذكرنا من مراتب وجودية، للأشياء، فنستعين بالشيخ الأكبر لتفصيلها، حيث يقول في كتابه: "إنشاء الدوائر":

"...فاعلم أن الأشياء على ثلاث مراتب لا رابع لها، والعلم لا يتعلق بسواها، وما سواها فعدم محض لا يعلم ولا يجهل، ولا هو متعلق بشيء." انتهى

ويواصل ابن العربي تحليله لهذه المراتب، ضمن سياق منطقي، فيقول:

²⁴ رسالة كشف السرّ لأهل السرّ، من كتاب: الرسالة الوجودية، نسبت خطأ للشيخ الأكبر، وهي ليست من تأليفه على رأي الشيخ عبد الباقي مفتاح، وإنما من تأليف الشيخ أوحّد الدين البلياني (توفي سنة 684هـ)، اعتنى بها الدكتور عاصم الكيالي، منشورات دار الكتب العلمية، ص 214-215.

"فإذا فهمت فنقول: إن هذه الأشياء خالقها ومقدرها ومفصلها ومدبرها وهو الوجود المطلق الذي لا يتقيد سبحانه، وهو الحي القيوم العليم المريد القدير الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" انتهى

وهذه المرتبة هي التي تحدثنا عنها في بداية هذا الفصل، وهي مرتبة الحق.

أما المرتبة الثانية، فهي:

".....الموجود بالله تعالى وهو الوجود المعبر عنه بالعالم: العرش والكرسي، والسموات العلى وما فيها من العالم والجن، والأرض وما فيها من الدواب والحشرات والنبات وغير ذلك من العالم." انتهى

وبما أن هذين المرتبتين الوجوديتين معقولتين، فلا بد أن توجد حقيقة تجمع بينهما، وتكون برزخا بينها في نفس الوقت، وهي: المرتبة الثالثة من مراتب الوجود.

وهذه المرتبة الثالثة، عبارة عن حقيقة الحقائق، التي تجمع في أن: الحقائق كلها، والمراتب كلها، والتعيينات كلها، والمظاهر كلها... تجمع الوجود القديم والموجود المحدث، فلا يمكن وصفها لا بالقديم ولا بالمحدث، مع أنه إن نظرت إليها من جهة القديم، قلت إنها قديمة، وإن نظرت إليها من جهة المحدث، قلت عنها أنها محدثة، وهي تتميز بهذا التناقض، حتى أن وجودها وعدمها يتساويان... فهي مجرد إطار افتراضي، عقلي، معرفي، وجودي صوري، حائل بين حقيقتين معقولتين، وجامع لهما في نفس الوقت، بحكم الشرط العقلي ليس إلا.

يقول الشيخ الأكبر، مواصلا حديثه عن مراتب الوجود:

"فهذا الشيء هو حقيقة حقائق العالم الكلية المعقولة في الذهن، الذي يظهر في القديم قديما، وفي المحدث حادثا. فإن قلت: إن هذا الشيء هو العالم صدقت، وإن قلت: أنه الحق القديم سبحانه صدقت، وإن قلت انه ليس العالم ولا الحق تعالى، أي أنه معنى زائد صدقت، كل هذا يصح عليه، وهو الكلي الأعم الجامع للحدوث والقدم، وهو يتعدد بتعدد الموجودات، وينقسم بانقسام المعلومات، وهو لا موجود ولا معدوم، ولا هو العالم وهو العالم، وهو غير ولا هو غير، لأن المغايرة في الوجودين والنسبة وانضمام شيء إلى شيء آخر، فيكون منه أمر آخر يسمى صورة ما، والانضمام نسبة" انتهى

وهذه الحقيقة الكلية الافتراضية الذهنية، قبلت من جهة، حقيقة الأحدية، باعتبارها أول تعين جامع للمراتب، وأول تعبير معقول عن الوجود الذاتي الإلهي، ومن الجهة الأخرى، قبلت الوجود العيني الذاتي للعالم، الذي لا يعدو أن يكون إلا وجوداً صورياً وافتراضياً وذهنياً. لأن العالم، ما زاد على وجود الله شيئاً، فكان الله ولا شيء معه، وهو على ما كان، بلا زيادة ولا نقصان... يقول الشيخ الأكبر (ما بين المعقنين تفسير لكلام ابن العربي):

"وأما الشيء الثالث [الذي هو حقيقة الحقائق] فلا يتصف بالوجود ولا بالعدم، ولا بالحدوث ولا بالقدم [لأنه افتراضي]، وهو، مقارن للأزلي الحق: أزلاً [لأنه يقبل حقيقة الحق في تعينها الأحدي]، فيستحيل عليه أيضاً التقدم الزمني على العالم والتأخر [لأن الزمان نفسه مخلوق بخلق العالم، وهو من إضافات العالم]، كما استحال على الحق زيادة [فنحن لا نعتقد أن للعالم **وجوداً ذاتياً عينياً موازياً ومساوياً** للوجود الحقي الإلهي، فهذا لا نتحققه ولا نعتقد، وإلا لكان وجود العالم زائداً على وجود الله تعالى، بعد أن كان الله ولا شيء معه]، لأنه ليس بموجود [أي ليس العالم بموجود وجوداً **موازياً ومساوياً** للوجود الإلهي، ولأن معنى الوجود لا يستقيم إلا إذا كان مستقلاً بذاته، والعالم ليس له هذه الخاصية، فانعدم وجوده من حيث هذا التعريف وهذا الشرط]. فإن الحدوث والقدم أمر إضافي يوصل إلى العقل حقيقة ما [فقولنا قديم يستدعي ذكر الإضافة، أي قديم بالنسبة إلى كذا، وكذلك المحدث، فإنه محدث بالنسبة إلى كذا]. وذلك أنه لو زال العالم لم يطلق على الواجب الوجود قديماً، وإن كان الشرع لم **يجئ** بهذا الاسم أعني القديم، وإنما جاء باسمه الأول والأخر. فإذا زلت أنت لم تقل أولاً ولا آخراً، إذ الوسط العاقد للأولية والآخرية ما ثمّ، فلا أول ولا آخر، وهكذا الظاهر والباطن وأسماء الإضافات كلها، فيكون موجود مطلق من غير تقييد بأولية أو آخرية." انتهى

ويجب علينا التنبيه، على أن قولنا: أن حقيقة الحقائق تقبل الحقيقة الأحدية، لا يعني أننا أحطنا بالذات الإلهية، إذ يستحيل الإحاطة بالذات، كما يستحيل الإحاطة بالألوهة، في تعيناتها ومراتبها المختلفة، ولا نعلمها إلا من خلال الفعل الإلهي، وبطريق التشبيه والتمثيل، لغوياً ومعرفياً. وعليه، فإن حقيقة الحقائق، تظل مستعصية على العقل، ولو أن العقل مجالها ومستقرها، رافضة الحدّ إلا من خلال المثال والصورة الذهنية، وبذلك نقرر انفصالها عن الحق تعالى، وعدم استمرار

جوهريتها من ذاته²⁵، وإنما تستمد كينونتها الافتراضية من فعله وتمظهرات أسمائه وتعينات مراتب حقيقته الأزلية.

وفي هذا الإطار، يقرر الشيخ الأكبر، ما يلي:

"هذا الشيء الثالث لا يقدر أحد إن يقف على حقيقته عبارة، لكن نومي إليه بضرب من التشبيه والتمثيل، وبهذا ينفصل عن الحق الذي لا يدخل تحت المثال إلا من جهة الفعل، لا إنه ينبي عن حقيقته، فكنا نحيط به علما، وهذا لا سبيل إليه، وقد قال: "ولا يحيطون به علما" انتهى

أما من جهة قبولها للعالم، أي الخلق، فهذه الحقيقة الكلية، تمثل شرطا معرفيا للوجود المحدث، فهي ليست قبله ولا بعده، حيث لا نتصور المحدث إلا وهي متجلية فيه. وبذلك لا تتبعض ولا تتجزأ ولا تنقص ولا تزيد... **وَلَنْسُقُ** مثلا عنها للشيخ الأكبر، الذي يقول:

"فنقول: نسبة هذا الشيء الذي لا يحد ولا يتصف بالوجود ولا بالعدم، ولا بالحدوث ولا بالقدم، إلى العالم، كنسبة الخشبة (خصائص وصفات الخشب) إلى الكرسي والتابوت والمنبر والمحمل، أو الفضة إلى الأواني والآلات التي يصاغ كل منها كالمكحلة والقرط والخاتم..... ولا يتخيل النقص فيه، كما لا يتخيل في الخشبة بانفصال المحبرة عنها." انتهى

ويقول أيضا:

"وهذا الشيء الثالث الذي لا يتصف بالوجود ولا بالعدم،..... لا يتصف بالكل ولا بالبعض، ولا يقبل الزيادة والنقص." انتهى

ويخلص الشيخ الأكبر، في نهاية نصه هذا، إلى أن هذا الشيء الثالث، الذي هو المرتبة الثالثة من مراتب الوجود، أصل العالم ومصدره، والإطار العام الذي قبل حقائق الأجناس والأعيان، وصورها، بل هو حقيقة الحقائق الجامعة، والهيولى مادة العالم الأولى. يقول ابن عربي في خاتمة نصه هذا:

²⁵ انظر دراسة مهمة قام بها ديمتري أفيريونس، كمقدمة للرسالة الوجودية للشيخ أوحده الدين البلياني (ت 684 هـ / 1288 م)، ينفي فيها أية استمرارية جوهرية بين الحق والخلق، كالتى بين الغصن والشجرة، ويدافع بالتالي عن الفرق الواضح بين الحلولية ووحدة الوجود. **أين التوثيق هنا؟؟؟**

"فسمه إذا شئت: حقيقة الحقائق أو الهيولى أو المادة الأولى أو جنس الأجناس. وسمّ الحقائق التي يتضمنها هذا الشيء الثالث: الحقائق الأولى أو الأجناس العالية، فهذا الشيء الثالث أزلا يقارن الواجب الوجود، محاذيا له من غير وجود عيني، فانفتحت الجهات والتلقاءات، وحتى لو فرضناه موجودا ولم نعقله متميزا، لانفتحت عنه التلقاءات والازالات، فتحقق هذا الفعل واعلمه.²⁶ انتهى

ويفضّل الأمير عيّد القادر (1222هـ - 1300هـ)، أن يتحدّث عن حقيقة برزخية جامعة، بين الأحدية والواحدية، يسميها: مرتبة الوحدة، وهي مرتبة تعيّنت فيما المرتبتين الأحدية والواحدية، وقبلتهما الاثنتين، بعد أن كانت التنزل الأول والتعيّن الأول من الذات. فحسب الأمير، فإن الذات المطلقة الصرفة (الأحدية)، وهي مرتبة الذات بإسقاط كل الاعتبارات والإضافات)، تعيّنت منها أول مرتبة جامعة لكل المراتب والحقائق، هي مرتبة الوحدة المطلقة (بل هي عين الذات، لا صفة لها ولا نعت)، وهي مرتبة تفرّعت عنها الواحدية، المثبتة لجميع الإضافات والاعتبارات. فتكون هذه المرتبة الأخيرة: الواحدية، الثانية بالنسبة للوحدة (مرتبة الوحدة - مرتبة الواحدية)، والثالثة بالنسبة للأحدية (مرتبة الأحدية - مرتبة الوحدة - مرتبة الواحدية).

يقول الأمير في كتابه "المواقف":

"المرتبة الأولى من مراتب التعينات الكلية هي المسماة في اصطلاح القوم: بمرتبة الوحدة، وهي الذات بلا شرط.... فالذات لما تنزلت من الذات الأحدية، نزلت إلى مرتبة التعين الأول وهي الوحدة المطلقة الذاتية الحقيقية. بمعنى أن الوحدة عين الذات لا صفة لها ولا نعت. ونسبة الأحدية المسقطه لجميع الاعتبارات، ونسبة الواحدية المثبتة لجميعها إليها على السواء.... فمن مرتبة الوحدة انتشأت الأحدية والواحدية، التي هي المرتبة الثانية للوحدة، والثالثة للأحدية، فكانت برزخا جامعا بينهما من وجه، موحدا وفاصلا بينهما من وجه، معددا لهما، ولهذا كان من أسماء هذه المرتبة: مرتبة الجمع والوجود، وأحدية الجمع.... فهي البرزخ الجامع بين الوجود والعدم والفاصل بينهما، فهي برزخ البرازخ.... ولتقدم مرتبة الوحدة وأصالتها وكونها منبع المراتب والتعينات، ولا تعين ولا تعقل لمعقول ولا لمحسوس ولا لمتخيل إلا بها، سمّيت: حقيقة الحقائق. فإن الوحدة الذاتية باطن كل حقيقة: إلهية وكونية، تكون في الإلهية واجبة قديمة، وفي الكونية ممكنة حادثة.... وهي المسماة بالحقيقة الكلية في كتب القوم.... وهي الهباء والهيولى الكل والهيولى الخامسة، لأن الهيولى في

²⁶ محي الدين بن العربي، إنشاء الدوائر.

اصطلاح ساداتنا اسم للشيء باعتبار ما هو ظاهر فيه، بحيث يكون كل باطن هيولى الظاهر، الذي هو صورة فيه.

وإنما قيل فيها الخامسة لأن الجسم الكل الذي هو أقصى مراتب الظهور صورة في النفس الكلية، وهي صورة في العقل، وهو صورة في العلم، والعلم صورة ظهرت من باطن الوحدة المطلقة وهي حقيقة الحقائق المسماة أيضا بالحقيقة المحمدية. فالحقيقة المحمدية صورة لمعنى وحقيقة ذلك المعنى. وتلك الحقيقة هي حقيقة الحقائق، فهو صلى الله عليه وسلم، الإنسان الكامل الأكمل، مظهر التعيين الأول، ولذا قالوا: الحقيقة المحمدية هي الذات مع التعيين الأول، ولها أسماء كثيرة حسب وجوهها، وجميعها عبارة عن علمه تعالى بنفسه باعتبار توحد العالم والعلم والمعلوم. وعندما تعينت الذات هذا التعيين، تميزت الحقائق الإلهية والكونية التي كانت مستهلكة في الذات الأحادية، تمييزا نسبيا لا حقيقيا كشؤون مجتمعة في الذات.... ولهذا كان الوجود في هذه المرتبة عبارة عن وجدان الذات نفسها في نفسها.... أي الذات علمت الذات من غير اعتبار زائد على الذات، إذ لا غير في هذا التعيين، وكل معلوم سمي غيرا وسوى ففيما بعد من المراتب...²⁷ انتهى

ويظهر لنا من خلال هذا النصّ القيمّ، تعدّد اصطلاحات الصوفية، في نعت هذه الحقيقة وهذا المفهوم. فقد جمع الأمير تقريبا أغلب الألفاظ التي يجوز إطلاقها على حقيقة الحقائق، بحسب الوجهة التي ينظر منها إليها.

فهي مرتبة الوحدة المطلقة، من حيث جمعها لحقائق الأحادية والواحدية.

وهي مرتبة الجمع والوجود، من حيث جمعها للحقائق، وظهور الوجود فيها.

وهي برزخ البرازخ، من حيث كونها برزخا جامعا بين الوجود (الصوري) والعدم (الوجود العلمي الثابت) والفاصل بينهما.

وهي حقيقة الحقائق، من حيث تقدم رتبها على كل المراتب، وكونها منبعها، ولا تعقل لأيّ تعيّن إلا بها.

²⁷ عبد القادر الجزائري، المواقف، تحقيق: عبد الباقي مفتاح، ج 2، موقف 248، فصل 4، ص 543-545، طبعة: دار الهدى، عين ميله الجزائر، سنة: 2007.

وهي الحقيقة المحمّدية، باعتبارها التعيين الأول للذات [الألوهة]، وحقيقة الإنسان الكامل الأكمل، مظهر التعيين الأول²⁸.

وهي أيضاً: "الحقيقة الكلية في كتب القوم، وهي الهباء والهيولى الكل والهيولى الخامسة".

وزاد الشيخ الأكبر، مصطلحات أخرى، كما قال في كتابه: إنشاء الدوائر:

"فسمه إذا شئت: حقيقة الحقائق أو الهيولى أو المادة الأولى أو جنس الأجناس"

وفي الفتوحات، في الباب السادس، يقول:

"وهي أصل الجوهر وفلك الحياة والحق المخلوق به وغير ذلك وهي الفلك المحيط المعقول"²⁹

انتهى

حسب الأمير، حجاب العزة: هو التعيين الأول المسى: بالحقيقة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وبالعامة،²⁸ والروح الكلي، والإنسان الكامل، والثوب، والرداء، وغير ذلك من الأسماء الكثيرة، تعددت أسماءه لتعدد وجوهه واعتباراته.

وهناك كثير من العارفين يعتبرون أن الحقيقة المحمدية هي نفسها حقيقة الحقائق. فقد ذكر الشيخ يوسف النبهاني في جواهر البحار في فضائل النبي المختار - ج4 ص 142 (بتصرف)، قوله للشيخ عبد الله الميرغني، يعرف فيها حقيقة الحقائق، إذ يقول: هو محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه برزخاً بين الحقيقة الحقيقية، والحقيقة الخلقية.

انظر: الشيخ محمد الكسزنان الحسيني، موسوعة الكسزنان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، ط 1 سنة 2005.

ولعل النص التالي أوضح من سابقه في اعتبار الحقيقة المحمدية جامعة لكل الحقائق، في عرف الشيخ أحمد النقشبندي، حيث يشرح تلميذه هذا القول:

"ثم اعلم ان اللفظ: الحقيقة المحمدية في عبارات شيخنا وإمامنا (أحمد السرهندي النقشبندي) على معان مختلفة، وأنحاء شتى: فمقيدت قولت بالحقيقة الأحمديّة والكعبة الربانية، يراد بها ما ذكرناه سابقاً من انه اسم الهي مناسب لتربية العالم السفلي، ومتى ذكرت مطلقة، يقصد بها الحقيقة الجامعة للحقيقة المحمدية والأحمديّة والكعبة الربانية، وهي المعبرة: بحقيقة الحقائق، وهي الحقيقة التي لا واسطة بينها وبين الذات المقدس، كما ذكر شيخنا رحمه الله في آخر مكتوب من الجلد الثالث له قبيل وصاله بأيام قليلة: إن الحقيقة المحمدية ظهور أول وحقيقة الحقائق" انتهى

انظر: رسالة: عطية الوهاب الفاصلة بين الخطأ والصواب، تأليف الشيخ محمد بك كتاب الرحمة الهابطة في أحوال الإمام الرباني. وقف الإخلاص مكتبة الحقيقة تركيا. ص 179/181

²⁹ ذكرت الدكتورّة سعاد الحكيم، أن ابن عربي ذكر "حقيقة الحقائق" في عدّة مؤلفات له، وهي:

الفصوص: ج 1 ص 49، وج 2 ص 322/10.

إنشاء الدوائر: ص 36/1.

التدبيرات الإلهية: ص 128/120.

كتاب الأزل ص 9.

وقد حوصلت الدكتور سعاد الحكيم في موسوعتها، كل هذه التعاريف، بقولها (حسب ابن العربي):

"حقيقة الحقائق: هي عبارة عن حقيقة معقولة تجمع في ذاتها جميع ماهيات الحق والخلق المعقولة. فهي مجموع ماهيات الحضرتين الإلهية والكونية. وهي بذلك أصل العالم"³⁰. انتهى

وإذا أردنا أن نقوم بجولة في تعاريف القوم، فإننا نجد ما يلي:

يقول الشيخ عبد الرزاق القاشاني (ت 730 هـ) في "لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام":

"حقيقة الحقائق: يعنون بها باطن الوحدة، وهو التعيين الأول الذي هو أول رتب الذات الأقدس"

ويقول الشيخ ابن قضيبة البان:

"حقيقة الحقائق في مقام الواحدية... غاية الغايات للمساكين، ونهاية النهاية للواصلين من مقام قاب قوسين، وبها جمع الفرق في مجمع البحرين"

ويقول الشيخ عبد الحميد التبريزي:

"حقيقة الحقائق: هي الجوهر الأول. وهي مقبرة الأرواح الجبروتية، وهي الوجود الحقيقي، والهيولي الأولى".

ويقول الشيخ قطب الدين البكري الدمشقي:

"الحق هو الشيء الثابت. فكل شيء له حقيقة، وتلك الحقيقة حقيقة جامعة، وتلك الحقيقة الجامعة حقيقة أجمع من الثانية، ولثالثة حقيقة أوسع وأجمع حتى ينتهي الدور إلى حقيقة الحقائق... [والتي] هي الهيولي الجامعة وحقيقة الحق تعالى، هي الممددة لكل حقيقة من هذه الحقائق بواسطة الأسباب والدقائق، وبغير واسطة عند المحقق الدائق... فما من زمان ولا مكان إلا وله حقيقة، وتلك

كتاب الفتوحات المكية: ج 1 ص 119 وج 3 ص 199.
انظر: الدكتور سعاد الحكيم، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، ص 345، ط 1، سنة 1981، دندرة للطباعة والنشر، لبنان.

30 ن.م.

حقيقة اسم خاص تمازبه عن غيرها من الحقائق، وللمجموع اسم، وللحقيقة الكبرى بالنسبة للأولى
اسم وهكذا...³¹

الفصل الثالث

العماء

من أسمائه تعالى: الظاهر والباطن، والظاهر هو العماء، والباطن هو النفس الرحماني.
والعماء عن النفس، فإن النفس لا صورة له كما هو في الشاهد، ولا يدرك إذا تصور بصورة

³¹ الشيخ محمد الكسنزان الحسيني، موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، (انظر: حقيقة الحقائق).

العماء، فهو عينه لا غيره، وإنما غايته بالصورة التي هي اعتبار محض، والعماء عين العالم.
فالباطن عين الظاهر، والظاهر عين الباطن.

الأمير عبد القادر الجزائري

المواقف، الجزء الثاني، الموقف 248، الفصل 5

لكن ما علاقة حقيقة الحقائق، بمرتبة العماء التي كان فيها ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقد روى الترمذي أن أبا رزين العقيلي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟" فأجابه عليه الصلاة والسلام بقوله: "كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء"³².

وما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، في حديث العماء، هو لفظ له دلالاته اللغوية والمعرفية، بحيث اعتنى به العارفون وبيّنوا تجلياته العرفانية³³. فبعضهم اعتبر أن مرتبة العماء مساوية ومتطابقة مع حقيقة الحقائق، إلى درجة أنهم قالوا صراحة: العماء هو حقيقة الحقائق، مثل الشيخ عبد الكريم الجيلي، الذي يقول في كتابه: "الإنسان الكامل" [وما بين المعقفين من تفسيرنا]:

"اعلم أن العماء عبارة عن حقيقة الحقائق التي لا تتصف بالحقية ولا بالخلقية، فهي ذات [معنوية] محض، لأنها لا تضاف إلى مرتبة، لا حقية ولا خلقية. فلا تقتضي لعدم الإضافة وصفا ولا

³² حديث العماء: رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، وفي سورة هود، الحديث رقم 3109.

ورواه ابن حبان في صحيحه، في كتاب بدء الخلق .

³³ يقول الشيخ الأكبر في الفتوحات:

"...فقال (صلى الله عليه وسلم): كان في عماء، ما فوقه هواء وما تحته هواء، فنزه أن يكون تصريفه للأشياء على الأهواء، فإنه لما كثر عن ذلك الوجود بما هو اسم للسحاب، محلّ تصريف الأهواء، نفى أن يكون فوق ذلك العماء هواء أو تحته هواء، فله الثبوت الدائم لا على هواء ولا في هواء، فإن السؤال وقع باسم الرب، ومعناه: الثابت"

انظر: السؤال الحادي والثلاثون من سؤالات الترمذي التي أجاب عنها الشيخ الأكبر في الباب 73 من الفتوحات .

اسما، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: "إن العماء ما فوقه هواء وما تحته هواء" يعني لا حق ولا خلق. فصار العماء مقابلا للأحدية [تقابلا بلا امتداد جوهري]. فكما أن الأحدية تضمحل فيما الأسماء والأوصاف ولا يكون لشيء فيها ظهور، فكذلك العماء، ليس لشيء من ذلك فيه مجال ولا ظهور. والفرق بين العماء والأحدية، أن الأحدية حكم الذات في الذات، بمقتضى التعالي [البطون والكمون]، وهو الظهور الذاتي الأحدي، والعماء حكم الذات بمقتضى الإطلاق [المقابل للمقيد]، فلا يفهم منه تعال وتدان، وهو البطون الذاتي العمائي [مقابل الظهور الاسمائي]... فالأحدية صرافة الذات بحكم التجلي [تجلي الذات للذات، أو تجلي الكمون]، وهذه صرافة الذات بحكم الاستتار [الاستتار بالظهور]. فتعالى الله أن يستتر عن نفسه عن تجل [فهو دائم التجلي]، أو يتجلى لنفسه عن استتار [إذ استتاره ظهور بالأسماء، فهو تجل من نوع آخر]، بل حكم ذاته هو على ما هو عليه، قبل تجليه علينا وظهوره لنا، فليس له إلا تجل واحد [ذاتي لذاته]، له اسم واحد لوصف واحد غير متعدد [في ذاته]، فهو متجل لنفسه في الأزل بما هو متجل له في الأبد [بعلمه في نفسه]، وهذا التجلي الواحد هو المستأثر الذي لا يتجلى به لغيره، فليس للخلق فيه نصيب البتة، لأنه لا يقبل الاعتبار ولا الانقسام ولا الأوصاف... وباقى التجليات الإلهية [الأسماوية] هي رشفة من سماء هذا التجلي الذاتي الذي استحقه لنفسه من حيث علمه به [علم ذاته بذاته]، وبواقى التجليات استحقها لنفسه من حيث علم غيره به [علم الإضافات والنسب له]، فافهم... فهو تعال [من حيث ذاته] قبل خلق الخلق في عماء، وبعد خلق الخلق فيما كان عليه من قبل، فالعماء هو الحكم السابق إلى الذات بعدم الاعتبارات، وخلق الخلق يقتضي الظهور الذي هو الحكم اللاحق إلى الذات مع وجود الاعتبارات، ولا قبل ولا بعد [فليس هناك زيادة عليه بالخلق]، إذ هو قبل وبعد، وهو أول وهو آخر، فظهوره عين بطونه، حارت فيه العقول وانقطع دون عظمته الوصول³⁴ انتهى.

على أن الأمير عبد القادر الجزائري، حين تحدّث عن العماء، لا يساويه بحقيقة الحقائق، وإنما يفصل ذلك تفصيلا دقيقا، معتبرا أن العماء برزخ بين "مرتبة الوجوب ومرتبة الإمكان، وفاصل بين وحدة الذات وكثرة صور الموجودات، فليست هذه المرتبة عينهما ولا غيرهما، وفيها قوة كل واحدة منهما"... والعماء عند الأمير، مرتبة متقدمة وتعيّن رحماني في كمال أسمائي، ويوضح ذلك بقوله في "المواقف":

³⁴ الشيخ عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل، الباب التاسع.

"ولما تعيّنت الذات التعيين الأول العلمي الإجمالي الذاتي [مرتبة الوحدة أو حقيقة الحقائق]، تبين أن لها كمالين: كمال ذاتي مجمل بلا شرط، وقد حصل بالتعيين الأول [أي مرتبة الوحدة]، وكمال أسمائي مفصل سار في الأسماء ومتوقف ظهوره على الأسماء ومؤثراتها، وهذا هو التعيين الثاني، حيث الوجود عبارة عن وجدان الذات عينها من حيث ظهورها بظواهر اسم الرحمن، وظهور أسماء الألوهة. وهذه المرتبة الثانية الكلية تشتمل على مراتب منها: مرتبة الصفات المقدسة، ومرتبة الإمكان، ومرتبة ثالثة كالبرزخ الفاصل الجامع بين مرتبتي الصفات والإمكان". انتهى

وهذه المرتبة البرزخ، الفاصلة والجامعة بين مرتبتي الصفات والإمكان، هي مرتبة العماء. يقول الأمير مواصلاً حديثه:

"فإذا وجبت [أي نظرت إليها من جهة الوجود أي الصفات]، كانت ألوهة فاعلة مقدسة، وعليها يطلق لفظ (الله)، وإذا أمكنت [أي نظرت إليها من جهة الإمكان] باقتضاء حضرة الوجود لمظاهرها ومؤثراتها، كانت خلقاً منفعلاً، وهذه المرتبة الثالثة هي العماء، لأنه اسم للسحاب الرقيق الحائل بين الناظر والشمس. وهذا العماء حائل بين مرتبة الوجود ومرتبة الإمكان، وفاضل بين وحدة الذات وكثرة صور الموجودات، فليست هذه المرتبة عينهما ولا غيرهما، وفيها قوة كل واحدة منهما". انتهى

ويؤكد الأمير، أن العماء انتشأ من نفس الرحمن، ليكون فاصلاً رقيقاً بين الحق المطلق والخلق المقيد، وهو ليس إلا مظهر اسمه تعالى: الظاهر، في حين أن الرحمن، اسم الله الباطن. يقول الأمير:

"ومن هذا البرزخ العمائي اتصف الحق بصفات الخلق [كالنزول والتبشيش والفرح والغضب والتعجب..]، ونعت بنعوتهم، كما ورد في الكتب الإلهية، كما اتصف الخلق بصفات الخلق كالحياة والعلم والقدرة والإرادة. ومنشأ هذا العماء من النَّفْس الرحماني - بفتح الفاء - فعندما قال السائل: "أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟" يريد أن الحق تعالى ظاهر في صور خلقه بلا حلول ولا اتحاد، كما في قوله: "وهو معكم أينما كنتم" فأين كان ظهوره قبل خلق المخلوقات؟ فكان الجواب: إنه كان ظاهراً بمعلوماته التي تضمّنتها الحضرة العمائية. وقوله: "ما فوقه هواء وما تحته هواء" بيان للعماء، وحرف "ما" يصح أن تكون موصولة، أي الذي فوقه حق وتحته خلق، فهو برزخ بين حق مطلق وخلق مقيد، فهو حق وخلق، ويصح أن تكون "ما" نافية، أي لا حق من كل وجه، ولا خلق من كل وجه، فهو لا عين ولا غير، فإنه فاصل بينهما، ولولا هو، ما تميّز أحدهما من الآخر. فالعماء اسمه تعالى

الظاهر، والنفس الرحماني اسمه تعالى الباطن، وليس الظاهر بشيء زائد على الباطن، إلا باعتبار ما قدّمنا، فهو عينه. وإنما أضيف النفس الرحماني دون باقي الأسماء، لأن الرحمان اسم للوجود المفاض على الممكنات، أعيانا ثابتة وصورا وجودية، فهو عين الرحمة العامة التي وسعت كل شيء، حتى أسماء الألوهة، فإنها به رحمت مما كانت فيه من الاستهلاك في وحدة الذات، فتميّزت حقائقها بهذا النفس³⁵ انتهى

وكان مفهوم العماء عند الأمير يتطابق مع رؤية الشيخ الأكبر، الذي يرى أنه أول صورة قبل النَّفس الرحماني، فهو "بخار رحماني فيه الرحمة، بل هو عين الرحمة" بحيث يكون العماء، من خلال تعريف ابن العربي له، مرتبة من مراتب الحقيقة الكلية، قبلت وجود الحق، وانسحبت على العالم. يقول الشيخ الأكبر، في الفصل الأول من الباب: 371 من الفتوحات ما خلاصته:

".. كان الله ولا شيء معه.... فأحبّ أن يعرف لوجود على العالم بالعلم به عز وجلّ.... فلمّا انصف لنا بالمحبة، والمحبة حكم يوجب رحمة الموصوف بها بنفسه، ولهذا يجد المتنفّس راحة في تنفسه، فيبرز النفس من المتنفّس عين رحمته بنفسه. فما خرج عنه تعالى إلا الرحمة التي وسعت كل شيء، فانسحبت على جميع العالم... فأول صورة قبل نفس الرحمن صورة العماء، فهو بخار رحماني فيه الرحمة، بل هو عين الرحمة. فكان ذلك أول ظرف قبله وجود الحق، فكان الحق له كالقلب للإنسان... ثم إن جوهر ذلك العماء قبل صور الأرواح من الراحة والاسترواح إليها، وهي الأرواح المهيمية، فلم تعرف غير الجوهر الذي ظهرت فيه وبه، وهو أصلها، وهو باطن الحق وغيبه، ظهر فظهر فيه، وبه العالم، فإنه من المحال أن يظهر لعالم من حكم الباطن، فلا بد من ظهور حق به يكون ظهور صور العالم، فلم يكن غير العماء، فهو الاسم الظاهر الرحمان، فهامت في نفسها". انتهى

وتحاول الدكتورة سعاد الحكيم، اختصار المفهوم الأكبر، من خلال اختزال المسألة في فقرة قصيرة كالتالي:

"كان الحق كنزا مخفياً لم يعرف، أحبّ أن يعرف، فهذا الحب وقع التنفس وظهر نفس الرحمن. فكان صورته "العماء" من حيث أن العماء الذي هو السحاب يتولّد من الأبخرة، ونفس الرحمن بخار رحماني. إذن، أول صورة قبلها النَّفس هي: "العماء"، بل العماء هو عين النَّفس الرحماني.

³⁵ عبد القادر الجزائري، المواقف، تحقيق: عبد الباقي مفتاح، ج 2، موقف 248، فصل 5، ص 552-553، طبعة: دار الهدى، عين ميلة الجزائر، سنة: 2007.

ومن العماء وفيه ظهر كل ما سوى الله، من حيث أنّ المخلوقات كلمات الله، فتظهر كظهور الكلمة في نَفْس المتكلم³⁶. انتهى

وتستدلّ الدكتورة سعاد الحكيم، بنصّين للشيخ الأكبر، يوضّح فيهما هذا المعنى، من حيث علاقة العماء بالنَّفْس الرحماني، فيقول رضي الله عنه في نصّ أول:

"وانتشاء هذا العماء من نَفْس الرحمن من كونه إليها لا من كونه رحمانا فقط، فجميع الموجودات ظهر في العماء بكن أو باليد الإلهية [جنة عدن] أو باليدين [آدم] إلا العماء فظهوره بالنَفْس خاصّة... وكان أصل ذلك حكم الحبّ... كما ورد: كنت كنزا لم أعرف فأحبت أن أعرف، فهذا الحبّ وقع التنفس، فظهر التنفّس، فكان العماء، فلهذا أوقع عليه اسم العماء، الشارع، لأنّ العماء الذي هو السحاب، يتولّد من الأبخرة". انتهى

وفي نصّ ثان، يقول الشيخ ابن العربي، في الفتوحات:

"لأنه [الحق] خلقهم [المخلوقات] وأظهرهم في العماء، وهو نَفْس الرحمن، فهم كالحروف في نَفْس المتكلم في الخارج، وهي مختلفة..."³⁷ انتهى

السؤال الذي نطرحه هنا في هذا المستوى من البحث: هل يعتبر ما فصلناه من قول في حقيقة الحقائق والعماء، تناقضا واختلافا بين الشيخ الأكبر وبقيّة الشيوخ العرفانيين؟؟

للإجابة، نقول:

أن حقيقة الحقائق الجامعة للكل، لها مظاهر:

ففي حضرة الذات، تظهر خصوصا في مرتبة الوحدة الجامعة للأحادية والواحدية، كما فسّر الأمير.

وفي حضرة القدم، تظهر خصوصا في العماء الذي كان فيه ربّنا قبل خلق الخلق - وكان هنا حرف وجودي لا يعني الزمان السابق- كما فصلّه الشيخ الأكبر والأمير على السواء.

³⁶ الدكتورة سعاد الحكيم، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، ص821، ط 1، سنة 1981، دندرة للطباعة والنشر،

لبنان.

³⁷ الدكتورة سعاد الحكيم، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، ص821، ط 1، سنة 1981، دندرة للطباعة والنشر،

لبنان.

وبالتالي، فالعماء لا يعدون أن يكون حقيقة الحقائق نفسها، وإن بمظهر خاص بحضرة الوجوب والإمكان، كما عبّر عن ذلك الشيخ الجيلي.

فلا تناقض بين العارفين، باعتبار وحدة مصدرهم الشهودي العرفاني.

فالعماء، إذن، جوهر رحماني، ظهر فيه العالم، بمحدثاته المختلفة، فكان كالمرآة للصور. قال الشيخ الأكبر، في الفصل التاسع من الباب 371 من الفتوحات:

"فالجوهر الثابت هو العماء، وليس إلا نَفَس الرحمن. والعالم، جميع ما ظهر فيه من الصور، فهي أعراض فيه، يمكن إزالتها. وتلك الصور هي الممكنات، ونسبتها من العماء نسبة الصور من المرآة، تظهر فيها لعين الرائي. والحق تعالى هو بصر العالم، فهو الرائي وهو العالم بالممكنات، فما أدرك إلا ما في علمه من صور الممكنات، فظهر العالم بين العماء وبين رؤية الحق، فكان ما ظهر دليلاً على الرائي، وهو الحق، فتفطن، واعلم من أنت" انتهى

على أنّ مفهوم الجوهر العمائي، يحيلنا إلى معنى، طالما استعمله العارفون في علومهم، وهو مفهوم: الحق المخلوق به، كلّ ما سوى الله تعالى، وهو من تعبيرات الشيخ ابن برجان رضي الله عنه، ومنه راج هذا المصطلح. فالعماء، باعتبار أنه نَفَس الحق، هو حق، لأنه لا يصدر عن الحق إلا الحق، ومن حيث قابليته للخلق، وجوهريته للممكنات، قيل عنه: الحق المخلوق به.

قال الشيخ الأكبر، في السّؤالات:

"السؤال الثامن والعشرون: ما العدل؟

الجواب: العدل هو الحق المخلوق به السموات والأرض. فسهل ابن عبد الله وغيره يسميه: العدل. وأبو الحكم عبد السلام بن برجان يسميه: الحق المخلوق به، لأنه سمع الله يقول: "ما خلقناهما إلا بالحق" و"ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق" و"بالحق أنزلناه" أي بما يجب لذلك المخلوق، مما تقتضيه حالة خاصة، بقوله تعالى "ثم هدى" أي بين أنه أعطى كل شيء خلقه، أي ما خلقه إلا بالحق، وهو ما يجب له..." انتهى

وقال في موضع آخر من الفتوحات:

"فكان العماء المسمى بالحق المخلوق به، فكان ذلك العماء جوهر العالم، فقبل صور العالم وأرواحه وطبائعه كلها، وهو قابل إلى ما لا يتناهى... فالعماء من تنفسه [الحق] والصّور المعبر عنها بالعالم من كلمة: كن..."³⁸ انتهى

ويقول أيضا:

"فالعماء أصل الأشياء والصور كلها، وهو أول فرع ظهر من أصل..."³⁹ انتهى

ويقول في موضع ثالث:

"والعماء هو جوهر العالم كلّ، فالعالم ما ظهر إلا في خيال، فهو متخيّل لنفسه..."⁴⁰ انتهى
ومن هذه الإشارة الأخيرة للشيخ الأكبر، نعرف أن العماء هو "الخيال المطلق" وذلك لاحتوائه على كل الصور.

يقول ابن العربي في الفتوحات:

"إن حقيقة الخيال المطلق هو المسمى بالعماء... ففتح الله تعالى في ذلك العماء صور كل ما سواه من العالم، ألا أن ذلك العماء هو الخيال المطلق، ألا تراه يقبل صور الكائنات كلّها ويصوّر ما ليس بكائن، هذا لاتساعه، فهو عين العماء لا غيره"⁴¹ انتهى

هكذا نرى العماء، متطابقا مع حقيقة الحقائق في مستوى معيّن، برزخا بين مرتبة الوجود ومرتبة الإمكان، وفاصلا بين وحدة الذات وكثرة صور الموجودات، وفي مستوى آخر: نفسا رحمانيا، وخيالا مطلقا، قابلا للحق والخلق:

فمن جهة قبوله للحق: "هو أول كينونة وأينية للحق، وأول مظهر إلهي ظهر، ومنه ظهر كل ما سوى الله، وهو مستوى اسم الرب"⁴². يقول الشيخ في الفتوحات:

³⁸ الباب الثامن والسبعون ومائة من الفتوحات المكية، وهو في معرفة مقام المحبة.

³⁹ الباب الأحد والسبعون وثلاثمائة، من الفتوحات المكية.

⁴⁰ الباب السابع والسبعون ومائة من الفتوحات المكية، وهو في معرفة مقام المعرفة.

⁴¹ الباب السابع والسبعون ومائة من الفتوحات المكية، وهو في معرفة مقام المعرفة.

⁴² الدكتور سعاد الحكيم، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، ص823، ط1، سنة 1981، دندرة للطباعة والنشر،

"فهو أول موصوف بكيونة الحق فيه، فإن للحق، على ما أخبر، خمس كينونات: كينونة في العماء.... وكيونة في العرش، وهو قوله: "الرحمن على العرش استوى" (طه: 5)، وكيونة في السماء، في قوله: "ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا"، وكيونة في الأرض، وهو قوله: "وهو الله في السماوات وفي الأرض" 3 الأنعام، وكيونة عامة، وهو مع الموجودات على مراتبها... فقال: "وهو معكم أينما كنتم" (الحديد 4)⁴³ انتهى

ومن جهة قبوله للخلق: فإن العماء، هو "عالم" الثبوت" بالنسبة للممكنات جميعا، حيث تثبت فيه صور الموجودات كلها، ولكن ثبوت صور الممكنات فيه أعطاه الوجود العيني أيضا. فالعماء "ثبوت" بالنسبة للممكنات، ووجود عيني بالنسبة له في حال ثبوتها. وحسب الدكتورة سعاد الحكيم، ذهب البعض إلى أن العماء هو علم الحق (عالم الثبوت = علم الحق). يقول الشيخ الأكبر:

"والعماء: هو أول الأينيات، ومنه ظهرت الظروف المكانية والمراتب... وهو المعنى الذي ثبتت فيه واستقرت أعيان الممكنات"⁴⁴ انتهى

وفي نص آخر أكثر وضوحا، يتكلم الشيخ على لسان الممكنات، فيقول:

"فلما سمعنا [الممكنات] كلامه [كلام الحق = كن] ونحن ثابتون في جوهر العماء، لم نتمكن أن نتوقف عن الوجود. فكنا صورا في جوهر العماء، فأعطينا بظهورها في العماء: الوجود للعماء، بعدما كان معقولي الوجود حصل له الوجود العيني"⁴⁵ انتهى

"و"الثبوت" في العماء، هو الصفة الجامعة بين الحق والممكنات [ثبوت علمي]، أصله من تجلي اسم الله: الثابت، من خلال تجلي اسم الرب الجامع.

يقول الشيخ الأكبر:

"...فقال (صلى الله عليه وسلم): كان في عماء، ما فوقه هواء وما تحته هواء، فنزّه أن يكون تصريفه للأشياء على الأهواء، فإنه لما كُتّي عن ذلك الوجود بما هو اسم للسحاب، محلّ تصريف الأهواء، نفى أن يكون فوق ذلك العماء هواء أو تحته هواء، فله الثبوت الدائم لا على هواء ولا في هواء، فإن السؤال وقع باسم الربّ، ومعناه: الثابت"⁴⁶ انتهى .

⁴³ الباب السابع والسبعون ومائة من الفتوحات المكية، وهو في معرفة مقام المعرفة.

⁴⁴ الفتوحات المكية، الباب 167.

⁴⁵ الباب الثامن والسبعون ومائة من الفتوحات المكية، وهو في معرفة مقام المحيّة.

⁴⁶ السؤال الحادي والثلاثون من سؤالات الترمذي التي أجاب عنها الشيخ الأكبر في الفتوحات.

انطلاقاً مما سبق توضيحه، يمكن لنا تبين مختلف التعريفات التي سيقى للعماء، من قبل العارفين بالله، ويمكن لنا فهم معانيها التي عبّروا عنها بمصطلحات متعدّدة، ومن وجوه عديدة. يقول عبد الرزاق القاشاني (ت 730هـ) في "لطف الإعلام في إشارات أهل الإلهام":

"العماء هو الحضرة العمائية التي عرفت بأنها هي النفس الرحماني، والتعین الثاني، وإنها هي البرزخية الحائلة بكثرتها النسبية، بين الوحدة والكثرة الحقيقيتين.... [وإنها] محل تفصيل الحقائق التي كانت في المرتبة الأولى، شؤوناً مجملة في الوحدة، فسميت بهذا الاعتبار بالعماء، وهو الغيم الرقيق، وذلك لكون هذه الحضرة برزخاً حايلاً بين إضافة ما في هذه الحضرة من الحقائق إلى الحق وإلى الخلق، كما يحول العماء الذي هو الغيم الرقيق بين الناظر وبين نور الشمس..."⁴⁷ انتهى. ويرى القونوي أن العماء، من حيث هو نفس رحماني، انتشأت فيه صور الحروف، والكلمات الإلهية، أن حرف الألف هو مظهر العماء، كما تتعین الحروف والكلمات بنفس الإنسان. فيقول: "الألف: هو مظهر صورة العماء الذي هو النفس الرحماني الواحداني النعت، الذي فيه وبه بدت وتعينت صور سائر الموجودات التي هي: الحروف، والكلمات الإلهية، وأسماء الأسماء، كما تتعین الحروف والكلمات الإنسانية بنفس الإنسان. فلا يظهر لشيء من الحروف عين إلا بالألف الذي هو مظهر الواحد."

والقونوي، يشير بالعماء أيضاً، إلى الغيب الإضافي الأول للذات، أي الأينية الأولى التي قبلت وجود الحق، فضلاً عن النفس الرحماني القابل للممكنات، حيث يقول:

"البرزخ الأول [ويسميه: صاحبة الأحديّة]: هو إشارة إلى العماء الذي هو النفس الرحماني، وهو بعينه الغيب الإضافي الأول بالنسبة إلى معقولية الهوية التي لها الغيب المطلق".

ويوافق الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني (1150-1230هـ)، فإنه يطلق لفظة العماء على المرتبة الكنزية المبطنة في الغيب، ويسمها العماء الذاتي، فكأننا إزاء عماء ذاتي (أيني) انتشأ فيه ومنه البخار الرحماني (العماء البخاري) وانتقشت فيه الحروف والكلمات الإلهية. فهو مرتبة وتعين للحق، وظرف للخلق.

يقول الشيخ التيجاني في كتاب "جواهر المعاني" لتلميذه علي حرازم:

⁴⁷ نقلاً عن: المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، الدكتورة سعاد الحكيم، دندرة للطباعة والنشر، لبنان، ط 1، سنة 1981، ص 825/824.

"مرتبة الأحدية: هي مرتبة كنه الحق، وهي الذات الساذج التي لا مطمع لأحد في نيل الوصول إليها. وتسمى: حضرة الطمس، والعماء الذاتي".

ورغم أنه يماثل بين الأحدية والذات الساذج، إلا أنه يذكر فرقا بينهما من حيث التعيين والظهور، حيث يقول:

"الفرق بين الأحدية والذات الساذج: أن الذات الساذج لا امتياز فيها لأحدية ولا كثرة، إذ طمست النسب كلها فيها، فليس فيها اختصاص نسبة، وهي غاية البطون وهي العماء.. والأحدية تماثلها في الذات الساذج، إلا أن فيها ظهر نسبة الأحدية عن الكثرة والغيرية، وهي مرتبة ظهور الحق".

والأمير عبد القادر أيضا يعرف العماء من خلال النفس الرحماني، كما في النص التالي:

"من أسمائه تعالى: الظاهر والباطن، والظاهر هو العماء، والباطن هو النفس الرحماني. والعماء عن النفس، فإن النفس لا صورة له كما هو في الشاهد، ولا يدرك إذا تصور بصورة العماء، فهو عينه لا غيره، وإنما غيره بالصورة التي هي اعتبار محض والعماء عين العالم. فالباطن عين الظاهر، والظاهر عين الباطن".

ويعرفه باعتباره: حجاب العزة، فيقول:

"حجاب العزة: هو التعيين الأول المسعى: بالحقيقة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وبالعماء، والروح الكلي، والإنسان الكامل، والثوب، والرداء، وغير ذلك من الأسماء الكثيرة، تعددت أسماؤه لتعدد وجوهه واعتباراته"⁴⁸.

⁴⁸ الشيخ محمد الكسنزان الحسيني، موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، (انظر: العماء) ط 1 سنة

الفصل الرابع

الهباء النوري

حقيقة الشيء: هي ملكوت ذلك الشيء وأصله الذي هو به هو، كما قال تعالى:
"بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ" (يس: 83) .

الشيخ الأكبر: محي الدين بن العربي

عقد الشيخ الأكبر، في الفتوحات المكية، بابا، هو السادس من أبواب الكتاب، عنوانه: في

معرفة بدء الخلق الروحاني، ومن هو أول موجود فيه؟ ومم وجد؟ وفيم وجد؟ وعلى أي مثال وجد؟ ولم وجد؟ وما غايته؟ ومعرفة أفلاك العالم الأكبر والأصغر.

ويبدأ ابن العربي هذا الباب، بذكر عنوان فرعي، هو: **بدء** الخلق: الهباء. فيطرح جملة من الأسئلة السريعة عن العالم، ذات المضمون الوجودي، ليغيب عنها في أسلوب برقي، فيقول رضي الله عنه:

"وأول موجود فيه [الهباء] الحقيقة المحمدية الرحمانية [مظهرها: القلم أو العقل الأول]⁴⁹.

ولا أين يحصرها [الحقيقة المحمدية]، لعدم التحيز. [لأنها سارية في العالم سريان الحياة فيه].

ومم وجد [العالم]؟ وجد من الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود ولا بالعدم [وجد من حقيقة الحقائق، فالعالم إذن، حقيقة ذهنية صورية].

وفيم وجد [هذا العالم]؟ [وجد] في الهباء [المادة الأولى الذهنية التي قبلت صور العالم].

⁴⁹ قال ابن العربي في مقدمة الفتوحات، مخاطبا الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم: "ثم غمس قلم الإرادة في مداد العلم، وخطَّ بيمين القدرة في اللوح المحفوظ المصون كل ما كان، وما هو كائن وسيكون وما لا يكون. فكان أول اسم كتبه ذلك القلم الأسى، دون غيره من الأسماء: إني أريد أن أخلق من أجلك يا محمد العالم الذي هو ملكك، فأخلق جوهره الماء، فخلقتها دون حجاب العزة الأحمى، وأنا على ما كنت عليه ولا شيء معي في عمّا (الغيم الرقيق الذي يحول بين الناظر وبين الشمس)".
ثم قال:

"... ولما كان هذا الفلك (الهباء) أصل الوجود، وتجلّى له اسمه النور من حضرة الجود، كان الظهور، وقيلت صورتك صلى الله عليك، من ذلك الفلك، أول فيض ذلك النور، فظهرت صورة مثلية، مشاهدا عينية، ومشارها غيبية، وجنتها عدنية، ومعارفها قلمية، وعلومها يمينية، وأسرارها مدادية، وأرواحها لوحية، وطينتها آدمية، فأنت أب لنا في الروحانية، كما كان وأشرت إلى آدم صلى الله عليه في ذلك الجمع أبا لنا في الجسمية". انتهى

وعلى أي مثال وجد [هذا العالم]؟ [وجد على] الصورة المعلومة في نفس الحق.

ولم وجد [هذا العالم]؟ [وجد] لإظهار الحقائق الإلهية [الأسمائية، التي كانت منطمسة في غيب الكنزية].

وما غايته؟ [غاية خلق العالم هو:] التخليص من المزجة [السعادة والشقاء]، فيعرف كل عالم حظه من منشئه من غير امتزاج⁵⁰. فغايته إظهار حقائقه ومعرفة أفلاك العالم الأكبر، وهو ما عدا الإنسان في اصطلاح الجماعة، والعالم الأصغر يعني الإنسان، روح العالم وعلته وسببه، وأفلاكه مقاماته وحركاته وتفصيل طبقاته. فهذا جميع ما يتضمنه هذا الباب." انتهى

ومن خلال هذا العرض السريع الذي قدّمنا، نستطيع تبين معالم أطوار خلق العالم، ابتداء من حقيقة الحقائق، التي فصلنا خصائصها في الفصل السابق. فنقول:

أولاً: كان الله ولا شيء معه، وهو ما ورد في الحديث الشريف، وزاد العارفون استنتاجاً من معرفتهم، مفاده: وهو الآن على ما هو عليه كان، وذلك للتأكيد على أن كل الخلق، لم يكن زيادة على وجود الله تعالى، لأنه لا يتجدد على الحق تعالى شيء في عملية خلقه للخلق. فوجود العالم أو عدمه، لا يغير من وجود الله تعالى. قال الشيخ الأكبر في نفس الباب السادس:

"كان الله ولا شيء معه، ثم أدرج فيه: وهو الآن على ما عليه كان، لم يرجع إليه من إيجاد العالم صفة لم يكن عليها، بل كان موصوفاً لنفسه، ومسمى قبل خلقه.." انتهى

ثانياً: لما أراد الله تعالى خلق العالم، انفعل سبحانه بتجلّ تنزيهي لا نعلم كنهه، إلى حقيقة الحقائق (الذهنية المعقولة الافتراضية) ليوحد فيها حقيقة تسمى: الهباء، عبارة عن المادة الأولية للوجود الصوري للعالم. وهذه المادة الأولى أو الهيولى في اصطلاح الحكماء. قال الشيخ الأكبر:

⁵⁰ قال الشيخ الأكبر في مقدمة الفتوحات، مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلّم: "ولما أبصرت حقائق السعداء والأشقياء، عند قبض القدرة عليهما، بين العدم والوجود، وهي حالة الإنشاء: حسن النهاية، بعين الموافقة والهداية، وسوء الغاية، بعين المخالفة والغواية، سارعت السعيدة إلى الوجود، وظهر من الشقية التثبط والإبابة، ولهذا أخبر الحق عن حالة السعداء، فقال: "أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون" (المؤمنون: 61) يشير إلى تلك السرعة. وقال في الأشقياء "فتثبطهم وقيل اقعدها مع القاعدين" (التوبة: 46) يشير إلى تلك الرجعة. فلولا هبوب تلك النفحات على الأجساد ما ظهر في هذا العالم سالك غي ولا رشاد، ولتلك السرعة والتثبط أخبرتنا صلى الله عليك، أن رحمة الله سبقت غضبه، هكذا نسب الراوي إليك." انتهى

" فلما أراد وجود العالم، وبدأه على حد ما علمه بعلمه بنفسه، انفعل عن تلك الإزادة المقدسة بضرب تجل من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية، انفعل عنها حقيقة تسمى: الهباء، هي بمنزلة طرح البناء الحص، ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور، وهذا هو أول موجود في العالم. وقد ذكره علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسهل بن عبد الله رحمه الله وغيرهما من أهل التحقيق أهل الكشف والوجود." انتهى

ثالثاً: لما تجلى الاسم النور لهذا الهباء، ظهر العقل الأول، كأول موجود فيه، وهو المعبر عنه: بمظهر الحقيقة المحمدية. فكان وجودها من النور الإلهي والهباء، في حقيقة الحقائق. يقول ابن العربي:

" ثم إنه سبحانه تجلى بنوره إلى ذلك الهباء، وأصحاب الأفكار يسمونه: الهيولى الكل، والعالم كله فيه بالقوة والصلاحية، فقبل منه تعالى كل شيء في ذلك الهباء على حسب قوته واستعداده، كما تقبل زوايا البيت نور السراج، وعلى قدر قربته من ذلك النور يشتد ضوء وقبوله. قال تعالى: "مثل نوره كمشكاة فيها مصباح" فشبه نوره بالمصباح، فلم يكن أقرب إليه قبولاً في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم المسماة بالعقل، فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الإلهي، ومن الهباء، ومن الحقيقة الكلية. وفي الهباء وجد عينه وعين العالم من تجليه، وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين..." انتهى

رابعاً: وهذا العالم الذي انتشأ من الهباء، وجد عن مثال معلوم عند الحق تعالى، مثال، كان موجوداً في علم الله تعالى في شكل ثبوتي. فالقول أن العالم انتشأ من العدم الصرف المطلق قول لا صحّة له ولا معنى، بل يخالف الحقائق الوجودية. ويناقش الشيخ الأكبر هذه الحقيقة، بقوله:

" وأما المثال الذي عليه وجد العالم كله، من غير تفصيل، فهو: العلم القائم بنفس الحق تعالى. فإنه سبحانه علمنا بعلمه بنفسه، وأوجدنا على حد ما علمنا، ونحن على هذا الشكل المعين في علمه، ولو لم يكن الأمر كذلك لأخذنا هذا الشكل بالاتفاق لا عن قصد، لأنه لا يعلمه، وما يتمكن أن تخرج صورة في الوجود بحكم الاتفاق، فلولا أن هذا الشكل المعين معلوم لله سبحانه ومراد له، ما أوجدنا عليه، ولم يأخذ هذا الشكل من غيره، إذ قد ثبت أنه كان ولا شيء معه، فلم يبق إلا أن يكون ما برز عليه في نفسه من الصورة. فعلمه بنفسه، علمه بنا أولاً لا عن عدم، فعلمه بنا كذلك، فمثالنا الذي هو عين علمه بنا قديم بقدم الحق لأنه صفة له ولا تقوم بنفسه الحوادث جل الله عن ذلك.." انتهى

خامساً: لما أراد الله تعالى أن يُعرف، وهو في غيب الكَنزِية ، أظهر الأسماء والصفات، فكان خلق العالم من أجل إظهار حقائقها، التي تطلب المعرفة، أي التحقق بالعبادة، فأنشأ حقائق السعادة والشقاء ممتزجة ببعضها، وجعل التخلص من المزجة غاية الخلق. يقول الشيخ الأكبر:

"وأما قولنا: ولم وجد؟ وما غايته؟ يقول الله عز وجل: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فصرح بالسبب الذي لأجله أوجدنا، وهكذا العالم كله، وخصّصنا والجن بالذكر. والجن هنا كل مستتر من ملك وغيره، وقد قال تعالى في حق السموات والأرض: "أنتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين" وكذلك قال: "فأبين أن يحملنها" وذلك لما كان عرضاً، وأمّا لو كان أمراً لأطاعوا وحملوها، فإنه لا تتصور منهم معصية، جبلوا على ذلك. والجن الناري والإنس ما جبلا على ذلك. وكذلك من الإنس أصحاب الأفكار من أهل النظر والأدلة المقصورة على الحواس والضرورات والبدهييات يقولون: لا بد أن يكون المكلف عاقلاً بحيث يفهم ما يخاطب به، وصدقوا، وكذلك هو الأمر عندنا: العالم كله عاقل حي ناطق من جهة الكشف بخرق العادة التي الناس عليها، أعني حصول العلم بهذا عندنا، غير أنهم قالوا: هذا جماد لا يعقل، ووقفوا عندما أعطاهم بصرهم، والأمر عندنا بخلاف ذلك. فإذا جاء عن نبي أن حجراً كلمه، أو كتف شاة، أو جذع نخلة، أو بهيمة، يقولون: خلق الله فيه الحياة والعلم في ذلك الوقت، والأمر عندنا ليس كذلك، بل سر الحياة في جميع العالم، وإن كل من يسمع المؤذن من رطب ويابس يشهد له، ولا يشهد إلا من علم. هذا عن كشف عندنا، لا عن استنباط من نظر، بما يقتضيه ظاهر خبر، ولا غير ذلك، ومن أراد أن يقف عليه فليسلك طريق الرجال، وليلزم الخلوة والذكر، فإن الله سيطلعه على هذا كله عيناً، فيعلم أن الناس في عماية عن إدراك هذه الحقائق.

فأوجد العالم سبحانه ليظهر سلطان الأسماء، فإن قدرة بلا مقدور، وجُوداً بلا عطاء، ورازقاً بلا مرزوق، ومغيثاً بلا مغاث، ورحيماً بلا مرحوم، حقائق معطلة التأثير، وجعل العالم في الدنيا ممتزجاً مزج القبضتين في العجنة، ثم فصل الأشخاص منها، فدخل من هذه في هذه، من كل قبضة في أختها، فجعلت الأحوال، وفي هذا تفاضلت العلماء في استخراج الخبيث من الطيب، والطيب من الخبيث، وغايته التخلص من هذه المزجة، وتمييز القبضتين، حتى تنفرد هذه بعالمها وهذه بعالمها، كما قال الله تعالى: "ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم" فمن بقي فيه شيء من المزجة حتى مات عليها لم يحشر يوم القيامة من الأمنين، ولكنه منهم من يتخلص من المزجة في الحساب، ومنهم من لا يتخلص منها إلا في جهنم، فإذا تخلص أُخرج، فهؤلاء هم أهل الشفاعة، وأمّا من تميز هنا في إحدى القبضتين، انقلب إلى الدار الآخرة بحقيقته، من قبره إلى

نعيم أو إلى عذاب وجحيم، فإنه قد تخلص، فهذا غاية العالم. وهاتان حقيقتان راجعتان إلى صفة، هو الحق عليها في ذاته، ومن هنا قلنا: يراه أهل النار معذباً، وأهل الجنة منعماً، وهذا سرّ شريف ربما تقف عليه في الدار الآخرة عند المشاهدة إن شاء الله، وقد نالها المحققون في هذه الدار". انتهى

هكذا إذن، نكتشف قول الشيخ الأكبر، أن أول منفعل عن الحقيقة الكلية، بتوجه الإرادة الإلهية: هو الهباء الأصلي الأول، الذي ظهرت فيه الحقيقة المحمّدية، ومنها برز العالم. أي كأن الحقيقة المحمّدية هي هباء العالم. ولهذا نجد الشيخ عبد الكريم الجيلي، يطابق بين الحقيقة المحمّدية والهباء، في تعليقه على خلاصة الباب السادس من كتابه: "شرح مشكلات الفتوحات المكية" حيث يعتبر أن الحق تعالى قسم الوجود قسمين من غير تعدّد في العين، ثم قال:

"... فسمى أحد القسمين بالواجب والقديم والرب والفاعل، وسمى القسم الثاني بالممكن والمحدث والعبد والمنفعل. فأول ما ظهر من ذلك القسم الثاني، محل حكمي سماه بالهباء وبالهيولى، لأن العالم كلّه متحيّز، ولا بدّ للمتحيّز من مكان يحله، فإن كان المكان مخلوقاً، فقد دخل في حكم العالم، ولا بدّ له من مكان، هكذا إلى أن يتسلسل أو يدور أو ينتهي محل حكمي لا يقال أنه خلق، لئلا يدخل في جنس العالم، ولا حق على الإطلاق، لأن الحق ليس بظرف لغيره، كما أن غيره لا يكون ظرفاً له. فالهباء هو الحق المخلوق، ونقيّد الحق هنا بالخلقية في هذه المرتبة من أجل ذلك الانقسام، وهذا المعنى بالهباء وهو الهيولى المعبر عنه عند المحققين بالعقل الأول، والروح المحمّدية، والقلم الأعلى، فكانت الحقيقة المحمّدية أول مخلوق، وكانت على النسخة الإلهية: صورة ومعنى"⁵¹ انتهى

ويذهب العارفون بالله، وعلى رأسهم الشيخ الأكبر، إلى أن العالم لا وجود ذاتي له إلا الوجود الصوري الافتراضي، بحيث أن كل المخلوقات في الهباء، هي من جنسه، وهو، أي الهباء، حقيقة صورية معقولة، لا تستقل بالوجود العيني الذاتي، بل لا تعدو المخلوقات أن تكون أعراضاً زائلة، سماها الشاعر **ليبيد**: باطلاً، ووافق الرسول صلى الله عليه وسلّم. يقول ابن عربي في الفصل التاسع من الباب: (371):

"اعلم أن العالم عبارة عن كل ما سوى الله، وليس إلا الممكنات، سواء وجدت أو لم توجد، فإنها بذاتها علامة على علمنا أو على العلم بواجب الوجود لذاته، وهو الله. فإن الإمكان حكم لها لازم في

⁵¹ عبد الكريم الجيلي، شرح مشكلات الفتوحات المكية..

حال عدمها ووجودها، بل هو ذاتي لها، لأن الترجيح لها لازم. فالمرجوح معلوم، ولهذا سمي عالماً من العلامة لأنه الدليل على المرجح، فاعلم ذلك.

وليس العالم في حال وجوده بشيء سوى الصور التي قبلها العماء وظهرت فيه. فالعالم، إن نظرت حقيقته، إنما هو عرض زائل، أي في حكم الزوال، وهو قوله تعالى: "كل شيء هالك إلا وجهه"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصدق بيت قالته العرب، قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل". يقول: ما له حقيقة يثبت عليها من نفسه، فما هو موجود إلا بغيره. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "أصدق بيت قالته العرب، قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل".

فالجوهر الثابت هو العماء، وليس إلا نفس الرحمن. والعالم، جميع ما ظهر فيه من الصور، فهي أعراض فيه، يمكن إزالتها. وتلك الصور هي الممكنات، ونسبتها من العماء نسبة الصور من المرأة، تظهر فيها لعين الرائي. والحق تعالى هو بصر العالم، فهو الرائي وهو العالم بالممكنات، فما أدرك إلا ما في علمه من صور الممكنات، فظهر العالم بين العماء وبين رؤية الحق، فكان ما ظهر دليلاً على الرائي، وهو الحق، فتفطن، واعلم من أنت "انتهى

لكن: هل العالم صادر عن العماء، الذي هو النفس الرحماني، والحق المخلوق به؟؟ أم أنه صادر عن الجوهر الهبائي؟؟

لقد ناقش الشيخ الأكبر مسألة نسبة العالم المخلوق للعماء أو للهباء، وفسر الفرق بين القولين، وما ينتج عن القولين من موقفين بخصوص الأفعال ونسبتها إلى الله تعالى، أو إلى الله والإنسان بالإشتراك، فينسب المحمود لله وينسب المذموم للإنسان. وذلك في معرض حديثه عن مسألة فقهية، مرتبطة بالفدية في الحجّ، فيفصل في وصل المسألة ويفرق بين نظريتين: فالمعلوم أن الأفعال تصدر عن الصورة، ولكن اختلف في تعريف الصورة: هل هي الحق المخلوق به؟؟ أم هي العالم؟؟ الأولى: تعتبر أن الحق المخلوق، هو الصورة التي تظهر في العالم، الذي هو أعيان الممكنات، أي الجوهر الهبائي، وأن الفعل هو فعل الله، أو فعل الحق.

الثانية: ترى أن شرط وجود الجوهر الهبائي هو حصول الصورة، ولا يوجد الجوهر الهبائي إلا بالصورة، وبالتالي يكون الفعل من الله ومن الإنسان، يقبله الجوهر الهبائي، على شكل صور.

يقول الشيخ الأكبر مفسراً ذلك:

"وأصل ما ينبت عليه هذا الباب وجميع أفعال العبادات كلها علم إضافة الأفعال: هل تضاف إلى الله أو إلى العباد؟ أو إلى الله وإلى العباد؟ فإن وجودها محقق، ونسبتها غير محققة. فلنقل أولاً: في ذلك قولاً إذا حقيقته ونظرت فيه نظر منصف، عرفته أو قاربت، فإني أفصل ولا أعين الأمر على ما هو في نفسه، لما فيه من الضرر واختلاف الناس فيه، والخلاف لا يرتفع من العالم بقولي، فإبقاؤه في

العموم على إبهامه أولى، وعلماء رجالنا يفهمون ما أومئ إليه فيها. فأقول: إن الله قد قال: إنه ما خلق الله الخلق إلا بالحق، وتكلم الناس في هذا الحق المخلوق به وما صرح أنه به، ما هو إلا أنهم أشاروا إلى أمور محتملة، فاعلم، أن الحق المخلوق به، والعالم المخلوق، أمران محققان، أنهما أمران عند الجميع، غير أنهما نظيرا الجوهر الهبائي والصورة، ومعلوم عند الجماعة أن الأفعال تصدر من الصورة، ولكن من هو الصورة؟ هل العالم أو المخلوق به الذي هو الحق، الذي قال الله فيه "ما خلقناهم إلا بالحق وبالحق أنزلناه وبالحق نزل"؟ فمن رأى أن الحق المخلوق به مُظهر صور العالم، ظهرت فيه بحسب ما تعطيه حقائق الصور على اختلافها بحسب الأفعال إلى الخلق، ومن رأى أن أعيان الممكنات التي هي العالم هو الجوهر الهبائي، وأن الحق المخلوق به هو الصورة في هذا العالم، وتنوّعت أشكال صورته لاختلاف أعيان العالم، فاختلفت عليه النعوت والألقاب، كما تنسب الأسماء الإلهية من اختلاف آثارها في العالم. فمن رأى هذا، نسب الفعل إلى الله بصورة الصورة الظاهرة، ومن رأى أن ظهور الصورة لا يتمكّن إلا في الجوهر الهبائي، وإن الوجود لا يصح للجوهر الهبائي في عينه إلا بحصول الصورة، فلا تعرف الصورة إلا بالجوهر الهبائي، ولا يوجد الجوهر الهبائي إلا بالصورة، نسب الأفعال إلى الله بوجه وإلى العباد بوجه، فعلق المحامد والحسن بما ينسب من الأفعال للحق، وعلق المذام والقبح مما ينسب من الأفعال للعباد بالخلق، الذي هو العالم، لحكم الاشتراك العقلي والتوقف في العلم بكل واحد منهما، وتوقف كمال الوجود على وجودهما، وقد رميت بك على الجادة، فهذا تفسير: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" فنفي الرمي عن أثبت له ... فأثبت بهذه الآية أن أعيان العالم هو الجوهر الهبائي إلا أنه لا يوجد إلا بوجود الصورة، وكذلك أعيان العالم ما اتصفت بالوجود إلا بظهور الحق فيها. فالحق المخلوق به لها كالصورة، وقد أعلمتك إن الفعل كله إنما يظهر صدوره من الصورة، وهو القائل: "ولكن الله رمى" فكان الحق عين الصورة التي نشاهد الأعمال منها، فتحقق ما ذكرناه، فإنه لا أوضح مما بين الله في هذه الآية، وبيناه نحن في شرحنا إياها على التفصيل، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم...

52. انتهى

خلاصة القول: أن حقيقة الحقائق الجامعة للكل، لها مظاهر: ففي حضرة الذات، تظهر خصوصا في مرتبة الوحدة الجامعة للأحادية والواحدية، وفي حضرة القدم، تظهر خصوصا في العماء الذي كان فيه ربنا قبل خلق الخلق - وكان هنا حرف وجودي لا يعني الزمان السابق، لأن الزمان من جملة الخلق - وفي حضرة الحدوث، تظهر أولا في الهباء الأصلي الذي ظهرت فيه الحقيقة المحمدية، بتجلي النور الإلهي، ومن تلك الحقيقة برز العالم كله بدءا من الأرواح العالية في الهباء النوري.

قال الشيخ الأكبر حول هذا المعنى في الفصل الأول من الباب (371) من الفتوحات ما خلاصته: "فأول صورة قبل نفس الرحمن صورة العماء، فهو بخار رحماني فيه الرحمة، بل هو عين الرحمة. فكان ذلك أول ظرف قبله وجود الحق، فكان الحق له كالقلب للإنسان... ثم إن جوهر ذلك

52 الفتوحات المكية، الباب الثاني والسبعون، وصل في فصل فدية الأذى.

العماء قبل صور الأرواح من الراحة والاسترواح إليها، وهي الأرواح المهيمة، فلم تعرف غير الجوهر الذي ظهرت فيه وبه، وهو أصلها، وهو باطن الحق وغيبه، ظهر فظهر فيه، وبه العالم، فإنه من المحال أن يظهر العالم من حكم الباطن، فلا بد من ظهور حق به يكون ظهور صور العالم، فلم يكن غير العماء، فهو الاسم الظاهر الرحمان، فهامت في نفسها.

ثم إن واحدا من هذه الصور الروحية، بتجل خاص علمي، انتقش فيه علم ما يكون إلى يوم القيامة مما لا تعلمه الأرواح المهيمة، فشاهدتهم وهم لا يشاهدونه، ولا يشهد بعضهم بعضا، فرأى نفسه مركبا منه، ومن القوة التي وجدها علم بها صدوره كيف كان، وعلم أن في العلم حقائق ومعقولات، سماها معقولات من حيث أنه عقلها لما تميّزت عنده، فهي للحق معلومات، يظهر حكمها في الحق، فتنسب إليه وتسمى: أسماء إلهية، وتنسب أيضا إلى الخلق، بما يظهر من حكمها فيه، فينسب إليها من نعوت الحدوث ما ينسب إلى الخلق، فهي الحادثة القديمة والأبدية الأزلية. وعلم عند ذلك هذا العقل أن الحق ما أوجد العالم إلا في العماء، ورأى أن العماء نفس الرحمان، ورأى في جوهر العماء صورة الإنسان الكامل الذي هو للحق بمنزلة ظل الشخص من الشخص، ورأى نفسه ناقصا عن تلك الدرجة، وقد علم ما يتكون عنه من العالم إلى آخره في الدنيا وفي المولدات، فعلم أنه لا بدّ أن يحصل له درجة الكمال التي للإنسان الكامل، وإذ لم يكن فيها مثل الإنسان، فإن الكمال في الإنسان الكامل بالفعل، وهو في العقل الأول بالقوة، ولهذا وجد العالم في عينه، فأخرجه من القوة إلى الفعل، ليتصف بكمال الاقتدار، ولو كان في الإمكان إيجاد الممكنات كلها لما ترك منها واحدا منعوتا بالعدم، لكن يستحيل ذلك لعدم التناهي، وما يدخل في الوجود فلا بدّ أن يكون متناهيا".

وبتجل إلهي آخر، ظهر اللوح المحفوظ، الذي هو ظل العقل الأول:

"فتجلى له الحق، فرأى لذاته ظلا، فكان ذلك الظل الممتد عن ذات العقل من نور ذلك التجلي وكثافة المحدث بالنظر إلى اللطيف الخبير نفّسا، وهو اللوح المحفوظ، والطبيعة الذاتية مع ذلك كله، وتسمى هناك: حياة وعلم وإرادة وقولا، كما تسمى في الأجسام: حرارة ويبوسة ورطوبة وبرودة، كما تسمى في الأركان: نارا وهواء وماء وترابا، كما تسمى في الحيوان: سوداء وصفراء وبلغم ودما، والعين واحدة والحكم مختلف".

وعن طريق النكاح المعنوي، بين العقل وظله، ظهر عرش الرحمن، من ظلمة العماء، الذي لم يقبل نور التجلي الأول:

"ثم صرف العقل وجهه إلى العماء، فرأى ما بقي منه لم يظهر فيه صورة، وقد أبصر ما ظهرت فيه الصور منه قد أثار بالصور، وما بقي دون صورة رآه ظلمة خالصة، ورأى أنه قابل للصورة والاستنارة، فاعلم أن ذلك لا يكون إلا بالتحامك بظلك، فعَمّه التجلي الإلهي. فلَمّا عمّه نور التجلي رجع ظله إليه واتحد به، فكان نكاحا معنويا، صدر عنه العرش الذي ذكر الحق أنه استوى عليه الاسم الرحمن." انتهى

الفصل الخامس

الهباء الجسمي

أعلى ما يشبهها (حقيقة الحقائق/الحقيقة التائهة) من المحدثات: الهباء، الذي خلق فيه صور العالم، ثم النور، أنزل منه في الشبه بها، فإن النور صورته في الهباء، كما أن الهباء صورته فيها، وأنزل شيئاً من النور بها الهواء، وأنزل منه الماء، وأنزل منه المعادن، وأنزل منه الخشب وأمثاله، إلى أن تنتهي إلى شيء لا يقبل إلا صورة واحدة إن وجدته.....فهذه الحقيقة التائهة التي تتضمن الحقائق التائهات.

الشيخ الأكبر: محي الدين بن العربي

الباب الثاني من الفتوحات: في معرفة مراتب الحروف والحركات من العالم

رأينا في آخر الفصل الثالث، أن النكاح المعنوي بين القلم الأعلى واللوح قد صدر منه العرش المحيط، أي أنّ مرتبة العرش تأتي مباشرة بعد مرتبة اللوح المحفوظ، لكن في كثير من المواضع الأخرى من كتبه، يوضح الشيخ الأكبر أن بين اللوح والعرش: أربع مراتب ليس لها وجود عيني، وهي التي عبّر عنها الأمير عبد القادر بقوله:

"ثم بعدما أوجد الله تعالى الأرواح العالية [أي المهيمون والقلم واللوح] إيجاداً شهادياً عينياً، عين الله تعالى مرتبة الطبيعة، ثم عين بعدها مرتبة الهباء [أي هباء الأجسام وليس الهباء الأول المنفصل مباشرة عن الحقيقة الكلية المذكور سابقاً]، وهو المسمى بالهبول في اصطلاح الحكماء، ثم عين الله تعالى بعدها مرتبة الجسم الكلّ، ثم عين الشكل الكلّ. وهذه الأربعة يطلق عليها اسم: الخلق التقديري، لا الخلق الإيجادي، فإنها غير موجودة في أعيانها، وإنما هي أمور كلية معقولة كالأسماء الإلهية. ومعنى قولنا في هذه الأربعة أنه تعين كذا ثم كذا: أنه تعالى لو أوجدها في العيان لكانت هذه مراتبها، مرتبة كما ذكرناها." ⁵³ انتهى

ولهذا نجد الشيخ في الباب الحادي عشر من الفتوحات يقول إنّ النكاح المعنوي بين القلم واللوح أنتج توأمين، هما: الطبيعة والهباء، فكان أول أمّ (أي النفس الكلّية أو اللوح المحفوظ) ولدت توأمين، فأول ما ألفت: الطبيعة، ثم تبعها بالهباء، فأنكح الطبيعة الهباء، فولد بينهما صورة الجسم الكلي، وهو أول جسم ظهر، فكان الطبيعة الأب، فإن لها الأثر، وكان الهباء الأمّ، فإن فيها ظهر الأثر، وكانت النتيجة الجسم (أي جسم العرش). ثم نزل التوالد في العالم إلى التراب على ترتيب مخصوص.

والذي يهمننا في هذا العرض، هو اكتشافنا لهباء ثان، تحدث عنه الشيخ الأكبر، يختلف من حيث الرتبة، عن الهباء الأول النوراني، وهو هباء دون اللوح المحفوظ في المرتبة، قال عنه الشيخ الأكبر:

"فاعلم أن الله تعالى لما خلق القلم واللوح، وسماهما العقل والروح، وأعطى الروح صفتين: صفة علمية وصفة عملية، وجعل العقل لها معلماً ومفيداً وإفادة مشاهدة حالية، كما تستفيد من

⁵³ عبد القادر الجزائري، المواقف، تحقيق: عبد الباقي مفتاح، ج 2، موقف 248، فصل 8، ص 581، طبعة: دار الهدى، عين ميلة الجزائر، سنة: 2007.

صورة السكين القطع، من غير نطق يكون منه في ذلك، وخلق تعالى جوهرًا دون النفس الذي هو الروح المذكور، سماه: الهباء، وهذه الاسمية له نقلناها من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأما الهباء، فمذكور في اللسان العربي، قال تعالى: "فكانت هباء منبثًا"، كذلك لما رآها علي بن أبي طالب، أعني هذه الجوهرية، منبثة في جميع الصور الطبيعية كلها، وأنها لا تخلو صورة منها، إذ لا تكون صورة إلا في هذه الجوهرية، سماها هباء، وهي مع كل صورة بحقيقتها لا تنقسم، ولا تتجزأ، ولا تتصف بالنقص، بل هي كالبياض الموجود في كل أبيض بذاته وحقيقته، ولا يقال قد نقص من البياض قدر ما حصل منه في هذا الأبيض، فهذا مثل حال هذه الجوهرية.

وعين الله سبحانه بين هذا الروح الموصوف بالصفتين [العلمية والعملية] وبين الهباء، أربع مراتب، وجعل كل مرتبة منزلًا لأربعة أملاك [أي بين اللوح والهباء: مرتبة الطبيعة بأركانها الأربعة: حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، لكل ركن ملك]، وجعل هؤلاء الأملاك كالولادة على ما أحدثه سبحانه دونهم من العالم، من عليين إلى أسفل سافلين، ووهب كل ملك من هؤلاء الملائكة علم ما يريد إمضاءه في العالم. فأول شيء أوجده الله في الأعيان مما يتعلق به علم هؤلاء الملائكة وتديريهم، الجسم الكلي، وأول شكل فتح في هذا الجسم: الشكل الكروي المستدير، إذ كان أفضل الأشكال، ثم نزل سبحانه بالإيجاد والخلق إلى تمام الصنعة، وجعل جميع ما خلقه تعالى مملكة لهؤلاء الملائكة، وولاهم أمورها في الدنيا والآخرة، وعصمهم عن المخالفة فيما أمرهم به، فأخبرنا سبحانه أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون....." انتهى

ولا بد من توضيح بعض النقاط الضرورية للبحث، تعرض لها الشيخ الأكبر في مختلف نصوصه:

أولاً: في الفصل الرابع عشر من الباب 198 يفصل الشيخ حقيقة الهباء، ويقول أن الاسم "الآخر" هو المتوجه على خلق هذا الجوهر الهبائي. فلماذا نسب الشيخ الهباء للاسم "الآخر"؟

الجواب - والله أعلم - أن حقيقة الهباء لا تظهر حتى تظهر الأشياء والصور الموصوفة بالجسمية، من العرش إلى المركز، لأنه هو مظهرها، وهذه الصور تتغير في كل آن إلى ما لا نهاية. إذن، فحقيقة الهباء: هي آخر ما يظهر من المظاهر الصورية، مع أن هذه المظاهر لا تظهر إلا فيه.

يقول الشيخ - مع اختصار كبير لكلامه:

"اعلم أن هذا الجوهر مثل الطبيعة، لا عين له في الوجود، وإنما تظهره الصورة، فهو معقول غير موجود الوجود العيني، وهو في الرتبة الرابعة من مراتب الوجود، كما هو الحال المهملة في المرتبة الرابعة من مخارج الحروف في النفس الإنساني، ونسميه العنقاء، فإنه يُسمع بذكره ويعقل ولا وجود له في العين، ولا يعرف على الحقيقة إلا بالأمثلة المضروبة. وهو كلٌّ أمر يقبل بذاته الصور المختلفة التي تليق به، وهو في كل صورة بحقيقته. واعلم أن هذا المعقول الرابع من وجود العقل [أي الأول هو العقل، والثاني اللوح والثالث الطبيعة] فيه تظهر العين التي تقبل حكم الطبيعة وهو الجسم الكل". انتهى

ثانياً: يبيّن الشيخ مرتبة الهباء الجسمي، فيقول:

"وهذا المعقول إنّما قيّدنا مرتبته بأنها الرابعة من حيث نظرنا إلى قبوله صورة الجسم خاصّة. وإنما بالنظر إلى حقيقته، فليست هذه مرتبته ولا ذلك الاسم اسمه، وإنما اسمه الذي يليق به: الحقيقة الكلية، التي هي روح كل حق، ومتى خلا عنها حق فليس حقاً..."

ويظهر من النص الأخير أن الشيخ الأكبر يرجع سرّ الهباء الجسمي إلى سرّ الحقيقة الكلية، بل إنه يذكر هبئات أخرى، ترجع في الأخير إلى الحقيقة الكلية الجامعة. يقول الشيخ:

"فالمعنى القابل لصورة الجسم هو المذكور المطلوب في هذا الفصل، وهو الهباء له، والجسم القابل للشكل هو هباء، لأنه الذي يقبل الأشكال لذاته، ويظهر فيه كلّ شكل، وليس في الشكل معه شيء، وما هو عين الشكل.

والأركان (أي الهواء والماء والنار والتراب) هباء للمولدات (أي المعادن والنبات والحيوان) وهذا هو الهباء الطبيعي. والحديد وأمثاله هباء لكل ما تصوّر منه، من سكين وسيف وسانن وقدوم ومفتاح، وكلها صور أشكال، ومثل هذا يسمى الهباء الصناعي. فهذه أربعة عند العقلاء [الهباء النوري والجسمي والطبيعي والصناعي]، والأصل هو الكل، وهو الذي وضعنا له هذا الفصل، وزدنا نحن حقيقة الحقائق، وهي التي ذكرناها في هذا الفصل، التي تعمّ الخلق والحق، وما ذكرها أحد من أرباب النظر إلا أهل الله..." انتهى

ثالثاً: يطلق على الهباء أيضاً اسم: العنقاء، ويفسر الأمير عبد القادر سبب إطلاق هذه التسمية

عليه بقوله:

"...مثلاً: السرير صورة، هيولاها قطع الخشب، وقطع الخشب صورة، هيولاها الشجر، والشجر صورة، هيولاها العناصر، والعناصر صورة، هيولاها الهيولى الكل. وبعض أهل الله يسمي الهباء: العنقاء، لأن العنقاء طائر يطير في القاف (أي فوق جبل قاف المحيط بالأرض) يسمع باسمه ولا يرى"⁵⁴
انتهى

ولهذا نجد الشيخ في تعريفه لحرف قاف في الباب الثاني من الفتوحات يقول عنه: "يوجد عنه الإنسان والعنقاء".

ويسمى الهباء أيضاً: بالسبخة السوداء، كما أشار إليه الشيخ في جوابه عن السؤال (153) من أسئلة الحكيم الترمذي حيث يقول:

"فإن قلت: وما السكينة؟ قلنا: ما تجده من الطمأنينة عند تنزل الغيب بالحرف. فإن قلت: وما الحرف؟ قلنا: ما يخاطبك به الحق من العبارات، مثل ما أنزل القرآن على سبعة أحرف، والحرف صورة في السبخة السوداء. فإن قلت: وما السبخة؟ قلنا الهباء الذي فتح فيه صور أجسام العالم المنفعل عن الزمردة الخضراء. فإن قلت: وما الزمردة الخضراء؟ قلنا: النفس المنبعثة عن الدرّة البيضاء. فإن قلت: وما الدرّة البيضاء؟ قلنا: العقل الأول صاحب السمسمة. فإن قلت: وما السمسمة؟ قلنا: معرفة دقيقة في غاية الخفاء تدق عن العبارة ولا تدرك بالإشارة مع كونها ثمرة شجرة. فإن قلت: وما هذه الشجرة؟ قلنا: الإنسان الكامل مدبر هيكل الغراب. فإن قلت: وما الغراب؟ قلنا: الجسم الكل الذي ينظر إليه العقاب بواسطة الوراقاء. فإن قلت: وما العقاب؟ قلنا: الروح الإلهي الذي ينفخ الحق منه في الهياكل كلها أرواحها المحركة لها والمسكنة. والوراقاء: النفس التي بين الطبيعة والعقل، ودون الطبيعة هي العنقاء. فإن قلت: وما العنقاء؟ قلنا: الهباء، لا موجود ولا معدوم" انتهى

إذن، فمن أسماء القلم الأعلى: العقل الأول، صاحب علم السمسمة، وهو الروح الكلّ، وهو الدرّة البيضاء، وهو العقاب.

ومن أسماء اللوح المحفوظ: النفس الكلية، والزمردة الخضراء (لأن الأخضر مزيج بين السواد والبياض، فسوادها من نظرها للطبيعة السوداء، وبياضها من استمدادها من الدرّة البيضاء) وهي الوراقاء.

⁵⁴ عبد القادر الجزائري، المواقف، تحقيق: عبد الباقي مفتاح، ج 2، موقف 248، فصل 11، ص 588، طبعة: دار الهدى، عين ميلة الجزائر، سنة: 2007.

ومن أسماء الهباء: السبخة السوداء، والعنقاء.

ومن أسماء الجسم الكلّ: الغراب.

وقد خصص الشيخ، للإفصاح عن حقيقة هذه الطيور الأربعة الرمزية الكائنة عند شجرة الإنسان الكامل (العقاب والورقاء والعنقاء والغراب)، خصص رسالة بديعة عنونها: "رسالة الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني، بمحضر الشجرة الإنسانية، والطيور الأربعة الروحانية" فأعرب عن مرتبة الهباء في فصل تحت عنوان: "خطبة الغريبة العنقاء" حيث قال – ونجعل بين قوسين شرحاً موجزاً لبعض الكلمات:

"... قامت العنقاء تعرب عن وجودها وتعرب بعزة حدّها، قالت: أنا عنقاء مغرب مازال مسكني بالمغرب بالمقام الوسيط على سيف البحر المحيط [يشير الشيخ هنا إلى علاقة العنقاء بجبل قاف الدائر بالأرض ومن ورائه البحر المحيط، وهو هنا يرمز إلى العرش المحيط أو الجسم الكل الذي من ورائه بحر الطبيعة، أخت الهباء كما سبق بيانه] اكتنفتي العزّ من الجهتين [عزّ اللوح المحفوظ، أم الهباء، وعزّ العرش العظيم، ابن الهباء] وما ظهر قط لوجودي عين [لأن الهباء مرتبة تقديرية لا عينية]."

فأنا التي لا عين لي موجود

فأنا التي لا حكم لي مفقود

[لأن جميع الصور الكونية تحت حكم هذا الجوهر الهبائي]

عنقاء مغرب قد تُعُورف ذكرها

عرفا وباب وجودها مسدود

ما صيّر الرحمن ذكري باطلا

لكن لمعنى سرّه المقصود

[ذكر اسم الرحمن لأنه هو المستوي على العرش، ومرتبة الهباء فوق العرش، وقد ورد ذكر اسم

الهباء في القرآن الكريم. والسرّ المقصود من وراء حقيقة الهباء هي حقيقة الحقائق الكلية]

هو أنني وهابة أسرارهم

عرفانها فصراطنا ممدود

والسالكون على مراتب نورهم

فأجلهم من نوره التجريد

[هنا يقارن الشيخ بين الهباء الكوني وبين مرتبة الهباء الإنساني عند أهل السير والسلوك، إذ ما من مرتبة في الكون إلا ولها مثلها في الإنسان. فمرتبة الهباء في باطن السالك هي مقام التجريد الذي عرفه الشيخ في (رسالة اصطلاح الصوفية) بقوله: هو إماطة السوى والسكون من القلب والسر. فالتجريد العرفاني هو الاعتقاد عن كل صورة عرفانية بعدم الوقوف معها والتقيّد بها. بل كل صور المقامات ومعارفها ما هي إلا صور جزئية للتجريد، مثلها مثل الصور الكونية التي هي صور جزئية في الهباء، ولهذا قيل: صاحب التجريد أسود الوجه في الدارين، كما قيل عن الهباء إنه السبخة السوداء كلون الكعبة].

(ثم واصلت العنقاء خطبتها قائلة):

بي تكون الحدود، وعليّ توقّف الوجود، يُسمع بذكري ولا أرى، وليس الحديث بي حديثا يفترى، أنا الغريبة العنقاء وأمّي المطوّقة الورقاء [أي النفس الكليّة أو اللوح المحفوظ] ووالدي العقاب المالك [أي العقل الأول أو القلم الأعلى] وولدي الغراب الحالك [أي الجسم الكلي]. أنا عنصر النور والظلم ومحلّ الأمانة والتّهم، لا أقبل النور المطلق فإنّه ضدّي، ولا أعرف العلم فإنّي ما أعيد وما أبدي. كلّ من أثنى عليّ فهو بعيد الفهم، مقهور تحت سلطان الوهم [أي لأنه ليس لهباء الصور الجسمية وجود عيني، وإنما هو من الخلق الاعتباري التقديري المعقول فقط] ما لي عزّة فأحتمي، وهياكل الكون الأعلى والأسفل إليّ تنتمي، أنا الحقيقة الإمعة لما عندي من السعة، نلبس لكل حالة لبوسها: إما نعيمها أو بؤسها، لا أعجز عن حمل الصورة وليس لي في الصورة المعلومة سورة [أي ليس لي في الصور الوجودية العينية مرتبة، بل مرتبة تقديرية معقولة] لكن وهبت أن أهب العلوم ولست بعالمة، وأمنح الأحكام ولست بحاكمة، لا يظهر شيء لم أكن فيه، ولا يحصله طالب مدرك ولا يستوفيه، فهذا القدر عظمتُ في أعين المحققين [أي أن أهل التحقيق يعلمون أن هباء الصور الجسمية الذي مرتبته الوجودية بين اللوح والعرش، أو بصفة أدق بين الطبيعة والجسم الكلّ، ما هو إلا أحد مظاهر حقيقة الحقائق الكلية الجامعة للحق والخلق وللصور القديمة والحادثة] ولي جولان في

مجالس المطرقين [أي أن المطرق هو المتفكر الناظر إلى الأسفل، فالمطرقون هنا هم الحكماء أهل النظر الفكري، الذين تكلموا عن الهباء وسمّوه بالهيوولى، ويعنون به هباء الصور الجسمية، فوقفوا عنده وما وقفوا للترقى إلى العماء الذي ورد به الشرع، ولا إلى الحقيقة الكلية التي ذكرها المحققون] فهذا قد أبنت عن حالي وأظهرت صدقي من محالي.⁵⁵ انتهى

أما الشيخ عبد الكريم الجيلي (ت826هـ) - رحمه الله تعالى - فيميّز في كتابه (مراتب الوجود) بين مرتبة الهيوولى ومرتبة الهباء، فبعد أن ذكر مرتبة الطبيعة، قال:

"المرتبة التاسعة عشر من مراتب الوجود: وهي الهيوولى، وهي حضرة التشكيل والتصوير، تولّد هذه الصور منها كما تتولّد الأمواج في البحر. فإذا اقتضت الهيوولى صورة من صور الوجود، كان حتما على الطبيعة إبرازها في العالم بالقدرة والإرادة الإلهية، لأن الله تعالى جعل اقتضاء الهيوولى سببا لايجاد تلك الصورة، كما جعل دعاء المضطر سببا لإجابته تعالى، فقال تعالى: "أمن يجيب المضطر إذا دعاه" فاقضاء الصورة من الهيوولى دعاء لسان الحال لوجود ما اضطرت إلى وجوده، وهي الصورة التي تعيّنت في الهيوولى، وتقدير الحق على الطبيعة بإيجاد تلك الصورة: هي الإجابة الإلهية. فالهيوولى بالنسبة إلى الصور والأشكال كالماء للأشجار، يتغير بحسب كل شجرة وثمرتها. قال الله تعالى: "يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل" فالماء أصل لجميع النباتات في ذواتها غير متميّزة بعضها عن بعض بالفضل والطعم والقدر والقدرة والثمن والحسن والقبح، إلى غير ذلك من الأمور التي تتميز بها الأشياء بالفضل بزيادة الحل والقيمة والنفع والطهارة واللفظ، فكما أن النباتات صور للماء، كذلك الصور كلها: صور حقيقة الهيوولى، وتماها بتمام الصور، وليس للصور آخر، فليس لها نهاية. فهي تحت الطبيعة لأن اقتضاءها إنما هو بحكم الطبيعة فافهم.

المرتبة العشرون من مراتب الوجود: هي الهباء، وهو مكان حكيم لا وجودي، أوجد الله العالم فيه، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أوّل من سمّى هذا المكان الحكيم: الهباء. فإن قلت: بيّن لنا كيف يتصوّر وجود هذا الهباء الذي هو مكان العالم؟ قلت لك: أوليس الله قد خلق العالم، والعالم بأجمعه اسم لما سواه، فإن كان أوجده الله في نفسه، كانت نفسه محلا للحوادث تعالى عن ذلك. وإن كان أوجده في مكان مخلوق، كان ذلك المكان من جملة العالم. فما بقي إلا أن نقول: أوجده في مكان حكيم غير وجودي، حتى يخرج ذلك المكان عن حدّ العالم، ويخرج أن يكون ذات

⁵⁵ معي الدين بن العربي، رسالة الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني، بمحضر الشجرة الإنسانية، والطيور الأربعة الروحانية.

الحق تعالى، فافهم. هذا وجه إثبات هذا الفلك الهبائي بطريق رأي العقلاء والنظر. وأما عندنا، فهو سبحانه أوجد العالم من علمه إلى عينه، وعلمه عينه، وعينه ذاته. والمراد من قولي: أوجد العالم من علمه إلى عينه، هو عبارة عن إضافة الحق تعالى نسبة الوجود إلى عينه، لأن الموجودات بأسرها لم تزل موجودة له في علمه، وعلمه على الحقيقة عينه، وعينه علمه، لأنه بذاته يعلم، وبذاته يسمع، وبذاته يبصر، ولو قلت يسمع بسمع ويبصر ببصر ويعلم بعلم، قلنا إن ذلك العلم والسمع والبصر عين ذاته لا غيرها. فوجود العالم في الظاهر الكوني: إيجاده لهم في بصره، وهو عبارة عن إضافته تعالى نسبة وجودهم إلى بصره، وهم قبل ذلك وبعده، موجودون في علمه، غير مفارقين للعلم حال إضافته نسبتهم إلى عينه، وغير مفارقين لعينه حال إضافة نسبة وجودهم إلى علمه... فلا يغيب عن شيء. لكن إضافة نسبة الحق لهم إلى عينه، أكسبهم الإيجاد العيني، فلو رفع عنهم هذه الإضافة لعدم العالم بأجمعه. فالعالم محفوظ بنظر الله تعالى إليه. وقد بينّا ذلك بأوضح من هذا البيان في كتابنا: القاموس الأعظم والناموس الأقدم...⁵⁶ انتهى

⁵⁶ عبد الكريم الجيلي، مراتب الوجود.

خلاصة الفصول السابقة

أولاً : ينسب الشيخ الأكبر، في عقلة المستوفز، حديث الكنز المخفي إلى أحد الأنبياء، حين سأل الله تعالى: لم خلقت الخلق؟ فقال الله تعالى لهذا النبي: كنت كنزا مخفيا فأحببتُ أن أُعَرَفَ فخلقتُ الخلقَ لأُعرف، وقد صحَّ هذا الحديث عند الشيخ كشافا، فاعتمده .

ثانيا : هذا الحديث، يتضمن عدة حقائق: أولها، حقيقة "كنت كنزا مخفيا" وهي الأحدية، التي هي اعتبار الذات مع إسقاط جميع الإضافات (الكمون). وثانيها، حقيقة "فأحببتُ أن أُعَرَفَ" وهي حقيقة الواحدية، التي هي الذات مع اعتبار الأسماء والصفات (الظهور). وثالثها "فخلقتُ الخلقَ لأُعرف" وهي حقيقة التجلي الحبي الرحماني، الذي منه وفيه انتشأ العالم، بأنواعه (الخلق).

ثالثا : فكأن حديث الكنزية يعبر عن حقيقة وجودية كبرى جامعة للحقائق الإلهية (الأحدية والواحدية)، والكونية (الخلق)، وموحدة لها، لذلك اعتبرناها حقيقة الوحدة الذاتية، وهي أول تعين من الذات في المطلق.

رابعا : كل الأحاديث التي تتحدث عن حقائق أخرى، هي مندرجة في حقيقة الحقائق (الكنزية)، مثل حقيقة العماء وحقيقة الوجود.

خامسا : حديث "كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء" هذا الحديث ينشئ حقيقة مرتبة العماء التي تندرج في حقيقة الحقائق، حتى عدها البعض هي نفسها، وهي مرتبة تعيَّنت من نفس الرحمان، وكانت برزخا وحائلا بين الحق والخلق، وحضرة جامعة لهما . فهي اسم الله الظاهر المتعين من اسمه الباطن.

سادسا: حديث "كان الله ولا شيء معه" ينشئ حقيقة الوجود: الله وجود ولا شيء معه، أي ما ثم من وجوده واجب لذاته غير الحق، والممكن واجب الوجود به، لأنه مظهره، وهو ظاهر به، وهذا المعنى للوجود منسحب بالإطلاق على الله تعالى، قبل الخلق وأثناءه، وبعده....

سابعا: لو أردنا قراءة حديث الكثرية مع الكشف عن خباياه، يمكننا القول: "كنت [أنا الله ولا شيء معي، وكان حرف وجودي وليس زمني، فأنا الله ولا شيء معي على الإطلاق] كثرًا [ذاتا وصفات وأسماء] مخفيا [كل اعتباراتي ونسبي منطمسة في الذات الساذجة، وهذه مرتبتي الأحادية] فأحببت [إيرادتي ومشيتي وعلي] أن أُعَرَفَ [من قبل نِسَبِي واعتباراتي: الأسماء والصفات، بإظهارها إلى مرتبة الواحدية] فخلقتُ الخلقَ [صور أو ظلال الأشياء التي تسمى: الأعيان الثابتة، في علمي القديم، بإظهارها في نفس الرحمن الذي هو العماء، عبر تسليط النور عليها من اسمي: النور جل جلاله] لأُعرف [من قبل هذه الصور والظلال معرفة تامة لذاتي من غير اقتدار على الإحاطة بعين الحقيقة على ما هي عليه، وهي معرفة العجز عن الإدراك، التي هي "شهود الحق بالحق من شعاع شمس الوجه الأحدي" (كما قال الكاشاني)]"

ثامنا: فتكون كل الممكنات المخلوقات: متخيلات، لا وجود حقيقي ذاتي لها، بل هي ظلال وصور، أي متخيلات في الخيال المطلق: نفس الرحمان، الذي هو العماء، وهو الحق المخلوق به كل المحدثات (كأنها كلمات في نفس المتنفس)، وهو الحقيقة المحمدية، وهو العالم.

تاسعا: فإذا كان العماء ساحة الخيال المطلق القابل للعالم، فإن الهباء النوري، هو المادة الخيالية الأولى التي تشكل العالم منها ومن النور الإلهي، هي الهيولى التي أظهرت صور الأشياء. وأول صورة ظهرت فيه: العقل الأول أو القلم، الذي هو مظهر الحقيقة المحمدية الروحاني.

فالهباء أول منفعل عن الحقيقة الكلية، بتوجه الإرادة الإلهية، وهو الذي ظهرت فيه الحقيقة المحمدية، ومنها برز العالم. أي كأن الحقيقة المحمدية هي هباء العالم.

عاشرا: على أن هناك هباء آخر جسماني، معقول، نتاج النكاح المعنوي بين اللوح والقلم، وتوأم الطبيعة.

ويرجع سرّ الهباء الجسمي إلى سرّ الحقيقة الكلية، بل إن الشيخ الأكبر يذكر هباءات آخر، ترجع في الأخير إلى الحقيقة الكلية الجامعة.

خلاصة القول : أن حقيقة الحقائق الجامعة للكل، لها مظاهر: ففي حضرة الذات، تظهر خصوصا في مرتبة الوحدة الجامعة للأحادية والواحدية، وفي حضرة القدم، تظهر خصوصا في العماء الذي كان فيه ربّنا قبل خلق الخلق – وكان هنا حرف وجودي لا يعني الزمان السابق، لأن الزمان من جملة الخلق – وفي حضرة الحدوث، تظهر أولا في الهباء الأصلي الذي ظهرت فيه الحقيقة المحمّديّة، بتجلي النور الإلهي، ومن تلك الحقيقة برز العالم كله بدءا من الأرواح العالية في الهباء النوري.

الفصل السادس

القلم الأعلى (العقل الأول)

اللوح المحفوظ (النفس الكلية)

العقل يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة. ونحن نعلم أنّ كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه، والصفة غير الموصوف، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك، وهو المراد بقوله: «أَوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ العَقْلُ» فإنّ العلم عرض لا يتصوّر أن يكون أوّل مخلوق، بل لا بد وأن يكون

المحل مخلوقاً قبله أو معه، ولأنه لا يمكن الخطاب معه. وفي الخبر: أنه قال له تعالى أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر... الحديث.

أبو حامد الغزالي

إحياء علوم الدين

خطبة العقاب المالك وهو العقل الأول (من رسالة الاتحاد الكوني لابن العربي):

أنا العقاب لي المقام الأرفع

والحسن والنورالبيهي الأسطع

أمضي الأمور على مراتب حكمها

في العدو الدنيا وعزي أمنع

أنا فيضه السامي ونور وجوده

وأنا الذي أدعو الوجود فيخضع

وأنا الذي ما زلت قبضة موجدي

فالجود جودي والحقائق توضع

نحوي لتطلب ما لها في شربها

فأعطي من أشياء وأمنع

أدنو فيبهربي جمال وجوده

أنأى فيدعوني البهاء الأروع

فإذا دنوت فحكمة مقبولة

لكن لها قلب العلى يتصدع

وإذا بعدت فإمرة مقسومة

والنور من أرجائها يتشعشع

فأنا الأمير إذا بعدت ، شقوتي

في إمرتي وساعدتي إذ أنزع

فأسر أوقاتي وأسعدها إذا

عاينت أعيان الأهلة تطلع

القلم الأعلى واللوح المحفوظ

نلخص في النص التالي ما كتبه الشيخ الأكبر عن القلم الأعلى واللوح المحفوظ في كتابه "عقلة المستوفز" ورسالة "الدرة البيضاء" وأبواب من "الفتوحات المكية" خصوصا الفصلان 11 و12 من الباب 198 والباب 316:

"إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وكان الله ولا شيء معه. وقد سبق في علمه أن يكمل الوجود العرفاني بظهور آثار الأسماء الإلهية والنسب والإضافات، لا أن يكمل هو بذلك، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، فهو الكامل على الإطلاق، فتجلى الحق سبحانه بنفسه لنفسه بأنوار السبحات الوجيهية من كونه عالما مريدا، فظهرت الأرواح المهيمية من الجلال والجمال. وذلك أن الله تعالى أحب أن يُعرف ليجود على العالم بالعلم به عز وجل، وعلم أنه تعالى

لا يعلم من حيث هويته ولا من حيث يعلم نفسه، وإنه لا يحصل من العلم به تعالى في العالم إلا أن يعلم العالم أنه لا يعلم، كما قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك. فلما اتصف لنا بالمحبة، - والمحبة حكم يوجب رحمة الموصوف بها بنفسه، ولهذا يجد المتنفس راحة في نفسه - فبروز النفس من المتنفس عين رحمته بنفسه، فما خرج منه تعالى إلا الرحمة التي وسعت كل شيء، فانسحبت على جميع العالم إلى ما لا يتناهى، فأول صورة قبل نفس الرحمن صورة العماء، فهو بخار رحماني هو عين الرحمة، فكان الحق له كالقلب للإنسان، كما أنه تعالى لقلب الإنسان العارف المؤمن كالقلب للإنسان، فهو قلب القلب كما أنه مالك الملك، فما حواه غيره، ثم إن جوهر ذلك العماء قبل صور الأرواح من الراحة والاسترواح إليها، وهي الأرواح المهمة، فلم تعرف غير الجوهر الذي ظهرت فيه وبه وهو أصلها، وهو باطن الحق وغيبه ظهر فظهر فيه وبه العالم، فإنه من المحال أن يظهر العالم من حكم الباطن، فلا بد من ظهور حق به يكون ظهور صور العالم، فلم يكن غير العماء، فهو الاسم الظاهر الرحمان فهامت في نفسها. وخلق تعالى في الغيب المستور الذي لا يمكن كشفه لمخلوق العنصر الأعظم، وكان هذا الخلق دفعة واحدة من غير ترتيب سببي، وما ثم روح يعرف أن ثم سواه لفنائه في الحق بالحق، واستيلاء سلطان الجلال عليه.

ثم إنه سبحانه أوجد دون هذه الأرواح بتجل آخر من غير تلك المرتبة أرواحا متحيزة في أرض بيضاء، خلقهم عليها وهيمهم فيها بالتسبيح والتقديس لا يعرفون أن الله خلق سواهم، لاشتراكهم مع الأول في نور الهيمن، وكل منهم على مقام من العلم بالله والحال، وهذه الأرض خارجة عن عالم الطبيعة فهي لا تتحلل ولا تتبدل. وللإنسان في هذه الأرض مثال، وله حظ فيهم وله في الأرواح الأول مثال آخر، وهو في كل عالم له مثال. ثم إن لذلك العنصر الأعظم المخزون في غيب الغيب التفاتة مخصوصة إلى عالم التدوين، التسطير ولا وجود لذلك العالم في العين، فأوجد سبحانه عند تلك الالتفاتة العقل الأول، والالتفاتة إنما كانت للحقيقة الإنسانية التي هي المقصود والغاية وعين الجمع والوجود، وخلق الله تعالى بتوجه اسمه "البديع" العقل الأول وهو القلم الأعلى، وهو واحد من تلك الأرواح المهمة خص بتجل خاص علمي فانتقش فيه علم ما يكون إلى يوم القيامة مما لا تعلمه الأرواح المهمة. فوجد في ذاته قوة امتاز بها عن سائر الأرواح، فشاهدهم وهم لا يشاهدونه ولا يشهد بعضهم بعضا، فرأى نفسه مركبا منه ومن القوة التي وجدها علم بها صدوره كيف كان، وعلم أن في العلم حقائق معقولات من حيث أنه عقلها لما تميزت عنده، فهي للحق معلومات وللعقل ولأنفسها معقولات، ورأى في جوهر العماء صورة الإنسان الكامل الذي هو للحق بمنزلة ظل الشخص من الشخص، ورأى نفسه ناقصا عن تلك الدرجة، وقد علم ما يتكون عنه من العالم إلى آخره في الدنيا، فعلم أنه لا بد أن يحصل له درجة الكمال التي للإنسان

الكامل وإن لم يكن فيها مثله، فإن الكمال في الإنسان الكامل بالفعل وهو في العقل الأول بالقوة، تجلي الحق للعقل فرأى لذاته ظلاً، فكان ذلك الظل المنبعث عن ذات العقل من نور ذلك التجلي وكثافة المحدث بالنظر إلى اللطيف الخبير: نفساً وهو اللوح المحفوظ الذي أوجده الله بتوجه اسمه (الباعث). والطبيعة الذاتية مع ذلك كله، وتسمى هناك حياة وعلماً وإرادة وقولاً، كما تسمى في الأجسام: حرارة وبرودة و ييوسة ورطوبة، كما تسمى في الأركان: نارا وهواء وماء وتراباً، كما تسمى في الحيوان: سوداء وصفراء وبلغم ودما، والعين واحدة والحكم مختلف. فاللوح هو أول موجود انبعثي لما انبعث من الطلب القائم بالقلم لموضع يكتب فيه، ولم يكن في القوة العقلية الاستقلال بوجود هذا اللوح فتأيد بالاسم الباعث وبالوجه الخاص الذي انبعثت عنه هذه النفس، وهو قول الله لها: كن، والعقل ثابت في مقام الفقر والذلة إلى بارئها، وله نسب وإضافات ووجوه كثيرة لا يتكرر في ذاته بتعددتها، فيأض بوجهين: فيض ذاتي وفيض إرادي. فما هو في الذات مطلقاً لا يتصف بالمنع، وما هو بالإرادة فإنه يوصف فيه بالمنع والعطاء. .وسماه الحق تعالى في القرآن حقاً وقلماً وروحاً، وفي السنة عقلاً. وهو الخازن الحفيظ العليم الأمين على اللطائف الإنسانية التي من أجلها وجد، علم نفسه فعلم مبدعه فعلم العالم فعلم الإنسان، فهو العقل من هذا الوجه، وهو القلم من حيث التدوين والتسطير، وهو الروح من حيث التصرف، وهو العرش المجيد من حيث الاستواء بالعلم والرحمة، وهو الإمام المبين من حيث الإحصاء. ورفائقه التي تمتد إلى النفس إلى الهباء إلى الجسم إلى الأفلاك الثابتة إلى المركز إلى الأركان بالصعود إلى الأفلاك المتخيلة إلى الحركات إلى المولدات إلى الإنسان إلى انعقادها في العنصر الأعظم وتواصلها هو حاصل ضرب: " X360X 360360" رقيقة، ولا يزال هذا العقل متردداً بين إقبال وإدبار، يقبل على بارئها مستفيداً فيتجلى له، فيكشف في ذاته عن بعض ما هو عليه، فيعلم من بارئها قدر ما علم من نفسه، وعلمه بذاته لا يتناهى فعلمه برئها لا يتناهى، وطريقة علمه به التجليات، وطريقة علمه برئها علمه به، ويقبل على من دونه مفيداً، هكذا أبد الآباد في المزيد، فهو الفقير الغني العزيز الذليل العبد السيد وليس فوق القلم موجود محدث يأخذ عنه يعبر عنه بالنون. وإنما نونه التي هي الدواة عبارة عن علمه الإجمالي بلا تفصيل، ولا يظهر له تفصيل إلا في اللوح، وله 360 سناً من حيث هو قلم، و360 وجهاً ونسبة من حيث هو عقل، و360 لساناً من حيث ما هو روح مترجم عن الله، ويستمد كل سن من 360 بحراً من أصناف العلوم، وهذه البحور هي إجمال الكلمات الإلهية التي لا تنفذ، فألقى منها في اللوح جميع ما عنده إلى نهاية يوم القيامة مسطراً منظوماً، فكان مما ألقى إليه وما ضمه اللوح من الكلمات 269200 آية - أي حاصل جمع: (100x100) + (360 x 360) وهو ما يكون في الخلق من جهة ما تلقى النفس في العالم عند الأسباب، وأما ما يكون من الوجوه الخاصة الإلهية فذلك يحدث وقت وجوده لا علم لغير الله به، وهذا جميع ما حصله

العقل من النفس الرحماني من حيث ما كلمه به ربه. وهذا العقل الأول هو الذي يعطي الأشياء على الطول والعرض، ومعنى الطول والعرض فيه ما يعطي الأرواح مما به صلاحها وبقاؤها من تنوع الحالات عليها كما تتنوع المعارف على الأرواح، وطوله وعرضه على التساوي في الوجوه، فإن له مائة ألف وثمانين ألف وجه في عرضه، لكل وجه أربعة وعشرون ألف صورة، مع كل صورة رقائق لا يعلم عددها إلا الله، لكل رقيقة قوى لا يعلمها إلا الله صاعدة ونازلة في تلك الرقائق من هذا العقل، يخلق الله عند نزولها وعند صعودها ما يحدث في العالم أسفله وأعله من كل شيء، وهذه التي تسمى المعارج، قال تعالى: (سأل سائل بعذاب واقع) وهو النزول وهكذا الرحمة، ثم قال: (ليس له دافع من الله) لكونه هو الخالق عندها لا بها، ثم قال: (ذي المعارج) وهي الرقائق (تعرج الملائكة) وهي القوى الروحانية التي ذكرناها (والروح إليه) وهو الموجود الأول أي العقل الأول.

وكما تعددت أسماء العقل الأول، كذلك تعددت أسماء النفس الكلية فهي العرش العظيم والورقاء و الزمردة الخضراء والمشار إليه بـ "كل شيء" قال تعالى: "وكتبنا له في الألواح من كل شيء" وهو اللوح المحفوظ... وأعطاه الله قوتين: علمية وعملية، فبالعملية تظهر أعيان الصور، وبالعلمية تعلم المقادير والأوزان ومن الوجه الخاص يكون القضاء والقدر، ثم صرف العقل وجهه إلى العماء فرأى ما بقي منه لم يظهر فيه صورة، وقد أبصر ما ظهرت فيه الصور منه قد أثار بالصور. وما بقي دون صورة رآه ظلمة خالصة ورأى أنه قابل للصور والاستنارة، فأعلم أن ذلك لا يكون إلا بالتحامك بذلك، وصورة التلقي الإلهي للعقل تجل رحماني عن محبة من المتجلي والمتجلى له، فعمه التجلي الإلهي كما تعم لذة الجماع نفس الناكح حتى تغيبه عن ما سواها، فلما عمه نور التجلي رجع ظله إليه واتحد به فكان نكاحا معنويا صدر عنه العرش، واستوى الحق عليه بالاسم الرحمن، فلا أقرب من الرحمة إلى الخلق، لأن ما ثم أقرب إليهم من وجودهم ووجودهم رحمة بلا شك، ومن هذا المقام جعل الله بين الزوجين المودة والرحمة فقال: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

واعلم أنه ورد في معراج النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه أسري به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام، وهي تجري بما يحدث الله في العالم من الأحكام. وهذه الأقلام مرتبتها دون القلم الأعلى ودون اللوح المحفوظ، فإن الذي كتبه القلم الأعلى لا يتبدل، وسمي اللوح بالمحفوظ من المحو فلا يمحي ما كتب فيه، وهذه الأقلام تكتب في ألواح المحو والإثبات وهو قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت)، ومن هذه الألواح تنزل الشرائع والصحف والكتب على الرسل عليهم السلام، ولهذا

يدخل فيها النسخ، وهو عبارة عن انتهاء مدة الحكم لا على البدا فإن ذلك يستحيل على الله، وإلى هنا كان يتردد صلى الله عليه وسلم في شأن الصلوات الخمسين بين موسى وبين ربه إلى أن أثبت منها خمسة بأجر الخمسين، ومن هذه الألواح وصف نفسه سبحانه بالتردد في قبضة نسمة المؤمن بالموت وهو قد قضى عليه، ومن هذا التردد الإلهي يكون التردد الكوني في الأمور والحيرة فيها. والموكل بالمحو ملك كريم يحو على حسب ما يأمره به الحق تعالى. وعدد هذه الأقلام التي يجري على حكم كتابتها الليل والنهار 360 قلما على عدد درج الفلك، لكل قلم درجة، وفي هذه الدرجات تتلقى روحانيات الكواكب وملائكة السماوات ما يتنزل عليها من الأوامر القلمية، وتتحرك أفلاكها فيبلغ الأثر إلى الأركان ثم المولدات من معدن ونبات وحيوان وخن وإنس، فيحدث فيها ما شاء الله بحسب ما قبلته من الزيادة والنقصان، كل ذلك بتقدير العزيز العليم⁵⁷.

58 القلم الأعلى عند الجيلي

اعلم أن القلم الأعلى: عبارة عن أول تعيينات الحق في المظاهر الخلقية على التمييز، وقولي على التمييز هو لأن الخلق له تعيين إبهامي أولاً في العلم الإلهي، ثم له وجود هو مجمل حكيم في العرش لأننا قد بينا أن العرش أحد وجوهه، هو الموجودات الخلقية، ثم له ظهور تفصيلي في الكرسي، ثم له ظهور على التمييز في القلم الأعلى؛ لأن ظهوره في تلك المجالي الأول جميعها غيب، ووجوده في القلم وجود عيني مميز عن الحق، وهو، أعني القلم الأعلى، أنموذج ينتقش ما يقتضيه في اللوح المحفوظ، كالعقل، فإنه أنموذج ينتقش ما يقتضيه في النفس، فالعقل بمكانة القلم، والنفس بمكانة اللوح، والقضايا الفكرية التي وجدت في النفس بالقانون العقلي، هي بمثابة الصور الوجودية المكتوبة في اللوح المحفوظ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "أول ما خلق الله تعالى العقل" وقال: "أول ما خلق الله القلم". والقلم هو العقل الأول، وهما وجهان للوح المحمدي، قال عليه الصلاة والسلام: "أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر" فصار القلم الأعلى والعقل الأول والروح المحمدي عبارة عن جوهر فرد، وهو بنسبته إلى الخلق يسمى القلم الأعلى، وبنسبته إلى مطلق الخلق يسمى العقل الأول، وبإضافته إلى الإنسان الكامل يسمى روحاً محمدياً - صلى الله عليه وسلم - .

⁵⁷ ينظر تفصيل لهذا التنزل بدءاً من القلم الأعلى وانتهاءً بالمولدات في الباب 307 من "الفتوحات المكية".

⁵⁸ الشيخ عبدالكريم الجيلي، الإنسان الكامل، الباب 47.

في العقل الأول

وأنه محتد جبريل عليه السلام من محمد – صلى الله عليه وسلم-⁵⁹

اعلم وفقنا الله وإياك، وذلك على نفسك، وإلى التحقيق به هداك، أن العقل الأول هو محل الشكل العلمي الإلهي في الوجود، لأنه القلم الأعلى، ثم ينزل منه العلم إلى اللوح المحفوظ، فهو إجمال اللوح، واللوح تفصيله، بل هو تفصيل علم الإجمال الإلهي، واللوح هو محل تعيينه وتنزله، ثم في العقل الأول من الأسرار الإلهية ما لا يسعه اللوح، كما أن في العلم الإلهي ما لا يكون العقل الأول محلاً له. فالعلم الإلهي هو أم الكتاب، والعقل الأول هو الإمام المبين، واللوح هو الكتاب المبين. فاللوح مأموم بالقلم، تابع له، والقلم، الذي هو العقل الأول، حاكم على اللوح، مفصل للقضايا المجملة في دواة العلم الإلهي المعبر عنها بالنون.

والفرق بين العقل الأول والعقل الكلي وعقل المعاش، أن الفعل الأول هو نور علم إلهي ظهر في أول تنزلاته التعيينية الخلقية، وإن شئت قلت أول تفصيل الإجمال الإلهي، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (إن أول ما خلق الله العقل)، فهو أقرب الحقائق الخلقية إلى الحقائق الإلهية، ثم إن العقل الكلي هو القسطاس المستقيم، فهو ميزان العدل في قبة اللوح الفصل. وبالجملة فالعقل الكلي هو العاقلة: أي المدركة النورية التي ظهرت بها صور العلوم المودعة في العقل الأول، لا كما يقول من ليس له معرفة بهذه الأمور، لأن العقل الكلي عبارة عن شمول أفراد الجنس للعقل من كل ذي عاقلة وهذا منقوض، لأن العقل لا تعدد له، إذ هو جوهر فرد، وهو في المثل كالعنصر للأرواح الإنسانية والملكية والجنية، لا للأرواح المهيمية.

ثم إن العقل المعاشي هو النور الموزون بالقانون الفكري، فهو لا يدرك إلا بآلة الفكر، ثم إدراكه بوجه من وجوه العقل الكلي فقط، ولا طريق له إلى العقل الأول، لأن العقل الأول منزّه عن القيد بالقياس وعن الحصر بالقسطاس، بل هو محل صدور الوحي القدسي إلى مركز الروح النفسي، والعقل الكلي هو الميزان العدل للأمر الفصلي، وهو منزّه عن الحصر بقانون دون غيره، بل

⁵⁹ الشيخ عبدالكريم الجيلي، الإنسان الكامل، الباب 53.

وزنه للأشياء على كل معيار، وليس لعقل المعاش إلا معيار واحد وهو الفكر، وليست له إلا كفة واحدة وهي العادة، وليس له إلا طرف واحد وهو المعلوم، وليس له إلا شوكة واحدة وهي الطبيعة، بخلاف العقل الكلي، فإن له كفتين: إحداهما الحكمة، والثانية القدرة. وله طرفان: أحدهما الاقتضات الإلهية، والثاني القوابل الطبيعية. وله شوكتان: إحداهما الإرادة الإلهية، والثانية المقتضيات الخلقية. وله معايير شتى. ومن جملة معاييرها أن لا معيار، ولهذا كان العقل الكلي هو القسطاس المستقيم، لأنه لا يحيف ولا يظلم، على كفة واحدة ولا يفوته شيء، بخلاف عقل المعاش فإنه قد يحيف ويفوته أشياء كثيرة وطرف واحد، فقياس عقل المعاش لا على التصحيح، بل على سبيل الخرص، وقد قال الله تعالى: {قَتِلِ الْخَرَّاصُونَ}⁶⁰ وهم الذين يزنون الأمور الإلهية بعقولهم فيبخسون، لأنهم لا ميزان لهم، وإنما هم خراصون، والخرص بمعنى الفرض.

فنسبة العقل الأول مثلاً نسبة الشمس، ونسبة العقل الكلي نسبة الماء الذي وقع فيه نور الشمس، ونسبة عقل المعاش نسبة شعاع ذلك الماء إذا وقع على جدار، فانظر مثلاً في الماء يأخذ هيئة الشمس على صحة، ويأخذ نورها على جلية، كما لو رأى الشمس لا يكاد يظهر الفرق بينهما، إلا أن الناظر إلى الشمس يرفع رأسه إلى العلوّ، والناظر إلى الماء ينكس رأسه إلى أسفل، فكذلك العقل الكلي ينكس بنور قلبه إلى محل الكتاب، فيأخذ منه العلوم المتعلقة بالأكوان، وهو الحد الذي أودعه الله تعالى في اللوح المحفوظ، بخلاف العقل الأول فإنه يتلقى عن الحق بنفسه.

ثم إن العقل الكلي إذا أخذ من اللوح، وهو الكتاب، إنما يأخذ علمه إما بقانون الحكمة، وإما بمعيار القدرة على قانون وغير قانون، فهذا الاستقراء منه انتكاس، لأنه من اللوازم الخلقية الكلية لا يكاد يخطئ إلا فيما استأثر الله به، فإن الله إن أنزله إلى الوجود لا ينزله إلا إلى العقل الأول فقط، هكذا سنة الله فيما استأثر به من علومه، إلا أن لا يوجد في اللوح المحفوظ.

واعلم أن العقل الكلي قد يستدرج به أهل الشقاوة فيفتح به عليهم في مجال أهويتهم لا في غيرها، فيظفرون على أسرار القدرة من تحت سقف الأكوان والأفلاك والنور والضياء، وأمثال ذلك، يذهبون إلى عبادة هذه الأشياء، وذلك بمكر الله بهم، والنكته فيه: أن الله سبحانه يتجلى في لباس هذه الأشياء التي يعبدونها، فيدركها هؤلاء بالعقل الكلي، فيقولون أنها هي الفاعلة، لأن العقل الكلي لا يتعدى الكون، فلا يعرفون الله به، لأن العقل لا يعرف الله إلا بنور الإيمان، وإلا فلا يمكن أن يعرفه العقل من نظره وقيامه، سواء كان عقل معاش أو عقلاً كلياً، على أنه قد ذهب أئمتنا إلى أن

⁶⁰ 10 الذاريات.

العقل من أسباب المعرفة، وهذا من طريق التوسع لإقامة الحجة، وهو مذهبنا. غير أنني أقول: إن هذه المعرفة المستفادة بالعقل منحصرة مقيدة بالدلائل والآثار، بخلاف معرفة الإيمان فإنها مطلقة، فمعرفة الإيمان متعلقة بالأسماء والصفات، ومعرفة العقل متعلقة بالآثار، فهي، ولو كانت معرفة، لكنها ليست عندنا بالمعرفة المطلوبة لأهل الله تعالى، ثم نسبة عقل المعاش إلى العقل الكلي نسبة الناظر إلى الشعاع، ولا يكون الشعاع إلا من جهة واحدة، فهو لا يتطرق إلى هيئة الشمس ولا يعرف صورته، ولا يعلم النور المتشكل في الماء لا طوله ولا عرضه، بل يخرص بالفرض والتقدير، فتارة يقول بطوله لما يزعم أنه دليل على الطول، وتارة يقول بعرضه كذلك، فهو على غير تحقيق من الأمر، وكذلك عقل المعاش فإنه لا يضيء إلا من جهة واحدة، وهي وجهة النظر والدليل بالقياس في الفكر، فصاحبها إذا أخذ في معرفة الله به فإنه لا يخطئ، ولهذا متى قلنا بأن الله لا يدرك بالعقل أردنا به عقل المعاش، ومتى قلنا أنه يعرف بالعقل أردنا به العقل الأول، فلماذا قال الله تعالى: {قَتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} وإنما قتلوا لقطعهم بما خرصوه وحكمهم على الأمر بأنه على ذلك فهلكوا، لأنهم قطعوا بما يهلكهم ويطمس على أنوارهم فقتلوا، وهم القاتلون لأنفسهم إذ خرصوا عليها بانتفاء بدنها، وقطعوا عليها أن لا حياة لها بعد مماتهم، ثم عاندوا المخبر الصادق الذي يجرحهم إلى سعادتهم فلم يؤمنوا به، فلماذا هلكوا وقتلوا، وما أهلكهم إلا أنفسهم، وما قتلهم إلا ما هم عليه، فافهم.

ثم اعلم أن العقل الأول والقلم الأعلى نور واحد، فنسبته إلى العبد يسمى العقل الأول، ونسبته إلى الحق يسمى القلم الأعلى، ثم إن العقل الأول المنسوب إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - خلق الله منه جبريل عليه السلام في الأزل، فكان محمد - صلى الله عليه وسلم - أباً لجبريل وأصلاً لجميع العالم، فاعلم إن كنت ممن يعلم فديت من يعقل فديت من يفهم، ولهذا وقف جبريل في إسرائه وتقدم وحده. وسمي العقل الأول بالروح الأمين لأنه خزانة علم الله وأمينه، ويسمى بهذا الاسم جبريل من تسمية الفرع باسم أصله فافهم. والله أعلم.

في اللوح المحفوظ⁶¹

نفس حوت بالذات علم عالم

هي لوحنا المحفوظ يا ابن الآدمي

صورالوجود جميعها منقوشة

في قابليتها بغير تكاتم

⁶¹ الشيخ عبدالكريم الجيلي، الإنسان الكامل، الباب 48.

فإذا زكت بإلهها وصفت به

من ظلمة الغيم الغيوم القاتم

ظهرت لها الأشياء فبها عندها

وبدت لها مستخفيات العالم

اعلم هداك الله، أن اللوح المحفوظ: عبارة عن نور إلهي حقي متجل في مشهد خلقي، انطبعت الموجودات فيه انطباعاً أصلياً، فهو أمّ الهيولى، لأن الهيولى لا تقتضي صورة إلا وهي منطبعة في اللوح المحفوظ، فإذا اقتضت الهيولى صورة ما، وجد العالم على حسب ما اقتضته الهيولى من الفور والمهلة، لأن القلم الأعلى جرى في اللوح المحفوظ بإيجادها، واقتضتها الهيولى، فلا بد من إيجادها على حسب المقتضى، ولهذا قالت الحكماء الإلهيون: إذا اقتضت الهيولى صورة، كان حقاً على واهب الصور أن يبرز تلك الصورة في العالم، وقولهم حقاً على واهب الصور من باب التوسع، جارياً مجرى قوله عليه الصلاة والسلام: "إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه" لا من أنه يجب عليه شيء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم اعلم أن النور الإلهي المنطبع فيه الموجودات، هو المعبر عنه بالنفس الكلبي، ثم الإدراك لما كتبه القلم الأعلى في ذلك النور المعبر عنه باللوح المحفوظ لا يكون إلا بوجه من وجوه ذلك النور، وذلك الوجه هو المعبر عنه عندنا بالعقل الكلبي، كما أن الانطباع في النور، هو المعبر عنه بالقضاء، وهو التفصيل الأصلي الذي هو مقتضى الوصف الإلهي، وقد عبرنا عن مجلاه بالكربي. ثم التقدير في اللوح، هو الحكم بإبراز الخلق على الصورة المعينة بالحالة المخصوصة في الوقت المفروض، وهذا هو المعبر عن مجلاه بالقلم الأعلى، وهو في اصطلاحنا العقل الأول، مثاله: قضى الحق تعالى بإيجاد زيد على الهيئة الفلانية في الزمن الفلاني، فالأمر الذي اقتضى هذا التقدير في اللوح هو القلم الأعلى، وهو المسمى بالعقل الأول، والمحل الذي وجد فيه بيان هذا الاقتضاء هو اللوح المحفوظ، وهو المعبر عنه بالنفس الكلبي، ثم الأمر الذي اقتضى إيجاد هذا الحكم في الوجود، هو مقتضى الصفات الإلهية، وهو المعبر عنه بالقضاء، ومجلاه هو الكربي، فاعرف ما المراد بالقلم، وما المراد باللوح، وما المراد بالقضاء، وما المراد بالقدر.

ثم اعلم أن علم اللوح المحفوظ نبذة من علم الله تعالى، أجراه الله على قانون الحكمة الإلهية، حسب ما اقتضته حقائق الموجودات الخلقية، والله علم وراء ذلك هو حسب ما تقتضيه الحقائق

الحقية، برز على نمط اختراع القدرة في الوجود لا تكون مثبتة في اللوح المحفوظ، بل قل تظهر فيه عند ظهورها في العالم العيني، وقد لا تظهر فيه بعد ظهورها أيضاً. وجميع ما في اللوح المحفوظ هو علم مبتدأ الوجود الحسي إلى يوم القيامة، وما فيه من علم أهل الجنة والنار شيء على التفصيل، لأن ذلك من اختراع القدرة، وأمر القدرة مهم لا معين، نعم يوجد فيه علمها على الإجمال مطلقاً، كالعلم بالنعيم مطلقاً لمن جرى له القلم بالسعادة الأبدية، ثم لو فصل ذلك النعيم لكان تفصيل ذلك الجنس، وهو أيضاً جملة، كما تقول بأنه من أهل جنة المأوى، أو من أهل جنة الخلد، أو جنة النعيم، أو جنة الفردوس، على الإجمال لا سبيل إلى غير ذلك، وكذلك حال أهل النار.

ثم اعلم أن المقتضى به المقدر في اللوح على نوعين: مقدر لا يمكن التغيير فيه ولا التبديل، ومقدر يمكن التغيير فيه والتبديل، فالذي لا يمكن فيه التغيير والتبديل هي الأمور التي اقتضتها الصفات الإلهية في العالم، فلا سبيل إلى عدم وجودها، وأما الأمور التي يمكن فيها التغيير، فهي الأشياء التي اقتضتها قوابل العالم على قانون الحكمة المعتادة، فقد يجربها الحق سبحانه وتعالى على ذلك الترتيب، فيقع المقتضى به في اللوح المحفوظ، وقد يجربها على حكم الاختراع الإلهي، فلا يقع المقتضى به، ولا شك أن ما اقتضته قوابل العالم هو نفس مقتضى الصفات الإلهية، ولكن بينهما فرق، أعني بين ما اقتضته قوابل العالم وبين ما اقتضته الصفات مطلقاً، وذلك أن قوابل العالم ولو اقتضت شيئاً فإنه من حكمها العجز لاستناد أمرها إلى غيرها، فلأجل هذا قد يقع وقد لا يقع، بخلاف الأمور التي اقتضتها الصفات الإلهية، فإنها واقعة ضرورة الاقتضاء الإلهي، وثم وجه ثان، وهو أن قوابل العالم ممكنة، والممكن يقبل الشيء وضده. فإذا اقتضت القابلية شيئاً ولم يجز القدر إلا بوقوع نقيضه، كان ذلك النقيض أيضاً من مقتضى القابلية التي في الممكن، فنقول بايقاع ما اقتضته قوابل العالم على قانون الحكمة: وهذا أمر ذوقي لا يدركه العقل من حيث نظره الفكري، بل هو كشف إلهي يمنحه الله من يشاء من عباده، فالقضاء المحكم هو الذي لا تغيير فيه ولا تبديل، والقضاء المبرم: هو الذي يمكن فيه التغيير، ولهذا ما استعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - بالله إلا من القضاء المبرم، لأنه يعلم أنه يمكن أن يحصل فيه التغيير والتبديل، قال الله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} ⁶² بخلاف القضاء المحكم، فإنه المشار إليه بقوله: {وكان أمر الله قدراً مقدوراً} ⁶³، وأصعب ما على المكاشف بهذا العلم معرفة القضاء المبرم

⁶² 39 الرعد.

⁶³ 38 الأحزاب.

من القضاء المحكم، فيتأدب فيما يعلمه محكماً، ويشفع فيما يعلمه مبرماً، وإعلام الحق له بالقضاء المبرم، هو الإذن في الشفاعة، قال الله تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه}⁶⁴.

ثم اعلم أن النور الإلهي المعبر عنه باللوح المحفوظ: هو نور ذات الله تعالى، ونور ذاته عين ذاته، لاستحالة التبويض والانقسام عليه، فهو حق مطلق، وهو المعبر عنه بالنفس الكلية، فهو خلق مطلق، وإلى هذه الإشارة بقوله: {بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ}⁶⁵ يعني: بالقرآن نفس ذات المجد الشامخ، والعز الباذخ في لوح محفوظ في النفس الكلية، أعني: نفس الإنسان الكامل بغير حلول، تعالى عن الحلول والاتحاد، والله يقول الحق وهو يهدي إلى سبيل الرشاد.

⁶⁴ 255 البقرة.

⁶⁵ 22-21 البروج.

القلم وأسمائه⁶⁶

المرتبة الثالثة من التنزل هو تنزل الذات إلى مرتبة الأرواح، وهو عبارة عن الاجتماع الواقع في عالم المعاني لتوليد الأرواح العالية وهم: العقل والمهيمن؛ فإن الأرواح العلية هيئات اجتماعية متحصلة من اجتماع جملة من أحكام الوجود، وهي الأسماء الإلهية والحقائق الإمكانية، فتسمى المؤثرات: أحكام الوجود، والقوابل المتأثرات: أحكام الإمكان؛ فلما خرج الإذن الإلهي للأسماء بالظهور والتأثير، توجه كل اسم إلى ما تقتضيه حقيقته، فكانت الموجودات الخارجية، التي أولها عالم الأرواح العالية والعقل الأول، ومن في مرتبته من المهيمين في الله، الذين ما عرفوا أن الله - تعالى - خلق غيرهم ولا أنفسهم، وهم الكرييون (بالتخفيف) سادة الملائكة المقربين؛ بل ليسوا بملائكة، وإنما هم أرواح، والنفس (الكلية) وهي اللوح المحفوظ من العالين، وإن كان مخلوقا بواسطة العقل الأول. وأما العقل الأول والمهيمون فمن غير واسطة. وهذه المرتبة يسميها بعض أهل الله بـ (عالم الملكوت) وبعضهم يسميها بـ (عالم الجبروت)، وبعضهم يسميها بـ (عالم الأمر) لوجوده عن أمر الحق فقط من غير واسطة سبب غير الأمر، وهو قوله: (كن)، فما هو موجود عن مادة. وعالم الخلق كل موجود صدر عن مادة وسبب متقدم؛ كصدر الولد عن أبويه. وفي التحقيق، الكل عالم الأمر؛ كما قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} ⁶⁷.

⁶⁶ الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف، الموقف 248.

⁶⁷ الأعراف 54.

غير أن عالم الخلق له وجهان: وجه إلى سببه الحادث العينيّ، ووجه إلى الأمر وهو سببه الغيبي، وعالم الأمر له وجه واحد. وحيث كانت حقائق الممكنات، وهي الأعيان الثابتة، صور الأسماء في المرتبة الثانية، التي هي التعيّن الثاني. والأسماء كانت شؤون الذات في المرتبة الأولى، التي هي التعيّن الأول، وتسمّى الحقائق هنالك بـ(الحروف العاليات)، وكانت حقائق الشؤون وذواتها تقتضي تقدم بعضها وتأخّر بعضها؛ لأن بعضها شأن الذات بلا واسطة، وبعضها شأن الذات بواسطة، كالحياة: فإنها شأن الذات بلا واسطة، والعلم: فإنه شأن الذات بواسطة الحياة، وإن كانا عند المحققين متلازمين، فإن كل حيّ عالم، كما أن كلّ عالم حيّ، فالعالم كله حيّ عالم، كان بعض مظاهر الحقائق الإلهيّة علّة وبعضها معلولاً، والعلّة أقرب إلى الذات الوجود من المعلول. لذلك لما أراد الحق إيجاد الأعيان الخارجية، وكان ذلك بتجليه للأعيان الثابتة وظهورها في نور الوجود ظهور الصورة في المرآة، كان أوّل تجليه لأقرب المعلولات، وجعله علّة وشرطاً لإيجاد كلّ ما بعده من المخلوقات، وهو العقل الأوّل الذي هو الحقيقة المحمّدية في الخارج، بمعنى أن العقل الأوّل مظهر الحقيقة المحمّدية، التي هي الذات مع التعيّن الأوّل، وهي حقيقة الحقائق. وما بعد العقل الأوّل من المخلوقات إلى غير نهاية هو مظهر العقل الأوّل. ولهذا يقال: الحق - تعالى - ظهر في الحقيقة المحمّدية بذاته، وظهر فيما عداها بصفاته، وقد ورد في الخبر: "أنا نور ربّي والمؤمنون من نوري"⁶⁸. أي جميع المخلوقات من نوره، كما ورد في حديث جابر، الذي خرجه عبد الرزاق في مصنّفه.

فكان العقل (الأوّل) - لما قدمناه - لطف الموجودات وأشرفها، لأنه في مرآة الوجود بلا واسطة، فصارت حقيقة العقل الأوّل التي هي الحقيقة المحمّدية، كالحجاب على الوجود الذات؛ فكل من ينظر بعده في مرآة الوجود الحق فلا يرى إلا صورة العقل، كما أنّ من ينظر في مرآة العقل لا يرى إلا صورة النفس (الكلية)، ومن ينظر في مرآة النفس لا يرى إلا صورة الطبيعة، وهكذا إلى آخر السلسلة (سلسلة مراتب الوجود تنزلاً). فالعقل أوّل الحجب الكونية، لا بمعنى أن الذات الوجود حلّ في حقيقة العقل، أو حقيقة العقل اتصّلت بالذات الوجود، وإنما ذلك أن الوجود الذات عندما يتوجه على عين من الأعيان الثابتة توجّهها خاصاً، وتوجّهه عينه وعين ما توجّه عليه، تنصبغ تلك العين بالنور الوجود الذات، وينصبغ الوجود الذات بأحكام تلك العين ونوعيتها، فيظهر من هذا الانصبغ ما يسمّى: خلقاً وغيراً وسوى. وهذا الحجاب الأوّل لا يرتفع دنيا ولا آخرة، وهو الرداء المشار إليه في الخبر الصحيح: "وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلا رداء الكبرياء على وجهه

⁶⁸ العجلوني: كشف الخفاء ص 619، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

في جنة عدن". وجميع إشارات الصوفية وتغزلاتهم متوجّهة إليه، فهو المكّي عنه بليلى، وسلمى، والكأس، والشمس، والبرق، والنور والنار... وهو غاية سير السائرين، ونهاية السالكين. فإذا وصلوا إليه علمًا وشهودًا وذوقًا؛ وصلوا إلى الإيمان بالغيب، وعرفوا أن الله - تعالى - وراء ذلك. ومن أهل الرياضات والمجاهدات وتهذيب الأخلاق النفسية، ممّن على غير شريعة، أو على شريعة منسوخة من يصل إلى شهود العقل الأوّل، فيظن أنه الحق - تعالى - وأنه ليس وراءه مرمى لرام، فيزداد ضلالًا ويجني وبالاً؛ لأنه ليس معه نور إيمان، وإنما معه نور النفس وخصوصيّتها، ولا تنجلي الأشياء على الحقيقة إلا لذي نورين وعينين.

ولما كثرت وجوه العقل واعتباراته كثرت أسماؤه، إذ كلُّ من قام به وصف اشتق منه اسم. منها:

"العقل الأوّل" عند قدماء الحكماء، لأخذه الوجود والعلم مجملًا بلا واسطة، فهو أوّل من عقل من ربّه، وأوّل قابل لفيض وجوده.

ومنها: "القلم الأعلى" لتفصيله ما أخذه مجملًا في اللوح المحفوظ، فهو القلم من جهة التدوين والتسطير.

ومنها: الروح الأعظم" عند أهل الله، فهو الروح من حيث التصرف والإمداد، لكونه حاملًا للتجلي الأوّل، ومنسوبا إلى مظهريّته، ولغلبة حكم الوحدة والبساطة عليه، فإن الله خلقه جوهرًا بسيطًا لا تعدّد فيه ولا تركيب، بمعنى أنه لا يشبه المركبات الطبيعية أو العنصرية، وإلا فكلُّ مخلوق مركب، له ظاهر وباطن. فالبسائط معقولة، لا وجود لها خارجًا، فالأرواح مركبة من حقائق إمكانية، ووجود حق، ولا صورة لهذا الروح، فلا يتميّز إلا بالصور التي تحمله، وهو جامع لجميع التجليات الإلهية، لما تجلّى له الحق علم جميع ما يظهر عنه من اللطائف والكثائف والبسائط والمركبات والجواهر والأعراض والأزمنة والأمكنة إلى يوم القيامة .

ومنها: "روح الأرواح" لأنه منشأ جميع الأرواح الكلية الجزئية.

ومنها: "الإمام المبين" لأنه ظاهر بصفة كلّ شيء، ومفصل مبين لكل شيء، بظهوره في كل شيء، كما أظهر الحبرُ الكلمات والحروف.

ومنها: "العرش" الذي استوى عليه الرحمن لأنه مظهر لجميع الأسماء، من جمال وجلال، فاستوى عليه - تعالى - كما يعلم هو.

ومنها: "مرآة الحق: لأنه - تعالى - شاء أن يرى ذاته ظاهرة له، فظهر بنفسه في صورة العقل الأول، فقامت له نفسه في صورة المغايرة مقام المرآة، من غير انفصال ولا تعداد، فظهر كل ما في الصورة الإلهية في تلك المرآة التي هي نفس الحق - تعالى - في الحقيقة، والعقل الأول في الخلق الأول، وحقائق العالم في حضرة التفصيل.

ومنها: "الكلمة" لأنه صدر عن كلمة الحضرة، وهي "كُنْ" وهي صورة الإرادة الإلهية والتوجُّه الإلهي، فصدر عالمًا بالمعلومات التي لا تتبدل؛ كما قال: "لا تبدل لكلمات الله"⁶⁹. وقال: "مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ"⁷⁰.

ومنها: "المادة الأولى" لأنه أول مخلوق تبين من الغيب، وتفصّل منه جميع ما في العالم الكبير والصغير من جماد وحيوان ونبات وإنسان وملك وجبريل... وغيره من سائر الأرواح والملائكة.

ومنها: "الفيض الأول" لأنه تعالى أبرزه من حضرته قبل كل شيء وأفاضه على عين كل شيء، فظهر كلُّ شيء، ممتدًا منه، بسبب فيضانه عليه.

ومنها: "نفس الرحمن" - بفتح الفاء - فإنه تعالى قال: "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي"⁷¹. والنفخ إرسال النفس على المنفوخ فيه، فهو روح كل صورة، جعل له تعالى مع كل شيء يخلقه وجهًا خاصًا.

ومنها: "العقل الكلي" و"العقل الكلّ" والفرق بينهما هو أنّ العقل الكلي، ماهيته عقلية لها تعيّنات لا تنهاى بالقوّة، وهي كالمرايا، تظهر فيها كسائر الماهيات التي تظهر في جزئياتها. فالعقل الكلي صورة العلم في العقل. والعقل الكلّ، هو صورة العقل الكلي في التشخّص؛ لأن كل ماهيته لا بد أن يكون لها من جزئياتها جزء هو شخصها الكبير، الذي اقتضاه الكلي بنفسه، فانحصر فيه بجميع خاصياته ومعانيه ولوازمه، فهو الحقيقة، والجزئيات المحسوسات ظلاله؛ كأدم لماهية الإنسان، فإنه الشخص الكبير الجامع لجميع معاني هذه الماهية وخواصها. وكلّ ما سواه من أشخاص الإنسان ظلال لهذا الشخص. وهذا تعرف أن العقل الكلي موجود عينيّ متناهٍ غير متحيز في مكان.

ومنها: "الروح الكلّ" و"الروح الكلي"، والكلام فيهما كالعقل الكلي والعقل الكلّ.

⁶⁹ يونس 64.

⁷⁰ ق 29.

⁷¹ الحجر 29.

ومنها: "مركز الدائرة"، لأن نقطة المركز تقابل بذاتها كل نقطة من نقط الدائرة، وليست هي من الدائرة، وكذلك هو، فانه واحد بسيط يقابل جميع الصور والأجسام والجواهر، ويتلَوَّن بكل صورة، فهو الواحد الكثير. ومنها: "العقاب"؛ لأنه يصطاد النفس ويخطفها من سفلى هياكلها الظلمانية إلى عوالمها النورانية.

ومنها: "الدرة البيضاء"، لكونه أشدَّ الممكنات بساطة ونزاهة، فهو غير متلَوَّن، وقد ورد في خبر: "أول ما خلق الله: درة، فنظر إليها نظر هيبية، فسالت... الحديث.

ومنها: "العدل"، لأنه يعطي كل شيء خلقه واستعداده، ومَن أعطى الأشياء استعداداتها وما تقتضيه حقائقها، وأعطى كل شيء خلقه، لا أزيد ولا أنقص؛ فعدل كل العدل.

ومنها: "أمر الله"، قال تعالى: "وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِي"⁷². أي: الروح أمرِّي، (من) بيانية؛ لأن الأمر هو ما صدر عن الحق بلا واسطة، فهو الروح، وهو النور المحمّدي، كما ورد في الخبر الذي خرّجه عبد الرزاق: "أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر"، الحديث بطوله. ولهذا من أسمائه "قبضة النور".

فجميع ما تقدم من الأسماء، وارد عليه ومتوجّه إليه شخصاً وحقيقة، فإنه التعيّن الأول؛ إذ الأمر الصادر من حضرة الإطلاق، حيث لا تعيّن، صدر بصورة النور المحمّدي، فهو التعيّن الثاني باعتبار قيام النور المحمّدي بالأمر، والتعيّن الثالث باعتبار نزوله في عالم الخلق. فالمراتب ثلاث، وصاحبها واحد، فالحقيقة المحمّدية حقيقة الروح الأول، وهو حقيقة جميع الأرواح، فهو ظهور الحقيقة المحمّدية، وجميع الأرواح ظهوراته، والروح منزّه عن جميع النقائص الإمكانية ما عدا الوجوب بالغير، فمن لم يعرف، منزّها عن النقائص، إلا الحق - تعالى - فقد جهل الروح.

ومع كون العقل الأول أشرف المخلوقات وأقربها إلى الحق - تعالى -، لأنه خلقه من غير واسطة، فهو أجهل بالله من المصنوعات بصانعها، فإن المصنوعات بينها وبين صانعها مناسبة ما، ولو في الإمكان والحدوث. والعقل الأول، الروح الكلّ، ليس بينه وبين مبدعه مجانسة من وجه أصلاً، فهو لا يعلم من الحق - تعالى - إلا وجوده، كما أن الذين دون العقل الأول، لا يعلمون من العقل الأول الروح إلا وجوده، أما حقيقته فلا. فمن أين للمرأة معرفة حقيقة ذي الصورة، المتوجه على المرأة؟ ومن أين للظل معرفة ذي الظل الذي امتدّ عنه؟! وهو يستمد من الحق - تعالى -، ويمدُّ الخلق، ولا علم له

72 الإسراء 85.

بكيفية إمداد الحقّ - تعالى - له، فإن الإمداد بالتجلي. والعلم بكيفية التجلي من خصائص الإله، فإن العلم بكيفية التجلي يقتضي الاتحاد في الإنية، واتحاد إنية الخالق بالمخلوق محال.

وعلم العقل الأوّل، عين ذاته، ما هو صفة له، وهو مجمل يتفصل بحسب التجليات. وإمداده لمن تحته في المرتبة، ذاتي لا يوصف فيه بالمنع، وإرادي يوصف فيه بالمنع. فإذا أراد الله نفاذ أمر ما، كان أوّل من يتلقاه من الحقّ - تعالى - العقل الأوّل، وهو يأمر غيره من الملائكة، فهم الجند له، مثل جبريل وميكائيل وسائر الملائكة. وعندما يأمره الله بأمر يخلق منه ملكا لائقا بذلك الأمر، فيرسله الروح لقضاء ذلك الأمر.

ولم يكن بين خلق العقل الأوّل والحقّ - تعالى - زمان يتقدّم به هذا ويتأخر به هذا، فيقال: قبل وبعد، هذا محال. ولكن الوهم يتخيّل أن بين الحقّ - تعالى - وبين إيجاد الخلق امتداد، وليس الأمر كذلك. وإنما تقدم الحقّ - تعالى - بالمرتبة لا بالزمان، كتقدم أمس على اليوم، فإن الزمان من جملة المخلوقات، وعدم العالم لم يكن في زمان. والأولية المنسوبة للعقل الأوّل الأولية في المخلوقات، خلاف الأولية التي للحقّ - تعالى - .

وقد جعل الحقّ - تعالى - للعقل الأوّل توجهًا خاصًا إلى كل ما يريد - تعالى - إيجاده. ويخلق - تعالى - عند التوجّه ما شاء لا بتوجّه العقل، فإنه يتعالى عن الشريك والمعين، فلا يخلق - تعالى - شيئًا بشيء. وإن خلق شيئًا لشيء، فتلك (لام) الحكمة، وخلقه عين الحكمة. (فالباء) في خلقه تعالى بالحق، بمعنى اللام، فليست للسببية ولا للاستعانة، ومن هنا يعلم غلط من قال في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}⁷³. إن الحق المخلوق به عين موجودة، وإنما (الباء) بمعنى (اللام)، كما قدمنا.

ونسبة الوجود إلى العقل الأوّل وغيره من سائر الممكنات، ممّا له ماهية عرض لها الوجود، ليس هو كما يقوله المتكلمون وجمهور الحكماء: أن الممكنات لها وجودات يخلقها الله - تعالى - لها، لكلّ ممكن وجود، والموجودات موجودة في الخارج حقيقة، ولا أنها موجودات في الخارج حقيقة بوجود مشترك بين جميع الممكنات، كما يقوله بعض قدماء الحكماء. وإنما معنى نسبة الوجود إلى كل ممكن، عند أهل الله، أهل الكشف والوجود، أنه - تعالى - لما تجلّى لأعيان الممكنات الثابتة في علمه - تعالى -، لم تستطع أبصارها الثبوتية النفوذ في النور الوجودي، فانعكست عليها، فرأت أنفسها وقد انصبغت

⁷³ الحجر 85.

بذلك النور الوجودي، فعلمت أنفسها وغيرها، وانصبغ النور الوجودي بأحكامها ونعوتها؛ فتوهمت لذلك أنها وجدت خارج العلم، لظهور الوجود بأحكامها ونعوتها، وهي لم تخرج ولا تخرج أبداً، فلو خرجت خارج العلم كما تخيَّلت، لانقلبت حقائقها، وقلب الحقائق محال، لما يلزم عليه من نفي العلم عن الحق - تعالى - والخلق، ولما استحال على الأعيان الثابتة أن تظهر ذواتها، واستحال على الحق - تعالى - أن يظهر بذاته مجرداً عن المظاهر، تعيّن أن تكون هذه المسمّاة موجودات ومخلوقات، إنما هي تجليات الحق - تعالى -، بأحوال الممكنات ونعوتها، ليست عين الحق، ولا عين الممكن، ولا غير الحق، ولا غير الممكن، فعين ما ترى عين ما لا ترى . فالموجودات كالصورة في المرآة، ما هي عين الرائي ولا عين المرئي فيه، ولكن بالمحل المرئي فيه، وبالناظر للمحلّ ظهرت الصورة. قال تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ} فأثبت ما نفي {وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: الآية 17]، فأثبت لله ما أثبتته لمحمّد صلى الله عليه وسلم.

74 اللوح وأسماءه

⁷⁴ الأمير عبد القادر الجزائري: الموقف، الموقف 248.

المخلوق الثاني من عالم الأرواح العالية، التي هي فوق الطبيعة، هو النفس الكل. ولما خلق الله - تعالى - العقل الأوّل وسمّاه قلمًا، كما ورد في الخبر، ولا يكون القلم قلما بالفعل إلا إذا كان له لوح يكتب فيه، وإلا فهو قلم بالقوة والصلاحية، أوجد - تعالى - من العقل (النفس الكل)، وهو اللوح المحفوظ، وجودا انبعاثيا، كإيجاد حواء من آدم - عليهما السلام - فكانت من ضلعه القصيري، لا بمعنى أن الضلع صارت حواء، وإنما تكوّنت منها كتكوّن آدم من التراب، لا بمعنى أن التراب صار آدم. فكان اللوح المحفوظ محلا لما يكتب فيه هذا القلم الإلهي. وقد ورد في خبر أخرجه أبو يعلى الموصلي، بسند حسن: "أول ما خلق الله القلم، ثم خلق اللوح وقال للقلم اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال الله له: اكتب وأنا أملي عليك". فخطّ القلم في اللوح ما يملي عليه الحق، وهو علمه في خلقه الذي يخلق إلى يوم القيامة . فجميع ما يحدث عند الأسباب من الأشياء والعلوم فهو ممّا علمه القلم، وكتبه في اللوح. وهنالك علوم يهبها الله لمن يشاء من الوجه الخاص الذي له - تعالى - في كل مخلوق، لا علم لغير الله بها، لا العقل ولا النفس، وهو اللوح المحفوظ.

ثم أوجد الله - تعالى - في النفس، وهو اللوح، وهو ملك كريم: صفتين: نصفه علم ونصفه عمل، فبصفة العمل تظهر صور العالم عنه، كما تظهر صورة التابوت وغيره من الصور عند عمل النجار، وبهذه الصفة يعطي الصور للعالم. والصور منها ظاهرة حسيّة، وهي الأجرام والأشكال والألوان، وصور باطنة وهي العلوم والمعارف والإدراكات، فبالصفتين اللتين للنفس، اللوح المحفوظ، ظهر ما ظهر من الصور؛ لأن الموجودات كلها منطبعة فيها انطبعا أصليا، جرى بذلك القلم الأعلى فيه بإيجادها، فلا تقتضي الهيولى صورة إلا وهي منطبعة في اللوح، فلا بدّ من إيجادها، ولهذا تقول الحكماء: إذا اقتضت الهيولى صورة؛ كان حقا على واهب الصور إيجاد تلك الصورة . وإنما سمي لوحا محفوظا لحفظه من التبديل والتغيير. فإن المكتوب فيه هو علم الله، وعلم الله لا يتغير. ومن جملة ما كتب فيه ما يبديل ويغيّر في عالم الكون والفساد.

فالذي كتبه القلم في اللوح على نوعين: نوع اقتضته الأسماء الإلهية بذواتها من غير واسطة، فهذا لا يتبدل ولا يتغير. ونوع اقتضته القوابل الإمكانية كالأمر الجارية على حسب العادة، فهذا قد لا يتبدل، ويجريه الله - تعالى - على العادة المعتادة، وقد لا يجريه، ويخرق فيه العادة المعتادة. لا يقال: اقتضاء الأسماء الإلهية هو عين اقتضاء القوابل، لأننا نقول: بين ما تقتضيه الأسماء بواسطة وبغير واسطة فرقان. وأيضا من حقيقة الحقائق الإمكانية الإمكان، وهو صحة الوجود والعدم؛ فكذلك ما

اقتضته يصح وجوده وعدمه، قال تعالى: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} ⁷⁵. أخبر أنه يمحو ما يشاء محوه من لوح الوجود، ممّا كان أثبتّه، إذ لا محو إلا بعد إثبات ممّا له أجل محدود، أي يردّه إلى أصله وهو الثبوت في الغيب الذي كان فيه، ويثبت ما يشاء إثباته في لوح الوجود، ثم يمحوه إن كان ممّا له آجال محدودة، وهكذا على الدوام، فهو الخلاق على الدوام. والممكن مفتقر على الدوام، والمحو والإثبات المتعاقبان على الممكن؛ إنما هما في الصور. وأمّا الجواهر وهي الأرواح، فما أثبتّه منها لا يمحوه، وإنما تتبدّل عليه الصور، فكلّ شيء من صور العالم هالك، لا من جواهره، فليس بهالك، ولا ممحو. وعلى هذا التأويل لا تعلق للأية باللوح المحفوظ، النفس الكلية. "وعنده أمّ الكتاب"، الضمير يعود على الاسم (الله) العلم على مرتبة الأولوهة التي لها الإشاء والمحو والإثبات، وإليها تنسب جميع الآثار المسماة بمرتبة العلم الأزلي الذاتي، والأمّ الذات، والكتاب مرتبة العلم التفصيلي، مرتبة الألوهة. فالذات التي هي مرتبة العلم الإجمالي المتعلق بما لا يتناهى، مصاحبة الكتاب الذي هو مرتبة العلم التفصيلي، بل هي عينه، وهو مرتبة من مراتبها؛ فالذات أمّ، وعلمها الكتاب المبين، من حيث أن ما في الذات على الوجه الإجمالي الكلي هو في العلم تفصيلي جزئي. كما أن القلم أمّ، واللوح المحفوظ الكتاب المبين من الحقائق الكونية، من حيث أن ما في القلم على الوجه الكلي الإجمالي هو في اللوح جزئي تفصيلي. فهي (أي الذات) ظاهرة بعلمها... وعلوم اللوح نبذة من علم الحق - تعالى -، ومع هذا لم ينقل أن أحدا أحاط به، مع أن علمه متناهٍ.

ومن أسماء هذا الملك الكريم اللوح: النفس الكلية؛ لأنه متوجه بالتدبير والتكميل لكل ما تفصل منه من الصور، فظهر بصور الموجودات الحسية والمثالية المركبة والبسيطة، فنسبة النفس الكلية إلى كل صورة في العالم نسبة واحدة، لا تفاضل بينها؛ إلا أن الصور تقبل من ذلك بحسب استعداداتها التي هي عليها، ولأنه تعالى نفس بها عن القلم؛ إذ جعلها لوحًا لما يلقي إليه.

ومن أسمائه: الروح المضاف المشار إليه بقوله: {ونفخت فيه من روحي} ⁷⁶. فهو الروح المنفوخ منه في الصور المسوّاة، ولكل صورة تسوية تليق بها، وبمرتبها، خيالية أو حسية أو معنوية، فإذا سوّاها الحق - تعالى - توجه عليها روح الحق، وهو المراد بالنفخ في قوله: "ونفختُ". فالنفخ عام في جميع الصور، كانت ما كانت، من كل ما يطلق عليه اسم صورة حتى إذا مشت دودة أو حية في الرمل وكان من أثرها صورة، نفخ تعالى في تلك الصورة روحا يحفظ عليها صورتها إلى أن يأذن الله بانعدامها

⁷⁵ الرعد 39.

⁷⁶ الحجر 29.

ومن أسمائه: الذكر، كما في صحيح البخاري: "وكتب في الذكر كل شيء" الحديث.

القسم الثاني

- عرش الرحمان .
- ترتيب الكون في الدنيا وفي الآخرة .
- حقيقة الزمان .
- العناصر والكيمياء .
- شروط الوجود الحسي .
- حقيقة الطبيعة .
- الأركان الأربعة وأصلها الخامس .
- مظاهر الرباعيات الوجودية .

الفصل الأول

عرش الرحمة

أنواع العروش:

قال الشيخ الأكبر في كتابه: (عقلة المستوفز)

[اعلم أنّ العروش خمسة: عرش الحياة وهو عرش الهوية . وعرش الرحمانية . والعرش العظيم . والعرش الكريم . والعرش المجيد . فعرش الحياة هو عرش المشيئة وهو مستوى الذات (يشير الشيخ هنا إلى قول أبي طالب المكي: المشيئة عرش الذات)، وهو عرش الهوية . قال الله تعالى: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" ، فأضافه إلى الهوية وجعله على الماء، فلماذا قلنا فيه عرش الحياة . قال الله تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" ، وقال فيه : "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ" ، أي أظهر الحياة فيكم ليلوكم . وكذلك قال في موضع آخر: "خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ" إلى جانب الحياة فإنّ الميت لا يختبر، وهو قوله: "...عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ" وهو قوله : "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" ، فهو العنصر الأعظم أعني فلك الحياة ، وهو اسم الأسماء ومقدمها وبه كانت . وقوله : "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" من حيث هو حي لا من حيث هو جوهر. والعرش المجيد النفس (أي النفس الكلية) وهو اللوح المحفوظ الذي نذكره بعد هذا، ويتلوه العرش الذي هو عرش الرحمانية وهو فلك الأفلاك، ويتلوه العرش الكريم وهو الكرسي].

مرتبة العرش:

في المراتب الكونية نجد العرش - حسب الشيخ - في المرتبة التي تتلو اللوح المحفوظ، لكن بينهما أربع مراتب اعتبارية ليس لها وجود عيني في الخارج وإنما تظهر حقائقها في العرش وما تحته، وهي حسب الترتيب الذي فصله في الباب (198) من الفتوحات: مرتبة الطبيعة بحقائقها الأربعة: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، ثم مرتبة الهباء، ثم مرتبة الجسم الكلي، ثم مرتبة الشكل الكلي. ولهذا نجد الشيخ في "عقلة المستوفز" وبعد الباب المخصوص باللوح المحفوظ يقول:

[العرش الرحماني الجامع للموجودات الأربعة وهي: الطبيعة والهباء والجسم والفلك، مثل ما لاح لعين في الهواء برق يماني. ثم أوجد الله سبحانه الهباء، فأول صورة قبل صورة الجسم وهو الطول والعرض والعمق، وظهرت فيه الطبيعة. فكان طوله من العقل، وعرضه من النفس، وعمقه الخلاء إلى المركز. فلهذا كانت فيه الثلاث الحقائق فكان مثلثا، وهو الجسم الكلي. وأول شكل قبل هذا الجسم: الشكل الكروي فكان الفلك، فسماه العرش. واستوى عليه سبحانه بالاسم الرحمن، بالاستواء الذي يليق به الذي لا يعلمه إلا هو من غير تشبيه ولا تكييف. وهو أول عالم التركيب. وعمر سبحانه هذا الفلك بالملائكة الحافين وهم الواهبات، وهنا مقام إسرافيل، وبمشاهدة هذا الاستواء يصير كذا وكذا مرة في اليوم كالوضع (أي كالعصفور) من استيلاء سلطان العظمة الإلهية على قلبه. ومن هنا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صريف الأقلام، ومن هنا غلبت عليه حالة الفناء فتجرد عن عالم التركيب، ومن هنا نودي بصوت أبي بكر الصديق رضي الله عنه تأنيسا له إذ كان أنيسه: "قف إن ربك يصلي" ثم تلي عليه: "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ". وهو آخر الحجب الثلاثة التي تبقى بين أهل الجنة وبين الحق إذا جمعوا للرؤية، وهو آخر الحجب والفلكان اللذان بعده (أي الكرسي وفلك البروج)] انتهى.

والدا العرش وأنواع قوائمه:

في الباب (371) من الفتوحات يذكر الشيخ كيفية بداية الظهور الخلقى عند العقل الأول واللوح والعماء ثم يقول:

[فتجلى له الحق (أي تجلى للعقل الأول) فرأى لذاته ظلا (...). فكان ذلك الظل الممتد عن ذات العقل من نور ذلك التجلي وكثافة المحدث بالنظر إلى اللطيف الخبير نفسا وهو اللوح المحفوظ (...). ثم صرف العقل وجهه إلى العماء، فرأى ما بقي منه لم يظهر فيه صورة، وقد أبصر ما ظهرت فيه الصور منه قد أنار بالصور، وما بقي دون صورة رآه ظلمة خالصة، ورأى أنه قابل للصور والاستنارة، فاعلم أن ذلك لا يكون إلا بالتحامك بظلك، فعمه التجلي الإلهي؛ فلما عمه نور التجلي رجع ظله إليه واتحد به، فكان نكاحا معنويا صدر عنه العرش الذي ذكر الحق أنه استوى عليه الاسم الرحمن... وهو سرير ذو أركان أربعة ووجوه أربعة هي قوائمه الأصلية التي لو استقل بها لثبت عينه. إلا أن في كل وجه من الوجوه

الأربعة التي له قوائم كثيرة على السواء في كل وجه، معلومة عندنا أعدادها، زائدة على القواعد الأربعة . وجعله مجوفا محيطا بجميع ما يحوي عليه من كرسي وأفلاك وجنات وسماوات وأركان ومولدات . فلما أوجده استوى عليه الرحمن واحد الكلمة لا مقابل لها ، فهو رحمة كله ليس فيه ما يقابل الرحمة . وهو صورة في العماء، فالعقل أبوه (أي العقل الأول أو القلم الأعلى) والنفس أمه (أي النفس الكلية أو اللوح المحفوظ) ، ولذلك استوى عليه الرحمن، فإنّ الأبوين لا ينظران أبدا لولدهما إلا بالرحمة ، والله أرحم الراحمين . والنفس والعقل موجودان كريمان على الله محبوبان لله ، فما استوى على العرش إلا بما تقر به أعين الأبوين وهو الرحمن ، فعلمنا أنّه ما يصدر عنه إلا ما فيه رحمة ... وما استوى عليه الرحمن إلا بعد ما خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، وخلق السماوات وأوحى في كل سماء أمرها، وفرغ من خلق هذه الأمور كلها، ورتّب الأركان ترتيبا يقبل الاستحالات لظهور التكوين والتنقل من حال إلى حال، وبعد هذا استوى على العرش ثم إنّه تعالى خلق ملائكة من أنوار العرش يحفون بالعرش ، وجعل فيما خلق من الملائكة أربع حملة تحمل العرش من الأربع القوائم الذي هو العرش عليها ، وكل قائمة مشتركة بين كل وجهين إلى حد كل نصف وجه . وجعل أركانه متفاضلة في الرتبة، فأنزلني في أفضلها وجعلني من جملة حملته ، فإنّ الله وإن خلق ملائكة يحملون العرش فإنّ له من الصنف الانساني أيضا صوراً تحمل العرش الذي هو مستوى الرحمن أنا منهم ، والقائمة التي هي أفضل قوائمه هي لنا ، وهي خزانة الرحمة ، فجعلني رحيمًا مطلقًا مع علمي بالشدائد ، ولكن علمت أنّه ما ثمّ شدة إلا وفيها رخاوة ولا عذاب إلا وفيه رحمة ولا قبض إلا وفيه بسط ولا ضيق إلا وفيه سعة فعلمت الأمرين ؛ والقائمة التي على يميني قائمة رحمة أيضا، لكن ما فيها علم شدة ، فينقص حاملها في الدرجة عن حامل القائمة العظمى التي هي أعمّ القوائم ؛ والقائمة التي على يساري قائمة الشدة والقهر، فحاملها لا يعلم غير ذلك ؛ والقائمة الرابعة التي تقابلني أفاضت عليها القائمة التي أنا فيها مما هي عليه فظهرت بصورتها فهي نور وظلمة وفيها رحمة وشدة . وفي نصف كل وجه قائمة؛ فهي ثمانية قوائم ، لا حامل لتلك الأربعة اليوم إلى يوم القيامة ؛ فإذا كان في القيامة وكّل الله بها من يحملها فيكونون في الآخرة ثمانية وهم في الدنيا أربعة . وما بين كل قائمتين قوائم العرش عليها، وبها زينته ، وعددها معلوم عندنا لا أبينه لئلا يسبق إلى الأفهام القاصرة عن إدراك الحقائق أنّ تلك القوائم عين ما توهموه وليست كذلك ، فلهذا لم نتعرض لإيضاح كميتها . وبين مقعر العرش وبين الكرسي فضاء واسع وهواء محترق . وصور أعمال بعض بني آدم من الأولياء في زوايا العرش تطير من مكان إلى مكان في ذلك الانفساح الرحماني . وقوائم هذا العرش على الماء الجامد، ولذلك يضاف البرد إلى الرحمة، كما قال صلّى الله عليه وسلم: "وجدت برد أنامله" ، فأعطاه العلم الذي فيه الرحمة . فالعرش إنّما يحمله الماء الجامد، والحملة التي له إنّما هي خدمة له تعظيما وإجلالا، وذلك الماء الجامد مقره على الهواء البارد وهو الذي جمّد الماء، وذلك الهواء نفس الظلمة التي هي الغيب؛ ولا يعلم أحد ما تلك الظلمة إلا الله كما قال: "عَالِمُ الْعَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ عَيْبِهِ أَحَدًا" ، وفيها يكون الناس على الجسر إذا بدلت الأرض غير الأرض . والتبدل في الصفة لا في العين فتكون أرض صلاح لا أرض فساد ، وتمد مد الأديم فلا ترى فيها عوجا ولا أمّتا] .

الإحاطة العرشية :

وفي الفصل السابع عشر من الباب (198) المخصوص بإيجاد العرش بتوجّه اسمه تعالى المحيط يقول الشيخ :

[اعلم أنّ العرش أحاط بالعالم لاستدارته بما أحاط به من العالم، وكل ما أحاط به فيه الاستدارة ظاهرة حتى في المولدات ... معدنا كان أو نباتا أو حيوانا، وذلك لأنّ الحركة دورية فلا تعطي إلا ما يشاكلها. فالعرش أعظم الأجسام من حيث الإحاطة، فهو العرش العظيم جرما وقدرًا. وبحركته أعطى ما في قوته لمن هو تحت إحاطته وقبضته فهو العرش الكريم لذلك. وبنزاهته أن يحيط به غيره من الأجسام كان له الشرف فهو العرش المجيد . ثم إنّه ما استوى عليه الاسم الرحمن إلا من أجل النّفس الرحماني، وذلك أنّ المحاط به في ضيق من علمه بأنّه محاط به من حيث صورته ، فأعطاه النفس الرحماني روحا من أمره فكان مجموع كل موجود في العالم صورته وروحه المدبّر له . وجعل روحه لا داخلا في الصورة ولا خارجا عنها لأنّه غير متحيز فانتفى المشروط والشرط ، فإنّ النّفس الذي صدرت عنه الأرواح لا داخل في العالم ولا خارج عنه . فإذا نظر الموجود في كونه محاطا به ضاق صدره من حيث صورته، وإذا نظر في نفسه من حيث روحانيته نفس الله عنه ذلك الضيق بروحه ، لما علم أنّه لا توصف ذاته بأنّه محاط به إحاطة العرش بالصور، فزال عنه ذلك وأورثه ذلك الابتهاج والسرور والفرح بذاته من حيث روحه ، فلهذا كان الاستواء بالاسم الرحمن . وإحاطة هذا العرش من الإحاطة الإلهية بالعلم في قوله: "أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا"، "وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ" ، وليس وراء الله مرمى لرام ، ووراء العالم الله فهو المنتهى وماله انتهاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . فالكلمة في العرش من النّفس الرحماني واحدة وهو الأمر الإلهي لإيجاد الكائنات ؛ فالنّفس سار إلى منتهى الخلاء ، فيه حيي كل شيء ، فإنّ العرش على الماء فقبل الحياة بذاته ، فخلق الله تعالى منه كل شيء حي ، أفلا يؤمنون بما يرونه من حياة الأرض بالمطر وحياة الأشجار بالسقي ، حتى الهواء إن لم يكن فيه مائية وإلا أحرق . واعلم أنّ هذا العرش قد جعل الله له قوائم نورانية ، ونورها يشبه نور البرق، ومع هذا فرأيت له ظلا فيه من الراحة ما لا يقدر قدرها، وذلك الظل مظلم مقعر هذا العرش يحجب نور المستوي الذي هو الرحمن . ورأيت الكنز الذي تحت العرش الذي خرجت منه لفظة " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " ، فإذا الكنز آدم صلوات الله عليه ؛ ورأيت تحته كنوزا كثيرة أعرفها.....] إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

كنز العرش الآدمي في " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم":

وفي الباب (476) في معرفة حال قطب كان منزله " لا حول ولا قوة إلا بالله "، يعود الشيخ إلى هذا الكنز فيقول:

[ألا تراها كنز أخفاه الله في الملّك حتى أوجد آدم على صورته ، وجعله خليفة في أرضه، واعترض من اعترض كما أخبر الله تعالى في ذلك . وما سُمع قبل خلق آدم: " لا حول ولا قوة إلا بالله" ، وكل قائل يقولها من غير العبد الجامع فإنّما يقولها بحكم التبعية له . ولما خلق العرش وأمرت الملائكة أن تحمله لم تطقه ، فلما عجزت قام الحامل الواحد منهم الذي على صورة الانسان فقال بلسانه لما أعطاه الله: " لا حول ولا قوة إلا بالله" ، فقال من بقي من الحملة بقوله فحملت العرش وأطاقته . فلما أوجد الله الانسان الكامل جعل له قلبا كالعرش جعله بيتا له ، فما في العالم من يطبق حمل قلب المؤمن لأنهم عجزوا عن

حمل العرش ، وهو في زاوية من زوايا قلب المؤمن لا يحس به ولا يعلم أنّ ثمّ عرشا لخفته عليه ، وجعل أسماءه الحسنی تحف بهذا القلب كما تحف الملائكة بالعرش، وجعل حملته العلم الإلهي والحياة والإرادة والقول، أربعة : فالحياة نظير الحامل الذي على صورة الانسان من حملة العرش لسريان الحياة في الأشياء فما ثمّ إلهي ، والحياة الشرط المصحح لبقية الصفات من علم وإرادة وقول . ورد في الخبر أنّ جبريل لما علم آدم الطواف بالبيت وقال له : إنا طفنا بالبيت قبل أن تخلق بكذا وكذا ألف سنة ، فقال له آدم : فما كنتم تقولون عند الطواف به ؟ فقال جبريل : كنا نقول : "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" . فقال آدم : وأزيدكم أنا " لاحول ولا قوة إلا بالله " . فاختص بهذا الكنز آدم عليه السلام .

وقد ورد في الخبر أيضا أن فاتحة الكتاب السبع المثاني نزلت من أحد الكنوز العرشية ، أي الكنوز العرشية المودعة في النشأة الانسانية ، بل في أشرفها حيث ظهرت على القلب واللسان المحمدي . وسيأتي كون الصورة المحمدية هي أحد حملة العرش الثمانية، بل هي قطب حملة العرش . وحقيقة "لا حول ولا قوة إلا بالله" منطوية في آية : "إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" من الفاتحة، بل كل الحقائق العرشية منطوية في آيات الفاتحة .

في معرفة حملة العرش:

خصص الشيخ الباب الثالث عشر من الفتوحات لمعرفة حملة العرش الثمانية فقال :

العرش والله بالرحمن محمول	وحاملوه وهذا القول معقول
وأي حول لمخلوق ومقدرة	لولا جاء به عقل وتنزيل
جسم وروح أقوات ومرتبة	ما ثم غير الذي رتبت تفصيل
فذا هو العرش إن حققت سورته	والمستوى با سمة الرحمن مأمول
وهم ثمانية والله يعلمهم	واليوم أربعة ما فيه تعليل
محمد ثم رضوان ومالكهم	وآدم وخليل ثم جبريل
والحق بميكال إسرائيل ليس هنا	سوى ثمانية عزّ بها ليل

اعلم أيد الله الولي الحميم أن العرش في لسان العرب يطلق ويراد به الملك ، يقال ثل عرش الملك إذا دخل في ملكه خلل ؛ ويطلق ويراد به السرير . فإذا كان العرش عبارة عن الملك فتكون حملته هم القائمون به ؛ وإذا كان العرش السرير فتكون حملته ما يقوم عليه من القوائم أو من يحمله على كواهلهم ؛ والعدد يدخل في حملة العرش ، وقد جعل الرسول حكمهم في الدنيا أربعة وفي القيامة ثمانية ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" ، ثم قال "وهم اليوم أربعة" يعني في يوم الدنيا ، وقوله يومئذ ثمانية يعني يوم الآخرة .

روينا عن ابن مسرة الجبلي من أكبر أهل الطريق علماً وحالاً وكشفاً : العرش المحمول هو الملك، وهو محصور في جسم وروح وغذاء ومرتبته . فآدم وإسرافيل للصور، وجبريل ومحمد للأرواح ، وميكائيل وإبراهيم للأرزق ، ومالك ورضوان للوعد والوعيد ؛ وليس في الملك إلا ما ذكر؛ والأغذية التي هي الأرزاق حسية ومعنوية . فالذي نذكر في هذا الباب الطريقة الواحدة التي هي بمعنى الملك لما يتعلق به من الفائدة في الطريق ، وتكون حملته عبارة عن القائمين بتدبيره ، فتدبر صورة عنصرية أو صورة نورية ، وروحاً مدبراً لصورة عنصرية وروحاً مدبراً مسخراً لصورة نورية ؛ وغذاء لصورة عنصرية ، وغذاء علوم ومعارف لأرواح ؛ ومرتبته حسية من سعادة بدخول الجنة ، ومرتبته حسية من شقاوة بدخول جهنم ، ومرتبته روحية علمية . فمبنى هذا الباب على أربع مسائل: المسئلة الأولى الصورة ، والمسئلة الثانية الروح ، والمسئلة الثالثة الغذاء ، والمسئلة الرابعة المرتبة وهي الغاية ؛ وكل مسئلة منها تنقسم قسمين فتكون ثمانية وهم حملة عرش الملك؛ أي إذا ظهرت الثمانية قام الملك وظهر واستوى عليه مليكه . المسئلة الأولى: الصورة ، وهي تنقسم قسمين صورة جسمية عنصرية تتضمن صورة جسدية خيالية ، والقسم الآخر صورة جسمية نورية .

فلنبتدىء بالجسم النوري فنقول: إن أول جسم خلقه الله أجسام الأرواح الملكية المهمة في جلال الله ومنهم العقل الأول والنفس الكل ، وإليها انتهت الأجسام النورية المخلوقة من نور الجلال، وما ثم ملك من هؤلاء الملائكة من وجد بواسطة غيره إلا النفس التي دون العقل ؛ وكل ملك خلق بعد هؤلاء فداخلون تحت حكم الطبيعة فهم من جنس أفلاكها التي خلقوا منها وهم عمارها ؛ وكذلك ملائكة العناصر، وآخر صنف من الأملاك الملائكة المخلوقون من أعمال العباد وأنفاسهم . فلنذكر ذلك صنفاً صنفاً في هذا الباب إن شاء الله تعالى : اعلم إن الله تعالى كان قبل أن يخلق الخلق، ولا قبلية زمان ، وإنما ذلك عبارة للتوصيل تدل على نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع ، كان جل وتعالى في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، وهو أول مظهر إلهي ظهر فيه ، سرى فيه النور الذاتي كما ظهر في قوله " الله نور السموات والأرض" ، فلما انصبع ذلك العماء بالنور، فتح فيه صور الملائكة المهممين الذين هم فوق عالم الأجسام الطبيعية، ولا عرش ولا مخلوق تقدمهم ؛ فلما أوجدهم تجلى لهم فصار لهم من ذلك التجلي غيباً ، كان ذلك الغيب روحاً لهم أي لتلك الصور، وتجلي لهم في اسمه الجميل فهاموا في جلال جماله فهم لا يفيقون . فلما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير عين واحداً من هؤلاء الملائكة الكروبيين ، وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور سماه العقل والقلم ، وتجلي له في مجلى التعليم الوهبي بما يريد إيجاده من خلقه لا إلى غاية وحد ، فقبل بذاته علم ما يكون وما للحق من الأسماء الإلهية الطالبة صدور هذا العالم الخلقى ؛ فاشتق من هذا العقل موجوداً آخر سماه اللوح، وأمر القلم أن يتدلى إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلى يوم القيامة لا غير؛ وجعل لهذا القلم ثلاثمائة وستين سنأ في قلميته أي من كونه قلماً ، ومن كونه عقلاً ثلاثمائة وستين تجلياً أو رقيقة ، كل سن أو رقيقة تعترف من ثلاثمائة وستين صنفاً من العلوم الإجمالية فيفصلها في اللوح ؛ فهذا حصر ما في العالم من العلوم إلى يوم القيامة ،

فعلمها اللوح حين أودعه إياها القلم ، فكان من ذلك علم الطبيعة وهو أول علم حصل في هذا اللوح من علوم ما يريد الله خلقه . فكانت الطبيعة دون النفس، وذلك كله في عالم النور الخالص . ثم أوجد سبحانه الظلمة المحضة التي هي في مقابلة هذا النور بمنزلة العدم المطلق المقابل للوجود المطلق، فعندما أوجدها أفاض عليها النور إفاضة ذاتية بمساعدة الطبيعة فلأم شعنها ذلك النور، فظهر الجسم المعبر عنه بالعرش فاستوى عليه الاسم الرحمن بالاسم الظاهر، فذلك أول ما ظهر من عالم الخلق . وخلق من ذلك النور الممتزج الذي هو مثل ضوء السحر الملائكة الحافين بالسرير، وهو قوله "وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم" ، فليس لهم شغل إلا كونهم حافين من حول العرش يسبحون بحمده . وقد بينا خلق العالم في كتاب سميناه "عقلة المستوفز" ، وإنما نأخذ منه في هذا الباب رؤوس الأشياء .

ثم أوجد الكرسي في جوف هذا العرش، وجعل فيه ملائكة من جنس طبيعته ، فكل فلك أصل لما خلق فيه من عماره ، كالعناصر فيما خلق منها من عمارها، كما خلق آدم من تراب وعمر به وببنيه الأرض . وقسم في هذا الكرسي الكريم الكلمة إلى خبر وحكم ، وهما القدمان اللتان تدلتا له من العرش كما ورد في الخبر النبوي . ثم خلق في جوف الكرسي الأفلاك فلما في جوف فلك، وخلق في كل فلك عالماً منه يعمره سماهم ملائكة يعني رسلاً ، وزينها بالكواكب وأوحى في كل سماء أمرها ، إلى أن خلق صور المولدات (أي المعادن والنبات والحيوان والجن والإنسان) .

ولما أكمل الله هذه الصور النورية والعنصرية بلا أرواح تكون غيباً لهذه الصور، تجلى لكل صنف من الصور بحسب ما هي عليه ، فتكون عن الصور وعن هذا التجلي أرواح الصور، وهي المسئلة الثانية فخلق الأرواح وأمرها بتدبير الصور، وجعلها غير منقسمة بل ذاتاً واحدة وميز بعضها عن بعض فتميزت ، وكان تميزها بحسب قبول الصور من ذلك التجلي ، وليست الصور بأينيات لهذه الأرواح على الحقيقة ، إلا أن هذه الصور لها كالمملك في حق الصور العنصرية ، وكالمظاهر في حق الصور كلها . ثم أحدث الله الصور الجسدية الخيالية بتجل آخر بين اللطائف والصور، تتجلى في تلك الصور الجسدية الصور النورية والنارية ظاهرة للعين ، وتتجلى الصور الحسية حاملة للصور المعنوية في هذه الصور الجسدية في النوم وبعد الموت وقبل البعث ، وهو البرزخ الصوري وهو قرن من نور أعلاه واسع وأسفله ضيق ، فإن أعلاه العماء وأسفله الأرض . وهذه الأجساد الصورية التي يظهر فيها الجن والملائكة وباطن الإنسان ، وهي الظاهرة في النوم وفي الصور وفي سوق الجنة ، وهي هذه الصور التي تعمر الأرض التي تقدم الكلام عليها في بابها (وهو الباب الثامن من الفتوحات حول أرض السمسة أرض عوالم الخيال ، وفي آخر هذا الكتاب شرح لهذا الباب) .

ثم إن الله تعالى جعل لهذه الصور ولهذه الأرواح غذاء وهو المسئلة الثالثة ، يكون بذلك الغذاء بقاؤهم وهو رزق حسي ومعنوي ، فالمعنوي منه غذاء العلوم والتجليات والأحوال، والغذاء المحسوس معلوم وهو ما تحمله صور المطاعم والمشروبات من المعاني الروحانية

أعني القوى، فذلك هو الغذاء ، فالغذاء كله معنوي على ما قلناه وإن كان في صور محسوسة ، فتتغذى كل صورة نورية كانت أو حيوانية أو جسدية بما يناسبها وتفصيل ذلك يطول .

ثم إن الله جعل لكل عالم مرتبة في السعادة والشقاء ومنزلة وتفصيلها لا تنحصر، فسعادتها بحسبها فمنها سعادة غرضية ، ومنها سعادة كمالية، ومنها سعادة ملائمة، ومنها سعادة وضعية أعني شرعية ؛ والشقاوة مثل ذلك في التقسيم بما لا يوافق الغرض ولا الكمال ولا المزاج وهو غير الملائم ولا الشرعي؛ وذلك كله محسوس ومعقول، فالمحسوس منه ما يتعلق بدار الشقاء من الآلام في الدنيا والآخرة، ويتعلق بدار السعادة من اللذات في الدنيا والآخرة ؛ ومنه خالص وممتزج، فالخالص يتعلق بالدار الآخرة ، والممتزج يتعلق بالدار الدنيا فيظهر السعيد بصورة الشقي والشقي بصورة السعيد، وفي الآخرة يمتازون، وقد يظهر الشقي في الدنيا بشقاوته ويتصل بشقاء الآخرة وكذلك السعيد، ولكنهم مجهولون وفي الآخرة يمتازون "وامتازوا اليوم أيها المجرمون" ، فهناك تلحق المراتب بأهلها لحوفاً لا ينخرم ولا يتبدل، وهذه هي المسئلة الرابعة .

فقد بان لك معنى الثمانية التي هي مجموع الملك المعبر عنه بالعرش . وهذه الثمانية للنسب الثمانية التي يوصف بها الحق وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر وإدراك المطعوم والمشوم والملبوس بالصفة اللائقة به ، فإن لهذا الإدراك بها تعلقاً كإدراك السمع بالمسموعات والبصر بالمبصرات ، ولهذا انحصر الملك في ثمانية ، فالظاهر منها في الدنيا أربعة : الصورة والغذاء والمرتبان ، ويوم القيامة تظهر الثمانية بجمعها للعيان وهو قوله تعالى "ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" ، فقال صلى الله عليه وسلم "وهم اليوم أربعة وغداً يكونون ثمانية" . وورد في صور هؤلاء الأربعة الحملة ما يقاربه قول ابن مسرة ، فقيل الواحد على صورة الإنسان، والثاني على صورة الأسد، والثالث على صورة النسر، والرابع على صورة الثور وهو الذي رآه السامري فتخيل أنه إله موسى، فصنع لقومه العجل وقال "هذا إلهكم وإله موسى" القصة . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . انتهى كلام الشيخ . ومنحيث اعتبار طبيعة العرش، فجوهره الأربعة هي الأركان الأربعة ، وتقاطعها مثنى مثنى يولد قوائم العناصر الأربعة : تقاطع وجهي الحرارة واليبوسة يعطي قائمة عنصر النار ، وتقاطع وجهي اليبوسة والبرودة يعطي قائمة التراب ، وتقاطع وجهي البرودة والرطوبة يعطي قائمة الماء ، وتقاطع وجهي الرطوبة والحرارة يعطي قائمة الهواء .

تأملات حول قوائم العرش وحروفها وجهاتها :

قال الشيخ في نص سابق أنه لا يعلم كم هو عدد قوائم العرش، مع قوله في نص آخر: (وعدها معلوم عندنا لا أبينه لئلا يسبق إلى الأفهام القاصرة عن إدراك الحقائق أن تلك القوائم عين ما توهموه وليست كذلك)، فلرفع التناقض يمكن القول أن ثمة قوائم أصلية هي بمثابة الأمهات وهي التي عددها ثابت معلوم

لا يتبدّل، وثمة قوائم فرعية تبرز من أمّهاتها الأصلية فهي في مزيد متجدّد وهي التي قال عنها الشيخ أن لا يعلم عددها . والله أعلم .

والذي يظهر – والله أعلم- أنّ لتلك القوائم وعددها علاقة بأمرين: الأمر الأوّل أنّ لها علاقة بعدد الكمّل من بني آدم وهم الأنبياء وعددهم (124000) نبي وأكملهم الرسل الذين عددهم (314)، ولكلّ منهم ورثة في كل زمان، فعددهم الإجمالي، أي قوائم الأنبياء الأصلية وقوائم الأولياء الورثة الفرعية، تتجدد زيادتها في كل عصر.

الأمر الثاني أنّ لها علاقة بعدد الصّور الفلكية أي المجموعات النجمية الظاهرة تحت فلك البروج الذي نسبته للعرش كنسبة فلك المنازل للكرسي، وعدد تلك الصور حصره القدماء في 1021 صورة وبإضافة الدراري السبعة يكون العدد هو 1028، وهذه الصور هي زينة إزار العظمة الإلهية الذي أعلاه العرش العظيم، فهي رمز ظاهر لزينة الحقائق العرشية ، والعلاقة الرمزية بين النجوم في مواقعها وبين الكمّل ومقاماتهم العرشية معلومة عند القوم.

ثم إن للقوائم العرشية علاقة عميقة مع الحروف والجهات وفق الترتيب التالي :

الدائرة العرشية مقسّمة على الحمّلة الثمانية ، والأسماء العرشية لهؤلاء الثمانية تتكون من مجموعات الحروف الثمانية والعشرين وذلك وفق الجهات التالية :

- الشرق: أ - ب - ج - د = $1+2+3+3=10$

- الغرب: هـ - و - ز = $5+6+7=18$

- الشمال: ح - ط - ي = $8+9+10=27$

- الجنوب: ك - ل - م - ن = $20+30+40+50=140$

- الشمال الشرقي: س-ع-ف-ص = $60+70+80+90=300$

- الشمال الغربي: ق-ر-ش-ت = $100+200+300+400=1000$

- الجنوب الشرقي: ث - خ - ذ = $500+600+700=1800$

- الجنوب الغربي: ظ-ض-غ = $800+900+1000=2700$

فمجموعها الكلّي: (5995)، فقلب هذا العدد يشير إلى الأسماء الحسنى التسعة والتسعين المتصرفة في العرش، وقطبها هو الاسم الأعظم الذي مظهره العرشي الروح المركزي المناسب لمقام الركن الأصلي الخامس، وهذه الحروف منها ما هو ناري أو هوائي أو مائي أو ترابي حسب ترتيبها في المنازل الفلكية ، لكل منزلة حرف . وهذا العدد 5995 يساوي مجموع الأعداد من واحد إلى 109 . والعدد 109 هو عدد كلمة (العدد) أو عدد الاسم (الحكيم)، أو فاتحة السورة 28 أي القصص وهي (طسم)

العرش المحيط وعرش الفصل والقضاء :

ويفرق الشيخ بين العرش الرحماني المحيط وعرش الفصل والقضاء يوم القيامة فيقول:

[فإن قلت والملائكة الحافون من حول العرش ما بقي لهم خلاء يتصرفون فيه والعرش قد عمّر الخلاء، قلنا : لا فرق بين كونهم حافين من حول العرش وبين الاستواء على العرش، فإنّ من لا يقبل التحيز لا يقبل الاتصال والانفصال . ثم إنّ الملائكة الحافين من حول العرش فما هو هذا الجسم الذي عمر الخلاء ، وإنما هو ذلك العرش الذي يأتي الله به للفصل والقضاء يوم القيامة ، وهذا العرش الذي استوى عليه هو عرش الاسم الرحمن، أما سمعته يقول: " وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" عند الفراغ من القضاء ، فذلك يوم القيامة تحمله الثمانية الأملاك وذلك بأرض الحشر؛ ونسبة العرش إلى تلك الأرض نسبة الجنة إلى عرض الحائط في قبلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في صلاة الكسوف ؛ وهذه من مسائل ذي النون المصري في إيراد الواسع على الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع ، ومن عرف المواطن هان عليه سماع مثل هذا [انتهى.

العرش كجسد للعالم عند الأمير عبد القادر :

ويتكلم الأمير عبد القادر الجزائري في كتابه "المواقف" عن العرش ويجعله في المرتبة الخامسة من المراتب الكلية، فالمرتبة الأولى هي الوحدة المطلقة الذاتية أي الذات بلا شرط حيث لا صفة ولا نعت. المرتبة الثانية هي الواحدية أي الذات من حيث انتشاء الأسماء منها وتسمّى أيضا بحضرة الألوهية ، وبمحل نفوذ الاقتدار، وبالحقيقة الانسانية الكمالية، وبقاب قوسين وغير ذلك . المرتبة الثالثة : مرتبة الأرواح العالية المهيّمة في الله، ومنهم العقل الأول ثم النفس الكلية أي اللوح المحفوظ . المرتبة الرابعة: مرتبة عالم المثال والخيال ، ثم المرتبة الخامسة التي يقول عنها :

[وهي مرتبة عالم الأجسام وأولها العرش ... فهو موجود عيني طبيعي بعد النفس الكلية وكان إيجاد العرش بتوجهات الأرواح العالية بما سرى فيها من أحكام الأسماء الإلهية من حيث مظاهرها المثالية المتعينة في عالم المثال . فكانت الأرواح بمثابة الذكر، والطبيعة بمثابة الأنثى، والجسم الكل بمثابة المحل، والعرش بمثابة المولود . وهذا من النكاح الثالث، فإنّ درجة عالم المثال ودرجة العرش واحدة طبيعية . وهو غير متحرك، خلافا لأهل النظر من الحكماء، إذ لو كان متحركا ما أخبر الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - أنه على الماء مستقر ... وإذا أطلق الشيخ لفظة الحركة على العرش والكرسي فإنما يريد الحركة المعنوية بالتأثير والامداد، كالحركة الارادية والحركة في الكيف ونحو هذا ... فالعرش جسد العالم ... غير أنّه وإن أحاط بالعالم من حيث صورته فما أحاط به من حيث أرواحه، فإنّ

الأرواح ليست تحته فأيتها غير متحيزة ، كروح العرش لا هي داخلة فيه ولا خارجه عنه ... وما قدّمنا من أنّ مرتبة العرش بعد النفس هو ما عليه جلّ العارفين المحققين والمنتشرعين، وخالف في ذلك العارف الكبير عبد الكريم الجيلي فقال: " مرتبة العرش أعلا من العقل الأوّل فضلا عن النفس " . وما قاله هذا السيّد يشهد له حديث الطبراني عن ابن عباس: " خلق الله العرش فاستوى عليه ثم خلق العالم " الحديث] انتهى.

العرش مظهر العظمة عند عبد الكريم الجيلي:

وفعلا فإنّ الجيلي يجعل العرش أوسع المخلوقات إحاطة، ففي كتابه (الانسان الكامل) يقول في الباب (45):

[اعلم أنّ العرش على التحقيق مظهر العظمة ومكانة التجلي وخصوصية الذات، ويسمّى جسم الحضرة ومكانها، لكنه المكان المنزّه عن الجهات الست؛ وهو المنظر الأعلى والمحل الأزهى والشامل لجميع أنواع الموجودات، فهو في الوجود المطلق كالجسم للوجود الانساني، باعتبار أنّ العالم الجسماني شامل للعالم الروحاني والخيالي والعقلي إلى غير ذلك . ولهذا عبّر بعض الصوفية عنه بأنّه الجسم الكل وفيه نظر، لأنّ الجسم الكلي وإن كان شاملا لعالم الأرواح فالروح فوقه والنفس الكلي فوقه ، ولا نعلم أنّ في الوجود شيئا فوق العرش إلا الرحمن، وقد عبّروا عن النفس الكلي بأنها اللوح، فهذا حكم بأنّ اللوح فوق العرش، وهو خلاف الإجماع . على أنّ من قال من أصحابنا الصوفية إنّ العرش هو الجسم الكلي لا يخالفنا أنّه فوق اللوح، وقد عبّر عنه بالنفس الكلي، ولا شك أنّ مرتبة النفس أعلى من مرتبة الجسم . والذي أعطانا الكشف في العرش مطلقا إن أنزلناه في حكم العبارة قلنا بأنّه فلك محيط بجميع الأفلاك المعنوية والصورية، سطح ذلك الفلك هي المكانة الرحمانية، ونفس هوية ذلك الفلك هو مطلق الوجود عينيا كان أو حكما، ولهذا الفلك ظاهر وباطن، فباطنه عالم القدس، ومجلاه هو المعبّر عنه بالكثير الذي يخرج إليه أهل الجنة يوم سوقهم لمشاهدة الحق . وظاهره عالم الأنس ، وهو محل التشبيه والتجسيم والتصوير، ولهذا كان سقف الجنة . فكل تشبيه وتجسيم وتصوير من كل جسم أو روح أو لفظ أو معنى أو حكم أو عين فإنّه ظاهر هذا الفلك . فمتى قيل لك العرش مطلقا فاعلم أنّ المراد به هذا الفلك المذكور، ومتى قيد بشيء من الصفات فاعلم أنّ المراد به ذلك الوجه من هذا الفلك، كقوله : العرش المجيد، فإنّ المراد به من عالم القدس المرتبة الرحمانية التي هي منشأ المجد، وكذلك العرش العظيم فإنّ المراد به الحقائق الذاتية والمقتضيات النفسية التي مكانتها العظمة، وذلك من عالم القدس، وعالم القدس عبارة عن المعاني الإلهية المقدسة عن الأحكام الخلقية والنقائص الكونية . واعلم أنّ الجسم في الهيكل الانساني جامع لجميع ما تضمنه وجود الانسان من الروح والعقل والقلب وأمثال ذلك ؛ فهو في الانسان نظير العرش في العالم، فالعرش هيكل العالم وجسده الجامع لجميع متفرقاته . وبهذا الاعتبار قال أصحابنا إنّ الجسم الكلي، ولا اختلاف بيننا لاتحاد المعنى في العبارتين. والله أعلم] انتهى.

ويتكلم الجيلي أيضا في كتابه (الانسان الكامل) عن مكانة الجنان من العرش ، فيقول أنّ الجنان على ثمان طباق:

الأولى جنة السلام والمجازاة ، والثانية وهي أعلى من الأولى بل هي سقف الأولى جنة الخلد والمكاسب ، والثالثة جنة المواهب وهي سقف الثانية ، والرابعة جنة الاستحقاق والنعيم والفطرة وهي سقف الثالثة ، والخامسة جنة الفردوس وهي على باب العرش وسقفها سقف الباب، وأهلها في مشاهدة دائمة فهم شهداء الجمال الإلهي قتلوا في محبة الله بسيف الفناء عن نفوسهم فلا يشهدون إلا محبوبهم، وهذه الجنة هي جنة المعارف وجنة الوسيلة . والطبقة السادسة جنة الفضيلة وأهلها هم الصديقون عند مليك مقتدر وهي جنة الأسماء ، وهي منبسطة على درجات العرش، كل طائفة من أهل الطبقة على درجة من درجات العرش . والطبقة السابعة تسمى الدرجة الرفيعة وهي جنة الصفات من حيث الاسم ، وهي جنة الذات من حيث الرسم ، أهلها هم المحققون بالحقائق الإلهية وأرضها باطن العرش . والطبقة الثامنة تسمى المقام المحمود وهي جنة الذات ، أرضها سقف العرش وقطبها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

التناسب بين العرش والكعبة والقلب :

ونشير أخيرا إلى وجود تناسب بين وجوه العرش الأربعة وحيطان الكعبة الأربعة، وكذلك بين أركانه الأربعة وأركان الكعبة الأربعة ، وكذلك بين العرش والكعبة وقلب العبد المومن ، وهو ما بينه الشيخ في الباب (72) المخصوص بالحج وأسراره (ج 1 ص 666-667). فللقائمة العرشية المحمدية نسبة مع ركن الحجر الأسود في الكعبة ومع الخاطر الإلهي في القلب، وللقائمة الإبراهيمية العرشية نسبة مع الركن اليماني ومع الخاطر الملكي، وللقائمة الرضوانية نسبة مع الركن الشامي ومع الخاطر النفسي لأن الجنة فيها ما تشتهيهِ الأنفس، وللقائمة المالكية نسبة مع الركن العراقي ومع الخاطر الشيطاني، فمالك خازن النار وقائمة قائمة النار والشيطان وأتباعه من النار وفي النار. يقول الشيخ:

[... إن الله جعل هذا البيت (أي الكعبة) الذي هو محل ذكر اسم الله على أربعة أركان، كذلك جعل الله القلب على أربع طبائع تحمله وعليها قامت نشأته كقيام البيت اليوم على أربعة أركان، كقيام العرش على أربعة حملة اليوم كذا ورد في الخبر أنهم اليوم أربعة وغدا يكونون ثمانية ، فإن الآخرة فيها حكم الدنيا والآخرة ، فلذلك تكون غدا ثمانية فيظهر في الآخرة حكم سلطان الأربعة الأخر؛ وكذلك يكون القلب في الآخرة تحمله ثمانية : الأربعة التي ذكرناها (أي الخواطر الأربعة) والأربعة الغيبية وهي: العلم والإرادة والقدرة والكلام ليس غير ذلك ؛ فإن قلت فهي موجودة اليوم فلماذا جعلتها في الآخرة ؟ قلنا: وكذلك الثمانية من الحملة موجودون اليوم في أعيانهم لكن لا حكم لهم في الحمل الخاص إلا غدا، كذلك هذه الصفات التي ذكرناها لا حكم ينفذ لهم في الدنيا دائما وإنما حكمهم في الآخرة للسعداء؛ وحكم الأربعة الذين هم طبائع هذا البيت ظاهرة الحكم في الأجسام .

وفي موقف آخر يترجم الشيخ الأكبر عن لسان الحق تعالى مخاطبا عبده الطائف بالكعبة ويقارنه بالملائكة الطائفين بالعرش فيقول :

[كعبتي هذه قلب الوجود، وعرشي لهذا القلب جسم محدود، وما وسعني واحد منهما ولا أخبر عني بالذي أخبرت عنهما، وبيتي الذي وسعني قلبك المقصود المودع في جسدك المشهود . فالطائفون بقلبك الأسرار، فهم بمنزلة أجسادكم عند طوافها بهذه الأحجار. والطائفون الحافون بعرشنا المحيط

كالطائفين منك بعالم التخطيط . فكما أنّ الجسم منك في الرتبة دون قلبك البسيط كذلك هي الكعبة مع العرش المحيط . فالطائفون بالكعبة بمنزلة الطائفين بقلبك لاشتراكهما في القلبية، والطائفون بجسمك كالطائفين بالعرش لاشتراكهما في الصفة الإحاطية. فكما أنّ عالم الأسرار الطائفين بالقلب الذي وسعني أسنى منزلة من غيرهم وأعلى، كذلك أنتم بنعت الشرف والسيادة على الطائفين بالعرش المحيط أولى، فإنكم الطائفون بقلب وجود العالم، فأنتم بمنزلة أسرار العلماء، وهم الطائفون بجسم العالم فهم بمنزلة الماء والهواء، فكيف تكونون سواء، وما وسعني سواكم، وما تجليت في صورة كمال إلا في معانكم ، فاعرفوا قدر ما وهبتكموه من الشرف العالي.] إلى آخر ما ترجمه رحمه الله.

الفصل الثاني

ترتيب الكون مكانا ومكانة وزمانا

ترتيب الكون بالظهور في الإيجاد

أهم المراجع حول مراتب الوجود عند الشيخ الأكبر هي في الفتوحات الأبواب التالية :
167 / 198 من الفصل 11 إلى الفصل 38 / 367 / 371 / 15، ومن كتبه الأخرى :
عقلة المستوفز / الإتحاد الكوني أو الشجرة والطيور الأربعة / كتاب الإسراء / رسالة
الأنوار / الدرّة البيضاء . ويمكن الرجوع أيضا إلى الموقف 248 من كتاب " المواقف "

للأمير عبد القادر الجزائري ، وكتاب " الإنسان الكامل " وكتاب " مراتب الوجود " للشيخ عبد الكريم الجيلي .

يقول الشيخ الأكبر في الفصل التاسع من الباب 371 من الفتوحات :

(اعلم أن العالم عبارة عن كل ما سوى الله ، وليس إلا الممكنات سواء وجدت أو لم توجد ، فإنها بذاتها علامة على علمنا أو على العلم بواجب الوجود لذاته وهو الله ، فإن الإمكان حكم لها لازم في حال عدمها وفي حال وجودها، بل هو ذاتي لها لأن الترجيح لها لازم فالمرجح معلوم ، ولهذا سمي عالم من العلامة لأنه الدليل على المرجح ، فاعلم ذلك . وليس العالم في حال وجوده بشيء سوى الصور التي قبلها العماء وظهرت فيه . فالعالم إن نظرت حقيقته إنما هو عرض زائل أي في حكم الزوال ، وهو قوله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أصدق بيت قالته العرب قول لبيد : " ألا كل شيء ما خلا الله باطل ") ، يقول : ماله حقيقة يثبت عليها من نفسه ، فما هو موجود إلا بغيره . فالجوهر الثابت هو العماء ، وليس إلا نفس الرحمن ، والعالم جميع ما ظهر فيه من الصور ، فهي أعراض فيه يمكن إزالتها ، وتلك الصور هي الممكنات ، ونسبتها من العماء نسبة الصور من المرأة تظهر فيها لعين الرائي ، والحق تعالى هو بصر العالم ، فهو الرائي ، وهو العالم بالممكنات ، فما أدرك إلا ما في علمه من صور الممكنات . فظهر العالم بين العالم وبين رؤية الحق فكان ما ظهر دليلا على الرائي وهو الحق ، فتفطن واعلم من أنت) .

نضد العالم على الظهور والترتيب

العنصر الأعظم، وأرواح نورية إلهية مهيمة في صور نورية خلقية إبداعية في جوهر نفس – بفتح الفاء- هو العماء ، من جملتها العقل الأول وهو القلم الأعلى خلقه الله تعالى بتوجه اسمه : البديع .

ثم النفس الكلية وهو اللوح المحفوظ بتوجه اسمه تعالى : الباعث .

ثم أرواح مهيمة بالتقديس والتسبيح في أرض بيضاء ملكوتية .

ثم مرتبة الطبيعة بأركانها الأربعة : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، لكل ركن ملك . وهذه المرتبة ليس لها وجود عيني ، والمتوجه على إيجادها اسمه تعالى : الباطن .

ثم مرتبة الهباء ، وهي الهولي ، وهي أيضا ليس لها وجود عيني ، وإنما هي مجلى الصور الوجودية ، المتوجه على إيجادها اسمه تعالى : الآخر .

- ثم مرتبة الجسم الكل , وليس لها وجود عيني والمتوجه على إيجادها اسمه تعالى : الظاهر .
- ثم مرتبة الشكل الكل , وليس لها وجود عيني , والمتوجه على إيجادها اسمه تعالى : الحكيم .
- ثم العرش ومقره الماء الجامد والهواء وظلمة الغيب , والمتوجه على إيجادها اسمه تعالى : المحيط .
- ثم ملائكة العرش , وهم الواهبات , ومقدمهم : إسرافيل عليه السلام .
- ثم تحت العرش عالم الهباء .
- ثم الكرسي , والمتوجه على إيجادها اسمه تعالى : الشكور .
- ثم ملائكة الكرسي , وهم المدبرات , ومقدمهم : ميكائيل عليه السلام .
- ثم تحته عالم الرفارف والمثل العليا .
- ثم الفلك الأطلس وهو فلك البروج الاثني عشر , وهو المظهر المحسوس للعرش , والمتوجه على إيجادها اسمه تعالى : الغني . فباطنه الملكوتي العرشي فوق الكرسي , ومظهره المحسوس تحته .
- ثم ملائكة الفلك الأطلس , وهم المقسمات , ومقدمهم : جبرائيل عليه السلام .
- ثم تحته عالم الرضوان .
- ثم فلك المنازل الموكب , المتوجه على إيجادها اسمه تعالى : المقدر . وهذا الفلك هو المظهر المحسوس للكرسي .
- ثم ملائكة فلك المنازل , وهم التاليات , و مقدمهم رضوان .
- ثم الجنات بما فيها , ثم ما يختص بها وبهذا الفلك من الكواكب . وسقف الجنة العرش وأرضها الكرسي .
- ثم الأرض بطبقاتها السبعة , والمتوجه على إيجاد التراب فيها اسمه تعالى : المميت .
- ثم فوقها كرة الماء , المتوجه على إيجادها اسمه تعالى : المحيي .
- ثم فوقها كرة الهواء , المتوجه على إيجادها اسمه تعالى : الحي .
- ثم فوقها كرة النار أو الأثير , المتوجه على إيجادها اسمه تعالى : القابض .
- ثم فوقها الدخان وفتق فيه سبع سماوات :
- سماء القمر المتوجه على إيجادها الاسم : المبين المتين .
 - ثم فوقها سماء الكاتب (عطارد) المتوجه على إيجادها الاسم : المحصي .
 - ثم فوقها سماء الزهرة المتوجه على إيجادها الاسم : المصور .
 - ثم فوقها سماء الشمس المتوجه على إيجادها الاسم : النور .

- ثم فوقها سماء الأحمر (المريخ) المتوجه على إيجادها الاسم : القاهر .
- ثم فوقها سماء المشتري المتوجه على إيجادها الاسم : العليم .
- ثم فوقها سماء المقاتل (زحل) المتوجه على إيجادها الاسم : الرب .
- فهذه الكواكب وأفلاكها هي المظهر المحسوس للسموات السبعة الملكوتية .
- ثم ملائكة سماء القمر الأولى , وهم السابحات ومقدمهم : المحيي .
- ثم فوقها عالم المزج .
- ثم فوقه ملائكة سماء الكاتب الثانية , وهم الناشطات ومقدمهم الروح .
- ثم فوقها عالم الحفظ .
- ثم فوقه ملائكة سماء الزهرة الثالثة , وهم الفاتقات ومقدمهم الجميل .
- ثم فوقها عالم الأنس .
- ثم فوقه ملائكة سماء الشمس القطبية القلبية الرابعة , وهم الصافات ومقدمهم الربيع .
- ثم فوقها عالم البسط .
- ثم فوقه ملائكة سماء المريخ الخامسة , وهم الفارقات ومقدمهم الخاشع.
- ثم فوقها عالم الهيبة.
- ثم فوقه ملائكة المشتري السادسة وهم الملقيات ومقدمهم المقرب .
- ثم فوقها عالم الجمال .
- ثم فوقه ملائكة السماء السابعة وهم النازعات ومقدمهم عزرائيل .
- ثم فوقها عالم الجلال .
- ثم ملائكة كرة النار وعالم الخوف بين سماء القمر وكرة النار , وهم السابحات .
- ثم تحتهم ملائكة عالم الشوق و كرة الهواء وهم الزاجرات ومقدمهم الرعد .
- ثم تحتهم ملائكة عالم الحياة وكرة الماء , وهم الساريات ومقدمهم الزاجر.
- ثم تحتهم ملائكة عالم الذكر وكرة التراب وهم الناشرات ومقدمهم قاف .
- والاسم الإلهي المتوجه على إيجاد الملائكة هو : القوي .
- ثم المولدات وهي : المعدن والمتوجه على إيجادها الاسم : العزيز , والنبات المتوجه على إيجادها الاسم : الرزاق ,

ثم الحيوان المتوجه على إيجاده الاسم : المذل , ثم الجن المتوجه على إيجاده الاسم : اللطيف , ثم نشأة جسد الإنسان المتوجه على إيجاده الاسم : الجامع .

ثم ما ظهر من أشخاص كل نوع من المعدن والنبات والحيوان .

ثم الصور المخلوقات من أعمال المكلفين , وهي آخر نوع .

ترتيب العالم بالمكان الوجودي في عالم الدنيا

العنصر الأعظم والأرواح المهيمة والقلم الأعلى واللوح المحفوظ , في عالم الملكوت الأعلى .

ثم المراتب المتوهمة المعقولة التي لا عين لها أي : الطبيعة ثم الهباء ثم الجسم الكل ثم الشكل الكل .

ثم العرش, وهو سقف الجنة .

ثم مراتب الجنان والرفارف والمثل .

ثم الكرسي , وهو أرض الجنة .

ثم فلك البروج الأطلس الذي هو المظهر الخارجي المحسوس للعرش .

ثم الفلك المكوكب الذي هو المظهر الخارجي المحسوس للكرسي .

ثم السماء السابعة ومظهرها الخارجي المحسوس فلك زحل .

ثم السماء السادسة ومظهرها الخارجي المحسوس فلك المشتري .

ثم السماء الخامسة ومظهرها الخارجي المحسوس فلك المريخ .

ثم السماء الرابعة ومظهرها الخارجي المحسوس فلك الشمس .

ثم السماء الثالثة ومظهرها الخارجي المحسوس فلك الزهرة .

ثم السماء الثانية ومظهرها الخارجي المحسوس فلك الكاتب .

ثم السماء الأولى ومظهرها الخارجي المحسوس فلك القمر .

ثم كور الأثير أي النار ثم الهواء ثم الماء ثم الأرض بطبقها السبع .

ملاحظة : ينظر التناسب بين مراتب الوجود الثمانية والعشرين، و الأسماء الحسنى المتوجهة على إيجادها، والمنازل الفلكية، والحروف اللفظية، وترتيب الأنبياء في أبواب كتاب " فصوص الحكم " حسب تسلسل أبوابه، وسور قرآنية ، كل هذا ينظر تفصيله في كتابنا " المفاتيح الوجودية والقرآنية لفصوص الحكم لابن العربي " .

ترتيب العالم بالمكان الوجودي في الآخرة

نفس الترتيب السابق نزولا حتى العرش، وتحتة الجنان السبعة بالترتيب النازل التالي : جنة عدن وأعلىها الكئيب حيث يرى السعداء ربهم عز وجل , ثم تحتها الفردوس ثم النعيم ثم المأوى ثم الخلد ثم دار السلام ثم دار المقامة . وأما الوسيلة فهي أعلى درجة في كل جنة وهي مخصوصة برسول الله- صلى الله عليه وسلم- وحده . وأرض الجنة الفلك المكوكب الذي هو سور الأعراف وهو الكرسي , وهو سقف جهنم بدركاتها السبعة التالية : سجين ثم تحتها الحطمة ثم لظى ثم سقر ثم السعير ثم الجحيم ثم جهنم . وفي هذه الدركات تكون الكواكب الدراري السبعة . أي أن ما بسمى في عصرنا بالمجموعة الشمسية كلها يتحول في الآخرة إلى النار، ما عدا أجزاء من الأرض فهي تتلطف متحولة إلى الجنة .

ترتيب العالم بالمكانة

الإنسان الكامل ثم القلم الأعلى ثم الأرواح المهيمة ثم اللوح المحفوظ ، ثم العرش ثم الكرسي ثم الفلك الأطلس، ثم الكئيب ثم الوسيلة ثم عدن ثم الفردوس ثم دار السلام ثم دار المقامة ثم المأوى ثم الخلد ثم النعيم، ثم فلك المنازل ثم البيت المعمور ، ثم سماء الشمس القطبية ثم القمر ثم المشتري ثم زحل ثم الزهرة ثم الكاتب ثم المريخ ، ثم الهواء ثم الماء ثم التراب ثم النار، ثم الحيوان ثم النبات ثم المعدن .

أما ترتيب الناس بالمكانة , فأفضلهم الرسل ثم الأنبياء ثم الأولياء ثم المؤمنون ثم سائر الخلق .

الفصل الثالث

الأزل والزمن

معرفة الأزل والزمان المتوهم والموجود والمقدر

في الباب 59 قال الشيخ الأكبر ما خلاصته :

(اعلم أن نسبة الأزل إلى الله نسبة الزمان إلينا . ونسبة الأزل نعت سلبي لا عين له ، فلا يكون عن هذه الحقيقة وجود، فيكون الزمان للممكن نسبة متوهمة الوجود لا موجودة ، لأن كل شيء تفرضه يصح عنه

السؤال بمتى ، ومتى سؤال عن زمان . فلا بد أن يكون الزمان أمرا متوهما لا وجودا . ولهذا أطلقه الحق عن نفسه في قوله : (وكان الله بكل شيء عليما) (والله الأمر من قبل ومن بعد) . وفي السنة تقرير قول السائل : " أين كان ربما قبل أن يخلق خلقه " . فلو كان الزمان أمرا وجوديا في نفسه ما صح تنزيه الحق عن التقييد إذ كان حكم الزمان يقيده . فعرفنا أن هذه الصيغ ما تحتها أمر وجودي . ثم نقول إن لفظة الزمان اختلف الناس في معقولها ومدلولها . فالحكماء تطلقه بإزاء أمور مختلفة ، وأكثرهم على أنه مدة متوهمة تقطعها حركات الأفلاك . والمتكلمون يطلقونه بإزاء أمر ، آخر وهو مقارنة حادث لحادث يسأل عنه بمتى . والعرب تطلقه وتريد به الليل والنهار ، وهو مطلوبنا في هذا الباب . والليل والنهار فصلا اليوم : فمن طلوع الشمس إلى غروبها يسمى نهارا ، ومن غروب الشمس إلى طلوعها يسمى ليلا . وأظهر هذا اليوم وجود الحركة الكبرى . فما في الوجود العيني إلا الوجود المتحرك لا غير ، وما هو عين الزمان . فرجع محصول ذلك إلى أن الزمان أمر متوهم لا حقيقة له . وورد في الحديث الصحيح اسمه تعالى (الدهر) وهو الجامع للأزل وللآن وللأبد .

وإذا تقرر هذا فالיום المعقول المقدر هو المعبر عنه بالزمان الموجود، وبه تظهر الجمعات والشهور والسنون والدهور ، وتسمى أياما ، وتقدر بهذا اليوم الأصغر المعتاد الذي فصله الليل والنهار . فالزمان المقدر هو ما زاد على هذا اليوم الأصغر الذي تقدر به سائر الأيام الكبار ، فيقال : (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقال : (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) . فالأيام كثيرة ومنها كبير ولا حد لأكبرها يوقف عنده ، ومنها صغير فأصغرها الزمن الفرد وعليه يخرج (كل يوم هو في شأن) ، وبينهما أيام متوسطة أولها اليوم المعلوم في العرف وتفصله الساعات والدرج والدقائق ، وهكذا إلى ما لا يتناهى عند بعض الناس ، فإنهم يفصلون الدقائق إلى ثوان . فلما دخلها حكم العدد ، والعدد لا يتناهى ، فالتفصيل في ذلك لا ينتهي . وبعض الناس يقولون بالتناهي في ذلك ، وينظرونه من حيث المعدود ، وهم الذين يثبتون أن للزمان عين موجودة ، وكل ما دخل في الوجود فهو متناه بلا شك . والمخالف يقول المعدود من كونه بعد ما دخل في الوجود فلا يوصف بالتناهي ، فإن العدد لا يتصف بالتناهي . وبهذا يحتج منكر الجوهر الفرد ، وأن الجسم ينقسم إلى مالا نهاية له في العقل ، وهي مسألة خلاف بين أهل النظر حدثت من عدم الإنصاف والبحث عن مدلول الألفاظ .

وفي الباب 367 يورد الشيخ الأكبر حوارا جرى بينه وبين سيدنا إدريس -عليه السلام- ، وفيه بيان عميق لعلاقة الزمان بالخلق ، فيقول :

(قلت - أي لأدريس - : فإني رأيت في واقعتي شخصا بالطواف أخبرني أنه من أجدادي وسمى لي نفسه ، فسألته عن زمان موته فقال لي: أربعون ألف سنة ، فسألته عن آدم لما تقرر عندنا في التاريخ لمدته ، فقال لي : عن أي آدم تسأل عن آدم الأقرب ؟ فقال - أي إدريس عليه السلام - : صدق أنني نبي الله ولا أعلم للعالم مدة نقف عندها بجملتها ، إلا أنه بالجملة لم يزل خالقا ولا يزال دنيا وآخرة ، والأجال في المخلوق بانتهاء المدد لا في الخلق ، فالخلق مع الأنفاس يتجدد ، فما أعمانه علمناه ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . فقلت له : فما بقي لظهور الساعة ؟ فقال : " اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون " . قلت : فعرفني بشرط من شروط اقتربها . فقال : وجود آدم من شروط الساعة . قلت : فهل كان قبل الدنيا دار غيرها ؟ قال: دار الوجود واحدة ، والدار ما كانت دنيا إلا بكم ، والآخرة ما تميزت عنها إلا بكم ، وإنما الأمر في الأجسام أكوان واستحالات وإتيان وذهاب لم يزل ولا تزال ...قلت : ما الأمر الأعظم ؟ قال : العالم به أعظم .)

وللشيخ الأكبر رسالة نفيسة عنوانها " كتاب الأزل " بين فيها مختلف أقوال المتكلمين في حقيقة الزمان والأزل ، ووضح أخطاء بعضهم في هذا الموضوع . ولب خلاصتها في ما يلي :

تخيلت طائفة أن الأزل مثل الخلاء ، امتداد معقول كما الخلاء امتداد في غير جسم ، كذلك الأزل امتداد من غير توالي حركات زمان، فكأنه تقدير زمان . وهذا كله خطأ . فالأزل حكمه حكم القدم وهو نفي الأولية ، فهو نعت سلبي ليس بصفة أصلا . فإياك أن تتوهم كما توهمه الضعفاء من أن العالم كان يجوز أن يوجد قبل أو بعد الوقت الذي أوجده فيه ، أي تقدير وقت إيجاده . فهذا خلف من الكلام لأن التقدير في لا شئ فيه ما فيه . والذي ينبغي أن يقال: أن الباري موجود بنفسه غير مستفاد الوجود من أحد ، والعالم موجود به مستفاد الوجود منه، لأنه ممكن بذاته واجب الوجود بغيره من حيث أنه مستفيد . فليس بين وجود الحق والخلق امتداد كما يتوهم ، ولا أنه بقي كذا وكذا ثم أوجد ، فإن هذه كلها توهمات فاسدة ترددها العقول السليمة . فلا بينية عند الحق ولا عند الخلق ، إنما هو ارتباط محدث بقديم ، أو ممكن بواجب ، أو واجب وجود بغير واجب الوجود بذاته ليس إلا . واعلم أن سر الأزل وروحه إنما هو أنا (أي المخلوق الحادث) . وهكذا إخوان الأزلية كالألفية والأخرية والظاهرية والباطنية . فهذه كلها لولا أنا ما كان منها شئ . فإن صحت هذه النعوت له أزلا فأنا هناك أزلا بلا أزلية . وإن لم تصح ولا عيني فلست هناك .

الأزل والأبد والقدم وأيام الله عند الجبلي

في كتابه " الإنسان الكامل " خصص الشيخ عبد الكريم الجبلي أربعة أبواب هي على التتالي : في الأزل والأبد والقدم وأيام الله . وخلصتها في ما يلي :

الأزل عبارة عن معقولية القبلية المحكوم بها الله تعالى من حيث ما يقتضيه كماله ، لا من حيث إنه تقدم على الحادثات بزمان متناول العهد كما يسبق ذلك إلى فهم من ليس له معرفة بالله . فأزله موجود الآن كما كان موجودا قبل وجودنا ، لم يتغير عن أزليته ولم يزل أزليا في أبد الآباد . وأما الوجود الحادث فله أزل ، وهو عبارة عن الوقت الذي لم يكن للحادث فيه وجود . فأزلية المعدن غير أزلية النبات لأنه قبله إذ لا وجود للنبات إلا بعد وجود المعدن . وأزلية المعدن في حال وجود الجوهر . ووجود الجوهر في حال وجود الهيولى . وأزلية الهيولى في حال وجود الهباء . وأزلية الهباء في حال وجود الطبايع . وأزلية الطبايع في حال وجود العناصر . وأزلية العناصر في حال وجود العليين كالقلم الأعلى والعقل والملك المسمى بالروح . وهم وجميع العالم أزلهم كلمة الحضرة ، وهو معنى قوله للشئ " كن فيكون " . فأما الأزل المطلق ، فما يستحقه إلا الله لنفسه ، ليس لشئ من المخلوقات فيه وجود لا حكما ولا عينا .

ولا اعتبارا ، لأنه عبارة عن حكم القبليّة لله وحده . وقول القائل : كنا في الأزل عند الله ، فهي أزليّة الخلق ، وإلا فهم غير موجودين في أزليّة الحق . فأزل الحق أزل الآزال ، وهو له حكم ذاتي استحقه لكماله .

والأبد عبارة عن معقول البعدية لله تعالى ، وهو حكم له من حيث ما يقتضيه وجوده الوجودي الذاتي ، فلهذا صح له البقاء لأنه غير مسبوق بالعدم . والبعدية والقبليّة لله تعالى حكمان في حقه لا زمانيان لاستحالة مرور الزمان عليه . فأبد الحق شأنه الذاتي باعتبار استمرار وجوده بعد وجود انقطاع الممكن . وكل شيء من الممكنات له أبد ، فأبد الدنيا بتحول الأمر إلى الآخرة ، وأبد الآخرة بتحول الأمر إلى الحق تعالى . فليس لمخلوق أن يسايره في بقائه . وأزله تعالى عين أبده ، فهما نعتان أظهرتهما الإضافة الزمانية لتعقل وجوب وجوده . وإلا فلا أزل ولا أبد " كان الله ولا شيء معه " .

أما القدم فهو عبارة عن حكم الوجود الذاتي . فليس بينه سبحانه وبين خلقه زمان ولا وقت جامع ، بل تقدم وجوده على وجود المخلوقات هو المسمى بالقدم ، وطرو المخلوق لافتقاره إلى موجد هو المسمى بالحدث .

وأيام الحق تجلياته وظهوره بما تقتضيه ذاته من أنواع الكمالات . ولكل تجل حكم يعبر عنه بالشأن . ولذلك الحكم في الوجود أثر لائق بذلك التجلي . فتغير الوجود في كل آن إنما هو أثر للشأن الإلهي الذي اقتضاه التجلي ، وهو معنى قوله (كل يوم هو في شأن) ، فشئو نه تعالى هي المعبر عنها بتحوله في الصور ، مع بقاءه تعالى في عزة أحديته التي لا تتغير .

أنواع الأيام في الأرض عند الشيخ الأكبر

من تأليف الشيخ كتاب " أيام الشأن " ، بين فيه وجود ثلاثة أصناف من الأيام في الدورة الزمنية للأرض ، وهي:

- **أيام التكوير** : من قوله تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) ، وهي الأيام الطبيعية المشهودة المشكلة للأسبوع المعروف . والحساب القمري كما هو عند العرب يعتبر الليل مقدما على النهار ، والحساب الشمسي يعتبر النهار مقدما على الليل . ولكل ليلة ولكل نهار علاقة بكوكب من السيارة السبعة كما هو مشهور في علم الفلك التراثي الأصيل : وكما تدل عليه أسماء الأيام في العديد من اللغات الأجنبية . ولها أيضا علاقة بصفة إلهية . فلأحد ارتباط بالسمع وكوكبه الشمس ، وللاثنين الحياة والقمر ، ولالثلاثاء البصر والمريخ ، ولالإربعاء الإرادة وعطارد ، وللخميس القدرة والمشتري ، وللجمعة العلم والزهرة ، وللسبت الكلام وزحل .

- **أيام السلخ** : من قوله تعالى : (وءاية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) . وذلك وفق الترتيب التالي : بين كل ليلة والنهار المسلوخ منها ثلاث ليال وثلاثة نهارات . فنهار الأربعاء مسلوخ من ليلة الأحد لأن الحاكم على أول ساعة منهما هو كوكب عطارد فشأنهما واحد . ونهار الخميس مسلوخ من ليلة الاثنين لأن الحاكم على أول ساعة منهما هو كوكب المشتري ، فشأنهما واحد . ونهار الجمعة لليلة الثلاثاء فشأنهما واحد . ونهار السبت لليلة الأربعاء . ونهار الأحد لليلة الخميس . ونهار الاثنين لليلة الجمعة . ونهار الثلاثاء لليلة السبت . ونهار الثلاثاء لليلة السبت . وسبب هذا الترتيب هو أن بداية العد تنطلق من أول ساعة لنهار الأحد وهي للشمس ، والساعة التي تتلوها للكوكب الذي يتلو الشمس نزولا وهو الزهرة ، والساعة الثالثة لعطارد الذي يتلو الزهرة ، والساعة الرابعة للقمر ، والخامسة لزحل ، والسادسة للمشتري ، والسابعة للمريخ ، والساعة الثامنة يعود فيها الحكم للحاكم الأصلي الأول أي الشمس . والتاسعة للزهرة ، والعاشر لعطارد ، والحادية عشر للقمر والثانية عشر لزحل . وهنا ينتهي نهار الأحد ، وتبدأ الساعة الأولى من ليلة الاثنين بحكم المشتري . وهكذا يستمر التتابع إلى منتهى الأسبوع . والمقصود بالساعة النهارية جزء من اثني عشرة جزء من المدة بين طلوع الشمس وغروبها ، والساعة الليلية كذلك بين الغروب والشروق .

- **أيام التوالج** : من قوله تعالى : (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) . بالرجوع إلى ترتيب حكم الكواكب السبعة في كل ساعة خلال أسبوع كامل يتبين أن لكل واحدة منها اثنتا عشرة ساعة نهارية واثنتا عشرة ساعة ليلية موزعة على الأسبوع .

فهذه الأصناف الثلاثة للأيام متداخلة في بعضها البعض ، ولكل يوم أحداث وأثار تظهر من حكم طبيعة الكوكب الحاكم في اليوم مع طبيعة الكوكب الحاكم في الساعة ومنزلتهما الفلكية وبرجهما . فطبيعة زحل ترابية باردة يابسة ، فلها حفظ بقاء صور العالم وإمساکها وتكوينها . وطبيعة المشتري هوائية حارة رطبة ، فحكمها السيلان من الرطوبة والتحلل من الحرارة . وطبيعة المريخ والشمس نارية حارة يابسة ، فلهما التسخين والتلطيف . وطبيعة الزهرة والقمر مائية باردة رطبة ، فلهما التلطيف وإمداد المولدات بالعصارات .

وأحكام وأثار هذه الأيام من حيث كواكبها واقعة بتمامها في كل آن، لأن الأربعة وعشرين ساعة المشكلة لليوم موجودة في كل آن موزعة على الكرة الأرضية بجملتها .

مثال يشرح كلام الشيخ في كتابه " أيام الشأن " (والشرح بين قوسين) :

يقول : وأما ليلة الخميس الإيلاجي الشأن (الحاكم فيه هو المشتري ، وبالتالي فهو مؤلف من الساعات التي يكون فيها الحكم لهذا الكوكب) فمركبة من الساعة الأولى من ليلة الاثنين والثامنة منها ، والثالثة من يوم (أي نهار) الاثنين (لأن الساعة الأولى منه للقمر ، والثانية لزحل ، والثالثة للمشتري) ، والعاشر منه (لأن الساعة الرابعة منه للمريخ ، والخامسة للشمس ، والسادسة للزهرة ، والسابعة لعطارد ، والثامنة للقمر ، والتاسعة لزحل ، والعاشر للمشتري) ، والخامسة من ليلة الثلاثاء والثانية عشرة منها (لأن الحاكم الأول فيها الزهرة ، ويتتبع نفس الترتيب نجد للمشتري الساعتين المذكورتين) ، والسابعة من يوم (أي نهار) الثلاثاء (لأن الحاكم الأول فيه المريخ فللسابعة المشتري) ، والثانية من ليلة الأربعاء والتاسعة منها (لأن حاكمها الأول زحل) ، والرابعة من يوم (أي نهار) الأربعاء والحادية عشرة منه (لأن حاكمها الأول عطارد) ، والسادسة من ليلة الخميس (لأن حاكمها الأول الشمس) . فهذه اثنا عشرة ساعة .

وأما نهاره (أي الساعات الأخرى الاثنا عشرة التي لها حكم المشتري بدءا من الساعة الأولى من نهار الخميس) فمركبة ساعاته من يوم الخميس من أيام التكوير والثامنة منه ، والثالثة من ليلة الجمعة والعاشر منها ، والخامسة من نهار الجمعة والثانية عشرة منها ، والسابعة من ليلة السبت والثانية من نهار السبت والتاسعة منه ، والرابعة من يوم الأحد . (فهذه اثنا عشرة ساعة أخرى ، فالمجموع أربعة وعشرون ساعة) . فهذا يوم الخميس قد أتمنا نشأته من ساعات أيام التكوير (أي الأيام المألوفة العادية) . والشان الإلهي فيه السيلان والتحليل (لأن طبيعة المشتري هوائية حارة رطبة ، فحاررتها تحدث التحليل ، ورطوبتها تحدث السيلان) . أمر الله تعالى روحانيات الأفلاك بمساعدة في النفس (أي النفس الكلية أو اللوح المحفوظ) في هذا الشأن ، فساعدوا الفلك الأول بنصف قوته (أي ساعدها فلك القمر بالرطوبة لأنه مائي بارد رطب) وكذلك جميع روحانيات الأفلاك ساعدوها بنصف قواهم (لأن طبع الزهرة مائي كالقمر فساعد برطوبته ، وفلك الشمس وفلك المريخ ناربان حاران يابسان فساعدوا بالحرارة ، وفلك عطارد ممتزج له الطبايع الأربعة التي نصفها الحرارة والرطوبة) إلا الفلك السابع (أي فلك زحل فطبعه على الضد من طبع المشتري لأنه ترابي بارد يابس ضد الحار الرطب) ، وأما السادس فساعد بقوته كلها (لأنه فلك المشتري نفسه) ، ويقاس على هذا المثال بقية ما فصله الشيخ في كتاب " أيام الشأن " .

ملاحظة : جل ما ذكره الشيخ الأكبر في كتبه حول العلوم الفلكية والكونية كان معروفا عند حكماء جل الأمم منذ عهد إدريس عليه السلام . فهو الذي علمها للناس بوحى وكشف من الله تعالى . وهو الذي سماه الشيخ في البابين 14 و15 من الفتوحات باسم " مداوي الكلوم " ، وذكر بعض العلوم التي علمها وعلوم ستة من خلفاءه في الباب 15 .

نهاراليوم	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت
ليلته	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء
كوكبه	الشمس	القمر	المريخ	عطارد	المشتري	الزهرة	زحل
سماؤه	الرابعة	الأولى	الخامسة	الثانية	السادسة	الثالثة	السابعة
طبعه	حار يابس	بارد رطب	حار يابس	ممتزج	حار رطب	بارد رطب	بارد يابس
زمانه	نهاري	ليلي	ليلي	ممتزج	نهاري	ليلي	نهاري
عنصره	ناري	مائي	ناري	ممتزج	هوائي	مائي	ترابي
صفته	ذكر	أنثى	أنثى	ممتزج	ذكر	أنثى	ذكر

الفصل الرابع

العناصر

التعريف العام للعناصر ومراتب الوجود

لكلّ مرتبة من مراتب الوجود عناصرها، وعناصر كلّ مرتبة هي عبارة عن اللبنة الأساسية التي باتحادها أو التفاعل فيما بينها ثم امتزاج نواتج تلك التفاعلات تتفرّع كلّ الموجودات التي تؤلّف تلك المرتبة . وكل مرتبة وجودية ما هي إلا حضرة تجلي اسم إلهي خاصّ يكون تحت سلطانه آثار الأسماء الحسنى الأخرى، وهذا يعني أنّ عناصر كلّ مرتبة ما هي إلا مظاهر ناتجة عن تداخل توجّهات تلك الأسماء بوجوه مختلفة حسب مقتضيات تجليات الكمال المطلق .

وأما عدد المراتب الكلية لمراتب الوجود فيختلف حسب التعميم والتخصيص. فمن حيث الأحدية الذاتية ليس هناك إلا مرتبة واحدة تسمّى حقيقة الحقائق، ومن حيث مرتبة الألوهية ليس هناك إلا مرتبتان: إله واحد ومألوه، أي وجود حق مطلق ووجود خلق مقيد . ومن حيث مرتبة فردية الربوبية هناك ثلاث مراتب : ربّ ومربوب ورابط بينهما هو عبارة عن نسبةٍ بينهما، هذه النسبة تسمّى حضرة الأسماء الحسنى، ولحضرة الأسماء الحسنى ثلاثة مراتب: أسماء الذات وأسماء الصفات وأسماء الأفعال . وهناك أيضا تقسيم خماسي للوجود إلى خمس حضرات: الأولى: حضرة الألوهية، الثانية: حضرة الأرواح العليا، الثالثة: حضرة عالم المثال، والرابعة: عالم الأجسام الكثيفة، والحضرة الخامسة هي حضرة الانسان الكامل الجامعة لما تفرّع في الحضرات الأخرى . وهناك أيضا من يقسم الوجود إلى أربعين مرتبة كما بينه الشيخ عبد الكريم الجيلي في كتاب له عنوانه: "مراتب الوجود" . أما الشيخ الأكبر فنجده في الباب (198) من "الفتوحات المكية" يقسم مراتب الوجود الكوني إلى ثمان وعشرين مرتبة مناسبة للحروف الثمانية والعشرين حسب مخارجها وللمنازل الفلكية الثمانية والعشرين...

هذا وإنّ عناصر كل مرتبة تنشأ من مسقط مركز المرتبة التي فوقها ومن تناكح حقائق الفعل وحقائق الانفعال فيها . وعن ذلك النكاح الساري في كل المراتب راجع الباب (11/1 ص 138-142). ثم إنّ كل عنصر من عناصر المرتبة له صورة وروح، فصورته من طبيعة المرتبة (راجع المبحث الخاص بالطبيعة)، وروحه من الروح الكلّ بنفخ يسري من مدد النفس الكلية المعبر عنها باللوح المحفوظ .

العناصر الأصلية العليا

فالعناصر المعنوية العليا عبارة عن الأسماء الحسنى، فروح كل اسم عبارة عن معنى حقيقة ذلك الاسم، ولهذه الحقيقة صورة خلقية يعبر عنها بروحانية الاسم أو الملك الخادم للاسم، فلكل اسم من الأسماء الحسنى روحاني هو كالصورة لروح الاسم . ويتكلم الشيخ عن نشأة هذه العناصر العليا في الباب (11) فيقول:

[...فكل أب علوي فإنّه مؤثر وكل أم سفلية فإنّها مؤثّر فيها، وكل نسبة بينهما معينة نكاح وتوجه، وكل نتيجة ابن... فأول الأباء العلوية معلوم، وأول الأمّهات السفلية شينئية المعدوم الممكن، وأول نكاح القصد

بالأمر، وأول ابن: وجود عين تلك الشيبئية التي ذكرناها . فهذا أب ساري الأبوة وتلك أم سارية الأمومة ، وذلك النكاح سار في كل شيء ، والنتيجة دائمة لا تنقطع في حق كل ظاهر العين، فهذا يسمّى عندنا النكاح الساري في جميع الذراري . يقول الله تعالى في الدليل على ما قلناه: "إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"...وبعد أن أشرت إلى فهمك الثاقب ونظرك الصائب بالأب الأول الساري وهو الاسم الجامع الأعظم الذي تتبعه جميع الأسماء في رفعه ونصبه وخفضه ، والأمّ الأولى الأخرية السارية في نسبة الأنوثة في جميع الأبناء ، فلنشرع في الآباء الذين هم أسباب موضوعة بالوضع الإلهي والأمّهات واتصالهما بالنكاح المعنوي والحسي المشروع حتى يكون الأبناء أبناء حلال...] اهـ.

والأسماء الحسنى لا تحصى لأنّ كمالات الحق تعالى لا نهاية لها، لكنّها ترجع إلى أصول أمّهات هي التي عبرنا عليها بلفظة (العناصر العلوية)، وقد قيل أنّه ظهر منها في الكتب والصّحف المنزلة ألف اسم، وهي مؤلّفة من الحروف الثمانية والعشرين، بل إنّ لكل حرف اسم معيّن مخصوص يناسبه، فمجموع العددين أي 1000 و 28 هو (1028)، وهو العدد الذي نبه الشيخ إلى أهميته في عدة مواضع، إذ أنّه هو عدد الصور الكوكبية التي بسباحتها في أفلاكها تظهر الانفعالات الكونية ، كما أنّه بتوجهات الأسماء الحسنى في حضراتها تنشأ المكونات كلها، فهناك تطابق تام ومناسبة أصلية بين مواقع النجوم الكونية ، وحضرات الأسماء الحسنى، ومراتب الوجود، ومقامات الأولياء وطبقاتهم، ومنازل سور وآيات القرآن العظيم...

ثمّ إن مرجع تلك الأسماء إلى المائة اسم التي ظهرت في القرآن وعلى لسان نبينا صلى الله عليه وسلم منها التسعة والتسعون المشهورة، والواحد الوتر الذي هو الاسم الأعظم (انظر حقيقة معانيها في الباب 558 من الفتوحات المكية وفي الباب 177) . وأئمة هذه الأسماء سبعة؛ فمن حيثية أولى هي: الحي العليم المرید القادر القائل السميع البصير، ومن حيثية أخرى الخمسة الأوائل ثم الجواد المقسط (راجع كتاب "إنشاء الدوائر" للشيخ الأكبر والباب 4 من الفتوحات) . ومرجع السبعة للأربعة الأوائل، ومرجع الأربعة للحي العليم، ومرجع العليم للحي، ومرجع الحي للاسم الأعظم (الله).

وكما أنّ لكل حرف من الحروف اللفظية أو الحروف الرقمية طبعه من حرارة أو برودة أو يبوسة أو رطوبة أو مزج (انظر الباب الثاني من الفتوحات) فكذلك لكل اسم لفظي أو اسم رقمي طبعه وعدده، وسرّ فعله وتأثيره متعلق بهما .

الأخلاق الإلهية

من ناحية أخرى، من (العناصر العلوية) التي هي مظاهر الحضرة الإلهية ما يسمى بالأخلاق الإلهية . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: [إنّ الله ثلاثمائة خُلُق من تخلّق بواحد منها دخل الجنة] كما روي: [إنّ لله مائة وسبعة عشر خلقاً] - (راجع ما ذكره الشيخ حول هذين الحديثين في جوابه عن الأسئلة: 46-47-48-49-50 من أسئلة الترمذي - ج 2 ص 72-73) . ولنختصر ما قاله الشيخ حول الحديث الثاني فيما يلي:

[إنّ هذه الأخلاق مخصوصة بالأنبياء عليهم السلام ليس لمن دونهم فيها ذوق، ولكن لمن دونهم تعريفاتها فتكون عن تلك التعريفات أذواق ومشارب لا يحصيها إلا الله علماً وعدداً. فمن هذه الأخلاق خُلُق الجمع الدال على التفريق، والجمع الذي يتضمن التفريق، والفرق الذي يتضمن الجمع، ويظهر هذا الخُلُق من حضرة العزة والإبانة والحكمة والكرم، ومن هذه الأخلاق خُلُق النور المستور وهو من أعزّ المعارف إذ

لا يتمكن في النور أن يكون مستورا فإنه لذاته يخرق الحجب ويهتك الأستار فما هذا الستر الذي يحجبه، ألا إن ذلك الحجاب هو أنت ! ومن هذه الأخلاق خُلق اليد، وهو القوة وهو مخصوص بالقلوب وأصحابها، وهو على مراتب، ومن هذه الأخلاق خلق إعدام الأسباب في عين وجودها وهو على مراتب وفتت منها في الأندلس على مائة مرتبة لا توجد في الكمال إلا في روحانية ذلك الإقليم ، فإنه لكل جزء من الأرض روحانية علوية تنظر إليه، وتلك الروحانية حقيقة إلهية تمدّها، وتلك الحقيقة هي المسماة خُلقاً إلهياً، وأمّا بقية الأخلاق فلها مراتب دون هذه التي ذكرناها في الإحاطة والعموم، ولكل خلق من هذه الأخلاق درجة في الجنة لا ينالها إلا من أدى هذا الخلق . وهذه الأربع التي ذكرناها منها للرسول ومنها للأنبياء ومنها للأولياء ومنها للمؤمنين . وكل طبقة من هؤلاء الأربع على منازل بعددهم، ومن الباقي أربعة عشر خلقاً لا يعلمها إلا الله، والباقي من الأخلاق تعيّن لها أسماء الإحصاء...) إلى آخر ما فصله رحمه الله، وهذه الإشارة نجدها في جواب الشيخ عن السؤال الأول من أسئلة الترمذي حيث يقول: (أنّ منازل الأولياء منحصرة في أربعة مقامات: مقام العلم اللدني وعلم النور وعلم الجمع والتفرقة وعلم الكتابة الإلهية . ثم بين هذه المقامات مقامات من جنسها تنتهي إلى بضع ومائة مقام) . أي أنّ لكل مقام سورة مخصوصة ، فعلم النور مناسب لخلق النور المستور، وعلم الجمع والتفرقة مناسب لخلق الجمع والتفريق بأنواعه الثلاثة المذكورة سابقاً، وعلم الكتابة الإلهية مناسب لخلق اليد التي هي واسطة الكتابة، وأمّا خلق إعدام الأسباب فهو من فروع العلم اللدني، فكأنّه يشير بالعدد 117 إلى سور القرآن الـ 114 والثلاثة الباقية هي التوراة (علم الكتابة الإلهية وخلق اليد) وعلم الزبور (علم النور وخلق النور المستور) والانجيل (العلم اللدني وخلق الأسباب). والله أعلم .

ملاحظة: قول الشيخ أنّ من تلك الأخلاق خُلق الجمع الدال على التفريق والجمع الذي يتضمن التفريق، والفرق الذي يتضمن الجمع، يشير به إلى ثلاثة حقائق مقترنة غالباً بفواتح السور: فالجمع هو القرآن، والآيات هي التفريق، وبين الجمع والتفريق حقيقة الكتاب، لأنّ فعل كَتَبَ يعني ضمّاً، فالكتاب هو الذي يضمّ ما تفرّق، فهو الجمع الدال على التفريق، والقرآن هو الجمع الذي يتضمّن التفريق، والآيات هي الفرق الذي يتضمّن الجمع . وقول الشيخ أنّ هذا الخُلق من حضرة العزة والابانة والحكمة والكرم، يشير إلى صفات القرآن كما وردت في القرآن فهو العزيز المبين الحكيم الكريم .

منشأ العناصر الكثيفة

كنا رأينا أنّ لكل من حقائق الأركان الأربعة مظاهر عبر مراتب الوجود، فإذا سقطت تلك الحقائق في الحضرة المتجلية تحت حضرة السماء الدنيا، أي في نهاية المراتب الكلية نزولاً، تبدأ عملية الرجوع عروجاً إلى الأصل، لكن عبر مراحل جديدة تتجلى فيها كمالات أخرى للعظمة الإلهية المطلقة... فالذي يحدث بعد سقوط حقائق الأركان الأربعة في محيط المركز هو توجّه الروحانية الفلكية السابحة في مقاماتها على تلك الحقائق الأربعة، فيحدث بينهما نكاح معنوي يتولد منه عالم العناصر الحسية الكثيفة، فتلك الأرواح العلوية بمثابة الآباء، والحقائق السفلية للأركان الأربعة بمثابة الأمّهات، والاتصال بينهما بمثابة النكاح، والأبناء هم العناصر وبقية المولدات من نبات وحيوان... وكما تولد العرش من اتصال معنوي بين القلم الأعلى واللوح، وظهرت بين اللوح أم الكتاب والعرش أربع مراتب معقولة هي: الطبيعة والهباء والجسم الكل والشكال الكل، فكذلك هنا في العالم الأسفل: لكل عنصر طبعه الغالب عليه ومادته وجسمه وشكله الخاص، وله أيضاً نفس وروح . فجسمه ناشئ من مرتبة الطبيعة، ومادته من الهباء، وروحه من نفس الرحمان – بفتح الفاء - بواسطة النفس الكلية أي اللوح المحفوظ، ونفسه من التحام تلك

الروح اللوحية مع هذا الجسم الطبيعي العنصري، ومجموع هذه النشأة العنصرية من ذلك النكاح المذكور. فجسم العنصر هو مظهره الخارجي المحسوس، ولنفس العنصر صلة بالنفوس السفلية الأرضية ، ولروحه صلة بالروحانيات العلوية السماوية ، ومن هنا جاء استعمال عناصر معينة في البخورات والروائح والمعادن ومواد أخرى في الأعمال السحرية لجلب وتسخير النفوس السفلية ، أو في استئزال روحانيات الكواكب، وقد أشار الشيخ إلى أرواح المواد العنصرية في الباب (ج 2 / 1 ص 79) فقال:

(فاعلم أنّ في الخبز والماء وجميع المطاعم والمشارب والملابس والمجالس أرواحا لطيفة غريبة هي سرّ حياته وعلمه وتسبيحه ربه وعلوّ منزلته في حضرة مشاهدة خالقه ، وتلك الأرواح أمانة عند هذه الصور المحسوسة يؤدونها إلى هذه الروح المودع في الشبح، ألا ترى بعضهم كيف يوصل أمانته إليه الذي هو سرّ الحياة فإذا أدّى إليه أمانته خرج إمّا من الطريق الذي يدخل منه فيسمّى قينا وقلسا وإمّا من طريق آخر فيسمّى عذرة وبولا، فما أعطاه الاسم الأوّل إلا السرّ الذي أداه إلى الروح وبقي باسم آخر يطلبه من أصله المدبّرين أسباب الاستحالات، هكذا يتقلّب في أطوار الوجود فيعري ويكتسي ويدور بدور الأكرة كالدولاب. فالروح معذور في تعشقه بهذه المحسوسات لأنّه عاين مطلوبه فيها فهي في منزل محبوبه) فالعنصر المتولّد من فعل روحانية مائية (كروحانية الزهرة والقمر وكواكب البروج المائية) يكون الغالب عليه البرودة، ومظهره المحسوس تغلب عليه مميزات السوائل. والعنصر المتولد من فعل روحانية هوائية (كروحانية المشتري وكواكب البروج الهوائية) يكون الغالب عليه الرطوبة، ومظهره المحسوس تغلب عليه مميزات البخارات والغازات. والعنصر المتولد من فعل روحانية نارية (كروحانية الشمس والمريخ وكواكب البروج النارية) يكون الغالب عليه الحرارة ومظهره المحسوس تغلب عليه مميزات العناصر الأثيرية الخفيفة جدا والحارة. والعناصر المتولدة من فعل روحانية ترابية (كروحانية زحل وكواكب البروج الترابية) يكون الغالب عليها اليبوسة ومظاهرها المحسوسة تغلب عليها مميزات الأجسام الجامدة . والعناصر المتولدة من فعل روحانية ممتزجة (كروحانية عطارد وروحانيات المنازل المشتركة بين برجين) يكون الغالب عليها الامتزاج وعدم الاستقرار وسرعة الاستحالة .

فلكل عنصر جسم ونفس وروح، فروحه تستمدّ من الأسماء الحسنى، ونفسه من الروحانيات الفلكية والسفلية ولها طبع خاص، وجسمه له مادّة وشكل مميز وهو مظهر خارجي محسوس.

هل النظرية الذرية الحديثة للعناصر نظرية كاملة الصحة؟

الجواب : ثمة ثلاثة اعتراضات على هذه النظرية :

أوّلا : هذه النظرية بعيدة عن واقع حقيقة العنصر لأنّها لا ترى من العنصر إلا أدنى مظهره أي جسمه، ولا تعترف بنفسه وروحه . فهذه النظرية بترت الفرع الأدنى الذي هو الجسم عن أصله الثاني الذي هو نفسه، وعن أصله الأوّل الذي هو روحه المستمدّ من الحقائق الإلهية . ولا يمكن إدراك حقيقة الفرع إلا بمعرفة الأصل . فالجسم ما هو إلا مظهر خارجي محسوس لتلك النفس العنصرية التي هي مطية ذلك الروح الأسماي الإلهي .

أمّا القول بوجود جوهر مادي لا يتجزأ فقد ردّ عليه الشيخ عبد الواحد يحيى (R. Guénon) في العديد من نصوصه حيث يقول ما ملخصه :

[الدقيقة المادية العنصرية أو الجوهر الذي لا ينقسم يلزم أن يكون بلا أجزاء أي بدون أبعاد، ومجموعة دقائق بلا أبعاد لا يمكن أن تشكل أبدا حيزا بأبعاد ، إذن إذا كانت الدقائق العنصرية لا تنقسم فهذا يستلزم أنّه من المستحيل أن تتألف منها الأجسام ، وهذا برهان قاطع على بطلان اعتقاد وجود جوهر مادي لا ينقسم .

والبرهان الثاني هو أنّ شيئان يمكن أن يتلامسا بجزء واحد منهما أو بمجموعهما، وبالنسبة للدقائق الذرية العنصرية التي يظن أنها لا تنقسم، الاحتمال الأوّل غير ممكن لعدم وجود أجزاء متعددة فيها، فلا يبقى إلا الاحتمال الثاني الذي يستلزم التطابق الكلي بين دقيقتين ماديتين، أي أنّ مجموعهما، مثل ما هو الحال بالنسبة لدقيقة واحدة، ليس له بعد ولا امتداد، وهذا ينسحب أيضا على عدد غير محدد من تلك الدقائق، فالنتيجة هي أنّ دقائق مادية بعدد غير محدود لا يمكن أبدا أن تشكل أجساما ذات أبعاد] .

نعم ، في مستوى معين من الإدراك الحسي قد تبدو المادة بالفعل على شكل جزيئات متنوعة متفاوتة الدقة ، لكن حقيقة مادتها ماهي إلا محصلة تداخل الاهتزازات الطاقوية الأربعة المعبر عنها بالتراب والماء والهواء والنار، تادخلا يختلف كيفه وكمه باختلاف الأجسام .

العناصر الأرضية والأخلاق الإنسانية

هناك علاقة أصلية بين الأخلاق الإلهية والأخلاق الإنسانية والعناصر الأرضية ، فكل خُلُق من الأخلاق الإنسانية، ككل شيء في الكون، يستند إلى اسم من أسماء الله تعالى، إذ لا خالق إلا الله تعالى، وقد ورد في الحديث: " تخلقوا بأخلاق الله "، وقال تعالى: " وأحسن كما أحسن الله إليك "، ولا يمكن للعبد أن يحسن كما أحسن الله إليه إلا إذا كان الله هو المحسن في مظهر عبده أي إلا إذا كان العبد متخلقا بأسمائه الحسنى . وأخلاق النفس نابعة من التحام أصلين: الأوّل هو نصيب النور المرشوش على الروح في يوم "ألست بربكم" أي النور الفطري الأصلي القديم، والثاني هو المزاج العنصري الطبيعي للجسم حسب اعتداله وانحرافه، ومن هذا الأصل الثاني كثيرا ما تُشَبَّه أخلاق النفس بالمواد الأولية لطافةً وكثافةً أو طيبا وخبثا أو صفاء وكدورة...وقد ورد في خبر نبوي: "الناس معادن"، وشبه صلى الله عليه وسلم الجليس السوء بنافخ الكير، والجليس الطيب ببائع العطر، كما رُوي عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبِيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك"، فانظر كيف ربط بين مزاج الجسم وأخلاق النفس وعناصر الأرض...وأصل هذا الارتباط أنّ العناصر الأرضية السفلية ما هي إلا مظاهر حسّية لتلك العناصر العلوية المتمثلة في الأسماء الحسنى، أو فواتح السور المتفرعة من الحقيقة المحمّدية

الكيمياء والاكسير وتحويل المعادن

في الفصل (32 من الباب 198/ج ص 460-461) وفي الباب (167/ج ص 270-271) يتكلم الشيخ عن حقيقة المعادن وكيفية تحويلها من خسيس إلى نفيس ، وصلة الكيمياء الظاهرية العنصرية بكيمياء السعادة الروحانية، فلنلخص بإيجاز ما ذكره في ما يلي:

[الاسم الإلهي (العزیز) هو المتوجه على إيجاد المعادن وحرف الظاء وسعد الذابح من المنازل، وملك برج الجوزاء هو الذي بيده مفتاح خلق المعادن وتدبير الأجسام . واعلم أنّ الذات لما اختصت بسبع نسب تسمّى صفات إليها ترجع جميع الأسماء والصفات، وكانت السماوات سبعا والكواكب السيارة سبعة والأرضون سبعة والأيام سبعة ، جعل الله تكوين المعادن في هذه الأرض عن سباحة هذه السبعة الدراري بسبعة أفلاكها، فأوجد فيها سبعة معادن . ويبعد حكم الاستحالة في المعادن فلا تتغير الأحجار مع مرور الدهور إلا عن بعد عظيم وذلك لعزتها التي اكتسبتها من الاسم (العزیز) . ثم إنّ هذا الاسم طلب بإيجادها رتبة الكمال لها حتى تتحقق بالعزة فلا يؤثر فيها دونه اسم إلهي نفاسة منه لأجل انتسابها إليه . وعلم العلماء أنّ وجودها مضاف إليه فلم يكن القصد بها إلا صورة واحدة فيها عين الكمال وهو الذهبية ، فطرات عوارض لها في الطريق من الاسم (الضار) وإخوانه ، فأمرض أعيانهم وعدل بهم عن طريقهم حكمت عليهم بذلك المرتبة التي مروا عليها، ولا يتمكن لاسم أن يكون له حكم في مرتبة غيره، بقي الاسم (العزیز) يحفظ عين جوهر المعدن ، وصاحب المرتبة من الأسماء يتحكم في صورته لا في عين جوهره . ورتبة الكمال من تعادل فيه أحكام الطبيعة ولا يقوى واحد منهم على إزالة حكم الآخر . فإذا تنزه الجوهر عن التأثير فذلك حكم رتبة الكمال وليس إلا الذهب في المعدن . وأمّا سائر الصور فقد قامت بها أمراض أخرجتهم عن طريق الكمال، فظهر الزئبق والأسرب والقردير والحديد والنحاس والفضة ، كما ظهر الياقوت الأصفر والأكهب في جوهر الياقوت. فالحاذق من علماء الكيمياء إذا أراد أن يلحق ذلك المعدن برتبة الكمال، نظر إلى المرض الذي صيرره حديدا أو نحاسا ، وليس المرض إلا زيادة أو نقصا في الجوهر، وليس الطبيب إلا أن يزيد في الناقص أو ينقص من الزائد، وتساعد هذا الطبيب سباحة أنوار الدراري السبعة في أفلاكها، حسب سلطان زمانها، فيردّ الجوهر المعلوم إلى طريق الكمال ليتمكن من تدبيره وحفظ بقاء صحته عليه . وحال سبحانه بين الأطباء وبين العلم بإزالة هذه الأمراض من هذا الجوهر إلا الأمانء منهم الذين علم الله منهم أنهم يبقون الحكمة على ما وضعها الله في العالم ، فيبقى الحديد حديدا لما فيه من المنافع التي لا تكون في الذهب ولا في غيره، يقول تعالى: "وأنزلنا الحديد" يريد أنزله عن رتبة الكمال لأجل ما فيه من منافع الناس، وهكذا سائر المعادن . وقد جعل الله في قوة الإنسان إيجاد الأحجار النفيسة كاليواقيت واللآلئ أي هو قابل أن يتكون عنه مثل هذا ، ويسمى ذلك في الأولياء خرق عادة والحكايات في ذلك كثيرة ، ولكن الوصول إلى ذلك من طريق التربية والتدبير أعظم في المرتبة والإلهيات ممن يتكون عنه في الحين بهمته وصدقه، فإنّ الشرف العالي في العلم بالتكوين لا في التكوين . وأرواح السالكين في عروجها تقف في السماء الدنيا عند آدم عليه السلام على الوجه الإلهي الخاص الذي لكل موجود سوى الله الذي يحجبه عن الوقوف مع سببه وعلته، والعلم بذلك الوجه هو العلم بالإكسير في الكيمياء الطبيعية ، فهذا هو اكسير العارفين وما رأيت أحدا نبّه عليه غيري .

فالمعادن كلها ترجع إلى أصل واحد يطلب بذاته اللحوق بدرجة الكمال الذهبية، غير أنه لما كان أمرا طبيعيا وغلبت عليه علة فسَمِّي كبريتا أو زئبقا، وهما الأبوان لما يظهر من التحامهما من معادن لعل طارئة على الولد، فهما إنما يتناكحان ليخرج بينهما جوهر شريف كامل يسمَّى ذهباً فيشرف به الأبوان إذا كانت تلك الدرجة مطلوبة لكل واحد من الأبوين من حيث جوهريتهما . فإذا التحما وتناكحا في المعدن ، وظهرت صورة الحديد أو غيره بحسب ما يحكم عليه الطبع ، تتولاه في ذلك الوقت روحانية كوكب من الكواكب السيارة السبعة ، لأنَّ الله هو الذي وجَّهه إلى غاية يقصدها إبقاء لعين ذلك الجوهر. فإذا جاء العارف بالتدبير نظر في الأمر الأهون عليه ، فإن كان الأهون عليه إزالة العلة من الجسد فهو الأولى، فإنَّ الكوكب السابح يراه صاحب الرصد وقتا في المنزلة عينها، ووقتا عادلا عنها منحرفا فوقها أو تحتها . فيعمد العارف إلى السبب الذي رده حديدا أو ما كان، ويعلم أنه ما غلب الجماعة إلا بما فيه من الكمية فنقص من الزائد وزاد من الناقص، فيزيل عنه بهذا الفعل صورة الحديد مثلا أو ما كان عليه من الصور، فإذا رده إلى طريق الاعتدال حفظ عليه تقويم صحته وإقامته فيها إلى أن يكسو ذلك الجوهر صورة الذهب أي رتبة الكمال الذي لا يقبل النزول إلى النقصان أبدا...

وأما إذا أراد صاحب هذه الصنعة إنشاء العين المسمَّى إكسيراً ليحمله على ما يشاء من الأجساد المعدنية فيقبلها لما تحكم به طبيعة ذلك الجسد القابل والدواء واحد الذي هو الإكسير، فمن الأجساد من يردده الإكسير إلى حكمه فيكون إكسيراً يعمل عمله وهو المسمَّى بالنائب فيقوم في باقي الأجسام المعدنية ويحكم بحكمه . مثل أن يأخذ وزن درهم أو أي وزن شاء من عين الإكسير فيلقيه على ألف وزن من أي جسد شئت، فإذا كان قزديرا أو حديدا أعطاه صورة الفضة ، وإن كان نحاسا أو رصاصا أسودا أو فضة أعطاه صورة الذهب، وإن كان الجسد زئبقا أعطاه قوته وتركه نائبا عنه يحكم في الأجساد حكمه ولكن بوزن يخالف وزن باقي الأجساد وذلك وزن درهم من الإكسير، فيلقيه على رطل الحكمة خاصة من الزئبق فيرده إكسيراً كله ، فيلقي من ذلك النائب وزنا على ألف وزن من بقية الأجساد مثل الإكسير، فيجري في الحكم مجراه، فهذه صورة الانشاء] انتهى.

وفي الباب (167) يعرف الشيخ الكيمياء بقوله:

[الكيمياء عبارة عن العلم الذي يختص بالمقادير والأوزان في كل ما يدخله المقدار والوزن من الأجسام والمعاني محسوسا ومعقولا، وسلطانها في الاستحالات أعني تغير الأحوال على العين الواحدة، فهي علم طبيعي روحاني إلهي، وإنما قلنا إلهي لورود الاستواء والنزول والمعية وتعدد الأسماء الإلهية على المسمَّى الواحد باختلاف معانيها] .

علم الميزان عند جابر بن حيان

فهذا التعريف مماثل لما يسميه رائد علم الكيمياء جابر بن حيان بـ "علم الميزان" الذي قيل أنه فتح الله به عليه من حروف فاتحة سورة مريم أي: (كَهَيْعَصَ). وعن هذا العلم يقول الأستاذ داود (D. Cril) ما خلاصته مع بعض التصرف :

[يشكل الميزان – ميزان الحروف - خاتمة الدعائم التي تقوم عليها كيمياء جابر بن حيان، وهو العلم الذي ورثه عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، والذي يضع القواعد التقييمية والقياسية كمًّا وكيفًا لخصائص كل الأصناف الخلقية التي تدخل تحت الفلك الأعلى للتجليات الكلية، أو تقول لكل ما تحت العرش المحيط . لقد كان أول ظهور للمادة الهبائية داخل الفلك النوري المحيط بالعالم ، بلباسها لباس

الشكل المميز لعالم الأجسام . ومن جهة أخرى فإنّ نفس هذا الفلك المحيط (أي بمظهره الباطني الذي هو العرش وبمظهره الظاهري الذي هو فلك البروج الأطلس) لم يزل محلا للأركان الأربعة اللطيفة اللاعنصرية والتي متى برزت إلى مرتبة أقل تجردا اكتسبت نوعا من الجسمية، ذلك أنّ الفلك الأعلى الذي يجتمع فيه عالم الطبيعة العنصرية وعوالم العناصر المجردة (أو الأركان الأربعة والطبائع الأربعة العلوية) يمثل الوساطة بين ما هو كثيف مجسم وما هو لطيف مجرد، وهو في نفس الوقت آخر العوالم اللطيفة وأول العوالم الكثيفة . وهذا البرزخ تلتقي فيه الحقائق الجزئية والكلية، ومن حيث أنّها كثيفة ومركبة فهي تدخل ضمن الحركة وتخضع لحكم الزمان والمكان . وبسبب تشبث النفس الكلية بالطبيعة واختلاطها بها (أو بعبارة أحسن : بسبب انطباع ظلمة الطبيعة في مرآة اللوح المحفوظ) تحوّلت الطبيعة من طور اللطافة إلى طور الكثافة ، وبرزت الأجسام ووقع الفصل بين الحسّ والمعنى وبين المركب والبسيط . وإذا ما التحمت النفس الكلية بالطبيعة بحيث يصيرا كالأمر الواحد ، فإنّهما تنزّلان إلى عوالم أو أفلاك الأركان الأربعة تباعا لتتلبّسا بأشكالهما . أمّا الأساس في هذه النشأة الكونية فهو الشوق أو التوقان الذي تجده النفس الكلية تجاه الطبيعة (وأصل هذا الشوق من الحقيقة الإلهية التي عبّر عنها الحديث القدسي: " كنتُ كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ")، وعلى أساس هذا الشوق أو التعشق قامت الموازين التي يجري حكمها على كل ما يتصف بهذه النفس.

وبالتالي فإنّ وضع الموازين لطبائع الأشياء هو بمثابة قياس مدى ما انطبع في النفس منها، أو قياس مدى شوقها وتشوقها إلى التنزل إلى هذه الطبائع . وفي المقابل فإنّ استحالة النفس وتخلقها هو الأصل والشرط في استحالة الأجسام والمعادن، أي أنّ استحالة الأجسام تتمّ في باطن النفس الذي هو المحلّ الأمثل للتحوّل والترقي" (أي بعبارة أخرى: كما تستحيل الصور الوجودية في مرآة خيال العماء الأول، وكما تستحيل الصور الكونية في مرايا ألواح المحو والاثبات، فكذلك استحالة صورة معدنية إلى أخرى لا تصحّ في الحسّ إلا بعد أن يتمّ ذلك في باطن النفس الانسانية) .

وهكذا فإنّ عالم الموازين لا يقتصر على هدف واحد هو إرجاع كل المعارف إلى نظام قياسي موحد ليضفي عليها طابع العلم الصحيح ، ولكنّه بالنزاهة قياس الأشياء كلها فإنّه بذلك يضعها في مواضعها التي تبرز مدى الانسجام التام في خلق الرحمن (الذي أحسن كلّ شيءٍ خلقه) (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) . فإنّ كل الأشياء والحقائق العلوية بالدرجة الأولى محدودة بحدود موازينها الذاتية، وأمّا تدرج الموازين فهو تبع لمراتب الموجودات ، فلهذا نجد ميزانا خاصا للعقل وآخر للنفس وكذلك للطبيعة والشكل والأفلاك والكواكب والطبائع الأربعة والحيوان والنبات والمعدن . وأكمل الموازين هو ميزان الحروف، ويظهر في تقسيم جابر بن حيان للعلوم في كتابه "الحدود" مدى أهمية علم الحروف ودوره المركزي، فهذا العلم لا يعبر عن النشأة الأولى للكون فحسب بل ويعمل على تحقيقها (في أعماق الذات) ، وسواء كان ذلك وفق المفاهيم الفيثاغورية من خلال علاقة الحروف بالأعداد ، أو الافلاطونية الحديثة من خلال علاقتها بمواقع النجوم، أو الأرسطوطالية والرواقية من خلال علاقتها بالطبائع والعناصر. وهكذا فإنّ لهذا العلم مقدرة تفوق كل العلوم الأخرى على استيعاب كل المعارف الأصلية في التصوّف الإسلامي من خلال الأحرف الثمانية والعشرين التي يمكن اعتبارها نتيجة سريان حقائق الطبيعة الأربعة في مختلف مراتب النظام السباعي العام . وكما يوضّحه كتاب "التصريف" فإنّ تركيب الكلمات يخضع ضروريا للمبادئ التي تتحكّم في التكوين الظاهر والباطن للحقائق التي تعنيها تلك الكلمات، ومن هنا يظهر أنّ الهدف من علم الحروف ليس هو تحديد خواص الأشياء وتطبيقاتها الطبية والفلكية والكيميائية

والسحرية الخ. فحسب ، بل إنه يهدف أساسا إلى اكتشاف مفاتيح تحصيل كل المعارف من خلال هذه العناصر البسيطة المكوّنة للكلمات (الإلهية) [انتهى].

حقيقة الكيمياء عند بعض الصوفية

خصّص الشيخ عبد الوهاب الشعراني في الباب الثاني من كتابه (لطائف المنن والأخلاق) فصلا طويلا مفيدا حول الكيمياء والتحذير من الدجالين وأدعياء هذا العلم، فلنذكر بعض الفقرات من كلامه مع اختصار لها:

[كيمياء الفقراء – أي رجال السلوك - إنّما هو أن يعطيهم الله تبارك وتعالى حرف: كُنْ، فلا تظنّ أنّ كيمياء السلف كانت بشراء حوائج من العطار، وإنّما كانت أبدانهم تتجوهر من كثرة الأعمال الصالحة حتى يسري ذلك إلى فضلاتهم، فإذا بال أحدهم على حديد أو رصاص صار ذهباً خالصاً وانقلبت عينه كما وقع ذلك لبعض مريدي سيدي أبي الحسن الشاذلي وسيدي يوسف العجمي، وشاع بذلك الخبر حتى أنّ مريدا للشاذلي بال على نحو خمسة قناطر من الرصاص فصارت ذهباً حتى بلغ ذلك السلطان محمّد بن قلاوون، فنزل لزيارة الشيخ لظنّه أنّ ذلك من الكيمياء، فقال له الشيخ: ليس كل من عرف الكيمياء يقدره الله على العمل بها ويأذن له فيها، ولا كل من تجوهر بدنه وفضلاته تمشي له القدرة ذلك، فرجع السلطان بالخمسة القناطر هديّة من الشيخ له.

وقد أخبرني أخي أفضل الدين أنّ أصحاب الكيمياء مأخوذ عليهم العهد من أيام جابر أن لا يذكروا قط تدبيراً كاملاً، وإنّما يحذفون منه أركاناً وشروطاً ويكلون علم ذلك إلى العالم بالفن، وجميع ما يذكرونه من الرموز واللغوز وأسماء العقاقير المراد به غير ما يتبادر إلى الأذهان.

وسمعت سيدي علي الخواص يقول: كل شيء في الوجود إذا أضفته إلى شيء آخر على مقدار ووزن معلوم يعلمه أهل الكشف صار حجراً، مكرماً فالسرّ إنّما هو في معرفة مقدار ما يُضاف من كل جزء إلى الآخر، وذلك يختلف باختلاف الأعيان، ولا يصحّ علم الكيمياء من طريق علم جابر إلا من صار الذهب عنده كالتراب على حد سواء، فإنّه من علم الحكمة والحكمة لا تدخل قلباً يحبّ الدنيا .

ودخل عليّ شخص برسالة عن هذا الأمر من كلام أخي أفضل الدّين، فأحبيتُ إثباتها هنا لكونها من كلام عارف بالله تعالى وبطباع الكون، وكلها نصح، ومما ورد فيها :

[أوصي جميع إخواني من المسلمين بالزهد في الدنيا وعدم الاصغاء إلى كلام من يزعم من فسقة المتصوفة أنّه يعرف علم الكيمياء فإنّه كاذب، وذلك لأنّ جميع العلوم الحاصلة للعبد من عين الجود والمنة ولا يحصرها عقل ولا نقل ولا يمكن لأحد الاطلاع عليها إلا من طريق الكشف، ومحبّ الدنيا محجوب عن مقام الكشف بألف حجاب، ثم إنّ من خصائص من عرف هذا العلم وصح له العمل به أنّه لا ينتفع بجسمه بعد ذلك، بل تحدث له أمراض تمنعه التلذذ بشيء من الدنيا لمزاحمته الملوك على حطام الدنيا التي أمره الله بالزهد فيها، فعلم أنّ كل من لم يكن عنده كشف وقنع بما رآه مكتوباً في الكتب

فهو مغرور هالك، لأنَّ أهل هذا العلم رمزوه برموز لا يعلمها إلا هم، ومن أطلعه الله جل وعلا من طريق كشفه على حقيقة العلم وغايته وعلم جملته وتفصيله .

وقد استخرج جابر بن حيان الكوفي الأزدي صاحب علم الحكمة علم الكيمياء والحجر والخواص من قوله تعالى: "كَهَيَّعَ" استخرج من ذلك زبدة علومه ورئيسها وقطبها الذي عليه مدار علم الحكمة وهو علم الميزان الذي هو علم الوقت، وأشبع القول في ذلك في كتابه المسمّى بالسبعة، وذكر في هذا الكتاب أصل الميزان، وفي بقية كتبه شروط العمل بها غيرة على هذا العلم أن يطلع عليه غير أهله، فما أخطأ من أخطأ في التدبير إلا من حيث جهله بالشروط والموازن، وظنّه أنّ المراد بتلك المُسمّيات ظواهرها المعروفة بين الناس.

فإذا علمتم ذلك أيها الإخوان فأقول بأعلى صوتي: حسب الإذن الكريم من ربّ العالمين إلى جميع عباده المقلين المفلسين، إنّنا ولو أقدرناكم على هذا العلم لم نأذن لكم في العمل به، فإنّ العمل به رُفِعَ في سنة أربعين وتسعمائة، كما رُفِعَ العلم به سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، ولا يجوز الاشتغال بعلم رفع علمه من القلوب، مع عدم أمان فاعله على نفسه وماله وعرضه.

قال: وقد سألت الله تعالى أن يطلعني على هذا العلم من غير طريقه المعتاد، فسمعت هاتفا يقول: اقرأ: " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ " فقرأتها فعلمت أنّ هذا العلم قد ارتفع من القلوب فسرتُ بذلك. فإياكم أيها الإخوان في الاشتغال بذلك ثم إياكم، وعليكم بالصبر على قيامكم في الصنائع والحرف التي بها معاشكم وأجركم على الله تعالى؛ ثم اعلموا أنّ علم الحكمة ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي في الحقيقة مراتب الأقسام:

الأول: علم الكيمياء، وهو علم الجمادات على اختلاف مراتبها وأحكامها .

الثاني: علم الحجر المكرم، وهو على صورة تدبير أعيان العالم من حال ظهوره إلى حال استوائه، من غير نظر إلى كثرة الصور المتولدة في العالم، ويحتاج صاحب هذا العلم إلى معرفة عين الحجر المكرم المأخوذ بدليل البراهين القاطعة وذلك بالكشف الثابت الذي لا يدخله محو ولا تغيير، فكل من ادعى معرفته فامتحنه بما يخطر على بالك، فإن علم ذلك مع اختلافه وتنوعه فهو صادق وإلا فهم كاذب .

الثالث: علم الخواص الموضوعة في المفردات بغير واسطة الطبيعة الكلية، وصورها العنصرية المزاجية، لعلوه عن العالم بأسره، إذ هو محل خزانة الملك، وموضع أسرارهِ، وليس لهذا العلم دليل عليه من خارج، إنّما يوصل إليه بالعناية الربانية فيطلع الله تعالى من يشاء من عباده على خاصية كل شيء وحكمها بلسان تسيبها، فتقول: سبحان من جعلني أنفع لكذا وكذا، سواء الجماد والنبات والحيوان، إذ ليس في العالم العنصري المزاجي غير هذه الثلاثة أنواع .

فأما علم الكيمياء فطريقه معرفة الميزان من غير تدبير حكمي، ويحتاج صاحبه إلى معرفة الذوات وتفصيلها من حيث الحكم والأثر، علما يطابق عين الوصف القائم بذلك الجوهر حكما وأثرا فعلا وانفعالا . ثم معرفة علم الدرجات والدقائق بالأعراض الملكوتية في الجوهر بسبب انحراف القطر، أو نقص شرط أو علة في المادّة، مع تمييز الأعراض وحكمها في الاستحالة أو عدمها . ثم يحتاج بعد ذلك إلى علم معرفة الكم المفصل لتلك الأعراض تفصيلا لا يقبل القسمة الواضحة بالمثل، وذلك كله سهل على من أذن له الحق تعالى فيه، بل ذلك أسهل مما كلفنا للعمل به والإيمان به، من جهة الحق تعالى وكتبه ورسله وملائكته وغير ذلك . والضابط الجامع لعلم جميع ما تقدّم هو النظر في ثقل بعضها وخفته

وصفائه وكدورته، ومشابهة أديانها لأعلاها في الوصف، واختلافها عند امتحانها بالنار في اللين واليبس إلى غير ذلك مما هو معلوم للعارفين . ثم ينحصر علم مجموع هذا القسم في معرفة رتبة أنواع الجمادات بأسرها، ثم ينقسم ذلك إلى قسمين: قسم مزجت أرواحها وأنفاسها أجسادا ثابتة الحكم والأثر لا تقبل ذواتها الاستحالة، وهي المعادن السبعة، أو قابلة للاستحالة ثابتة الحكم والأثر وهو الياقوت والبلخش، وأمثال ذلك، وقسم لم تمزج الأرواح والأنفاس منه أجسادا ثابتة الحكم، بل هو سريع الاستحالة حكما أو عينا، سواء استحال بواسطة أم غيرها، كالأملاح والشبوب والبوارق وأمثال ذلك . ثم لا يخفى أنّ الجمادات كلها بأقسامها تحت رتبة واحدة كما يعرف ذلك كلّ من في قلبه نور، وأنّ أعلى ما فيها وأكمل هو المعادن السبعة، وهي المطلوبة لأنّ تغبّر أوصاف بعضها إلى بعض بواسطة عقار أكمل منها رتبة وأثرا . ولا يثبت إلا ما كان على الميزان الحقّ الواقع على يدي إدريس عليه الصلاة والسلام . فاقطعوا أطماعكم أيها الاخوان عن كون ذلك يصحّ لكم في هذا الزمان، فإنّ العمل بعلم الميزان الحقّ قد رُفِعَ أوائل المائة السادسة، كما رفعت الطريقة المسماة بالميزان بين أهل عصرنا أوائل المائة الرابعة، كما رفع العلم بها في أوائل المائة السابعة، وما بقي مع أحد علم بها غير أهل الكشف الثابت لا غير، لأنّه ليس عارف يظهره الله عزّ وجلّ بين العباد إلا بعد أن يغمسه طباقا في ظلمات الطبيعة ليشهد في نفسه التغيّر والاستحالة قبل شهودها في الكون، ولولا ذلك لما قدر أن يترجم عن شيء بأحسن وصفه أبدا .

وأما علم الحجر المكرم فهو الذي لا يقبل الاستحالة بوجه من الوجوه، إذ لو قبل الاستحالة لفسد نظام العالم، وحكمت فيه كلمة الاستحالة، فكان الجماد ينقلب نباتا، والنبات حيوانا، والحيوان إنسانا، ولو لم يكن ثابتا لم يوصف نحو ثلثي العالم بالبقاء، وإن كان عين ما ثبت هو عين ما استحال وعكسه عند أهل الكشف النّاطرين في المرأة الكبرى من خلف ظهور الاستواء، ومن شهد ذلك شهد صورة العدم، وعلم أنّ كل ما سلم من التغيير والتبديل هو الحجر المكرم، ومن لم يكشف له عن ذلك لا يعرف الحجر المكرم ولو عبد الله جلّ وعلا عمر نوح عليه السلام.

وإيضاح ذلك أن تعلم يا أخي أنّ كلّ ما خرج عن الانسان من جميع ما دار عليه الفلك السفلي سالما من تأثير النار والماء والهواء والتراب، فهو الحجر المكرم، لأنّه لو أقام في الطبيعة أبد الأبدين ودهر الدّاهرين ولم يتغير عما خلق عليه أول مرة لا صورة ولا صفة ولا ذاتا، فهو كالكليات المخلوقة للبقاء، وما بعد هذا البيان من بيان.

وأما علم المفردات المؤثرة بالخاصية دون الطّبع تأثيرا أعلى وأثبت من تأثير الطبيعة المضادة في الحكم والمحكوم به أو عليه، وهو علم في الجماد والنبات والحيوان، فليس ذلك لأحد إلا لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ومن ورثه في المقام وهم قليلون في الأولياء، لا يكاد يظهر لهم عين، وقد أمروا بكتمه إلا عن أفراد . ولا يدخل هذا القسم رفع ولا تغيير، بل هو على حالة واحدة ولا ينال بالكسب إنّما هو هبة من الله تبارك وتعالى سالمة من الأسباب والروابط، خارج عن علم الحكمة لأنّ موضوعها إقامة الأسباب وإثبات الوسائط في محالها اللائقة بخلاف علم خواص المفردات، لأنّه أمر خارق للعادة غير معقول في نفسه . ثم لا يخفى أنّ هذا القسم ليس من علم الحكمة في شيء، وإنّما ذكرناه هنا لحكمة أطلعنا الله عزّ وجلّ وعلا عليها، إذ ما من عبد حفته العناية الربانية إلا ويصير يقلب عين كل شيء توجه إليه بقلبه كالإكسير الخالص، أو المدبّر لصورة المعدن الناقص، بل يكون كلامه وسائر أحواله حتى بوله وغائطه إكسيراً .

سؤال أخير:

هل خواصّ الأجسام وملحقاتها كالزّمان والمكان والألوان والأشكال والخفة والثقل واللفظ والكثافة والكدورة والصفاء واللين والصلابة وما أشبه ذلك، هل هي راجعة إلى ذوات تلك الأجسام أنفسها ، أم هي راجعة للمُدرك لها ، أم لهما معا؟

في الفصل: 31 من الباب 198 (2 ص 456-459) من الفتوحات يجيب الشيخ عن هذا السؤال بما خلاصته :

الزمان أمر متوهم لا وجود له تظهره حركات الأفلاك أو حركات المتحيزات إذا اقترن بها السؤال بمتى . فالحيز والزمان لا وجود لهما في العين ، وإنما الوجود لذوات المتحركات والساكنات . وأما المكان فهو ما تستقر عليه المتمكنات لا فيه ، فإن كانت فيه فتلك الأحياء لا المكان ، فالمكان أيضا أمر نسبي في عين موجودة يستقر عليها المتمكن أو يقطعه بالانتقالات عليه لا فيه . فإن اتصلت المتحيزات بطريق المجاورة على نسق خاص لا يكون فيه تداخل فذلك الاتصال . فإن توالى الانتقالات حال بعد حال فذلك التتابع والتتالي من غير أن يتخللها فترة . فإن دخل بعضها على بعض ولم يفصل الداخل بين المتصلين فذلك الالتحام . فما دخل في الوجود منه وصف بالتناهي ، وما لم يدخل قيل فيه أنه لا يتناهي إن فرض متتاليا أبدا . فانتقال الشيء من العدم إلى الوجود يكون كونا ، وإزالة ما ظهر عنها من صورة الكون يسمى فسادا . فإذا انتقل من وجود إلى وجود يسمى متحركا .

وأما ما يلحق هذه الأجسام من الألوان والأشكال والخفة والثقل واللفظ والكثافة والكدورة والصفاء واللين والصلابة وما أشبه ذلك من لواحقه ، فإنه يرجع إلى أسباب مختلفة . فأما الألوان فعلى قسمين منها ألوان تقوم بنفس المتلون ، ومنها ألوان تظهر لنظر الرائي وما هي في عين المتلون لاختلاف الأشكال وما يعطيه النور في ذلك الجسم ، فإنه بالنور يقع الإدراك . وكذلك الأشكال مثل الألوان ترجع إلى أمرين : إلى حامل الشكل وإلى حس المدرك له . وأما ما عداه مما ذكرناه من لواحق الأجسام فهي راجعة إلى المدرك في ذلك لا إلى انفسها ولا إلى الذات الموصوفة التي هي الأجسام الطبيعية ، هذا عندنا . فإن اللطيفة كالهواء لا تضبط صورة النور والجسم الكثيف يظهره . ورأينا من لا تحجبه الكثائف ، وصورتها عنده صورة اللطائف في نفوذ الإدراك . فإذا ما هي كثائف إلا عند من ليس له هذا النفوذ . فمننا من لا تحجبه الجدران ولا يثقله شيء ، فصار مأل هذه الأوصاف إلى المدرك لذلك ، ولو كانت لذوات الأجسام لوقع التساوي في ذلك كما وقع التساوي في كونها أجساما . فإذا لم يحكم اللواحق يرجع إلى ذوات الأجسام عندنا . وأما عند الطبيعيين فإنهم وإن اختلفوا فما هم على طريقنا في العلم بهذا .

ويقول الشيخ في الباب 293 : (اعلم أن النور المنبسط على الأرض الذي هو من شعاع الشمس الساري في الهواء ليس له حقيقة وجودية إلا بنور البصر المدرك لذلك . فإذا اجتمعت العينان : عين الشمس وعين البصر استنارت المبصرات وقيل قد انبسط نور الشمس عليها ، ولذلك يزول ذلك الإشراق بوجود السحاب الحائل لأن العين فارقت هذه العين الأخرى بوجود السحاب . وهي مسألة في غاية الغموض ، لأنني أقول : لو أن الشمس في جو السماء وما في العالم عين تبصر من حيوان ما كان لها شعاع منبسط في الأرض أصلا . فإن نور كل مخلوق مقصور على ذاته لا يستنير به غيره . فوجود أبصارنا ووجود الشمس معا أظهرها النور المنبسط . ألا ترى الألوان تتقلب في الجسم الواحد المتلون بالخضرة مثلا أو الحمرة إذا اختلفت منك كصفات النظر إليه من الاستقامات والانحرافات كيف يعطيك ألوانا مختلفة

محسوسة تدركها ببصرك لا وجود لها في الجسم المنظور إليه في الشمس ، فقد أدركت ما لا وجود له حقيقة بل نسبة ، كذلك النور المنبسط على الأرض :

(إذا ما الشمس كان لها شعاع فذاك النور من قبلي أتاها)

الفصل الخامس

مبحث في شروط الوجود الحسي

(كتبه بالفرنسية الشيخ عبد الواحد يحيى (R . Guenon) ونشره في مجلة " العرفان " في فرنسا ، عدد جانفي 1912، و هنا ترجمته مع بعض الاختصار)

توجد خمس جواهر بسيطة، يمكن إدراكها مثاليا – أو بالأحرى " تعقلها " تجريديا - ، لكن يتعذر فهمها وتصورها في أي شكل من أصناف الظهور، لأنها في ذاتها لا تقبل التجلي الكوني . وهو السبب الذي جعل من غير الممكن تحديدها بتسميات معينة ، إذ يتعذر تعريفها بأي تمثيل صوري . وبالتالي لا يمكن لنا التكلم عنها إلا قياسيا مع مختلف أنماط الكيفيات الحسية إذ لا سبيل إلى التعرف عليها إلا من خلال بعض آثارها الخاصة بالنسبة لكيونتنا الفردية النسبية المنتمية إلى العالم الظاهر .

وهذه الأعيان الأولية الخمسة هي عبارة عن الأصول الباطنة أو النماذج المثالية للعناصر المادية الخمسة المميزة لعالم الحس . وإلى نفس هذه الأصول الخمسة تستند الشروط التي تتحدد بمقتضى تركيباتها تلك الإمكانية الخاصة للتجلي المسماة بالوجود الحسي ؛ كما يستند أيضا إلى مساقطها عبر مراتب الوجود عدد غير محدد من أنماط أخرى للوجود الظاهر . ثم إن هذه النماذج تستلزم بالقوة ، وعلى التوالي، الشروط الخمسة التي بالتداخل في ما بينها تشكل حدود الإمكانية الخاصة لمجلى الظهور المسمى بالوجود الجسمي . وتبدو هذه الأعيان أو النماذج المثالية الخمسة كالعلل الأصلية للعناصر المادية المميزة للعالم المحسوس التي هي تعيينات خاصة ومظاهر خارجية لها ؛ كما أنّ الشروط المذكورة والقوانين الفيزيائية التي تعبر عنها ينبغي اعتبارها كالواسطة بين العلة الفاعلة والمعلول المنفعل، أو بين الجوهر والعرض، وبعبارة أخرى كالواسطة بين نهايتي مجال الظهور اللتين تقعان في الحقيقة خارج هذا المجال الخاضع لمبدأ الدورية .

وكما هو معلوم فإنّ العناصر الخمسة للعالم المحسوس هي الأثير [الأصل الخامس] والهواء والنار والماء والتراب، على هذا الترتيب في ظهورها التكويني .

وكثيرا ما اعتبرت العناصر الخمسة كأحوال أو درجات تكثف مختلفة لمادة العالم المحسوس انطلاقا من عنصر الأثير المتجانس المالى لكل الفضاء والرابط بين كل أجزاء العالم المحسوس . وباعتبار وجهة النظر المقابلة فإن الانطلاق من الحالة الأكثر كثافة إلى الحالة الأكثر لطافة يعطي التراب في حالته الصلبة ، ثم الماء في الحالة السائلة، ثم الهواء في حالته الغازية ، ثم النار في حالة أكثر طلاقة (قريبة من الحالة الإشعاعية). ووجهة النظر هذه وإن كانت لا تخلو من نوع إصابة لما عليه الأمر في حقيقته إلا أنها تُعد مفردة في التحديد والتقييد بجانب مخصوص، بالإضافة إلى أن الترتيب الذي تعتمد عليه للعناصر يختلف مع الترتيب الأول فيما يتعلق بعنصر النار الذي تجعله بعد الهواء وقبل الأثير أو فوق الماء وتحت الأثير، في حين أن كل العلوم التراثية الأصيلة تجعل الرتبة الأولى للهواء وتعتبره عنصرا حياديا (تجتمع فيه ازدواجية الفعلية والانفعالية بالقوة فقط)، وأن النار تنشأ عنه بالاستقطاب كعنصر فاعل ، كما ينشأ عنه الماء كعنصر انفعالي أو انعكاسي ؛ ومن الماء ينشأ - بنوع من التكاثف أو التبلور أو الترسيب - عنصر التراب الذي يمثل آخر حلقة من سلسلة الظهور الحسي . وبالإمكان اعتبار هذه العناصر بكيفية أحسن كظواهر اهتزازية مدركة لحواسنا الجسمية واحدة بعد الأخرى على التوالي حسب ترتيب تواتراتها .

وقبل الشروع في بيان التغيرات بين الأثير والهواء، نشير إلى أن الشروط الخمسة التي تعين الوجود الحسي هي المكان والزمان والمادة والشكل والحياة ، ويمكن تلخيصها في جملة واحدة هي أخصر تعريف للجسم من حيث أنه " شكل محسوس حي في الزمان و في المكان " . وفيما يلي بيان علاقة هذه الشروط بالحواس والعناصر الخمسة على التوالي:

1- أما الأثير فهو أطف العناصر وأصلها، كما أنه محيط بالأشياء مائلا كل المكان إحاطة كاملة ظاهرا وباطنا . ويمكن القول أن الخاصية المميزة له ليست الامتداد المكاني، إذ لا يدرك بواسطته المكان ، وإنما هو الصوت ؛ أي يمكن اعتبار الصوت كتعيينه الأول ، لأن الأثير في ذاته متجانس ، ومن تعييناته تنشأ باقي العناصر الأربعة . و منشأ تعيينه الأول حركة اهتزازية بسيطة لنقطة ما من المجال الكوني اللامحدود . وتبدو هذه الحركة البسيطة كالانموذج الأول للحركة الاهتزازية للمادة المحسوسة . ومن وجهة النظر المكانية تنتشر تلك الاهتزازة الأولى في كل الاتجاهات على نمط الأمواج الكروية المتمركزة المشكلة لكرة لا تتغلق أبدا ، مع الإشارة إلى أن الشكل الكروي هو الانموذج الأصلي لكل الأشكال الأخرى وأنه يحتويها جميعا بالقوة .

هذا ووجود الحركة بما في ذلك العنصرية منها يقتضي وجود المكان والزمان، بحيث يمكن اعتبارها نتيجة لهما معا كتعلق المعلول بالعلة ، رغم أن الحركة لا تنشأ إلا بفعل سبب مبدئي مستقل عنهما . وتعقل الامتداد المكاني على هذا المستوى يستند في الحقيقة إلى وجود تلك الحركة العنصرية التي هي من البساطة بحيث تكون لطول موجتها ولدورها قيما لا متناهية في الصغر. لكن الإحساس المباشر بالمكان - أو بتعبير أدق الشعور بالامتداد - لا يصدر من هذه الحركة العنصرية للأثير من حيث هي في حد ذاتها ؛ ولا بد من اعتبار باقي العناصر الأخرى لتفسير التغيرات أو التركيبات المعقدة لتلك الحركة العنصرية على مختلف المستويات للمدارك الحسية ، الشيء الذي يمكن من التمييز بين الخواص الذاتية للأثير من جهة والهواء من جهة أخرى.

ولا بدّ من التساؤل عن أي من مداركنا الحسية يمكنها أن تُشعرنا - بصفة مباشرة - بوجود تلك الحركة الاهتزازية البسيطة . وتفيد المبادئ الأولى للعلوم الفيزيائية أنّ هذا الشرط متوفر في الاهتزازات الصوتية التي يميزها طول موجة وسرعة انتشار ضمن المجال السمعي؛ وهنا يبرز سؤال يتعلق بوسط الانتشار حيث أنّ حاسة السمع لا تشعر إلا باهتزازات تنتشر في وسط مادي (في حالة غازية أو سائلة أو صلبة)، والكلام هنا عن وسط من الأثير. ويمكن الإجابة عنه بأنّ الوسط الأثيري المعني بالذكر إنّما يتعلق بالحركة البسيطة الأنفة الذكر والتي لا بدّ لها - لكي تدخل حيّز إدراكنا السّمي - من نوع تضخم خلال انتشارها في وسط يكون أكثر كثافة ولكنه لا يغير من طبيعتها الأصلية وإنّما يضاعف من طول موجتها ودورها.

وهكذا يمكن القول أنّ الخاصية الصوتية تكمن بالقوة في هذه الحركة الاهتزازية البسيطة ضمن وسطها الأثيري الأصلي.

وإذا ما بحثنا عن أي من حواسنا الخمسة تختص الأكثر بإدراك الزمان، أمكن الجزم بأنّها حاسة السمع؛ وهو مما يسوغ التأكيد من صحته عمليا نظرا لضرورة تعلق الزمان بمقدار آخر يخضع للقياس حتى يتم إدراكه حسيًا ، وهذا المقدار ليس سوى المكان . وهكذا يمكن قياس الزمان من خلال دراسة الحركة التي هي نتيجة تركيبهما، فينوب قياس المسافة عن قياس الزمن الذي قطعت فيه تلك المسافة ، وفي هذا نوع من التمثيل المكاني للزمان . وأقرب تمثيل لذلك هو الذي يستعمل الدالة التي تأخذ أبسط القيم العددية والصيغة الجيبية الممثلة لحركة اهتزازية انسحابية أو دورانية ، وهذه هي حالة الاهتزازات الصوتية التي تمكننا من فهم الصلة الخاصة بين حاسة السمع وإدراك البعد الزمني . ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ الزمان والمكان إذا تقرر أنهما شرطان ضروريان لوجود الحركة فلا يعني هذا أنهما بمثابة العلة الأولى لهذه الحركة ، فإنّ الحركة تظهر عند اجتماعهما لا بهما ، إذ ما هما أيضا سوى أثر من بين الآثار الصادرة عن نفس العلة الجوهرية الراجعة في نهاية الأمر إلى العلة الجامعة العلوية التي هي عبارة عن القدرة الكلية الكاملة اللامحدودة واللامشروطة .

ومن جهة أخرى، من الضروري - لكي تظهر الحركة بالفعل - وجود متحرك أي وجود جسم مادي يخضع لهذه الحركة، وبالتالي فإنّ المادة ليست إلا شرطا انفعاليا بحثا في نشأة الحركة. وحيث أنّ وجود أي فعل يقتضي وجود رد فعل، فإنّ الخواص المحسوسة للمادة هي نتيجة لردود فعلها حالة خضوعها للحركة، وتتعلق هذه الخواص كما سبق ذكره بالعناصر التي مهما رُكبت أعطت كيفية من كفيات المادة يمكن إدراكها تعقلا (لا حسا) كأساس للظهور الحسي.

ومن هنا نفهم أنّ الحركة ليست كامنة في المادة أو صادرة تلقائيا عنها ، وأنّها لا تمثل الحياة في نفسها لكنّها مظهر من مظاهرها يناسب الميدان الذي نعتبره .

وأول أثر لهذا النشاط في المادة هو أن يعطيها شكلا من الأشكال لانعدام التشكل في حالتها الأثيرية الأولية المتجانسة ، وتكون - وهي على هذه الحالة الأصلية - قابلة للظهور بكل الأشكال الكامنة في مجال إمكانياتها الخاصة . فالحركة هي حينئذ التي تعيّن ظهور الأشكال في النوع المادي أو الجسماني . وكما أنّ كل الأشكال تتمايز انطلاقا من الشكل الأصلي الكروي ، فإنّ كل حركة بإمكانها أن تتحلل إلى مجموعة من الحركات العنصرية الاهتزازية البسيطة .

2- وأما الهواء - وعلى وجه الخصوص ما كان منه متحركا - الذي هو مرادف في معناه الأصلي للنفس - بفتح الفاء - فله ارتباط مباشر بالحركة من حيث أنّه أول ما يميز من الأثير المتجانس مع بقاءه محايدا. ويتم هذا التمايز عن طريق التركيب والتداخل لمجموعة من الحركات

الاهتزازية البسيطة، وعند تميزه يفقد الفضاء خاصية التماثل في كل الاتجاهات، ويصبح بالإمكان إرجاعه لعدد من الاتجاهات المعينة تتخذ كمحاور إحداثيات أو أبعاد فضائية .

وهذه الأبعاد تتمثل في ثلاث أقطار متعامدة لكرة غير محدودة تشمل كل الامتداد الفضائي المحسوس، وهذا الامتداد هو بمثابة النشر لكل الامكانيات المكانية المحتواة في نقطة التقاطع المركزية لتلك المحاور، على أن هذه النقطة ليست في حقيقتها جزءا من الفضاء أو متقيدة به وإنما هي المنشأة له والمحتوية عليه، كما أن الدائرة التي ترمز إلى الكثرة الخفية محتواة مبدئيا في مركزها . وهذا التجلي الذاتي للنقطة في الفضاء يحقق نشر إمكانيات الذات للظهور في الكثرة فلا يظهر في الفضاء إلا آثار فعلها، فيبدو كأن الفضاء بكامله هو المنطوي فيها لانفعاله عنها، على أنه لا يصح القول بحلول النقطة في الفضاء إلا بشرط الإطلاق وعدم التحيز من حيث أنها تشغل كل موضع في أن واحد .

وهكذا يبدو الامتداد المكاني كأنه منطوي مبدئيا في النقطة، ولا ينبسط إلا بعد التجلي الأول لتلك النقطة عندما تنتهي في نقطة ثانية ليست مغايرة لها إلا بحكم هذا التجلي الذاتي.

وبهذا الاعتبار يمكن التكلم عن المسافة العنصرية بين نقطتين (هما في حقيقة الأمر نقطة واحدة) مع كون هذه المسافة لا معنى لها في عين الجمع من وجهة النظر الأحادية ؛ وإلى جانب هذا فإن هذه الثلاثة ، أي: النقطة - التي ترمز من وجهة النظر المثالية إلى الذات الواجبة الوجود - ، و نقطة ظهورها من غيب أحديتها ، والعلاقة البسيطة الرابطة بينهما والمتمثلة بخط يصل إحداهما بالأخرى ، تشكل ثلاثية الذات الناظرة إلى نفسها بنفسها.

ومن أجل توضيح هذه الرمزية يمكن اعتبار ذلك الخط الواصل كبعد حسي له قياس كمي أي كمسافة ، وبالتالي فيعتبر كمقدار يمكن تقييمه بعدد مجرد "ب" ، كما يمكن تقييم الامتدادا المكاني على مستوى ذي بعدين بعدد من الصيغة "ب²" ، وعلى مستوى فضائي ذي ثلاث أبعاد بعدد من الصيغة "ب³" أي كسطح أو حجم . وبذلك يظهر أنه كلما أضيف بعد زائد إلى الامتداد على مستوى معين ظهر ذلك في زيادة 1 إلى أس ذلك المقدار الكمي القياسي ، كما يظهر أنه كلما أنقص بُعداً من الامتداد طُرح 1 من الأس المذكور حتى إذا لم يبق إلا الخط ذو البعد الواحد والمقاس بالعدد "ب" كان انقاص هذا البعد يعني هندسيا إحالته إلى شكل نقطة ، أي الصفر في المعادلة $1=0$ ، فالصفر هنا لا يعني العدم كما قد يتبادر إلى أذهان البعض، ولكنه على العكس من ذلك اثبات للوجود الواحد المحض . وما دامت النقطة لا بُد لها فمن البديهي كذلك أنه لا شكل لها، ولا يعني هذا أنها عدم، بل يعني أن كل الأشكال كامنة فيها بالقوة . ويكفي الإشارة إلى أن انتقال النقطة يعطي الخط ، وانتقال الخط يعطي السطح ، وانتقال السطح يعطي الحجم، انتقالا أنيا لا علاقة له بالزمان في المجال الكروي اللامحدود . وهذا المجال هو بمثابة "المحل الهندسي" لكل الاستعدادات الإمكانية لتلك النقطة الأصلية ، وهو عكس العدم الذي ينفي إمكان كل تعين .

وأما قولنا أن الامتداد المكاني ينشأ بالفعل بمجرد بروز النقطة من حالة البطون إلى حالة الظهور، فلا يلزم منه إسناد مبدأ زمني للامتداد المكاني لأن الأمر يتعلق ببداية منطقية اعتبارية للامتداد بجميع أبعاده (غير الحسية منها والحسية - أي الحسية عند علماء الفلك المحصورين في دائرة ما تدركه وسائلهم والمحجوبين عما لم يبلغه نظرهم الحسي في ميدان الحس فضلا عما وراء ذلك) . ولا يدخل الزمان في الاعتبار إلا إن نظرنا لوضعين تشغلهما النقطة على أنهما متوالين، مع أن العلاقة السببية التي بينهما تدل على أنهما متواقبتين. ومن خلال هذه النظرة

أيضا تبدو المسافة كقياس لسعة الحركة الاهتزازية البسيطة الآنف الذكر. والواقع أنّ الحركة نفسها ما كانت لتنشأ لولا اجتماع التوافق والموالة حيث أنّ النقطة المتحركة – لولا ذلك – إمّا أن تكون في موضع ليست فيه – وهو افتراض باطل – أو أن لا توجد أصلا وهذا يعادل القول بأنّه لا يوجد فضاء قابل لظهور الحركة . وإلى هذه الاستحالة النظرية لوجود الحركة كانت ترمى كل البراهين التي أوردها الفلاسفة الإغريق ، وهي إشكالية حيرت بالمثل العلماء والفلاسفة المعاصرين، مع أنّ حلّها من البساطة بمكان إذا عدنا إلى ما قررناه في غير ما مناسبة من تواجد أو اجتماع الموالة والتوافق : موالة كيفيات الظهور في الوقت الراهن مع توافق مبدئي يجعل من التسلسل المنطقي للمعلولات بعلمها في الآن الدائم أمرا ممكنا (حيث أنّ كل أثر محتوي بالقوة في العين التي ظهر عنها دون أن يطرأ على العين أي نوع من التغيير بسبب ذلك).

أمّا من وجهة النظر الفيزيائية فإنّ الموالة مرتبطة بالإمكانية الزمنية، كما أنّ التوافق مرتبط بالإمكانية المكانية ، وعلى هذا تكون الحركة الناشئة عن تركيب هاتين الإمكانيتين هي التي توفق بين وجهتي النظر المذكورة ، وذلك بجعلها كل جسم يتواجد مع نفسه في المكان الصرف أي خارج إطار الزمن ، وهو ما يضمن له الحفاظ على حقيقته الذاتية مع توالي التغيرات العرضية عليه داخل الإطار الزمني .

ثمّ إنّ ارتباط الحركة الراهنة بوجود الزمان والمكان، يدفعنا إلى القول أنّ أحد الأبعاد الفضائية أو وفق اتجاهه، له مركبات على كلّ منها مع تقييد حركته بالزمان . ويمكن اعتبار هذا الأخير كبعد رابع للفضاء إذا أبدلنا الموالة بالتوافق، وبعبارة أخرى فإنّ حذف الإمكانية الزمانية يكون كالامتداد للفضاء الحسي المعهود . وهذا البعد الرابع راجع إلى اعتبار الوجود المطلق غير مقيد بموضع دون آخر. ويمكن - عن طريق عملية الانتقال إلى هذه الإمكانية المعتبرة في "اللاوقت" - إدراك معنى الآن الدائم للوجود الظاهر، وكذلك كل الظواهر التي تعتبر من قبيل المعجزات والخوارق في نظر العامة لعجزها عن التحرر من قيود الزمان "الحسي"، وهو نظر مخطئ لتعلق تلك الظواهر بأشخاصنا في الوضع الراهن، أي في طور من أطوار تغيراته العرضية التي من بينها الحالة الحسية الراهنة ، وهذه الأخيرة ليست إلا جزءا ضئيلا جدا من جملة مكونات الشخصية .

وبالعودة إلى النقطة التي تملأ بإمكاناتها للظهور كل الامتداد، فإنّ هذه الإمكانيات المختلفة يجب النظر إليها كمراكز قوة واحدة بوحدة، حيث أنّ القوة ليست سوى التأكيد الفعلي لإرادة الذات المرموز لها بالنقطة ، وهي إرادة تعني – على مستوى الكون – القدرة الفاعلة أو الطاقة المنتجة التي لا انفصال لها عن الذات ، والتي تعمل في الامتداد المنفعل كمناطق نفوذ لمراكز القوى المذكورة . فالنقطة باستقطابها إلى زوجية متكاملة ترمز حينئذ – باعتبار الفاعلية – إلى الجوهر الفاعل، وباعتبار القابلية إلى المادة الكونية ، وهو اعتبار لا يمس من وحدة النقطة الذاتية ولا من ثبوتها ، مع جمعه بين حقيقة الجوهر الذاتي المطلق الفعال وحقيقة الوجود الظاهر المقيد المنفعل كقطبين لحقيقة واحدة .

ولا يختلف الامتداد المذكور أنفا عن الأثير الأصلي ما لم تظهر فيه حركة مركبة تؤدي إلى تمييز جزء منه عن جزء آخر من حيث الشكل . لكن لما كانت كيفيات تركيب الحركة لا حصر لأعدادها، فإنّه ينشأ عن هذه التركيبات الأشكال التي لا حصر لها، انطلاقا من الشكل الكروي الأصلي . فظهور الأشكال مرتبط حينئذ بالحركة، وكذلك الحال بالنسبة لظهور الأنماط الحياتية .

ومن المهم أن نشير إلى أنّ كلّ شكل مجسّم هو بالضرورة حيّ ، لكون الوجود الحسيّ مشروط بوجود الحياة والشكل معا . والحياة الحسيّة تشتمل على درجات غير محصورة العدد وإن كانت على المستوى الأرضي تنقسم عموما إلى الميادين الثلاثة المعروفة : معدني ونباتي وحيواني، وليست الفوارق بينها إلا فوارق نسبية .

وأما على مستوى حواسنا فإنّ الحركة هي التي يتجلّى فيها الشكل، كما أنّها الخاصية المميزة للهواء، وحاسة اللمس هي المناسبة له، وهي تعمّ كامل ظواهر أجسامنا لكنها محدودة ؛ ولا يمكن إدراك الامتداد شموليا إلا بواسطة الحاسة البصرية . ولما كان الهواء منحدرًا من الأثير، فإنّ الصوت مُدرَك فيه تبعا ، ويتلخص دوره – بالإضافة إلى كونه وسطا تتضاحم فيه الاهتزازات الأثيرية – في تحديد الجهة التي ينبعث منها الصوت؛ ولذلك نجد أذن الانسان مزودة بما يسمّى القنوات النصف دائرية والموجهة وفق الجهات الفضائية الثلاثة . والهواء بالإضافة إلى هذا هو الوسط العنصري الحامل للنفس الحياتي . وكذلك باقي العناصر (النار والماء والتراب) ترتبط مثل الهواء بالشروط الخمسة للوجود الحسيّ وعلاقتها في ما بينها.

القسم الثالث

الطبيعة وأركانها والرباعيات الوجودية

الفصل الأول

مرتبة الطبيعة وأثارها

الأمهات الأربعة للأسماء الإلهية والطبائع الأربعة

بعد أن خلق الله القلم الأعلى مع الأرواح المهيمة، وانبعث من ذلك القلم اللوح المحفوظ، بقوته : العلمية والعملية – والبعدية هنا للترتيب الاعتباري السببي في بساط الحكمة، لا الترتيب الزمني ولا المكاني، إذ لا مكان ولا زمان في ذلك الملكوت الأعلى – توجه الحق باسمه "الباطن" على خلق المرتبة الثالثة، وهي الطبيعة . وإليك التفصيل:

من المعلوم أن الأسماء الأربعة التي ترجع إليها حقائق جميع الأسماء الحسنى هي: الحي، العليم، المريد، القادر، أو القائل، لأن قدرته تعالى تتجلى في قوله (كن) للشيء المعدوم عينا، الموجود في علمه تعالى القديم، فيكون. وفي هذه المرتبة الثالثة، بعد القلم واللوح، توجه الحق باسمه "الحي" فخلق ملكا عظيما، هو: ملك الحرارة، أصل حقيقته الخلقية من القوة العملية التي أودعها الله في النفس الكلية، المعبر عنها: باللوح المحفوظ .

ومفهوم حقيقة الحرارة يستلزم حقيقة معاكسة لها تكون كالظل للحرارة، ألا وهي: البرودة. فكما أن صفة العلم ظل لصفة الحياة، فكذلك، لما ظهر نور الوجود على ملك الحرارة، امتد منه ظل، فتوجه الحق تعالى باسمه "العليم" على ذلك الظل، فخلق ملكا عظيما، هو: ملك البرودة، وجعله مقابلا لملك الحرارة، مقابلة الشخص لظله .

وأصل الحقيقة الخلقية لملك البرودة هذا، من القوة العلمية التي أودعها الله في اللوح المحفوظ، والمستمدّة من اسمه تعالى: "المدبّر"، كما أن القوة العملية من اسمه: "المفصّل".

ثم إن حقيقة الحياة وحرارتها تستدعي الحركة. فالحركة المعنوية لصفة الحياة أبرزت صفة الإرادة، وحيث أن العلم ظلّ الحياة، فظلّ حركة الحياة استدعت، في ظلها العلمي، تبسطا وتوسعا، أبرز صفة القدرة وقول: "كن".

ثم توجه الحق تعالى باسمه: "المريد" في حضرة الجلال والقهر والقبض على ملك الحرارة، فانفعل عن هذا التجلي ملك كريم عظيم، هو ملك اليبوسة، وجعل مرتبته على يمين أصله، أي ملك الحرارة، وعلى يسار ملك البرودة .

وكذلك في الظلّ المقابل، توجه الحق تعالى باسمه: "القدير" في حضرة الجمال والأنس والبسط على ملك البرودة العلمية المنبسطة، فانفعل عن هذا التجلي ملك كريم عظيم، هو ملك الرطوبة، وجعل

مرتبتة على يمين أصله، أي ملك البرودة، وعلى يسار ملك الحرارة، مقابلاً لملك اليبوسة، مقابلة الشخص لظله .

وموقع الحرارة ويبوستها في جانب الجلال، وموقع البرودة ورطوبتها في جانب الجمال.

وقد اشتملت كلمة التكوين " كن " إجمالاً على هذا الترتيب : فالكاف وحركة رفعه للاسم (الحي) وللحرارة المنفصلة عنها اليبوسة ، والنون وسكونها للاسم (العليم) وللبرودة المنفصلة عنها الرطوبة .

فكملت الدائرة، المربّعة الأركان الجامعة. وجمعية هذه الأركان الأربعة في المرتبة الثالثة، هي: الحقيقة المسماة بالطبيعة، فهي الركن الخامس الذي منه ظهرت الأركان الأربعة، كما أن حقائق الأسماء الحسنى الأربعة المتوجهة لخلق الأركان الأربعة، مجتمعة ونابعة من عين واحدة، هي: حضرة الذات، التي هي أم الكتاب.

الطبيعة كرحم الأم للكون :

فالطبيعة بحقائقها الأربعة، كالبنات المعنوية لتلك الأم الكبرى، وهي كالرحم، للعرش وما فيه . فالعرش هو أول قابل لآثار الطبيعة، والرحمن على العرش استوى، وقد ورد في الخبر النبوي: "الرحم شجنة من الرحمن، تعلقت بالعرش..."، وهي تظهر في الكشف على صورة الأم، كما ذكره الشيخ الأكبر في الفصل 13، الباب 198، الجزء الثاني ص: 430، وفيه يقول مع اختصار لكلامه ، وما بين قوسين شرح له :

[اعلم أن الطبيعة في المرتبة الثالثة عندنا من وجود العقل الأول، وهي معقولة الوجود غير موجودة العين. فمعنى قولنا: مخلوقة، أي مقدّرة، لأن الخلق التقديري وما يلزم من تقدير الشيء: وجوده... فهي مشهودة للحق، ولهذا ميّزها، وعيّن مرتبتها، وهي للكائنات الطبيعية [أي العرش فما دونه] كالأسماء الإلهية، تعلم وتعقل وتظهر آثارها، ولا عين لها جملة واحدة من خارج، وكذلك الطبيعة، تعطي ما في قوتها من الصور، ولا وجود لها من خارج، فما أعجب مرتبتها، وما أعلى أثرها، [قلت: ولهذا كان المتوجه على خلق الطبيعة هو الاسم الإلهي: الباطن، لأن الباطن هو المشهود أثره، المفقود عينه، مثل الطبيعة: آثارها مشهودة، وعينها الخارجية غير موجودة] فهي ذات معقولة، مجموع أربع حقائق، يسمّى أثر هذه الأربع في الأجسام المخلوقة الطبيعية: حرارة ويبوسة وبرودة ورطوبة، وهذه آثار الطبيعة في الأجسام لا عينها، كالحياة والعلم والإرادة والقول في النسب الإلهية، وما في الوجود العيني سوى ذات واحدة. فالحياة تنظر إلى الحرارة، والعلم ينظر إلى البرودة، والإرادة تنظر إلى اليبوسة والقول ينظر إلى الرطوبة... وأما ما تعطيه [أي الطبيعة] من أنفاس العالم، فهو ما تقع به الحياة في الأجسام، من نموّ وحسّ لا غير ذلك، وكلّ نفس غير هذا، فما هو من الطبيعة، بل علته أمر آخر، وهي: الحياة العقلية وهي حياة العلم، وهي عين النور الإلهي والنفس الرحماني... ولما كان للطبيعة وجود أعيان الصور، لهذا كان لها من الحروف: العين المهملة، لأن الصور الطبيعية لا روح لها من حيث الطبيعة، وإنما روح الصور الطبيعية من الروح الإلهي [أي عند مقارنة مراتب الوجود الظاهرة في النفس الرحماني، بمراتب الحروف اللفظية حسب مخارجها في النفس الإنساني، نجد أنّ أول حرف بارز

من الصّدر، هو: الهمزة، يناسب أول موجود، أي: العقل الأول أو القلم الأعلى، ثمّ حرف الهاء للمرتبة الثانية، أي اللوح المحفوظ، ثمّ حرف العين للمرتبة الثالثة، وهي الطبيعة. وعين الشيء كعين الماء، أي منبعه، كذلك الطبيعة، هي مصدر لكل الصور الطبيعية، من العرش إلى أسفل سافلين. وللعين العدد سبعة بالجزم الصغير] وكان لها [أي للطبيعة] وجود الثريا، وهي سبع كواكب، لأن الطبيعة في المرتبة الثالثة، وهي أربع حقائق كما تقدّم، وكان من المجموع: سبعة، وظهرت عنها الثريا [أي عند مقارنة مراتب الوجود الثمانية والعشرين، التي ذكرها الشيخ في الباب 198، بمنازل فلك المنازل الثمانية والعشرين، نجد أنّ أول منزلة وهي الشرطين: للعقل الأول، والمنزلة الثانية وهي البطين: للوح المحفوظ، والمنزلة الثالثة وهي الثريا الواقعة بين برج الحمل و برج الثور: للطبيعة] كما كان للعقل ثلاث نسب ووجوه، فوجدت عنه الكثرة التي ذكرها بعض أهل النظر في سبب صدور الكثرة عن العقل الأول، مع كونه واحداً، فكان الشرطين ثلاثة أنجم والنفس (أي اللوح المحفوظ) مثل العقل في ذلك، فكان البطين ثلاثة أنجم، ومن كون النفس ثمانية، كان البطين في المرتبة الثانية من الشرطين. وعن هذه السبعة التي ظهرت في الطبيعة، ظهرت المسبعات في العالم، وهي أيضاً: السبعة أيام، أيام الأسبوع) انتهى .

التجلى في الصور والتحوّلات الطبيعية والطبيعة الذاتية العامة :

يوصل الشيخ كلامه في الباب السابق فيقول :

[واعلم أن الطبيعة هذا حكمها في الصور، لا يمكن أن تثبت على حالة واحدة، فلا سكون عندها، ولهذا: الاعتدال في الأجسام الطبيعية العنصرية، لا يوجد، فهو معقول لا موجود، ولو كانت الطبيعة تقبل الميزان على السواء، لما صح عنها وجود شيء، ولا ظهرت عنها صورة، بل لا بد من ظهور بعض حقائقها على بعض لأجل الإيجاد، ولو لا ذلك لما تحرك فلك، ولا سبّح ملك، ولا وصفت الجنة بأكل وشرب وظهور في صور مختلفة، ولا تغيّرت الأنفاس في العالم جملة واحدة، وأصل ذلك في العلم الإلهي، أنه تعالى: " كل يوم هو في شأن"، واليوم: هو الزمن الفرد، والشأن: ما يحدثه الله فيه. فمن أين يصحّ أن تكون الطبيعة معتدلة الحكم في الأشياء، وليس لها مستند في الإلهيات].

وفي الباب 371 (ج3 ص420) يشير الشيخ إلى علاقة تغير الصور الطبيعية بتجلي الحق في الصور، فيقول (وما بين معكوفين شرح لكلامه):

(... فما في الوجود إلا الواحد الكثير، وفيه ظهرت الملائكة المهيّمة والعقل والنفس والطبيعة. والطبيعة هي أحق نسبة بالحق مما سواها، فإن كل ما سواها ما ظهر إلا فيما ظهر منها، وهو: النَّفْسُ – بفتح الفاء- وهو الساري في العالم، أعني في صور العالم. وبهذا الحكم، يكون تجلّي الحق في الصور التي ذكرها عن نفسه لمن غفل عن ما أخبر به عن نفسه تعالى. فانظر في عموم حكم الطبيعة، وانظر في قصور حكم العقل، لأنّه في الحقيقة صورة من صور الطبيعة، بل من صور العماء، والعماء هو من صور الطبيعة [لا يعني الشيخ هنا: الطبيعة الكونية، التي رتبها بين اللوح المحفوظ والهباء، وإنما يعني الطبيعة الذاتية الأصلية الكليّة، التي هي أمّ الكتاب، أي الأم الأولى العظمى الأصلية] وإنما جعل من جعل رتبة الطبيعة دون النفس [أي دون اللوح المحفوظ، الذي هو النفس الكليّة] وفوق الهيولى [أي الجوهر

الهبائي] لعدم شهوده الأشياء [وهذا ما ذهب إليه الإمام: أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى] وإن كان صاحب شهود ومشى هذه المقالة [مثل الشيخ الأكبر نفسه، فقد مشى هذه المقالة في الباب 198 المذكور أعلاه، وفي الباب السادس وغيره] فإنه يعني بها: الطبيعة التي ظهرت بحكمها في الأجسام الشفافة، من العرش فما حواه: فهي بالنسبة إلى الطبيعة [أي نسبة الطبيعة الكونية التي مرتبتها بين اللوح والهباء، بالنسبة للطبيعة الحقية الذاتية الكلية، أم الكتاب] نسبة البنت إلى المرأة التي هي الأم، فتلد كما تلد أمها، وإن كانت البنت مولودة عنها، فلها ولادة على كل من يولد عنها. وكذلك العناصر عندنا، القريبة إلينا: هي طبيعة ما تولد عنها، وكذلك الأخلط في جسم الحيوان، فلها سميهاها: طبيعة، كما تسمى البنت والبنات والأم. أنثى، ونجمها: إناثا..... والعماء الذي هو الجسم الحقيقي العام الطبيعي، الذي هو صورة من قوة الطبيعة، تجلى لما يظهر فيه من الصور، وما فوقه رتبة إلا رتبة الربوبية، التي طلبت صورة العماء من الاسم: الرحمن، فتنفس، فكان العماء، فشبهه الشرع بما ذكر عنه من هذا الاسم [يشير الشيخ إلى الحديث الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم، لما سئل: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فأجاب: كان في عماء، ما فوقه هواء وما تحته هواء] فلما فهمنا صورته بالتقريب، قال: ما فوقه هواء يعلو عليه، فما فوقه إلاحق، وما تحته هواء يعتمد عليه، أي ما تحته شيء. ثم ظهرت فيه الأشياء. فالعماء أصل الأشياء والصور كلها، وهو أول فرع ظهر من أصل [أي أصل الطبيعة الكلية: أم الكتاب] فهو نجم لا شجر، ثم تفرعت منه أشجار إلى منتهى الأمر والخلق، وهو الأرض، وذلك بتقدير العزيز العليم...).

وفي الفصل الأول من هذا الباب 371 ص430، المخصوص بالعماء، يعود الشيخ إلى ذكر الطبيعة الذاتية الجامعة العظمى، بعد ذكره لانبعاث اللوح من القلم، فيقول:

[... والطبيعة الذاتية مع ذلك كله، وتسمى هناك: حياة وعلم وإرادة وقولا، كما تسمى في الأجسام: حرارة وبرودة ويوسة ورطوبة، كما تسمى في الأركان: نارا وهواء وماء وترابا، كما تسمى في الحيوان: سوداء وصفراء وبلغما ودما، والعين واحدة والحكم مختلف، وذلك سر لأهل العلم ينكشف] انتهى .

وكما أن الطبيعة أم من الحيثية المذكورة سابقا، فهي من جهة أخرى تعتبر أبا، كما بينه الشيخ في الباب الحادي عشر، في معرفة الآباء العلويات والأمهات السفليات (ج1 ص138-140) حيث يقول:

[... فالأرواح كلها آباء، والطبيعة أم، لما كانت محل الاستحالات.... فأول الآباء العلوية معلوم، وأول الأمهات السفلية: شينئة المعدوم الممكن، وأول نكاح: القصد بالأمر، وأول ابن: وجود عين تلك الشينئة التي ذكرنا، فهذا أب ساري الأبوة، وتلك أم سارية الأمومة، وذلك النكاح سار في كل شيء، والنتيجة دائما لا تنقطع في حق كل ظاهر العين، فهذا يسمى عندنا: النكاح الساري في جميع الذراري. يقول الله تعالى في الدليل على ما قلناه: "أما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له: كن فيكون"... وبعد أن أشرت إلى فهمك.... بالأب الأول الساري وهو الاسم الجامع الأعظم... والأم الأولية الأخيرة السارية في نسبة الأنوثة في جميع الأبناء، فلنشرع في الآباء... والأمهات، واتصالهما بالنكاح المعنوي والحسي المشروع..]

ثم بين الشيخ أن الأب الثاني هو القلم الأعلى، ومنه اشتق الأم الثانية، أي اللوح، كانبعاث حواء من آدم، إلى أن قال:

[...] وبعد أن عرفت الأب الثاني من الممكنات، وأنه أمّ ثانية للقلم الأعلى، كان ممّا ألقى إليها من الإلقاء الأقدس الروحاني: الطبيعة والهباء. فكان أول أمّ ولدت توأمين، فأول ما ألفت: الطبيعة، ثمّ تبعتها بالهباء [أي الهيولى عند الحكماء] فالطبيعة والهباء أخ وأخت لأب واحد [أي القلم الأعلى] وأمّ واحدة [أي اللوح المحفوظ] فأنكح الطبيعة الهباء [كنكاح أولاد آدم بنات حواء في أول جيل البشريّة] فولد بينهما صورة الجسم الكلي [أي العرش] وهو أول جسم ظهر، فكان الطبيعة: الأب، فإن لها الأثر، وكان الهباء: الأمّ، فإنّ فيها ظهر الأثر، وكانت النتيجة: الجسم، ثمّ نزل التوالد في العالم إلى التراب على ترتيب مخصوص ذكرناه في كتابنا المسمّب: عقلة المستوفز...] اهـ

ملائكة الطبيعة وآثارها في البروج والأفلاك :

في الباب السابع (ج 1 ص 122) يشير الشيخ إلى أملاك الطبيعة الأربعة، أي أملاك الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، فيقول:

[وعين الله سبحانه بين هذا الروح [أي اللوح المحفوظ] الموصوف بالصفتين [العلمية والعملية] وبين الهباء: أربع مراتب، وجعل كل مرتبة منزلا لأربعة أملاك، وجعل هؤلاء الأملاك كالولاية على ما أحدثه سبحانه دونهم من العالم، من عليّين إلى أسفل سافلين، ووهب كل ملك من هؤلاء الملائكة، علم ما يريد إمضاءه في العالم، فأول شيء أوجده الله في الأعيان ممّا يتعلّق به علم هؤلاء الملائكة وتدبيرهم: الجسم الكلي، وأول شكل فتح في هذا الجسم: الشكل الكروي المستدير [أي العرش] إذ كان أفضل الأشكال، ثمّ نزل سبحانه بالإيجاد والخلق إلى تمام الصنعة، وجعل جميع ما خلقه الله تعالى مملكة لهؤلاء الملائكة، وولاهم أمورهم في الدنيا والآخرة، وعصمهم عن المخالفة فيما أمرهم به]

فحاصل قول الشيخ، أنّ للطبيعة ستة عشر ملكا، لكل نوع منها أربعة أملاك. لماذا؟ الجواب، والله أعلم: أن لكل ملك من الملائكة الأربعة العظام للطبائع الأربعة، ثلاثة مظاهر، ورّعهم الحق تعالى في دائرة فلك البروج الإثني عشر.

فملك الحرارة ثلاثة خلفاء، أولهم: وال على أول البروج: الحمل، لأنّ طبيعة هذا البرج: حار يابس، ورأينا أن اليبوسة منفعة عن الحرارة. وثانيهم: وال على البرج الخامس: الأسد، وثالثهم: وال على البرج التاسع: القوس. فهذه البروج الثلاثة كلها على طبع الحرارة واليبوسة، وسلطانها ملك الحرارة.

أما سلطان البرودة، فخلفاؤه الثلاثة لهم البروج التي طبعها بارد رطب، لأن الرطوبة منفعة عن البرودة، فلم البرج الرابع: السرطان، والثامن: العقرب، والثاني عشر: الحوت.

وأما سلطان اليبوسة، فخلفاؤه الثلاثة لهم البروج التي طبعها بارد يابس، فلا يوجد في هذه البروج الرطوبة المعاكسة لليبوسة، وإن كانت فيها البرودة فإنها لا تقاوم يبوستها لعدم وجود أثرها المنفصل عنها، أي الرطوبة، فبروج اليبوسة: البرج الثاني: الثور، والسادس: السنبله، والعاشر: الدلو.

وبالمثل، فسلطان الرطوبة خلفاؤه ثلاثة على البروج التي طبعها حار رطب، أي البرج الثالث: الجوزاء، والسابع: الميزان، والحادي عشر: الدلو.

فمن هذا التفصيل يظهر أنّ لكلّ برج طبيعتين ممتزجتين، لكن الغلبة لواحدة منهما. والسبب في هذا، أنّ فلك البروج توجد رتبته تحت الكرسيّ مباشرة، والكرسيّ هو محلّ الازدواجيّة وانقسام الحقيقة الواحدة إلى مظهرين. فعندما تنزل رقائق حقائق السلاطين الأربعة للطبيعة لتسقط على فلك البروج، كلّ رقيقة منها تزوج بأخرى عند الكرسيّ، بحيث تسقط في محلّها المعين، أي برجها المخصوص، وهي مزيج بين طبيعتين. وحيث أنه لا يمكن للطبيعة في أيّ محلّ أن تكون على تمام الاعتدال كما سبق ذكره، فإن إحدى الطبيعتين تكون هي الغالبة في كل برج، وواليه يستمدّ من ملك تلك الطبيعة الغالبة، مع نظره لملك الطبيعة المغلوبة. فوالى برج الحمل مثلا، يستمد من ملك الحرارة، وله نظر إلى ملك اليبوسة. وقس الباقي على هذا النمط.

وفي جوف فلك البروج، يوجد فلك المنازل الثمانية والعشرين بنجومها وكواكبها وطبائع كل منزلة تابعة لطبيعة برجها، حسب تقسيم المنازل على البروج كما هو معروف. فنحن الآن مثلا، منذ بعثة النبيّ صلى الله عليه وسلّم في حكم المنزلة الخامسة عشر، أي منزل غفر، وهي تقع في أول برج الميزان، وهو البرج السابع الذي طبعه حار رطب، كطبع الهواء. فطبع منزل غفر إذن هو حار رطب. أمّا منزلة الثريا المناسبة لمرتبة الطبيعة كما سبق ذكره، فيقع ثلثها الأول في آخر برج الحمل، وهو حار يابس، وثلثها الباقيان يقعان في أول برج الثور، وهو بارد يابس، فالغالب على طبعها إذن: اليبوسة والبرودة، مع غلبة الحرارة في ثلثها الأول.

وفي جوف فلك المنازل، توجد أفلاك السماوات السبعة بدراريها، وقد سبق ذكر طبائعها. دنيا، يوجد فلك الأثير، وهو فلك النار، وطبعها حار يابس، ثمّ فلك الهواء، وطبعه حار رطب، ثمّ فلك الماء، وهو رطب بارد، ثمّ فلك التراب، وهو بارد يابس. ولمعرفة سبب هذا الترتيب، راجع الأبواب من الفتوحات المذكورة سابقا. وما من شخص من المولدات – أي المعادن والنبات والحيوان والإنس والجان والملائكة – إلا ويغلب عليه طبع معين، مع وجود الطبائع الأخرى فيه، وكذلك الحال في الحروف والألوان والألحان الموسيقية والأوزان الشعرية، والأدوية، وفصول السنة ومراحل العمر وغير ذلك .

خلاصة القول : الطبيعة عبر مراتب الوجود

الطبيعة الكئيّة العظمى العامة: أمّ الكتاب، هي الحاكمة على كلّ الوجود، بدءا من العماء الأصلي وعالم العظمة والملكوت الأعلى، أي: القلم والملائكة المهيمّة واللوح المحفوظ، إلى أسفل سافلين، لكن بتنزلها من أقصى درجات اللطافة الملكوتية إلى أقصى دركات الكثافة الحسية، تتحوّل صورها حسب مراتب الوجود. فبين اللوح ومرتبة الهباء، تظهر في صورة الطبيعة الحاكمة على كل الأجساد، من العرش إلى الأرض، فهي الطبيعة الجسدية بحقائقها الأربعة: حرارة، برودة، يبوسة ورطوبة. لكنها ما بين العرش وفلك المنازل، تبقى الطبيعة الجسدية بسيطة لطيفة، ولذلك فإنّ أجساد تلك العوالم خلقت للبقاء رغم تنوع صورها، مثل أجساد أهل الجنّة. وكل ما في الجنّة: فأجسادها طبيعية لطيفة – غير عنصرية،

لأنّ موقع الجَنَّة الحسِّيّة بين فلك البروج الذي هو سقفاها، وفلك المنازل الذي هو أرضها – أما العوالم التي تحت فلك المنازل وأجسامها، كعالم الدنيا بسماواته السبعة والأراضي السبعة، وكعالم جهنّم في الآخرة، إلى أسفل سافلين، فهي طبيعيّة عنصريّة مركّبة كثيفة.

فمن العماء إلى اللوح: الطبيعة عظمتية عليا .

ومن العرش إلى سطح فلك المنازل: الطبيعة ملكوتية لطيفة بسيطة .

ومن فلك المنازل إلى السماء الدنيا: الطبيعة جبروتية عنصرية لطيفة مركبة .

ومن فلك النار إلى الأرض: الطبيعة عنصرية كثيفة مركبة .

ففي عالم العظمة: للحرارة نسبة متميزة مع الحقيقة المحمدية الأصلية ذات الخُلق العظيم لتجلي الحق عليها باسمه (الحي) . وللبرودة نسبة مع الملّك النوني أي حضرة العلم الإجمالي لتجلي الحق عليه باسمه (العليم) . ولليبوسة نسبة مع القلم الأعلى المفصل للإجمال العلمي لتجلي الحق عليه باسمه (المريد) ، والنون والقلم مظهران للحقيقة المحمدية الواحدة . وللرطوبة نسبة مع التفصيل القلمي وتسطيره للعلم الإلهي في اللوح المحفوظ مجلى الاسم (القدير) . وهذه الأربعة مجموعة في قوله تعالى: "نُونٌ وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ... وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" . ثم ظهرت هذه الأربعة موزّعة بترتيب بديع حكيم على أركان العرش الثمانية . ثم تزاوجت في الكرسي ، وظهرت في فلك البروج وفلك المنازل كما سبق بيانه . لكن نسبة العرش للحرارة أكبر، لأنّ مركزه هو الروح الكل مظهر الاسم (الحي) . والبرودة العلمية للكرسي أنسب ، ومن هنا قيل: الكرسي هو العلم في قوله تعالى (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) . وكذلك في السماوات السبعة كما مر بيانه . ثم في الأفلاك العنصرية الأربعة تحت السماء الدنيا ، وأولها فلك النار حار يابس ، لكنّ نسبته للحرارة أشد ، ونظيرها في الانسان الصفراء والقوة الهاضمة . ثم فلك الهواء حار رطب ، لكنّ نسبته للرطوبة أقرب، ونظيره الدم والقوة الجاذبة . ثم فلك الماء بارد رطب ، لكنّ نسبته للبرودة أتم ونظيره البلغم والقوة الدافعة . ثم فلك التراب بارد يابس ، لكنّ نسبته لليبوسة أشدّ ونظيره السوداء والقوة الماسكة . أمّا المولدات فللمعادن نسبة للتراب أي اليبوسة أكثر من غيرها . وللنبات الماء أي هو للبرودة أنسب . وللحيوان والانسان التراب والماء أكثر من غيرهما ، بعكس الجن فنسبتهم للهواء والنار أشدّ . وأمّا الأجسام النورية للملائكة فطبعها نفس طبع الفلك المخلوقة منه والمقامة فيه .

المخطنون والمنصفون في حق الطبيعة :

في الباب (510) يتكلم الشيخ على الذين غلطوا في فهم حقيقة الطبيعة فيقول: [... وتم التعريف بقوله: "فَقِنَا عَدَابَ النَّارِ" ، وليست إلا الطبيعة في هذه الدار ، فإنّها محل الانفعال فيها لأنّها للحق بمنزلة الأنتى للذكر ، ففيها يظهر التكوين أعني تكوين كل ما سوى الله . وهي أمر معقول ، فلما رأى من رأى قوة سلطانها وما علم أنّ قوة سلطانها إنّما هو في قبولها لما يكوّنه الحق فيها فنسبوا التكوين لها وأضافوه إليها ، ونسوا الحق بها فأنساهم أنفسهم إذ صرفهم عن آيات نفوسهم وهو قوله: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي"

الذين وصفهم الحق . فانقسم الخلق إلى قسمين: قسم إلى الحق الصرف وقسم إلى الطبيعة الصرف؛ وظهر بينهما برزخ ظهر فيه عالم ما هو ولا واحد من هذين القسمين، فرأى ما يستحقه الحق فأعطاه حقه ، ولو لم يعطه فهو له ، ورأى ما تستحقه الطبيعة فأعطاه حقه، ولو لم يعطها فهو لها . فإنّ الطبيعة ليست بمجعولة بل هي لذاتها في العقل لا في العين ، كما هو الحق لذاته في العقل والعين . فإنّ الحق له الوجود العيني والعقلي، والطبيعة لها الوجود العقلي ما لها وجود عيني . وذلك ليكون الحكم في الخلق بين الوجود والعدم، فيقبل العدم من حيث الطبيعة ويقبل الوجود من جانب الحق . فلهذا يتصف كل ما سوى الله بقبول العدم والوجود، فكان الحكم فيه للعدم كما كان الحكم فيه للوجود . ولو لم يكن الأمر على ما ذكرناه لاستحال على المخلوق قبول العدم في وجوده أو قبول الوجود في عدمه . فهكذا ينبغي أن تعرف الحقائق ولا سبيل إليها إلا بعدم الصرف عن الآيات..... فللطبيعة القبول وللحق الوهب والتأثير . فهي الأمّ العالوية الكبرى للعالم الذي لا يرى العالم إلا آثارها لا عينها ، كما أنه لا يرى أيضا من الحق إلا آثاره لا عينه ، فإنّ الأبصار لا تدركه والرؤية ليست إلا بها ، فهو المجهول الذي لا يُعلم سواه ، وهو المعلوم الذي لا يمكن لأحد الجهل به وإن لم يعلم ما هو] انتهى.

الطبيعة ظاهر أمر الله عند الأمير عبد القادر :

يتكلم الأمير عبد القادر الجزائري في كتابه (المواقف) عن مرتبة الطبيعة فيقول: (... وبهذا تعرف أنّ الطبيعة عند أهل الله المحققين أعلا من جميع العالم، فإنّها حقيقة إلهية فعالة تفعل الصور الأسمائية الإلهية الوجودية باطنها، وهو أحدية الجمع، ومادة هذه الصور الأسمائية وهيولاها العماء؛ وتفعل الصور الروحية كالعقل الأول والمهيمن والنفس الكلية وعالم المثال، ومادة هذه الصور النور؛ وتفعل الأجسام غير العنصرية كالعرش والكرسي والأطلس (أي فلك البروج) والمكوكب (أي فلك المنازل) ومادتها الجسم الكل؛ وتفعل صور جميع ما حواه العرش إلى غير نهاية ومادتها معروفة . والظاهر في الأجسام آثار الطبيعة لا عينها، كالأسماء الإلهية تُعلم وتُعقل وتظهر آثارها ولا عين لها في الخارج . فالطبيعة ظاهرا أمر الله وأمر الله باطنها . وفي هذه المرتبة تعيّن النكاح الثالث الطبيعي الملكوتي، وهو توجّه الأرواح العالوية بما سرى فيها من أحكام أسماء الألوهة بذواتها دون أحكام مظاهرها المثالية في مرتبة الطبيعة إلى إيجاد عالم المثال والأرواح الملكية عمار السموات والأرضين].

الطبيعة المجردة عند عبد الكريم الجيلي :

وفي كتاب (مراتب الوجود) يتكلم الشيخ عبد الكريم الجيلي عن مرتبة الطبيعة ، ويسمّيها الطبيعة المجردة عن لباس الاستقصات والأركان التي خلق الله تعالى العالم فيها . وهذه الطبيعة للاستقصات كالمداد للحروف الرقمية وكالصوت للحروف اللفظية . ونعني بالاستقصات الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بحكم انفراد كل واحد منها عن الآخر. وهذه الاستقصات للأركان كالطبيعة للاستقصات . فالاستقصات جميعها موجودة في كل ركن من الأركان ، لكن النار يغلب فيها استقصان وهما الحرارة

واليبوسة، والهواء يغلب عليه استقصان وهما البرودة واليبوسة . فمتى لبست الطبيعة صورة استقصاء من الاستقصات لا يمكن خلعها . ومتى لبست الاستقصات صورة ركن من الأركان لا يمكن خلعها. ومتى لبست الأركان صورة من صور الموجودات العنصرية لا يمكن خلعها . فيبقى ذلك الموجود موجودا بعد فناء ظاهره في الطبيعة يشاهدها المُكاشف عيانا كما يشاهدها الناس في الحس . وهذا الفلك الطبيعي واسع جدا ، خلق الله تعالى فيه الجنة والنار والمحشر والبرزخ وجميع ما في الدنيا وما هو قبل خلق الدنيا مما علمنا ومما لا نعلمه من المخلوقات الطبيعية . وظاهره المحسوس لنا اليوم هو العالم الدنيوي ، وباطنه الغائب عنا هو العالم الأخرائي ، وقابلية البطون والظهور هو البرزخ وهو عالم الخيال وعالم المثال وهو عالم السمسة . فنسخة الدنيا منك ظاهره من الجوارح وغيرها، ونسخة البرزخ منك خيالك، ونسخة الآخرة منك العالم الروحي وهو باطنك . وقد شرحنا أمر كونك نسخة للموجودات في كتابنا المسمّى بـ " قطب العجائب وفلك الغرائب " . والله أعلم با لصواب وإليه المرجع والمآب] انتهى.

الرحم المعلقة بالعرش اسم لحقيقة الطبيعة عند القونوي :

ذكرنا سابقا أنّ الطبيعة هي كالرَّحِمِ للكون وأنها تظهر كشفا على صورة الأمّ. وهذا ما أكّده الشيخ صدر الدين محمد بن اسحاق القونوي – وهو التلميذ الأنجب للشيخ الأكبر- في كتابه (شرح الأربعين حديثا) حيث يقول:

[الحديث العشرون: عن عبد الرحمن بن عوف قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: أنا الله وأنا الرحمن خلقتُ الرَّحِمَ وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته، أو قال: بَنَيْتُهُ [...] وعن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: إنّ الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِمُ، فأخذت بحقِّ الرَّحْمَنِ، فقالت: مه، قالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى، قال: فذلك لك. ولمسلم والبخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الرَّحِمُ معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله [...] فأقول بتأييد الله: أمّا الرَّحِمُ فاسم لحقيقة الطبيعة، والطبيعة عبارة عن حقيقة جامعة بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بمعنى أنّها عين كل واحدة بل الأربعة من غير مضادة، وليس كل واحد من الأربعة من كل وجه عينها، بل من بعض الوجوه . وأمّا أنّها معلقة بالعرش فمن حيث أنّ جميع الأجسام الموجودة عند المحققين طبيعية، والعرش أولها، وبهذا وردت الإخبارات الشرعية في أمر الجنة وغيرها، وشهدت بصحة ذلك مكاشفات الكمّل قاطبة . وأمّا أنّها شجنة من الرحمن، فمن أجل أنّ الرحمة نفس الوجود لأنّها هي التي وسعت كل شيء، فإنّ ما تمّ شيء وسع كل شيء إلا الوجود [...] ثم اعلم أنّ الرحمة لما كانت اسما للوجود على ما تقرر فالرحمن اسم للحق من كونه عين الوجود وأمّا أنّها شجنة من الرحمن فذلك من أجل أنّ الموجودات تنقسم إلى ظاهر وباطن، فالأجسام صور ظاهر الوجود، والأرواح والمعاني تعيينات باطن الوجود، والعرش مقام الانقسام، فافهم. وأمّا كون الرحم أخذت بحقِّ الرحمن، فهو من أجل أنّ الرحمن الذي هو عبارة عن التجلي الوجودي الرباني الشامل عالم الأرواح والمعاني والأجسام، وعالم الأرواح متقدم في الوجود والمرتبة على عالم

الأجسام وله من وجه درجة السببية أيضا بالنسبة إلى الرَّحْم، فله العلوّ وهو على النصف الأول من صورة الحضرة الإلهية، ولهذا كانت الرَّحْم معلقة بالعرش فإنّ العرش هو أول عالم الأجسام والمحيط بجميع الصور الظاهرة وبه تميّز ما ظهر عمّا بطن. والحق الذي هو مشدّد الازار مبدأ النصف الثاني النازل المستور بالازار الذي هو عالم الطبيعة محل استتار الحق في التجليات الخصيصة بالطبيعة التي هي العورة، ولهذا جهلتها الملائكة المأمورة بالسجود لأدم فنفرت من نشأته الطبيعية وذمّته وأثنت على نفسها. وأمّا استعادتها -أي الرَّحْم- من القطيعة فهو من أجل شعورها بالتمييز الذي عرض لها من عالم الأرواح وحضرة النَّفْس الرحماني الذي هو مقام القرب التام الرباني، فتألّمت من حالة البعد بعد القرب وخافت من انقطاع الامداد الرباني بسبب الفعل الذي شعرت به فنبهها الحق في عين إجابته سبحانه لدعائها على استمرار الامداد ودوام الوصلة من حيث المعية والحيطة الإلهيتان الذاتيتان، فسرت بذلك واطمأنت واستبشرت بإجابة الحق لها في عين ما سألت فاستمرّ دعاؤها لمن وصلها، والدعاء على من قطعها وصلتها هو بمعرفة مكانتها وتفخيم قدرها، إذ لولا المزاج المتحصل من أركانها لم يظهر تعيّن الروح الانساني ولا أمكنه الجمع بين العلم بالكليات والجزئيات، بل كان الأرواح الانسانية بالكلية أيضا مستهلكا كما أخبر الحق عن ذلك بقوله: (وَاللّٰهُ اَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ اُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ شَيْئًا) -الآية- فبالنشأة الطبيعية وما أودع الحق فيها من الخواص والقوى والآلات تآتى للانسان الجمع بين الخواص والأحكام والكمالات الروحانية والطبيعية، وبهذا الجمع توصل إلى التحقيق بالمرتبة البرزخية المحيطة بأحكام الوجوب والإمكان، فكمّلت له المضاهات وصحت له المحاذاة، فظهر بصورة الحضرة الإلهية وصورة العالم ظاهرا وباطنا فافهم. فهذا بعض خواص صلّتها التي يمكن ذكرها. وأمّا قطعها فأخبرها الحق أنه يقطع من قطعها، فقطعها هو بازديادها -أي ازدياء الطبيعة- والجهل بمكانتها وبخسها حقها، فإنّ من بخسها حقها وازديادها فقد بخس حق الله وجهل ما أودع الحق فيها من خواص الأسماء التي من حيث هي تستند الرَّحْم إلى الحق وترتبط به، إذ لولا علوّ مكانتها عند الحق لم يخبرها الحق حال الاجابة بقوله: من وَصَلَكِ وصلته ومن قطعك قطعته. ومن جملة الازدياء والقطع مذمة متأخري الحكماء لها - أي للطبيعة- ووصفها بالظلمة والكدورة وطلب الخلاص من أحكامها والانسلاخ من صفاتها، فلو علموا أنّ ذلك متعذّر، وأنّ كل كمال يحصل للانسان بعد مفارقة النشأة الطبيعية (أي العنصرية) فهو من نتائج مصاحبة الروح للمزاج الطبيعي وثمراته، وأنّ الانسان بعد المفارقة إنّما ينتقل من الصور الطبيعية إلى العوالم التي هي مظاهر لطائفها وفي تلك العوالم يتآتى لعموم السعداء رؤية الحق الموعود بها في الشريعة، والمخبر عنها أنها أعظم نعم الله على أهل الجنة. فحقيقة تتوقف مشاهدة الحق عليها كيف يجوز أن تُزدري. وأمّا حال الخواص من أهل الله كالكامل ومن يُدانيهم وإن فازوا بشهود الحق ومعرفته المحققة هنا، فإنّه إنّما يتيسر لهم ذلك بمعونة هذه النشأة الطبيعية، حتى التجلي الذاتي الأبدى الذي لا حجاب بعده ولا مستقر للكامل دونه، فإنّه باتفاق الكمل من لم يحصل له ذلك في هذه النشأة الطبيعية لم يحصل له ذلك بعد المفارقة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله" الحديث. وبقوله: "صنّف من أهل الجنة لا يستتر الربّ عنهم ولا يحتجب". وأمّا قيامها ودعاؤها -أي الرَّحْم أو الطبيعة- فعبارة عن توجهها الذاتي بصفة الافتقار إلى الحق، فإنّ الحق سمّى توجهه إلى الخلق بالامداد قياما، فقال: "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ" فاعلم ذلك، وتدبّر ما أدرجت لك في شرح هذا الحديث المشتمل على العلوم العلية والأسرار الخفية تفرّ وتفلح إن شاء الله تعالى. [انتهى].

فقول القونوي: الرَّحْم اسم لحقيقة الطبيعة يفصله الشيخ الأكبر في الباب (381) المخصوص بسورة البقرة (3 ص 516) عند حديثه على النكاح الإلهي والروحاني والطبيعي، فراجعه هناك.

خلاصة :

مراتب الوجود		أنواع العوالم	طبيعة العوالم	
حضرة القدم	العماء	عالم	طبيعة	الطبيعة الكلية
مخلوقات نورية	العنصر الأعظم القلم الأعلى الملائكة المهمة	العظمة	عظمية	
	الروح خالصة			
أجسام طبيعية غير عنصرية	العرش	عالم الملكوت	طبيعة ملكوتية بسيطة لطيفة	الجامعة هي أم الكتاب
	الكرسي			
	فلك البروج	جبروت أعلى	طبيعة جبروتية لطيفة بسيطة	
	الجنة			
أجسام طبيعية عنصرية	الفلك الموكب وهو فلك المنازل	جبروت أدنى	طبيعة جبروتية لطيفة عنصرية مركبة	
	السماوات السبعة		عالم الملك والشهادة	طبيعة حسية كثيفة عنصرية مركبة
		أفلاك العناصر الأربعة		
		الأرض		

طبيعة جبروتية عنصرية بسيطة



الفصل الثاني

[حول الأركان الأربعة]

تنبيه هام :

في العلوم التراثية الأصيلة ، الأركان الأربعة التي سنتكلم عنها في هذا البحث ، أي الهواء والماء والنار والتراب ، لا تعني الأجسام المركبة المعروفة في الأرض ، وإنما تعني أربعة مبادئ كلية ، مظاهرها الكونية تتمثل في أربعة أصناف من التموجات الطاقوية الناتجة من تداخل أربعة أنواع من اهتزازات الطاقة الوجودية الكلية الأصلية ، تسمى اهتزازات الطبائع الأربعة : أي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة . وتداخل هذه الأمواج في بعضها البعض بكيفيات وكميات مختلفة ، وبتداخلها أيضا مع الأمواج الطاقوية المنبثة من الكواكب ، ينتج ما يسمى بالمولدات ، أي كل الكائنات التي تعمر مرتبة وجودية معينة . فالمولدات في كوكب الأرض هي : المعادن والأجسام المادية المركبة ، والنباتات ، والحيوانات ، وملانكة الأرض ، والجن ، والإنسان .

1- ركن الهواء

تنبيه هام حول الأركان الأربعة وأصلها الخامس :

في العلوم التراثية الأصيلة ، الأركان الأربعة التي سنتكلم عنها وعن أصلها الخامس في هذا البحث ، أي الهواء والماء والنار والتراب ، لا تعني الأجسام المركبة المعروفة في الأرض ، وإنما تعني أربعة أصناف من التموجات الطاقوية الناتجة من تداخل أربعة أنواع من اهتزازات الطاقة الوجودية الكلية الأصلية ، تسمى اهتزازات الطبائع الأربعة : أي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة . وهذه الأربعة مع أصلها الخامس، مظاهر لنماذج مثالية لحقائق ذاتية متجلية في مراتب الوجود . فتداخل هذه

الاهتزازات في بعضها البعض بكيفيات وكميات مختلفة، تنشأ مراتب الوجود الكوني ، انطلاقاً من أقصى مراتب اللطافة في الملكوت الأعلى ، إلى أدنى درجات الكثافة الحسية في العالم الأسفل . وبتداخلاتها في ما بينها ، وأيضاً بينها وبين المراتب التي فوقها ، ينتج ما يسمى بالمولدات ، أي كل الكائنات التي تعمر مرتبة وجودية معينة. وبتداخلاتها في العالم الحسي مع بعضها البعض من جهة ، ومن جهة أخرى تفاعلاتها مع الأمواج الطاقوية المنبثقة من الكواكب تنشأ المولدات في كوكب الأرض بطبقاتها السبع، وهي : المعادن والأجسام المادية المركبة ، والنباتات ، والحيوانات ، وملانكة الأرض ، والجن ، والإنسان .

الفصل الثاني

ركن الهواء

تولد الأركان الأربعة من الطبائع الأربعة

في الباب 11 (ج1ص138-143) في معرفة آباءنا العلويات وأمهاتنا السفليات ، يبين الشيخ كيف تولدت الأركان الأربعة من الطبائع الأربعة فيقول :
[... فالأبوان هما الفاعلان والأمان هما المنفعلان وما يحدث عنهما هو المنفعل عنهما:
فالحرارة والبرودة فاعلان، والرطوبة واليبوسة منفعلان، فنكحت الحرارة اليبوسة فأنتجا ركن

النار، ونكحت الحرارة البرودة فأنتجا ركن الهواء، ثم نكحت البرودة الرطوبة فأنتجا ركن الماء، ونكحت البرودة اليبوسة فأنتجا ركن التراب، فحصلت في الأبناء حقائق الآباء والأمهات . فكانت النار حارة يابسة فحرارتها من جهة الأب وبيوستها من جهة الأم، وكان الهواء حارا رطبا فحرارته من جهة الأب ورطوبته من جهة الأم، وكان الماء باردا رطبا فبرودته من جهة الأب ورطوبته من جهة الأم، وكانت الأرض يابسة باردة فبرودتها من جهة الأب وبيوستها من جهة الأم. فالحرارة والبرودة من العلم (لم يذكر الشيخ أنّ الحرارة من الحياة واكتفى بنسبة البرودة للعلم من حيث أنّ العلم فرع عن الحياة وتابع لها اتباع الظل للشخص، فإذا رأينا الظل علمنا حتما وجود الشخص). والرطوبة واليبوسة من الإرادة (أو بصفة أدق الرطوبة من القدرة واليبوسة من الإرادة، فلم يذكر الشيخ القدرة لأنها تابعة ومتفرعة من الإرادة). هذا حد علتها في وجودها من العلم الإلهي وما يتولد عنهما من القدرة، ثم يقع التوالد في هذه الأركان من كونها أمهات لآباء الأنوار العلوية...] انتهى.

يعني بالأنوار العلوية أنوار الكواكب كما وضحه في قوله :

[وجعل لهذه الأنوار المسماة الكواكب أشعة متصلة بالأركان تقوم اتصالاتها في مقام نكاح الآباء للأمهات، فيحدث الله تعالى عند اتصال تلك الشعاعات النورية في الأركان الأربعة من عالم الطبيعة ما يتكون فيها مما نشاهده حسا . هذه الأركان لها بمنزلة الأربعة النسوة في شرعنا وكما لا يكون نكاح شرعي عندنا حلالا إلا بعقد شرعي ، كذلك أوحى في كل سماء أمرها فكان من ذلك الوحي تنزل الأمر بينهن كما قال تعالى: { ينتزل الأمر بينهن}]. انتهى. أي أنّ أشعة الكواكب كالأجساد لتوجهات روحانيات السماوات نحو الأركان الطبيعية السفلية، وهو ما يوضحه بقوله: [... فالأرواح كلها آباء والطبيعة أمّ لما كانت محل الاستحالات . وتوجه هذه الأرواح على هذه الأركان التي هي العناصر القابلة للتغيير والاستحالة فتظهر فيها المولدات وهي المعادن والنبات والحيوان والجان، والإنسان أكملها . وكذلك جاء شرعنا أكمل الشرائع حيث جرى مجرى الحقائق الكلية، فأوتي جوامع الكلم، واقتصر على أربع نسوة، وحرّم ما زاد على ذلك بطريق النكاح الموقوف على العقد ، فلم يدخل في ذلك ملك اليمين ، وأباح ملك اليمين في مقابلة الأمر الخامس الذي ذهب إليه بعض العلماء. كذلك الأركان من عالم الطبيعة أربعة . وبنكاح العالم العلوي لهذه الأربعة يوجد الله ما تولد فيها . واختلفوا في ذلك على ستة مذاهب: فطائفة زعمت أن كل واحد من هذه الأربعة أصل في نفسه؛ وقالت طائفة ركن النار هو الأصل: فما كثف منه كان هواء، وما كثف من الهواء كان ماء، وما كثف من الماء كان ترابا؛ وقالت طائفة ركن الهواء هو الأصل: فما سخف منه كان نارا، وما كثف منه كان ماء؛ وقالت طائفة ركن الماء هو الأصل؛ وقالت طائفة ركن التراب هو الأصل؛ وقالت طائفة الأصل أمر خامس ليس واحدا من هذه الأربعة ؛ وهذا هو الذي جعلناه بمنزلة ملك اليمين . فعمت شريعتنا في النكاح أتم المذاهب ليندرج فيها جميع المذاهب . وهذا المذهب بالأصل الخامس هو الصحيح عندنا ، وهو المسمى بالطبيعة فإنّ الطبيعة معقول واحد عنها ظهر ركن النار وجميع الأركان، فيقال ركن النار من الطبيعة بل هو عينها ، ولا يصح أن يكون المجموع الذي هو عين الأربعة ، فإنّ بعض الأركان مناقض للآخر بالكلية...] إلى آخر ما فصله رحمه الله...

الهواء حياة العالم من اسمه - تعالى - : الحى ، وهو أول ظاهر من الركن الأصلي الخامس

إذن فالركن الخامس هو أصل الأركان الأربعة، كما أنّ الذات أصل الأسماء الأمهات الأربعة، فلحيّ الهواء، وللعليم الماء ، وللمريد النار، وللقدير التراب. وإنما كان الهواء تابعا للاسم (الحيّ) لأنه مظهر نفس الرحمن الذي به حياة الوجود بأسره، وإذا انقطع نفس الهواء عن الكائنات الحية في الأرض ماتت في الحين. وكما أنّ (الحيّ) هو أول الأسماء الظاهرة من الأصل، فكذا الهواء هو أول ركن ظهر من ذلك الأصل الخامس، وذلك أنّ حياة (الحيّ) تستلزم الحركة، فلما ظهرت الحركة في ذلك الأصل حصل تموج فحدث ركن الهواء. وبظهور الحركة تظهر حقيقة الزمان والمكان. ولهذا نجد أنّ بداية العالم المنحصر في المكان والزمان تحت فلك البروج، تقع في بداية برج الميزان، وهو برج هوائي كما بينه الشيخ في الباب (12 / 1 ص 143-146) وبحركة هذا البرج - وولايته تدوم (6000 سنة) - تولّد برج العقرب وهو مائي . فالماء ناتج من تكاثف الهواء، والجامع بينهما طبع الرطوبة، وفي هذا يقول الشيخ في الفصل الرابع من الباب (361 / 3 ص 437): [والهواء يعمّ جميع المخلوقات فهو حياة العالم وهو حار رطب، فما أفرطت فيه الحرارة والسخونة سمّي نارا، وما أفرطت فيه الرطوبة وقلت حرارته سمّي ماء، وما بقي على حكم الاعتدال بقي عليه اسم الهواء. وعلى الهواء أمسك الماء وبه جرى وانساب وتحرك . وليس في الأركان أقبّل لسرعة الاستحالة من الهواء لأنّه الأصل، وهو فرع لازدواج الحرارة والرطوبة على الاعتدال والطريق المستقيم، فهو الأسطقس الأعظم أصل الأسطقسات كلّها. والماء أقرب أسطقس إليه، ولهذا جعل الله منه كل شيء حي، ويقبل بذاته التسخين، ولا تقبل النار برودة ولا رطوبة لا بالذات ولا بالعرض بخلاف الماء . فأعظم البروج البروج الهوائية وهي الجوزاء والميزان والدالي] انتهى.

وإنما كان الهواء هو أول ركن ظهر في الأصل ، ثم من الهواء تولدت الأركان الأخرى ، لأن للهواء نسبة متميزة لأول علاقة ظهرت بين الخالق تعالى والمخلوق إذ أنّه تعالى بقوله: (كُنْ) سمِعَ المخلوقُ الأمر وهو لا يزال عينا ثابتة في علم الله تعالى، فبرز للوجود العيني بالنسبة لنفسه في حضرة (فيكون). ومعلوم أنّه في عالمنا الحسّي الذي هو مظهر سفلي للعالم الأعلى الملكوتي، لا يتكلم المتكلم ولا يسمع السامع إلا بواسطة الهواء . خلاصة القول: إنّ المتوجّه على إيجاد الهواء هو اسمه تعالى (الحيّ) ، وللهواء نسبة خاصّة مع صفة (القول) ومع صفة (السمع) التي هي أول الصفات ظهورا في الإنسان، كما هي أول صفة ظهرت في المخلوق عموما عند سماعه للأمر الإلهي: (كُنْ).

خصوصيات الهواء

خصص الشيخ لهذا الركن الفصل (29) من الباب (198 / 2 ص 450-456) تحت عنوان: " الاسم الإلهي الحي وتوجهه على إيجاد ما يظهر في ركن الهواء وله من الحروف حرف الزاي ومن المنازل منزلة الشولة " وفيه يقول:

[... وهو ركن أقوى من الماء، والماء أقوى من النار، والنار أقوى من الحديد، والحديد أقوى من الجبال، والجبال أقوى من الأرض، وما ثم أقوى من الهواء إلا الإنسان حيث يقدر على قمع هواه بعقله الذي أوجده الله فيه..فالهواء موجود عظيم وهو أقرب الأركان نسبة إلى نفس الرحمن... والهواء هو نفس العالم الكبير وهو حياته، وله القوة والاقترار. وهو السبب الموجب لوجود النغمات، فيؤثر السماع الطبيعي في الأرواح فيحدث فيها هيمان وسكر وطرب. فالهواء

إذا تحرك أقوى المؤثرات الطبيعية في الأجسام والأرواح. وقد جعل الله هذا الركن أصل حياة العالم الطبيعي، كما جعل الماء أصل الصور الطبيعية. فصورة الهواء من الماء، وروح الماء من الهواء. ولو سكن الهواء لهلك كل متنفس، وكل شيء في العالم متنفس، فإن الأصل نَفَس الرحمن... والهواء هو الذي يسوق الأرواح إلى المشام من طيب وخبث، وفيه تظهر صور الحروف والكلمات، فلولا الهواء ما نطق ناطق ولا صَوّت مصوّت. ولما كان البارئ متكلمًا ووصف نفسه بالكلام، وصف نفسه بأنّ له نَفَسًا وإن كان ليس كمثله شيء، ولكن نبّه عباده العارفين أنّ علمه بالعالم علمه بنفسه. ووصف نفسه سبحانه بأنّه ينفخ الأرواح فيعطي الحياة في الصور المسوّاة، فجاء بالنفخ الذي يدل على النَفَس، فحياة العالم بالنفخ الإلهي من حيث أنّ له نفسًا. فلم يكن في صور العالم أحق بهذه الحياة من الهواء، فهو الذي خرج على صورة النَفَس الرحماني الذي يُنَفِّس الله به عن عباده ما يجدونه من الكرب والغم الذي تعطيه الطبيعة... فالهواء الذي يشعل النار من الرياح اللواقح، والذي يطفئ السرج من الريح العقيم، وإن كانت واحدة في العين فما هي واحدة عند من يرى تجديد العالم في كل نفس، فإنهم في لبس من خلق جديد. وأصل هذا في العالم الإلهي أنّ اللواقح ما تعطيه الربوبية من وجوه أعيان المربوبين، والعقيم سبحات الوجه المذهبة أعيان الممكنات من خلقه... { إلى آخر ما ذكره رحمه الله تعالى.

الحقيقة الهوائية عبر مراتب الوجود

إذا تتبّعنا حقيقة الهواء في مراتب الوجود من أعلاه إلى أدناها فإننا نجد ما يلي:

- في مرتبة الأسماء الإلهية أقرب النّسب للحقيقة الهوائية هو - كما مرّ بيانه - أوّل الأسماء الصفاتية أي: " الحيّ .
- وفي المرتبة البرزخية بين البطون والظهور، أو بين الحضرات الحقية والحضرات الخلقية، أقرب حقيقة للهواء هي النَفَس الرحماني - كما مرّ ذكره - . وكما أنّ أوّل صورة ظهرت في ذلك النَفَس هي العماء الذي ورد ذكره في الحديث الشريف، فكذلك أوّل حقيقة ظهرت وتفرعت من الهواء هي الماء، والعماء هو السحاب الرقيق أي كالبخار الجامع للحقيقة الهوائية والمائية معاً، وفي هذا يقول الشيخ في (3 / الفصل الأول من الباب 371 ص 430): [فأول صورة قبل نفس الرحمن صورة العماء فهو بخار رحماني فيه الرحمة بل هو عين الرحمة ، فكان ذلك أول ظرف قبله وجود الحق ، فكان الحق له كالقلب للإنسان...] - (راجع ما ذكرناه حول العماء في البحث الخاص بحقيقة الحقائق وفي البحث الخاص بالخيال) - ولنسبة هذا العماء مع الهواء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ قال: " كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء".
- وفي حضرة الملكوت الأعلى حيث الأرواح الخارجة عن طبيعة الأجساد، نجد أنّ مرتبة العقل الأوّل أي القلم الأعلى هي الأنسب للهواء، لأنّ القلم هو أوّل سامع لأمر الحقّ تعالى، وقد مرّ ذكر علاقة الهواء بالسمع. أمّا مرتبة النفس الكلية أي اللوح المحفوظ فهي للماء أنسب، لأنه هو القابل لما يسطره فيه القلم الأعلى ما يُمليه عليه الحقّ تعالى.

- وفي الحضرات العليا للطبيعة تحت اللوح المحفوظ نجد الهواء الطبيعي الملكوتي البسيط محيطا بالماء البسيط الجامد الذي عليه قوائم العرش وقوائم الكرسي. ويتكلم الشيخ في (الفصل الثاني من الباب 371 / ص 431) عن الظلمة التي ظهر عنها هذا الهواء المحيط بالماء الذي عليه العرش فيقول: [... اعلم أنّ هذه الظلمة هي ظلمة الغيب... فنحن ننظر إلى ما ظهر من صُور العالم في مرآة الغيب ولا نعرف أنّ ذلك في مرآة الغيب، وهي للحق كالمرآة فإذا تجلّى الحق لها انطبع فيها ما في العلم الإلهي من صور العالم وأعيانه. وما زال الحق متجليا لها، فما زالت صور العالم في الغيب. وكل ما ظهر لمن وجد من العالم فإنما هو ما يقابله في نظره في هذه المرآة التي هي الغيب... فكان ممّا رآه فيها صورة العرش الذي استوى الرحمن عليه].

- وفي المرتبة العرشية نجد الحقائق الثمانية الحاملة له، وأنسبها للهواء حقيقة قائمة الأرواح المخصوصة بسيدنا محمد وجبريل عليهما السلام، ثم قائمة الأرزاق المخصوصة بسيدنا إبراهيم وميكائيل عليهما السلام. وقد سبق ذكر علاقة الهواء بالروح واسمه تعالى (الحيّ). كما أنّ للهواء علاقة أيضا بالمقام الإسرافيلي العرشي لكون إسرافيل عليه السلام هو المكلف بالنفخ في الصور، وهو مخلوق من قلب الحقيقة المحمدية في صدر الوجود الذي منه يبرز النفس الرحماني الذي هو حقيقة الهواء الوجودي...

الحقيقة الهوائية في الكرسي والجنان

- وفي مرتبة الكرسي نجد بروز القدمين المتدليتين من العرش، وهما قدم الصدق لأهل السعادة وقدم الجبار لأهل الشمال . كما نجد حقيقتي الأمر والنهي، فحقيقة النهي وقدم الصدق هما الأنسب لحقيقة الهواء، لأنّ هواء النفس هو الهوى كما قال تعالى في وصف الذين لم يمتثلوا لنهيهِ: { وأفئدتهم هواء}. ومن امتثل لنهيهِ تعالى فهو من أهل قدم الصدق كما قال عز وجل: [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى].

وحيث أنّ المكلف بتدبير الجنان هم الملائكة ولاة البروج الاثني عشر (راجع 2 : الفصل 20 من الباب 198 / ص 440-441 // 3 و : الفصل 3 من الباب 371 : ص 433-435) كما هم مكلفون بتدبير جهنم، فإنّ ولاة البروج الهوائية هم الذين تفيض منهم أعظم الرحمات لأهل الدارين. ولهذا نجد الشيخ في (1 الباب 20 / ص 169) يتكلم عن الأدوار الزمنية التي تتعاقب على أهل النار فيربطها بالمدة الزمنية لولاية البروج. وتتبع كلامه نجد أنّ البروج النارية والترابية هي التي ينزل منها العذاب الأليم الحسي والنفسي على أهل جهنم، وأما البروج الهوائية وبعدها المائية فهي للراحة والرحمة. فخلال دورة العذاب الحسي يُرحم أهل النار بالنوم في البروج الهوائية والمائية. وخلال دورة العذاب النفسي، يُحجبون عن خوف توقع العذاب ويستريحون مدة ولاية البروج الهوائية الثلاثة... ولهذا نجد الشيخ في آخر الباب (1/61 ص 300-301) يتكلم عن المتولين عذاب أهل النار فيقول: - ما بين قوسين هو توضيح لكلام الشيخ - [وإنّ المتولي عذابهم من الولاية: القائم (أي الوالي على برج القوس الناري) والإقليد (أي ملك برج الأسد الناري) والثابت (أي ملك برج الجدي الترابي) (فانظر كيف لم يذكر الشيخ البروج الهوائية والمائية وإنما أخرجهم ليذكرهم مع الجنّة إشارة إلى كونهم بروج رحمة ونعمة فقال:) فهؤلاء الأملاك (أي الذين سبق عدّهم) من الولاية هم الذين يرسلون عليهم العذاب بإذن الله تعالى، ومالك هو الخازن. وأمّا بقية

الولادة مع هؤلاء الذين ذكرناهم وهم: الحائر (أي والي برج الجوزاء الهوائي) والسائق (أي والي برج السرطان المائي) والمانح (أي ملك برج الميزان الهوائي) والعاذل (أي ملك برج العقرب المائي) والدائم (أي ملك برج الدلو الهوائي) والحافظ (أي ملك برج الحوت المائي) فإن جميعهم يكونون مع أهل الجنان، وخازن الجنان رضوان، وأمدادهم إلى أهل النار (أي برحمة خاصة بهم) مثل أمدادهم إلى أهل الجنة... [انتهى.

وعلاقة الهوى بالهوى يشير إليها الشيخ في الأبيات التي افتتح بها الباب (2/273 ص 586) المخصوص بمنزل سورة المسد وعنوانه "في معرفة منزل الهلاك للهوى والنفس من المقام الموسوي" ومنها:

[هلاك الخلق في الريح إذا ما هب في اللوح
ولاذ بغير مـولاه إله الجسم والروح]

فالريح تشير إلى شدة غلبة الهوى في النفس التي هي اللوح، لأن النفس الكلية هي اللوح المحفوظ، والنفس الجزئية ألواح جزئية، وريح اشتداد الهوى تشير إليه الآية التي تصف حال المشرك في قوله تعالى: [أو تهوي به الريح في مكان سحيق].

البروج الهوائية

بعد العرش والكرسي نزل إلى فلك البروج الأطلس فنجد للهواء بوجه الثلاثة: أولها الميزان وأوسطها الدلو وآخرها الجوزاء . وقد تكلم الشيخ عن ولاة البروج في كتابه "عقلة المستوفز" فقال عن هؤلاء الثلاثة: [فالملك الأول على صورة الميزان... وهذا الفلك حار رطب وولاه الحكم في عالم التكوين ستة آلاف سنة ثم ينتقل الحكم إلى غيره إلى أن ينتهي إليه فيمكث هذه السنين المعلومة، وهو أول فلك دار بالزمان وفيه حدثت الأيام دون الليل والنهار. وكان أول حركة الزمان بهذا الفلك، وقد استدار في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلقه الله" وجعل بيد هذا الملك الكريم مفاتيح خلق الأحوال والتغيرات والزمان الذي خلق الله فيه السماوات والأرض وأحدث فيه الليل والنهار وهو متحرك (راجع الباب 1/12 ص 143-147 من الفتوحات) ... والملك الخامس خلقه الله على صورة دلو وجعل طبيعته بيته الذي هو قسمة من هذا الفلك حار رطب. وجعل ولايته في عالم التكوين ألفي سنة. وهو ملك كريم عليه سكون ووقار وهيبة، وجعل بيده مفتاح الأرواح... والملك التاسع خلقه الله على صورة توأمين (الجوزاء) وجعل قسمه من هذا الفلك حارا رطبا، وجعل دولته عشرة آلاف سنة، وله اشتراك مع ملك الأجسام، وجعل بيده مفتاح خلق المعادن] .

ثم إن لبرج الجوزاء الهوائي وظائف أخرى أشار إليها الشيخ في بعض المواقع، ففي الفصل (19 من الباب 2 /198 ص 437) يقول عن حركة الفلك الأطلس: [... وكان ابتداء حركته وأول درجة من برج الجوزاء يقابل هذا القدم (أي أحد قدمي الكرسي وهي بلا شك قدم الصدق السعيدة) وهو من البروج الهوائية، فأول يوم ظهر كان بأول درجة من الجوزاء ويسمى ذلك اليوم الأحد...]. ويقول أيضا أن حكم الآخرة لملك الميزان، فيذكر في

الباب (60 / 1 ص 294) : [... فلما انتهى الحكم إلى السنبله ظهرت النشأة الإنسانية...
وجعل الله لها من الولاية في العالم العنصري سبعة آلاف سنة وينتقل الحكم إلى الميزان وهو
زمان القيامة وفيه يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة... ويدخل الناس الجنة والنار وذلك
في أول الحادية إحدى عشرة درجة من الجوزاء وتستقر كل طائفة في دارها...]. وكذلك
يقول في الفصل الثالث من الباب (371 / 3 ص 433) : [... فإنه قد كان صاحب الدنيا
بحكم الأصل السرطان فلما عادت ناراً عزل السرطان ووليها برج الميزان وتبعه الباقيون في
الحكم... فإذا انقضى عذاب أهل النار وليها برج الجوزاء.] انتهى.

- وإلى وفاة هذه البروج الاثني عشر يشير الشيخ عندما يتكلم على لسان خطيب السعداء من
أهل الأسرة في الجنة في باب يوم الاثنين من كتابه (لطائف الأسرار) فيقول - وما بين
قوسين شرح لكلامه - :

- [... أفاض على الأكوام عامة أنوار رحمانيته (إشارة إلى العرش الذي استوى عليه
الرحمن) ، وحكم فيهم أسماء ربانيته (إشارة إلى مرتبة العماء مجلى تجلي الاسم: الرب
) ، ونظم اثني عشر نقيبا في سلكه وأقامهم سائسين في ملكه ، وجعل لكل نقيب أمدا ينتهي
إليه حكمه (أي جعل لولاية كل برج مدة زمنية محددة) ، وحدّا يقف عنده علمه ، وجعلهم
على أربعة مذاهب (أي من البروج ما هو ناري أو ترابي أو هوائي أو مائي) لاتحاد
الرسالة والنبوة والولاية والإيمان بالمنابر والأسرة والكراسي والمراتب (أي أصناف أهل
الجنة الأربعة) فمنهم من وصلت مادته إلى الفلك الأثير واستقرت (وهي البروج النارية)
فتكونت المعادن والنباتات والحيوانات النارية واستمرت ، ومدتهم أربعة وعشرون ألف سنة
(أي لأنّ مدة ولاية تلك البروج النارية هي الحمل: 12000 سنة + الأسد 8000 سنة +
القوس 4000 سنة) . ومنهم من وصلت مادته إلى فلك الهواء وأنبثت (وهي البروج
الهوائية) فتكونت المعادن والنباتات الحيوانية وثبتت، مدتهم ثمانية عشر الف سنة (أي
الجوزاء 10000 سنة + الميزان 6000 سنة + الدالي 2000 سنة) ، ومنهم من بلغت مادته
إلى فلك الماء وسكنت (وهي البروج المائية) فتكونت المعادن والنباتات والحيوانات المائية
وتمكنن، ومدتهم خمسة عشر ألف سنة (أي السرطان 2000 سنة + عقرب 5000 سنة +
حوت ألف سنة) ، ومنهم من بلغت مادته الأرض (وهي البروج الترابية) فتكون الإنسان
والمعادن والحيوانات والنباتات الترابية ومدتهم واحد وعشرون ألف سنة (أي الثور
11000 سنة + السنبله 7000 سنة + الجدي 3000 سنة) .] انتهى.

المنزل الفلكية الهوائية

- فإذا نزلنا من الفلك الأطلس إلى فلك المنازل نجد المنازل الهوائية الواقعة في بروجها
الهوائية، فنجد: الغفر والزبانا والثلاث الأول من الاكليل في الميزان، كما نجد سعد الأخبية
والثلاثين الأخيرين من سعد السعود والثلاثين الأولين من الفرع المقدم في الدلو، ونجد الهنعة
والذراع والثلاث الأخير من الهقعة في الجوزاء. ويتكلم الشيخ في كتابه (لطائف الأسرار)
بلسان القمر ما تعطيه روحانيته من الآثار خلال تنقله في هذه المنازل الهوائية فيقول:

- [... وإذا نزلت بالهنعة والذراع والغفر والزبانا والسعود والأخبية والمقدم أعطيت من
الأعمال ما تكثر فيه الحركات ويسرع فيه تغير الحالات، ومن التنزلات ما تحمله
المعصرات، ومن التجليات ما يظهر في المواطن البرزخيات: ومن الكرامات اختراق الهواء

كالطير والذاريات] . وعند تنقله في المنازل المائية يقول: [... أعطيت من الأعمال الوصال في الهاجرات، ومن التنزلات ما يختص بسريان الحياة في الحيوانات، ومن التجليات ما يأتي على أيدي المرسلات، ومن الكرامات إحياء الموات...] وحركته في المنازل الترابية تعطي ما يبينه بقوله: [أعطيت من الأعمال الرياضات والخلقيات، ومن التنزلات برد الأنامل الحاملات لجميع العلوم الكائنات، ومن التجليات ما يختص بالنزول في السموات، ومن الكرامات قطع ما بعد من المسافات بيسير الخطوات] . وحركته في المنازل النارية تعطي: [من الأعمال المجاهدات، ومن التنزلات الإشارات، ومن التجليات الاصطلامات، ومن الكرامات المشي على البحور الزاخرات] .

سماء المشتري السادسة الهوائية

- فإذا نزلنا من فلك المنازل إلى السماوات السبعة فإننا نجد سماء واحدة لها نفس طبع الهواء فهي سماء هوائية، وهي السماء السادسة حيث كوكب المشتري أو البرجيس، ويسمىها الشيخ في كتاب (الإسراء) بسماء القضاة، وكوكبها للسعد المحض، ولهذا نجد الشيخ يتكلم عنها في كتابه (عقلة المستوفز) فيقول:
 - [... ثم أدار بهذا الهواء السماء السادسة وعمّره من الملائكة بالملقيات، وعليهم ملك يسمى المقرب، وخلق الله فيه كوكبا يقال له المشتري، ثم أدار بهذه السماء هواء عمره بعالم الجمال [انتهى.
- ويؤكد الشيخ في كتابه (لطائف الأسرار) على جمالية وكمال هذه السماء الهوائية، وأنها سماء القبول وإجابة الدعوات، وأن لها يوم الخميس وقطبها موسى عليه السلام، ومختصة من الصلوات بصلاة الظهر فيقول:
- [... فانفتح الباب من خلفه جنتان ذواتا أفنان فيهما عينان تجريان.... فهناك يبدو لك شرف الاعتدال وصورة الكمال، وسر الثوب الذي مال، وروح الضياء والظلال، والتحاق النساء بالرجال وشفوفهن عليهن في جنات الأحوال، ويظهر لعينيك استواء المنحرف الميال، ويبقى العلم ويذهب الخيال، وتتضح المعاني ويزول الإشكال، وينحفظ الترتيب باعتدال التركيب، وتبرز حقيقة الأبد، ويدوم البقاء بالديمومة الإلهية من غير أمد، وتلوح كيفية التولد وماهية التعبد، وأسرار الصلاة والصدقات، وسبب الأولياء والشهود في النكاح والصدقات، ومعالم الوقوف بعرفات، وسفك دماء القرابين بمنى لابتغاء القربات، ومقام الذاكرين الله كثيرا والذاكرات، المقرون بذكر الآباء والأمهات، وانتظام الشمل بالحبايب، والتحاق الأحباب بالأقارب، وتنوع المراتب باختلاف المذاهب، وسرور الروح والنفس بتحصيل الجمال والأنس، وتقف على سر إجابة دعوة المضطر وإن كان كافرا، وهدى الطالب إذا كان حائرا، وتعلم أن الله لا تضره معصية عاص ولا تنفعه طاعة طائع، ولم يسمى بالمانع والجواد وليس بمانع [انتهى ...

الزمان الهوائي

وقد ذكر الشيخ في (كتاب أيام الشان) - كما هو معلوم في علم الفلك القديم، وقد سبق ذكره - أنّ ليلة الاثنين قد سلخ الله منها نهار الخميس، لأنّ كلاً من ليلة الاثنين ونهار

الخميس تحت حكم الروحانية الهوائية لكوكب المشتري، خصوصا في الساعة الأولى والساعة الثامنة منهما... لكن رغم أن النهار أو الليلة يكونان تحت حكم أحد روحانيات الكواكب السبعة، فإن الستة الباقيين ينوبون عنها في كل ساعة حسب ترتيبهم نزولا . ومجموع الساعات التي يحكم فيها روحاني كوكب ما خلال أسبوع يشكل ما يسميه الشيخ بيوم الشأن . ويفصل الشيخ يوم شأن روحانية المشتري، أي ساعات الأسبوع التي تكون فيها روحانية المشتري الهوائية هي الفاعلة في المحط الأرضي فيقول:

[وأما ليلة الخميس الإيلاجي الشأني فمركبة من الساعة الأولى من ليلة الاثنين والثامنة منها، والثالثة من يوم الاثنين (أي نهاره) والعاشر منه، والخامسة من ليلة الثلاثاء والثانية عشر منها، والسابعة من يوم الثلاثاء، والثانية من ليلة الأربعاء والتاسعة منها، والرابعة من يوم الأربعاء والحادية عشر منه، والسادسة من ليلة الخميس . وأما نهاره (أي نهار شأن روحانية المشتري) فمركبة ساعاته من الساعة الأولى من يوم الخميس من أيام التكوير والثامنة منه، والثالثة من ليلة الجمعة والعاشر منها، والخامسة من يوم الجمعة والثانية عشرة منه، والسابعة من ليلة السبت، والثانية من يوم السبت والتاسعة منه، والرابعة من ليلة الأحد والحادية عشرة منها، والسادسة من يوم الأحد . فهذا يوم الخميس قد تمنا نشأته من ساعات أيام التكوير والشأن الإلهي فيه (أي في هذه الساعات التي يكون واليها روحانية المشتري الهوائية) السيلان والتحليل؛ أمر الله تعالى روحانيات الأفلاك بمساعدة النفس (أي النفس الكلية التي هي اللوح المحفوظ) في هذا الشأن فساعدوا الفلك الأول بنصف قوته (أي أي ساعد روحانية المشتري التي لها طبع الهواء وهو الحرارة والرطوبة، ساعدها الفلك الأول أي سماء الدنيا الأولى لأنها مائية طبعها بارد رطب فساعدها بنصف قوتها التي هي الرطوبة لاشتراك الماء والهواء فيها)، وكذلك جميع روحانيات الأفلاك ساعدها بنصف قواهم (لأن السماء الرابعة والخامسة لهما طبع النار الحار اليابس فاشتركا مع الهواء في الحرارة، وطبع السماء الثالثة مائي بارد رطب فاشتركت مع سماء المشتري في الرطوبة مثل السماء الأولى) إلا الفلك السابع (أي لأن فلك السماء السابعة طبعها ترابي باردة يابسة ليس لها اشتراك مع تقيضها الرطب الحار) . وأما السادس فساعد بقوته كلها (أي لأنها هي سماء الهواء، وأما السماء الثانية فهي ممتزجة من الطبائع الأربعة فساعدت هذا الشأن الهوائي بنصف قوتها أي بطبعي الحرارة والرطوبة) . وإذا تقرب العشاق الذين حنوا في هواهم (تأمل علاقة الهواء بالهوى) إلى هيكل هذا اليوم بما يليق به من الدعوات والصدقات ويلجؤون فيه إلى الله فالشأن بره وتحليل ما يعقد من أمره (أي لأن للمشتري السعد الأكبر عند علماء النجوم فساعات ولايته ساعات قبول بإذن الله تعالى) . وقد ذكرنا هذا في كتاب الهياكل، وثمة تكلمنا في شأن هذه الأيام على الاستيفاء وهو كتاب شريف] انتهى.

وظائف سماء المشتري الهوائية وعلومها

وفي عدة أبواب من الفتوحات يتكلم الشيخ عن وظائف هذه السماء السادسة، ففي الفصل (22 من الباب 198/2 ص 444-445) يقول أن الاسم (العليم) هو المتوجه على إيجادها ، ثم يقول عن أمر الله الموحى إليها:

[فمن أمرها حياة قلوب العلماء بالعلم واللين والرفق وجميع مكارم الأخلاق، ولذلك لم يبنه أحد من سكان السماوات من أرواح الأنبياء عليهم السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فرض الله على أمته صلى الله عليه وسلم خمسين صلاة غير موسى عليه السلام فكل سر يكون للعارفين وعلم وتجل فمن حقيقة موسى من هذه السماء ، وكل أثر يظهر في الأركان والمولدات يوم الخميس فمن كوكب هذه السماء وحركة فلکها مجملا من غير تفصيل. ولها الضاد المعجمة، ومن المنازل الصرفة .فأما وجود الحروف المذكورة في كل سماء فلتلك السماء أثر في وجودها. وأما قولنا أنّ لها من المنازل الصرفة أو كذا لكل سماء فلنسنا نريد أنّ لها أثرا في وجود المنزلة كما أردنا بالحروف، وإنما أريد بذلك أنّ هذا الكوكب الخاص بهذا الفلك أول ما أوجده الله وتحرك أوجده في المنزلة التي نذكرها له بعينها فهي منزلة سعده حيث ظهر فيها وجوده... ولكل سماء وفلك أثر في معدن من المعادن السبعة يختص به وينظر إلى ذلك المعدن بقوته [انتهى. ومعدن هذه السماء هو الآنك (راجع معادن السماوات وأملاكها وأسمائها في الجدول الثالث من الملاحظات حول الباب الثاني من الفتوحات المكية).

وفي الباب (2 /167 ص 677) يتكلم الشيخ عن العلوم التي تتجلى للسالك في هذه السماء فيقول أنّ موسى عليه السلام يفيد اثني عشر ألف علم من العلم الإلهي (أي على عدد الكلمات التي سمعها موسى من ربّه حين كلمه) سوى ما أفاده من علوم الدور والكور، وأعلمه أنّ تغير الصور لا يعني تغير الأعيان لأنّ انقلاب الحقائق محال... وفي الباب (3/367 ص 349) المخصوص بسورة (الإسراء) يتكلم الشيخ عن حوار مع موسى في السماء السادسة الذي دار خصوصا حول مسألة رؤية العبد لله تعالى فراجعه هنالك. وفي الفصل التاسع من الباب (3/371 ص 445) يتكلم عن فلك هذه السماء فيقول: [... خلق فيه كوكبا سابعا من الخنس الكنس (أي المشتري) أودع لديه النخل الباسقات، والعدل في القضايا والحكومات، وأسباب الخير والسعادات، والبيض الحسان المنعمات، والاعتدال والنمايات، وأسرار العبادات والقربات والصدقات البرهانيات والصلوات النوريات، وإجابة الدعوات والناظرين إلى الواقفين بعرفات وقبول النسك بموضع رمي الجمرات . وخلق عند مساعدته النفس الكلية تحليل المياه الجامدات . وأسكن في هذا الفلك روحانية نبيه موسى عليه السلام عبده ونجيّه .] انتهى.

وفي الباب (1 /12 ص 147) يتكلم الشيخ عن ما أعطاه الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من وحي أمر السموات ما لم يعط غيره في طالع مولده فيقول عن سماء المشتري وهي الثانية بعد سماء زحل الأولى: [ومن الأمر المخصوص بالسماء الثانية من هناك أيضا خصّ بعلم الأولين والآخرين ، والتؤدة والرحمة والرفق وكان بالمؤمنين رحيمًا، وما أظهر في وقت غلظة على أحد إلا عن أمر إلهي... ومنها ما حلل الله له من الغنائم، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا من السماء الثانية من هناك .]

وفي الباب (1 /15 ص 155) يتكلم الشيخ عن الأبدال السبعة الحاكمين في أقاليم الأرض السبعة واستمدادهم من أرواح أنبياء السماوات السبعة، فيقول عن سماء المشتري: [وكل أمر علمي يكون في يوم الخميس فمن روحانية موسى عليه السلام، وكل أثر علوي في ركن النار والهواء فمن سباحة المشتري، وكل أثر سفلي في عنصر الماء والتراب فمن حركة فلکه . ولهذا البديل من الأقاليم الإقليم الثاني، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم

وفي ساعاته من الأيام: علم النيات والنواميس وعلم أسباب الخير ومكارم الأخلاق وعلم القربات وعلم قبول الأعمال وأين ينتهي بصاحبها. [ثم ذكر الشيخ هجّير هذا البدل فقال انه الآية من سورة الكهف: "لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي" وهو مقام العلم الإلهي وتعلقه بما لا ينتهي...

وفي الفصل (19 من الباب 2 /198 ص 438) يتكلم الشيخ عن الصفات الإلهية التي ظهرت عنها حركات الأيام السبعة فيقول: [ويوم الخميس وُجِدَتْ حركته عن صفة القدرة ، فما في الوجود جزء إلا وهو متمكن من الثناء على موجهه). وإنما اختصت القدرة بحركة يوم الخميس لأنّ القدرة راجعة للعلم كرجوع الإرادة للحياة ، وقد سبق أنّ المتوجّه على إيجاد سماء المشتري ويومها الخميس هو الاسم (العليم).

خصوصيات سماء المشتري وملائكتها

ويتكلم الشيخ عبد الكريم الجيلي في كتابه (الانسان الكامل) عن هذه السماء فيقول: [وأما السماء السادسة فمحتدا من نور الهمة . وهي جوهر شفاف روحاني أزرق اللون، وكوكبها مظهر القيومية ومنظر الديمومية ذو النور الممدّ المسمى المشتري . رأيت موسى عليه السلام متمكنا في هذا المقام واضعا قدمه على سطح هذه السماء، قابضا بيمينه ساق سدرة المنتهى ، سكران من خمر تجلي الربوبية ، حيران من عزة الألوهية، قد انطبعت في مرآة علمه أشكال الأكوان، وتجلت في إنّيته ربوبية الملك الديان، يهول منظره الناظر.....واعلم أنّ الله تعالى جعل دور فلك هذه السماء مسيرة اثنتين وعشرين ألف سنة وستين سنة وثمانية أشهر، فيقطع كوكبها وهو المشتري فيها في كل ساعة مسيرة تسعمائة سنة وتسع عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوما ونصف يوم، فيقطع جميع الفلك في مضي أربع وعشرين ساعة، ويقطع جميع الفلك الكلي في مضي اثنتي عشرة سنة، يقطع كل سنة برجا من الفلك الكبير... وجعل ميكائيل موكلا بملائكتها وهم ملائكة الرحمة ، جعلهم الله معارج الأنبياء ومراقى الأولياء، خلقهم الله تعالى لإيصال الرقائق إلى من اقتضتها له الحقائق، دأبهم رفع الوضيع وتسهيل الصعب المنيع، يجولون في الأرض بسبب رفع أهلها من ظلمة الخفض، فهم أهل البسط من الملائكة والقبض، وهم الموكلون بإيصال الأرزاق إلى المرزوقين على قدر الوفاق ، جعلهم الله تعالى من أهل البسط والحظوة ، فهم بين الملائكة مجابوا الدعوة لا يدعون لأحد بشيء إلا أجيب، ولا يمرون بذي عاهة إلا ويبرأ ويطيب، وإليهم أشار عليه الصلاة والسلام في قوله: " فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة أجيب دعوته " وحصلت بغيته، فما كل ملك يُجاب دعاه ولا كل حامد يُستجاب ثناه . ثم إني رأيت ملائكة هذه السماء مخلوقة على سائر أنواع الحيوانات فمنهم من خلقه الله تعالى على هيئة الطائر وله أجنحة لا تنحصر للحاصر، وعبادة هذا النوع خدمة الأسرار ورفعها من حضيض الظلمة إلى عالم الأنوار. ومنهم من خلقه الله تعالى على هيئة الخيول المسوّمة ، وعبادة هذه الطائفة المكرمة رفع القلوب من سجن الشهادة إلى فضاء الغيوب . ومنهم من خلقه الله تعالى على هيئة النجائب وفي صورة الركائب، وعبادة هذا النوع رفع النفوس إلى عالم المعاني من عالم المحسوس . ومنهم من خلقه الله تعالى على هيئة البغال والحمير، وعبادة هذا النوع رفع الحقير وجبر الكسير والعبور من القليل إلى الكثير. ومنهم

من خلقه الله على صورة الانسان، وعبادة هؤلاء حفظ قواعد الأديان . ومنهم من خلق على صفة بسائط الجواهر والأعراض، وعبادة هؤلاء إيصال الصحة إلى الأجسام المراض . ومنهم من خلق على أنواع الحبوب والمياه وسائر المأكولات والمشروبات، وعبادة هؤلاء إيصال الأرزاق إلى مرزوقها من سائر المخلوقات . ثم إني رأيت في هذه السماء ملائكة مخلوقة بحكم الاختلاط مزجا فالنصف من نار والنصف من ماء عقد ثلجا ، فلا الماء يفعل في إطفاء النار ولا النار تغير الماء عن ذلك القرار. واعلم أنّ ميكائيل عليه السلام هو روحانية كوكب هذه السماء وهو الحاكم على سائر الملائكة المقيمين في هذا الفلك، جعل الله محتده هذه السماء ومنصته عن يمين سدرة المنتهى، سألته عن البراق المحمدي هل كان مخلوقا من هذا المحتد العلي؟ فقال: لا، لأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم لم تتكاثف عليه الستور، فلم ينزل سرّه عن سماء النور، وذلك محتد العقل الأول ومنشأ الروح الأفضل، فبإراقه من فلك هذا المقام المكين وترجمانه جبريل وهو الروح الأمين، وأما من سواه من الأنبياء وسائر الكمّل من الأولياء فإنّ ركائبهم في السفير الأعلى على نجائب هذه السماء، فيصعدون عليها من حضيض أرض الطبائع حتى يجاوزوا الفلك السابع ، ثم ليس لهم مركب إلا الصفات ولا ترجمان إلا الذات] انتهى.

الهواء العنصري في عالم الكثافة الأرضي والمولدات

- فإذا نزلنا من ملكوت السماوات إلى عالم الكثافة والملك الذي تدركه حواسنا، فأنسب الأجسام العنصرية للحقيقة الهوائية هي الغازات وبخارات العناصر، وأكملها نسبة غاز الأكسجين الضروري للتنفس والاحتراق. فتحت فلك القمر بالسماء الدنيا يوجد فلك النار والأثير، ثم فلك الهواء أي الهواء العنصري الكثيف الذي هو مزيج غازات وبخارات. ثم فلك الماء ثم فلك التراب . يقول الجيلي في (الانسان الكامل): [واعلم أنّ كل واحد من فلك النار والماء والهواء على أربع طباق، وفلك التراب على سبع طباق]. فجاء فلك الهواء تحت فلك النار لاشتراكهما في الحرارة، وفوق فلك الماء لاشتراكهما في الرطوبة ، كما جاء الماء فوق التراب لاشتراكهما في البرودة.

يتكلم الشيخ في (رسالة الأنوار،) عن ما يُكشف لروح السالك في فلك الهواء فيقول: [رُفعت لك اللوائح اللوحية، وخوطبت بالمخاويف، وتنوعت عليك الحالات ، وأقيم لك دولا ب تعالين فيه صور الاستحالات وكيف يصير الكثيف لطيفا واللطيف كثيفا وما أشبه ذلك] انتهى. فاللوائح اللوحية هي ما يلوح من حقائق لوح النفس عند تغلبها على هواها وقطعها له في معراجها نحو السماوات...

وفي (عقلة المستوفز) يتكلم الشيخ عن هذا الفلك الهوائي فيقول: [... ثم أدار بالماء الهواء ،وجعل بين الهواء والماء من الملائكة الزاجرات ، وعليه ملك يسمى الرعد . وجعل بين الهواء والماء من الملائكة عالم الحياة، ثم أدار بالهواء كرة الأثير وهو النار، وجعل عماره من الملائكة السابقات ، وعليهم ملك كريم هو مقدمهم لا أعرف له اسما فإني ما عُرُفت بذلك، وجعل عالم الشوق ممزوجا من الهواء والأثير.] انتهى.

- فإذا انتقلنا من الأركان إلى المولدات أي المعادن والنبات والحيوان والجنّ والانسان، فأنسبها للهواء هم الجنّ للطافتهم، ونشأتهم تتكون أساسا من الهواء ثم النار (راجع الباب التاسع من

الفتوحات والملاحظات حوله). أمّا في جسد الانسان فأنسب الحواس للهواء هو السمع، ثم جهاز التنفس والنطق، وأنسب الأخلاط الدم وروحه القوة الجاذبة . وكوكب المشتري وفلكه في سمائه الهوائية نظيرهما في الانسان القوة الذاكرة ومؤخر الدماغ كما ذكره الشيخ في آخر الباب السادس (1 ص 120-121) . وحول علاقة الهواء بالركن الأول الذي هو أصل الأركان الأربعة الأخرى وعلاقته بالزمان والمكان راجع (مبحث في شروط الوجود الحسي) للشيخ عبد الواحد يحي.

الفصل الثالث

ركن الماء

تكون الركن المائي

في المبحث حول الهواء رأينا أنّ الحقيقة المائية تظهر عند تكاثف الهواء . ولإعطاء تصور خيالي لهذا التكاثف نعتبر ما يلي:

رأينا أنّ اهتزاز الركن الخامس الذي هو أصل الأركان (وهو الذي يسميه الشيخ الطبيعية ويسميه آخرون: الأثير) ينتج الهواء . ويمكن تصور هذا الاهتزاز على شكل أمواج كروية من الطاقة لها طول موجة وتواتر ودور زمني معلوم . فما دام طول الموجة المكاني ودورها الزماني منحصر في حدود الاعتدال بين حقيقتي الحرارة والرطوبة فالحقيقة الهوائية هي الظاهرة . فإذا تقلصت شدة الحرارة بتوجه ملك البرودة ينقص تواتر الاهتزاز الهوائي ويزداد دوره الزمني، فيخرج الهواء عن حدود اعتداله متكاثفا وتظهر الحقيقة المائية .

مساقط الحقيقة المائية عبر مراتب الوجود

- لهذه الحقيقة المائية مظاهر عبر مراتب الوجود عند سقوطها عليها :
- ففي حضرة الأسماء الإلهية نجد صفة العلم هي الأنسب إليها كما أنّ صفة الحياة هي الأنسب للهواء، وذلك لأنّ منشأ الماء كان بتوجّه ملك البرودة على الحقيقة الهوائية كما مر ذكره، والبرودة منفصلة من العلم كأنفعال الحرارة من الحياة، فكما أنّ أصل العلم هو الحياة فكذلك أصل الماء هو الهواء .
 - وفي الحضرة البرزخية بين البطون والظهور، نجد أنّ أنسب حقيقة للماء هي العماء كما سبق ذكره في الحديث عن ركن الهواء، لأنّ العماء هو أول صورة ظهرت في النفس الرحماني الذي هو عين الهواء الوجودي، والعماء في اللغة هو السحاب الرقيق ، فهو ماء لا يزال بخارا لقربه من الحقيقة الهوائية .

- وفي أول المراتب الخلقية رأينا أنّ سطور اللوح المحفوظ أي النفس الكلية هي الأنسب للماء، ومادة تلك السطور من الحقيقة المائية ، فكما انبعث اللوح من القلم كذلك انبعث الماء من الهواء . وكما أنّ منشأ الصور الطبيعية من الماء، فكذلك منشأ الصور الوجودية من العماء ، ومنشأ الصور الكونية وأرواحها إلى يوم القيامة من اللوح المحفوظ .
- وفي حضرة الطبيعة تحت اللوح نجد أنّ أنسب الطبائع للماء هي البرودة كما سبق بيانه .
- ثم نازل إلى حضرة الأشكال والأجسام فنجد الهواء حاملاً للماء الجامد الذي استقر عليه العرش كما قال تعالى: "وكان عرشه على الماء" ، وهو الماء الطبيعي الملكوتي البسيط لا العنصري الكثيف . وفي العرش الرحماني: تقاطع وجه البرودة بوجه الرطوبة أنشأ قائمة الماء العرشي التي تحملها الروحانية التي على صورة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- الذي هو ماء حياة الوجود .
- وكما رأينا أنّ الحقيقة الهوائية العرشية مشتركة بين حضرة الأرواح التي يُشرف عليها جبريل ومحمد عليهما السلام، وحضرة الأرزاق التي يُشرف عليها ميكائيل وإبراهيم عليهما السلام، فكذلك الحقيقة المائية العرشية مشتركة بين قائمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وحضرة الصور التي يشرف عليها إسرافيل وآدم عليهما السلام ، لأنّ الماء هو منشأ تلك الصور الطبيعية كما سبق ذكره .
- فإذا نزلنا من العرش إلى الكرسي ووجدنا قدمي الصدق والجبر، أو الأمر والنهي، أو اليمين والشمال، فأين نجد مسقط الحقيقة المائية هناك؟ الجواب - والله أعلم - : رأينا عند الحديث عن ركن الهواء، أنّ قدم النهي أي قدم الصدق واليمين هوائية ، والهواء حار رطب، وعكس طبعه البارد اليابس أي طبع التراب هو المنافر كلية للهواء، فله قدم الجبر والأمر والشمال . ولهذا نجد الشيخ يجعل ولاية البروج الترابية والنارية هم القائمون بتعذيب أهل النار التي وقودها الناس والحجارة "... وحيث أنّ الماء بارد رطب يقع بين الهواء والتراب، فموقع الحقيقة المائية في الكرسي بين قدمي الأمر والنهي ، وهي إلى قدم السعادة واليمين أنسب، فهي شبيهة بالاسم (الرحمان) إذ أنه يعني الرحمة الشاملة للجميع حتى لأهل الشمال المعدّبين ، بخلاف الاسم (الرحيم) المخصوص بأهل السعادة فقط . فكما أنّ (الرحمان) على العرش استوى، فكذلك أحاط الماء البارد بالعرش .
- ولهذه العلاقة بين الماء و (الرحمان) نجد الشيخ في آخر الباب (20 / ج 1 ص 196) يتكلم عن أدوار عذاب أهل النار فيقول: [...] وإذا أراد الله أن ينعمهم من اسمه الرحمان ينظرون في حالهم التي هم عليها في الوقت وخروجهم بما كانوا فيه من العذاب فينعمون بذلك القدر من النظر ، فوقتنا يدوم لهم هذا النظر ألف سنة (أي مدّة ولاية برج الحوت المائي) ووقتنا تسعة آلاف سنة (أي مدة ولاية برج السرطان المائي) ووقتنا خمسة آلاف سنة (أي مدّة ولاية برج العقرب المائي)..] انتهى.
- ونسبة الماء لأهل قدم الصدق نجدها في مثل قوله تعالى: { جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } وقوله تعالى: { فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ } ، ونسبته لأهل قدم الجبر الشمالية نجدها في مثل قوله تعالى: { ... فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ } وقوله: { كَمْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ }...
- فإذا انتقلنا من الكرسي إلى فلك البروج حيث ثلاثة منها مائية ، فالملك الذي له العقرب بيده مفتاح خلق النباتات وهو ساكن، والملك الذي على صورة الحوت بيده مفتاح خلق الحيوان

وله اشتراك مع ملك القوس الناري الذي بيده أزمة الأجساد النورية والظلمانية لاشتراكهما في خلق الأجساد، والثالث هو الملك الذي على صورة السرطان وبيده مفتاح خلق الدنيا وهو متحرك . هذا ما ذكره الشيخ في " عقلة المستوفز " .

- فإذا نزلنا إلى فلك المنازل، وجدنا المائبة منها تلك التي تقع في البروج المائبة وهي : الثلثان الأخيران من الاكليل ، والثلثان الأولان من الشولة وقلب العقرب، وللحوت الثلث الأخير من الفرع المقدم والفرع المؤخر والرشاء، وللسرطان النثرة والطرف والثلث الأول من الجبهة .
وكمثال لأفعال روحانيات هذه المنازل لنستمع الشيخ البوني (توفي سنة 632 هـ) في كتابه (شمس المعارف الكبرى) وهو يقول: [... القول على منزلة النثرة ، ولها حرف الحاء، إذا نزل القمر بها وهو بارد ممتزج سعد ينحط فيه إلى العالم بإذن الله تعالى روحانية تفعل في العداوة والبغضاء والقطيعة وما أشبه ذلك ، وتصلح لعمل الطلسمات والدعاء على الأعداء والطغاة والبعاة والشحناء ، ويتحرك فيها روحانية شرع فيها بأعمال آلات الحرب لأنها رديّة تصلح للشر كما ذكرنا والله أعلم ... القول على منزلة القلب وله حرف الصاد ، إذا نزل القمر به وهو كوكب سعيد مائي، ينزل منه روحانية تصلح ما أفسدت المتقدمة، وتصلح لشراء السلاح وشراء الدواب وقلع الشجر والزرع والحرق وإخراج الدفين وعلاج البهائم وشرب الأدوية..... وبخوره ورق الأهلilig والله أعلم...] .

- فلك منزل روحانية وظيفة مخصوصة أشار إلى بعضها الشيخ الأكبر في كتابه (التنزلات الموصلية) عند حديثه عن سير القمر عبر هذه المنازل . كما ذكر في كتابه (عقلة المستوفز) علاقة أقسام فلك المنازل بالحروف والأصوات والألحان، كما أوضح هذا المعنى في الباب (198) من (الفتوحات المكية) وفي الفصل (28) منه (ج 2 ص 449) يقول: [ولكل حرف ليلة من الشهر، أعني الشهر الذي يعرف بالقمر، فإذا مشى القمر وقطع في سيره أربع عشرة منزلة، أعطى في كل حرف من هذه الحروف من حيث صورها قوتين من حيث ذاته ومن حيث نوره ، وأعطاه قوتين أخريين من حيث المنزلة التي نزل بها ومن حيث البرج الذي لتلك المنزلة ولكن بقدر ما لتلك المنزلة من البرج ، فيصير في ذلك الحرف أربع قوى، فيكون عمله اقوى من عمل كل واحد من أصحاب هذه القوى . ويكون عمله في ظهور أعيان المطلوب . فإذا أخذ القمر في النقص فقد أخذ في روحانية هذه الحروف إلى أن يكملها بكمال المنازل . فتلك ثمان وعشرون والقوى مثل القوى ، إلا أنه يكون العمل غير العمل ، فالعمل الظاهر في المنافع والعمل الثاني في دفع المضار. وفي قوة النور الذي للقمر لهذا الحرف مراتب بحسب المنزلة والبرج الذي تكون فيه الشمس واتصالات القمر بالمنزلة في تسديسها وتثليثها وتربيعها ومقابلتها ومقارنتها ، فتختلف الأحكام باختلاف ذلك، هذا للحرف من قوة النور القمري . فالعمل بالحروف يحتاج إلى علم دقيق....] إلى آخر ما فصله الشيخ.

الماء أول العناصر في الملك واختلاف المواقف في ذلك

واعلم أنّ ما فوق فلك البروج الغالب عليه الروحانية واللطافة الملكوتية ، و في ما تحته يظهر الزمان والمكان والأجسام المتحيزة والعناصر الكثيفة . كما يمكن اعتبار فلك البروج كمظهر محسوس للعرش، وفلك المنازل كمظهر محسوس للكروني، وأفلاك الدراري

والشمس والقمر التي مجموعها سبعة كمظهر محسوس للسموات الروحانية السبعة . وهذا يعني أنّ حقيقة الأركان الأربعة الملكوتية إذا سقطت إلى تلك المظاهر المحسوسة تحت فلك البروج تصبح أركاناً عنصرية كثيفة . وهنا سؤال : ما هو أول العناصر ظهوراً أو بعبارة أخرى: ما هو العنصر الأول الذي تفرعت منه بقية العناصر؟ يجيب الشيخ عن هذا السؤال فيقول في الباب (2 / 295 / ص 677) - وهو الباب المخصوص بمنزل سورة "الفجر" :-

[... والماء كان أول العناصر، فما كثف منه كان أرضاً ، وما سخف منه كان هواءً ، ثم ما سخف منه كان ناراً وهو كرة الأثير . فأصل العناصر عندنا الماء... والحكماء في هذه المسئلة على ستة مذاهب، خمسة منها خطأً والواحد منه صواب ، وهو الذي وافق الكشف والتعريف الإلهي لأهل خطابه من ملك ونبى وولي. وكان وجود هذه العناصر ببرج السرطان] انتهى. والسرطان هو البرج الذي بيد ملكه مفتاح خلق الدنيا وهو مائي. لكن هل كلام الشيخ هذا مناقض لقوله في الباب (3 / 361 / ص 437) : [والهواء يعم جميع الخلوقات فهو حياة العالم... هو الأسطقس الأعظم أصل الأسطقسات كلها والماء أقرب أسطقس إليه...] انتهى. وهل كلامه هذا مناقض لقوله في الباب (1 / 11 / ص 134).

[... الأركان من عالم الطبيعة أربعة... واختلفوا في ذلك على ستة مذاهب... وقالت طائفة الأصل أمر خامس ليس واحداً من هذه الأربعة... وهذا المذهب بالأصل الخامس هو الصحيح عندنا...]

الجواب: يمكن التوفيق بين هذه الأقوال الثلاثة للشيخ التي تبدو في الظاهر وكأنها متناقضة كتناقض ما ورد في الأحاديث أنّ أول ما خلق الله النور المحمدي، وفي حديث آخر أول ما خلق الله العقل، وفي حديث آخر الروح، وفي حديث آخر العرش، والتوفيق بينها أنّ العقل والروح هما من مظاهر النور المحمدي الأصلي، أما العرش فهو أول ما خلق الله من عالم الأجسام كذلك هنا: بالنسبة لعالم الخلق كله : الأصل الخامس الذي هو الطبيعة الكلية هو أصل جميع الأركان ، وبالنسبة للعالم الأعلى الروحاني الملكوتي الهواء هو الأصل الأول ، أما بالنسبة للعالم العنصري فالماء هو الأصل، ولهذا فإنّ الحركة الروحانية نجدها قد ابتدأت ببرج الميزان الهوائي أمّا خلق الدنيا – أي العالم العنصري – نجده قد ابتدأ ببرج السرطان المائي...

وقد ذكر الشيخ في الباب (198) أنّ المتوجه على إيجاد الهواء هو اسمه تعالى (الحي) والمتوجه على إيجاد الماء هو (المحيي) ، فالعلاقة بين الهواء والماء وأوليتهما هي نفس العلاقة بين (الحي) و (المحيي) : فالحي اسم ذاتي فله توجه لعالم الأرواح، وبالنسبة للملكوت: الأرواح هي الأصل ولها البدء ولولاها لما وجدت الأجساد ، فالهواء هو الأصل. أمّا (المحيي) فهو اسم فعل فله توجه لحضرة الأفعال ولعالم الأجسام، وبالنسبة لعالم الأجسام الجسم هو الأصل ولولاها لما كان للروح ظهور أي أنّ الماء هو الأصل. وفي الحقيقة : الحق هو الأصل فهو إله الجسم والروح، والروح كالجسم لا قيام لهما إلا به تعالى أي أنّ الأصل الخامس هو الأصل... ومنشأ هذا الاختلاف النسبي في الإلهيات أنّه إذا اعتبرنا العلم تابعا للمعلوم فالمعلوم هو الأصل ، وهذه الحضرة العلمية هي الماء الأوّل حين كنّا كما قال الشيخ في أبيات له: [كنّا حروفاً عاليات في ذرى أعلى القلّ] . أمّا إذا اعتبرنا كلمة الأمر الفهوانية (كُنْ) كأصل لإبراز الأعيان الثابتة لوجودها العيني فالهواء هو الأصل ، إذ هذه الحضرة الفهوانية هي عين النفس الرحماني الذي هو الهواء الوجودي .

وأما إذا اعتبرنا أنّ العلم والمعلوم والأمر والمأمور والعالم والأمر ما هي إلا نسب في نفس الذات، فهذه الذات المشار إليها بالخامس هي الأصل، والخمسة هي عدد الهاء أي هاء هوية الذات . قال شاعرهم: [اشهدك منك فرعا وأصلا من غير كيف منك إياه] . وفي عدّة مواقع من الفتوحات يؤكد الشيخ على أنّ الماء هو أول العناصر وأصلها ففي الباب (2 / 298 ص 689) مثلا يعطي تفصيلا طويلا لذلك ويقول أنّ الماء أب الأرض ولبني آدم ، والزبد وهو جد لآدم وللنار- إلى آخره... ولكنّه في مواقع أخرى يعود إلى أولية الهواء وكونه هو الأصل، فمثلا في الباب (2 / 291 ص 605) يقول: [أنّ الصدر في الرتبة الثانية من كل صورة... وصدر العناصر الماء...] فإذا اعتبرنا ذلك الأصل الخامس في الرتبة الأولى فالماء سابق للهواء وهذا في العالم الطبيعي العنصري، وإذا اعتبرنا الهواء كأصل والماء هو الصادر منه فذلك في العالم الطبيعي الأعلى...

السموات والكواكب والأيام والساعات المائية

- فإذا نزلنا من فلك المنازل إلى السموات ، فإننا نجد السماء الثالثة حيث كوكب الزهرة وسماء الدنيا الأولى حيث القمر لهما طبع الماء البارد الرطب . فسماء الزهرة يسميها الشيخ في كتاب (الإسراء) بسماء الشهادة وسماء الجمال ومعدن الجلال، وكوكبها سعيد ولهذا نجد الشيخ في (عقلة المستوفز) يقول عنها: (... ثم أدار بالهواء السماء الثالثة وعمره بالملائكة الفاتقات، وعليهم ملك يسمى الجميل، وفيه خلق الله كوكبا يسمى الزهرة ، وأدار به هواء أسكنه عالم الأونس) . ولجمالها أسكن فيها روح من أوتي شطر الحسن أي يوسف عليه السلام، ولها من الأيام أجملها وهو الجمعة ، ومختصة بصلاة المغرب كما ذكره الشيخ في (لطائف الأسرار) حيث يقول عنها: [... ثم نزلنا من سماء النظام إلى سماء التصوير التام بحسن الانتظام، لناخذ إرثنا من يوسف عليه السلام...] ثم أطنب الشيخ في التأكيد على جمالية هذه السماء وكوكبها وأنها سماء النكاح واللذة والعشق وأنها مجلى قوله عليه السلام: [إنّ الله جميل يحب الجمال] .

وفي كتاب (أيام الشأن) ذكر أنّ ليلة الثلاثاء سلخ منها نهار الجمعة لأنّ كلا منهما تحت حكم الروحانية المائية للزهرة... ثم يفصل الشيخ الساعات المتفرقة خلال أيام الأسبوع والتي هي تحت حكم الزهرة ومجموعها هو يوم شأن روحانيتها المسمى يوم شأن الجمعة فيقول: [وأما ليلة الثلاثاء فمركبة من الساعة الأولى من ليلة الثلاثاء والثامنة منها ، والثالثة من يوم الثلاثاء والعاشر منها، والخامسة من ليلة الأربعاء والثانية عشرة منها، والسابعة من يوم الأربعاء، والثانية من ليلة الخميس والتاسعة منها، والرابعة من يوم الخميس والحادية عشرة منها، والسادسة من ليلة الجمعة . وأما ساعات نهاره فمؤلفة من الساعة الأولى من يوم الجمعة والثامنة منه ، والثالثة من ليلة السبت والعاشر منها ، والخامسة من يوم السبت والثانية عشرة منه ، والسابعة من ليلة الأحد، والثانية من يوم الأحد والتاسعة منه ، والرابعة من ليلة الاثنين والحادية عشرة منها، والسادسة من يوم الاثنين . فهذا قد كمل يوم الجمعة . والشأن في هذا اليوم تقطير ما رطب من ركن البخار بمساعدة روحانية الفلك الثالث (أي سماء الزهرة المائية) والأول (أي سماء القمر المائية) للنفس الكلية عن القول الإلهي ، وساعدها الثاني بنصف قوته في هبوطه (أي لأنّ السماء الثانية ممتزجة الطبايع، فالماء

البارد الرطب نصف الطبائع الأربعة) وكذلك السادس والسابع (لأنّ السماء السادسة هوائية حارة رطبة فنصف طبعها الرطوبة، والسماء السابعة ترابية باردة يابسة فنصف طبعها البرودة) انتهى.

وفي عدّة أبواب من الفتوحات يتكلم الشيخ عن هذه السماء الثالثة، ففي الباب (2 /198 الفصل 25 ص 445): [في الاسم المصور : توجه هذا الاسم الإلهي على إيجاد السماء الخامسة (أي بدءا من سماء زحل العليا) وفلكها وكوكبها . وكان ظهور ذلك في منزلة الغفر . وأوحى فيها إظهار صور الأرواح والأجسام والعلوم في العالم العنصري . واختصت بالأثر الكامل بطريق التولية بيوم الجمعة . وأسكن فيها يوسف عليه السلام . وعنهما ظهر حرف الراء] انتهى.

ونحن الآن، منذ بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحت ولاية منزلة الغفر في أوّل برج الميزان فناسبت ولايتها يوم الجمعة المخصوص بالأمة المحمدية الجمالية . ومعن هذه السماء النحاس ولونها أصفر...

وفي الباب (2 /167 ص 275) يتكلم الشيخ عن العلوم التي تتجلى للسالك في هذه السماء فيقول أنّ منها: [... العلوم المتعلقة بصور التمثل والخيال... وتجسد المعاني والنسب... فإنّها سماء التصوير التام والنظام ومن هذه السماء يكون الإمداد للشعراء..... وفي هذه السماء هو النائب الخامس الذي يتلقى تدبير النطفة في الرحم في الشهر الخامس...] إلى آخر ما ذكره فراجع هناك . وراجع أيضا ما ذكره في حواره مع يوسف عليه السلام في تلك السماء في الباب (3 /367 ص 347). وأعطى لها وصفا آخر في الباب (3 /367 ص 445) وفي الباب (198 / الفصل 2 /19 ص 438) يقول: [ويوم الجمعة وُجدت حركته عن صفة العلم ، فما في العالم جزء إلا وهو يعلم موجد من حيث ذاته لا من حيث ذات موجدته] . وفي الباب (1 /12 ص 146-147) يقول الشيخ أنّ من أمر الله الذي أوحاه في سماء الزهرة المخصوص بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حُب الطيب والنساء حتى كان من سنته النكاح...

وفي الباب (1 /15 ص 155) يتكلم الشيخ عن الأبدال السبعة الحاكمين في الأقاليم السبعة من الأرض فيقول: [وكل أمر علمي يكون يوم الجمعة يكون لهذا الشخص الذي يحفظ الله به الإقليم الخامس، فمن روحانية يوسف عليه السلام ، وكل أثر علوي يكون في ركن النار والهواء فمن نظر كوكب الزهرة ، وكل أثر سفلي في ركن الماء والأرض فمن حركة فلك الزهرة... ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من الأيام علم التصوير من حضرة الجمال والانس وعلم الأحوال... ومقامه (أي مقام هذا البديل الخامس) : " فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " . ولا يسأل إلا المولود ، فإنّه في مقام الطفولة من الطفل وهو النداء، قال تعالى: " أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا " ، فلا يعلم حتى يسأل . فالولد في المرتبة الخامسة فلماذا كان السؤال هو هجير البديل الخامس] انتهى.

والسماء الأخرى التي لها طبع الماء فهي سماء القمر، فراجع ما ذكره حولها الشيخ في الكتب والأبواب المذكورة سابقا . وراجع ما ذكره أيضا الشيخ عبد الكريم الجيلي في كتابه (الانسان الكامل). راجع أيضا تفصيل الشيخ للحروف التي لها طبع الماء في الباب: 2 (ص 53 / ص 56) وكلامه عن الماء البسيط المعقول وغيره من الأركان في الباب (1 /60 ص 393) وكلامه عن أسرار الطهارة المائية في الباب (1 /62 ص 330-

332/333/.../349/350-385) .وراجع نفس هذه الأسرار أيضا في كتابه (لطائف الأسرار) ، وكلامه عن علاقة الماء بالملائكة وأنواع الماء في الباب (198/2 فصل 30 ص 452 و 453) ، وكلامه عن علاقة الماء بالحياة في الباب (198/1 فصل 33 ص 463) ، وكلامه عن ترتيب الأركان (الباب 293/2 ص 668) ، وكلامه عن خلق الأرض من تموج الماء (الباب 298/2 ص 689) ، وكلامه حول الماء من حيث أنه هو عرش الحياة الإلهية (الباب 317/3 ص 66/65..) ، وكلامه عن أنهار السدرة (الباب 348/3 ص 203) .

الفصل الرابع

ركن النار (ويسمى أحيانا الأثير)

تكون الركن الناري ومساقطه عبر مراتب الوجود

توجّه ملك الحرارة على الاعتدال الهوائي يزيد في تواتر اهتزازه ، أي ينقص دوره الزمني فتزداد حرارة الهواء إلى أن تتجاوز الحد الأقصى لاعتدالها ، فيتلطف الهواء متحوّلا إلى أثير فتظهر الحقيقة النارية بطبعها الحاراليابس بعد زوال الرطوبة من الهواء وظهور البيوسة عوضها لاشتداد الحرارة .

فإذا تتبعنا مساقط الحقيقة النارية عبر مراتب الوجود فإننا نجد ما يلي:

- في الحضرة الإلهية تتمثل في السُّبُحات الوجهية المحرقة التي قال عنها الحديث النبوي الشريف: [أنّ الله تعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه].
- راجع سرّ هذا الحديث في جواب الشيخ عن السؤال (115) من أسئلة الترمذي (ب73 / 2ص 110) وفي الباب (426/4 ص 38-39) والباب (442/4 ص 55) والباب (360/3 ص 689-690) / والباب (198/2 فصل 31 ص 410) .
- في حضرة الملكوت الأعلى تتمثل الحقيقة النارية في الأنوار المحرقة للتجليات الجلالية على الأرواح المهيّمة والملائكة العالين الكروبيين، حتى أنّها أحرقت شعورهم بوجودهم فضلا عن وجود غيرهم.
- في الحضرة الطبيعية بين اللوح المحفوظ والعرش أنسب الطبائع لحقيقة النار هي الحرارة إذ أنّ توجّه ملكها على الاعتدال الهوائي هو سبب ظهورها كما سبق ذكره.

- في الحضرة العرشية، تقاطع وجه الحرارة مع وجه اليبوسة يُعطي قائمة نارية تحملها حقيقة الملك الجليل خازن النار: مَالِك المكلّف بتنفيذ الوعيد (راجع المبحث حول العرش الرحماني).

حكم الأركان الأربعة في الكرسي والجنة والنار

- في حضرة الكرسي رأينا أنّ قدم اليمين أو قدم الربّ هي للهواء ، وأنّ قدم الشمال أو قدم الجبار هي للتراب ، وأنّ الماء يقع بينهما لكنّه إلى قدم اليمين أقرب . أمّا النار فبعبكس الماء فهي تقع أيضا بين القدمين مقابلة للماء كمقابلة ملك الحرارة لملك البرودة (راجع المبحث حول الطبيعة) ، لكنّها إلى قدم الشمال الترابية أقرب وأنسب لاشتراكهما في اليبوسة، كاشتراك الماء والهواء في الرطوبة، كما لا يخلو الماء من ارتباط بالتراب لاشتراكهما في البرودة . ولقرب النار من قدم الشمال الترابية كانت البروج النارية والترابية هي المخصوصة بالعذاب الأليم لأهل جهنم . ولقرب الماء من قدم اليمين الهوائية كانت البروج الهوائية والمائية بروج راحة ورحمة لهم كما سبق ذكره.... وحيث أنّ النار لا تخلو من ارتباط بقدم اليمين، فهذا يعني أنّ لها حكما أيضا على أهل اليمين في الجنة، وذلك لأنّ فلك الجنة محيط بفلك النار إحاطة فلك المنازل بالسماوات، إذ أنّ فلك المنازل هو سقف جهنم وأرض الجنة ، فهو عين سور الأعراف الفاصل بين الدارين. وأرض الجنة مسك ، فبحرارة النار التي تحته والأنهار الجارية فيه تنمو أشجار الجنان ويعتدل طبعها . وهذا الحكم الذي للنار في الجنة لا يقف عند هذا المظهر المحسوس بل له أيضا مظهر معنوي نابع من الاسم المتوجه على خلق النار وهو اسمه تعالى (القابض) كما ذكره الشيخ في الفصل (28 من الباب 198/2 ص 450) . وقد أشار الشيخ إلى أثر تجلي (القابض) حتى على أهل الجنة في الباب (3/353 ص 238) حيث يقول:

[لتعلم أنّ الله أطلعني على حكم غريب يتعلق بالعالم الانساني ولا أدري هل له تعلق بما عدا الإنسان من العالم أم لا... وهذا الحكم يظهر في العالم الانساني عند انقضاء كل ثلاثة آلاف عام من أعوام الدنيا وهو عند الله يوم واحد ، لا أدري لأي اسم إلهي يرجع هذا اليوم لأنّي ما عُرِفْتُ به ، غير أنّ الحق تعالى قسمه لي على ثلاثة أثلاث كل ثلث ألف سنة، والألف سنة يوم واحد من أيام الربّ، هذا الذي أخبرني به ربّي ، وهذه المدّة التي هي ثلاثة آلاف سنة حكمها في الإنسان حكم بدء وعود وحياة وموت كيف يشاء الله وحيث يشاء الله . غير أنّ الله لما رقم لي هذا الأمر في درجى كلمات وقفت عليها مشاهدة جعل كلمة بفضة وكلمة بذهب على هذه الصورة رقمها ، فعلمت أنّها أحوال وأحكام تظهر في الإنسان في الجنة بمرور هذه المدّة المعينة. وما أثر والله عندي خبر إلهي ورد عليّ ما أثر هذا من الجزع والخوف المقلق ، فما سكن روعي إلا كون الكلمات من ذهب وفضة الكلمة الذهبية إلى جانبها الكلمة الفضية] انتهى. قلتُ : هذه المنازل لبرج واحد من البروج الاثني عشر، لأنها تقطع كل درجة في مائة سنة وفي البرج ثلاثون درجة (كما ذكره الشيخ في الباب 3/348 ص 202-203 / ، والباب 198 الفصل 2/20 ص 441، والباب 3/371 فصل 3 ص 434) . فعند انتقال تلك الكواكب الموجودة تحت أرض الجنة من حكم برج مائي مثلا إلى حكم برج ناري، كالانتقال من الحوت إلى الحمل، يحصل التغير الذي أشار إليه الشيخ في العالم الانساني بالجنة ، كما يحدث تغير مناسب للعالم الجهنمي الذي هو تحت تلك الكواكب...

وتقسيم تلك المدة لثلاثة أثلاث متساوية راجع لكون كل برج منقسم على ثلاثة وجوه - كما هو معلوم عند الفلكيين - ولكل وجه كوكب معين من الدراري السبعة في السماوات السبعة حسب ترتيبها، أي أنّ الانتقال من وجه إلى وجه آخر في نفس البرج يعني تغييراً في الروحانية الحاكمة في تلك المدة.

إذن فلأركان الأربعة حكم في الجنة لكن بنسب مختلفة وأعلاها نسبة الهواء والماء . وإلى علاقة الجنة بالهواء ونفس الرحمان يشير الشيخ في قوله في الباب (198 – فصل 2 / 20 ص 441): [... وتختلف الجنات فتختلف الأذواق ، ونفس الرحمن فيها دائم لا ينقطع، تسوقه ريح تسمى المثيرة . وفي الجنة شجرة ما يبقى بيت في الجنة إلا دخل فيه منها تسمى المؤنسة ، يجتمع إلى أهلها أهل الجنة في ظلها يتحدثون بما ينبغي لجلال الله بحسب مقاماتهم في ذلك بطريق الإفادة ، فيحصل بينهم لكل واحد علم لم يكن يعرفه ، فتعلو منزلته بعلو ذلك العلم . فإذا قاموا من تحت تلك الشجرة وجدوا لهم درجات ومنازل لم يكونوا يعرفونها في جناتهم ، فيجدون من اللذة بها ما لا يقدر قدره ، فيتعجبون ولا يعرفون من أين ذلك، فتهب عليهم الريح المثيرة من نفس الرحمن تخبرهم أنّ هذه الدرجات التي حصلتموها هي منازلكم في منازل العلم الذي اكتسبتموه تحت الشجرة المؤنسة في ناديكم هذه منازلهم ، فيحصل لكل واحد منزل يعلمه . فلا يمر لهم نفس إلا ولهم فيه نعيم مقيم جديد] انتهى.

البروج والمنازل والسماوات والمولدات النارية

- فإذا نزلنا إلى فلك البروج فإننا نجد البروج النارية الثلاثة، وهي أطول البروج حكماً في العالم إذ أنّ مدتها الكلية: 24000 سنة ، كما أنّ سماء الشمس ولها طبع النار هي أعظم السماوات حكماً في عالم الدنيا . يتكلم الشيخ عن هذه البروج النارية في (عقلة المستوفز) فيقول - وما بين قوسين شرح لكلامه - :
- [... والملك الثالث الذي يليه (أي يلي برج الميزان) على صورة القوس. وهو ملك كريم بيده أزمّة الأجساد النورية (أي الملائكة) والظلمانية (أي الجان) وجعل بيده مفتاح خلق النار (وقال في الباب 9 من الفتوحات أنّ الجنّ أيضاً خلقوا عند مطلع ولاية هذا البرج) ... والملك السابع خلقه الله على صورة كيش (أي الحمل) وهو ملك متحرك (لأن برجه منقلب يحصل فيه الانتقال من الشتاء إلى الربيع) وجعل بيده مفتاح خلق الأعراض والصفات (وقال في الباب 3 / 375 ص 461 ، يقول : ظهر أول اليوم بطول الشمس إلى غروبها ، ولم يكن لها وجود إلا في برج الحمل فإنّه بيت شرفها ، فوجدت طالعة في برج الحمل) ... والملك الحادي عشر خلقه الله على صورة أسد ، وهو ملك كريم تعلوه مهابة ، وجعل بيده مفتاح خلق الآخرة (وقال في الباب 1 / 65 ص 317 : أنّ الجنة المحسوسة خلقت بطالع الأسد الذي هو الإقليد) .
- فإذا نزلنا إلى فلك المنازل فإننا نجد المنازل التابعة لتلك البروج النارية، لكل منزلة ملك كريم هو كائنات لوالي برجه، ويفعل في الأرض ومحيطها بواسطة نقبائه في السماوات السبعة خلال سير كواكبها في أفلاكها .
- ثم إذا نزلنا إلى السماوات فإننا نجد سماء المريخ الخامسة حيث هارون، وسماء الشمس الرابعة حيث إدريس عليهما السلام، لهما الطبع الناري الحار اليابس، وحول مميزات

- وخواص وروحانيات هاتين السماءين وكوكبيهما وآثارهما في الدنيا راجع الكتب والأبواب التي ذكرناها حول السماوات في الفقرات السابقة حول ركني الهواء والماء.
- ومباشرة عند النزول من فلك القمر بالسماء الدنيا نجد فلك النار العنصرية . ويقول الشيخ في (عقلة المستوفز) أنّ من سطح الأرض إلى سطح هذا الفلك الناري اثنان وسبعون سنة . وقال أنّ من أسباب وجود هذا الفلك الناري تحت فلك القمر البرودة الشديدة للفلك القمري لأنّه مائي بارد رطب، فجعل الله تعالى فلك النار وقاية لمحيط الأرض وسكانها من تلك البرودة (راجع ما ذكره الشيخ حول هذا الفلك في الفصل 28 من الباب 198 / 2 ص 449-450).
- ويستعمل الشيخ عوض كلمة النار – أحيانا – كلمة الأثير ، وكأنّ للأثير مرتبة برزخية بين الهواء والماء ، فإذا سقطت الحقيقة الأثيرية النارية إلى عالم الكثافة العنصرية المحسوسة، فأنسب العناصر للأثير هو غاز الهيدروجين الذي هو أبسط العناصر وألطفها وأخفّها، وأنسب المولدات للنار من عناصر ومعادن ونبات وحيوان وجان وإنسان هو من غلبت على طبعه الحرارة واليبوسة...
- وفي الانسان نجد في أخلاطه نظير النار وهي الصفراء وروحها القوة الهاضمة ، كما أنّ نظير الهواء الدم وروحه القوة الجاذبة ، ونظير الماء البلغم وروحه القوة الدافعة ، ونظير التراب السوداء وروحه القوة الماسكة . أمّا نظير المريخ وفلكه الناري بالسماء الخامسة فيافوخ الدماغ حيث القوة العاقلة . ونظير الشمس وفلكها الناري بالسماء الرابعة وسط الدماغ حيث القوة المفكرة . كما أنّ زحل وفلكها الترابي نظيرهما من الانسان القوة العلمية والنفس . وأمّا المشتري وفلكها الهوائي فنظيرهما القوة الذاكرة ومؤخر الدماغ . وعطارد وفلكها الممتزج نظيرهما القوة الخيالية ومقدّم الدماغ . والقمر وفلكها المائي نظيرهما القوة الحسية والجوارح (راجع هذا التفصيل آخر الباب 6 / 1 ص 120-121).

الفصل الخامس

ركن التراب

تكون الركن الترابي

تَوَجَّهْ ملك اليبوسة على الحضرة المائية يُنقص تواتر اهتزازها، أي يزداد دورها الزمني فتتقلص رطوبة الماء إلى أن تنعدم بظهور حكم اليبوسة، فتتكثف الحقيقة المائية عندها إلى أن تظهر الحقيقة الترايبية، كما ظهر الماء من الهواء بتوجه ملك البرودة، وفي هذا المعنى يقول الشيخ في الباب (3/373 ص 459) – وهو المخصوص بمنزل سورة هود - : [... والأرض منفصلة عن الماء المنفعل عن الهواء، فإنَّ الهواء هو الأصل عندنا، ولذلك هو أقرب نسبة إلى العماء الذي هو نفس الرحمن، فجمع بين الحرارة والرطوبة، فمن حرارته ظهر ركن النار، ومن رطوبته ظهر ركن الماء، ومن جمود الماء كانت الأرض . فالهواء ابن للنفس وهو العماء ، والنار والماء ولدان للهواء ، والأرض ولد الولد وهو ما جمد من الماء، وما لم يجمد بقي ماء على أصله، والأرض على ذلك الماء] . وفي الباب (2 / 298 ص 689) – المخصوص بسورة الطارق – يقول: [...إنَّ الأرض خلقت من تموج الماء حتى أزيد، فكان ذلك الزبد عين الأرض لأنَّه انتقل من المائية إلى الزبدية، وفي الزبد تكون الأرض . وهذا هو السبب في اختراق الصالحين لها ، وجلس الميت في قبره مع ردم الأرض عليه . وحكم كل ما خلق منها حكمها ، وحكمها حكم الزبد ، وحكم الزبد حكم الماء ، والماء يقبل الخرق وتتحرك الأشياء فيه ، فيجري حكم هذا الأصل في جميع ما وُجد عنه].

مساقط الحقيقة الترايبية عبر مراتب الوجود

- فإذا تتبعنا مساقط الحقيقة الترايبية في مراتب الوجود فإننا نجد ما يلي:
- **في الحضرة الإلهية**، كنا ذكرنا في مبحث الطبيعة أنَّ الإرادة متفرعة من الحياة، كما أنَّ اليبوسة منفصلة من الحرارة أي حرارة الحياة، فأنسب الأسماء لليبوسة الترايبية هو (المرید)، ومن أبرز مميزات التراب ثبات التماسك فيه لأنَّ الإرادة الإلهية لا تبديل لها، قال تعالى: [مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ] ، والقول مظهر الإرادة لقوله عز وجل: [إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون] . ومن حضرة البقاء والثبات هذه نزل مثل قوله تعالى: [وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا] . وأصله ثبوت الأعيان الثابتة في الحضرة الوجودية العلمية القديمة .
 - **وفي حضرة الملكوت الأعلى** تتمثل الحقيقة الترايبية في ثبوت المعلومات المتعلقة بالدنيا في اللوح المحفوظ بدون تغيير ولا تبديل (راجع ما ذكره الشيخ عن اللوح المحفوظ من المحو وألواح المحو والاثبات في الباب 316 المخصوص بسورة القلم: 3 ص 61...)
 - **وبين مرتبتي اللوح والعرش** نجد أنَّ أنسب الحضرات للتراب في مرتبة الطبيعة هي اليبوسة كما سبق ذكره، ثم مرتبة الشكل لأنَّ الحقيقة الترايبية هي التي تقيد الصور في أشكالها . يتكلم الشيخ عن هذه المرتبة في الفصل (16 من الباب 2/198 ص 435) فيقول:

[في الاسم الإلهي الحكيم وتوجهه على إيجاد الشكل... الشكل القيد... والمتشكل هو المُقيد بالشكل الذي ظهر به . يقول الله : " كُلُّ يَعْْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ " أي ما يعمل إلا ما يشاكله... والعالم كله عمل الله فعمله على شاكلته . فما في العالم شيء لا يكون في الله... وإنَّه على صراط مستقيم ، فالعالم على صراط مستقيم، اعوجاج القوس استقامته... ألا ترى الخلاء

حكم على الجسم بالاستدارة فأظهره فلما مستديرا ، فتلك شاكلته فحكمت عليه شاكله
الموطن... والدنيا للامتزاج ، والآخرة للتخليص فهي على شكل القبضتين].
فمن الحقيقة الترابية ظهر لكل من القبضتين شكلها الثابت في الآخرة : " فريق في الجنة
وفريق في السعير" ، وأصلها الاسم (المرید) الذي ورد في نهاية بيان شكل القبضتين إذ
كانت منه البداية وهو قوله تعالى: [فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين
فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا
في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ] .
وقرن الفريقين بثبات القول الإلهي الصادر من الإرادة فقال تعالى: [فمنهم شقي وسعيد]
وقال: [ما يبذل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد]. لأن ثبوت إرادته تعالى تابع لعلمه الثابت
بما هم عليه ، والعلم تابع للمعلوم . فرجوع ثبوت الإرادة إلى ثبوت العلم والمعلوم ، هو
الأصل الإلهي في رجوع الحقيقة الترابية للحقيقة المائبة... وأصل كل ذلك هو أنّ من
مقتضيات إطلاق الكمال الجمع بين الأضداد كما قيل للعارف: بم عرفت ربك ؟ فأجاب:
بجمعه بين الضدين، فظهر الجمال والجلال والبسط والقبض ، وظهر قوله تعالى: [فَيَعْفُرُ
لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]

المظهران المتعاكسان لرمزية التراب

فكما تجلت الإرادة في إظهار النقيضين، كذلك الحقيقة الترابية المنفصلة عن الإرادة لها
مظهران متعاكسان: مظهر علوي شريف سعيد ومظهر سفلي خسيس نحيس . وكذلك لون
التراب وهو السواد ، له الرمزان الأعلى والأدنى، فرمزه الأعلى هو حضرة الغيب المطلق
، أو الهوية الذاتية أو البطون بالنسبة للحضرة الإلهية . وأمّا بالنسبة للحضرة الكونية فالرمز
الأعلى للسواد الترابي هو الهباء الذي فتح فيه صور أجسام العالم ولذلك يسمّى بالسبخة
السوداء . وأول شكل ظهر فيها هو شكل الجسم الكلي، وله السواد أيضا لأنه مُصَوَّر في
سواد السبخة ولهذا يرمز إليه بالغراب الحالك . وفي هذا يقول الشيخ في جوابه عن السؤال
(153) من أسئلة الترمذي (ب 73 /ص 130): [فإن قلت: وما الحرف؟ قلنا: ما
يخطبك به الحق من العبارات مثل ما أنزل القرآن على سبعة أحرف، والحرف صورة في
السبخة السوداء . فإن قلت: وما السبخة؟ قلنا: الهباء الذي فتح فيه صور أجسام العالم.....
فإن قلت: وما الغراب ؟ قلنا: الجسم الكلي الذي ينظر إليه العقاب بواسطة الوراق (يعني
بالعقاب القلم الأعلى أو العقل الأول ، ويعني بالورقاء اللوح المحفوظ أو النفس الكلية) ...]
إلى آخره... وأمّا بالنسبة للإنسان السالك، فالسواد العلوي فيه عبارة عن مقام التجريد الكلي
المُشار إليه بالآية : "يا أهل يثرب لا مقام لكم" ، وهو مقام حقيقة الفقر الدائم ، ومن هنا قال
القوم : " العبد المحض أسود الوجه في الدارين" ، كما قالوا: " إذا صح الفقر كان الله " ،
وهذا هو مقام سقيط الرفرف بن ساقط العرش الذي ذكره الشيخ في طبقات الأولياء في
الباب 73 (2 ص 14) حيث يقول: [ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد يسمى بمقامه سقيط
الرفرف بن ساقط العرش ، رأيته بقونية ، آيته من كتاب الله: "والنجم إذا هوى" ، حاله لا
يتعداه ، شغله بنفسه وبربه ، كبير الشأن عظيم الحال ، رؤيته مؤثرة في حال من يراه ، فيه

انكسار ، هكذا شاهدهته صاحب انكسار وذل ، أعجبتني صفته ، له لسان في المعارف ، شديد الحياء [انتهى.]

المقام الترابي لسقيط الرفرف بن ساقط العرش

فمقام سقيط الرفرف وأمثاله من الأولياء هو المقام الترابي، وإمامهم سيد الأفراد سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقد كناه النبي - صلى الله عليه وسلم - بأبي تراب، وهو مقام أرواح الجمادات الذي تكلم عنه الشيخ في (كتاب التجليات) تحت عنوان: " تجلي الحق والأمر " فقال:

[لله رجال كشف لهم عن قلوبهم فلاحظوا جلاله المطلق، فأعطاهم بذاته ما تستحقه من الآداب والإجلال، فهم القائمون بحق الله لا بأمره، وهو مقام جليل لا يناله إلا الأفراد من الرجال، وهو مقام أرواح الجمادات، ومن هذا المقام تدكدك الجبل فصعق موسى عليه السلام ولم يفتقر في ذلك إلى الأمر بالتدكدك والصعق، فهؤلاء خصائص الله، قاموا بعبادة الله على حق الله... يتصرفون بالذات تصرف الخاصة] . ثم إثر هذا التجلي ذكر الشيخ "تجلي المناظرة" واجتماعه فيه بالجنيد (ت : 298 هـ) ثم قال: "وكننت في وقت اجتماعي به قريب عهد بسقيط الرفرف بن ساقط العرش في بيت من بيوت الله عز وجل" . يشير الشيخ إلى أن مقام سقيط الرفرف هو المقام الذي ذكره في التجلي السابق أي مقام أرواح الجمادات ، وقرنه بالجنيد لأنه أجاب من سأله: (لماذا لا يتحرك الأكاير عند السماع؟) بقوله: "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ" . فأكاير الأولياء، وخصوصا الأوتاد الأربعة ، يرمز إليهم باسم الجبال... وللشيخ كتاب عنوانه: (كتاب الأحجار المتفجرة والمتشققة والهابطة) إشارة للآية: [وَإِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ..... وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ] وهذه الآية هي قريبة من هجير سقيط الرفرف كما ذكره الشيخ في الباب (351/3 ص 228) حيث يقول: [رأيت بقونية في مشهد من المشاهد شخصا إلهيا يقال له سقيط الرفرف بن ساقط العرش... قال تعالى: "وما تسقط من ورقة" - وهي لا تسقط إلا من خشية الله - كما قال تعالى: "وإن منها لما يهبط من خشية الله"] فهذا الهبوط مناسب لهجيرته: "والنجم إذا هوى" ولهذا ختم الشيخ الفقرة السابقة بقوله:

[إذا سقط النجم من أوجهه وكان السقوط على وجهه
فما كان إلا ليبيدي إذا تدلى إلى السفلى من كنهه
فيعرف من نفسه ربه كما يعرف الشبه من شبهه].

فقول الشيخ عن سقيط الرفرف أن (حاله لا يتعداه وأن شغله بنفسه وبربه كبير) مرجعه إلى تحققه بالمقام الترابي في عبوديته الدائمة وذلكه الثابت لربه كما قال تعالى: " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا" ، وقوله عنه (فيه انكسار) مناسب لقوله تعالى عن الحجارة: " وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ" ، وقوله: (له لسان في المعارف) مناسب للآية: "وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار" أي أنهار المعارف المنفجرة من القلوب التي وجلت لذكر الله . وقوله عنه (شديد الحياء) مناسب لـ: "وإن منها لما يهبط من خشية الله". فمقام سقيط الرفرف الترابي قريب جدًا من مقام البذل الذي يحفظ الله به الإقليم الرابع والذي هو على قلب إدريس عليه السلام لأن هجيرته: [يا ليتني كنت ترابا] كما ذكره الشيخ في الباب (15/

1 ص 156/155) حيث يقول: [وهو - أي التراب - الركن الرابع من الأركان الذي يطلب المركز عند من يقول به، فليس لنقطة الأكرة أقرب من الأرض . وتلك النقطة كانت سبب وجود المحيط . فهو يطلب القرب من الله موجد الأشياء، ولا يحصل إلا بالتواضع ولا أنزل في التواضع من الأرض، وهي منابع العلوم وتفجّر الأنهار...]. ولهذه العلاقة الترابية بين هذا البذل وسقيط الرفرف يقول الشيخ في الباب (198/ فصل 2 ص 456): [واجتمعت بهؤلاء الأبدال السبعة بحرم مكة....فما رأيت فيما رأيت أحسن سمنا ولا أكثر شغلا منهم بالله ، ما رأيت مثلهم إلا سقيط الرفرف ابن ساقط العرش بقونية وكان فارسيا]. ومن هذا المظهر العلوي للتراب جاء السجود حيث يكون العبد أقرب ما يكون من ربه، وجاء الصعيد الطاهر في التيمم نائبا عن الماء، كناية الابن عن والده إذ أنّ التراب ابن الماء . وفي هذا يقول الشيخ عند حديثه عن التيمم في الباب (1/68 ص 370): [..القصد إلى الأرض من كونها ذلولا وهو القصد إلى العبودية مطلقا، لأنّ العبودية هي الذلة والعبادة منها....ثم إنّ التراب أسفل العناصر، فوقوف العبد مع حقيقته من حيث نشأته طهوره من كل حدث يخرج من هذا المقام ، وهذا لا يكون إلا بعدم وجدان الماء . والماء العلم ، فإنّ العلم حياة القلوب كما بالماء حياة الأرض، فكأنه حالة المقلد في العلم بالله . والمقلد عندنا في العلم بالله هو الذي قلّد عقله في نظره في معرفته بالله من حيث الفكر. فكما أنه إذا وجد المتيمم الماء أو قدر على استعماله بطل التيمم، كذلك إذا جاء الشرع بأمر ما من العلم الإلهي بطل تقليد العقل لنظره في العلم بالله] إلى آخر ما فصله في الأبواب الخاصة بالتيمم (1 ص 370-375). وراجع أيضا سرّ السجود في الباب (1/69 ص 440-441) وفي كتابه (لطائف الأسرار) . وراجع معنى قوله صلى الله عليه وسلم: [جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا] في الباب (3/337 ص 144) وهو المخصوص بمنزل سورة (محمد) عليه الصلاة والسلام.

رمزية سواد التراب

أمّا المظاهر الدنيا لسواد الحقيقة الترابية، فبالنسبة للحضرة الإلهية، إليها الإشارة فيما ورد في الحديث الصحيح أنّ الحق تعالى يتجلى للموحّدين في " أدنى صورة " فينكره أكثرهم، وما ورد في الحديث الآخر: [مرضتُ فلم تُعدني وجعت فلم تطعمني] الحديث. وبالنسبة للحضرة الكونية، فذلك السواد يظهر في ظلمة الطبيعة عموما، وفي سواد التراب الأرضي العنصري خصوصا، والخلود إلى أرض الطبيعة هو عين الطرد والشقاء كما إليه الإشارة في قوله تعالى عن أحد المطرودين: [... ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه] . فسواد تراب الكثافة في مظهرها السفلي هو عين الحجاب والكفر كما قال تعالى: [والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات] . وهذان المظهران المتعاكسان للتراب وسواده تظهر في هيئة عالم الدنيا، فأعلى فلك فيها هو فلك زحل بالسماء السابعة التي لها طبع التراب ولونها أسود، وأسفل فلك فيها هو فلك الأرض الترابي، وتلك السماء على أطراف هذه الأرض (كما ذكره الشيخ في الفصل 9 من الباب 3/371 ص 437). فعالم الدنيا مُحاط بالتراب وسواده، كما أنّ العرش محاط بالماء

، وذلك الماء على الهواء، والهواء مُحاط بالظلمة التي لا يعلم غيبها إلا الله تعالى، وفيها يكون الناس على الجسر إذا بدلت الأرض غير الأرض عند البعث والنشور وانتقال أمر الدنيا إلى الآخرة (راجع الفصل 2 من الباب 371 / 3 ص 430-436) .

- ثم إن هاذين المظهرين المتناقضين للتراب يظهران في العرش والكرسي:

ففي العرش الرحماني تقاطع وجه اليبوسة مع وجه البرودة يعطى قائمة التراب العرشى الجنائي، فهذا التراب العرشى الرحماني هو التراب العلوي السعيد وسواده سواد السيادة في الجنة، وما سميت الجنة جنة إلا لكثرة خضرتها بحيث تكاد تحجب ما وراءها، والجنة السَتر، فقيل في اللغة : جنّ الليل أي انسدل ظلامه... والمظهر المحسوس للعرش هو فلك البروج الذي هو سقف الجنة . وقد تكلم الشيخ طويلا عن علاقة الجنة بهذه البروج. فمثلا في الفصل الثالث من الباب (371 / 3 ص 433-434) يقول:

[وجعل لهؤلاء الاثني عشر نظرا في الجنات وأهلها وما فيها مخلصا من غير حجاب . فما يظهر في الجنان من حكم فهو عن تولي هؤلاء الاثني عشر بنفوسهم تشريفا لأهل الجنة . وأما أهل الدنيا وأهل النار فما يباشرون ما لهم فيها من الحكم إلا بالنواب (أي ملائكة فلك المنازل والسموات السبعة) فكل ما يظهر في الجنات من تكوين وأكل وشرب ونكاح وحرمة وسكون وعلوم واستحالة ومأكول وشهوة فعلى أيدي هؤلاء النواب الاثني عشر... ولهذا كان ما يحصل عنهم بمباشرتهم وبين ما يحصل عنهم (أي في النار والدنيا) بغير مباشرتهم بل بواسطة النازلين بهم (أي ملائكة منازل الكواكب) الذين هم لهم في الدنيا والنار كالحجاب والنواب بون عظيم وفرقان كبير.... وهؤلاء النواب الاثنا عشر هم الذين تولوا بناء الجنات كلها إلا جنة عدن فإن الله خلقها بيده ، وجعلها له كالقلعة للملك، وجعل فيها الكئيب الأبيض من المسك... وجعل بأيديهم غراس الجنات إلا شجرة طوبى، فإن الحق تعالى غرسها بيده في جنة عدن، وأطالها حتى علت فروعها سور جنة عدن وتدلّت مطلة على سائر الجنات كلها. وليس في أكمامها ثمر إلا الحلي والحلل لباس أهل الجنة وزينتهم زائدا في الحسن والبهاء على ما تحمل أكمام شجر الجنات من ذلك...] إلى آخره .

خلاصة القول أنّ المظهر الأعلى اللطيف السعيد للتراب متمثل في قائمة العرش الرحماني الجنانية والممدّة لولاة البروج الاثني عشر ما يلزم من شؤون الجنات ، بما في ذلك البروج النارية والهوائية والمائية، وقد أشرنا سابقا لحكم هذه الأركان في الجنة . والحقيقة الترابية العلوية اللطيفة التي هي نشأة الجنة أشار إليها القطب مداوي الكلوم – وهو سيدنا إدريس عليه السلام – حين أوصى أصحابه بقوله: [... وإن لطف مغناه وغلب على الحرف معناه، فالحقيقة الحقيقية والطريقة الطريقة، فقد اشتركت الجنة والدنيا في اللبن والبناء وإن كانت الواحدة من طين وتبن، والأخرى من عسجد ولجين.] (راجع هذه الوصية في الباب 1 / 15 ص 153) .

البروج الترابية

والبروج الترابية الثلاثة هي: الجدي الذي مدّة ولايته 3000 سنة وهو متحرك (أي منقلب يتم فيه الانتقال من الخريف إلى الشتاء)، جعل الله بيده مفتاح الليل والنهار. وبرج الثور ولملكه وقار وهيبة، وعلى صورته عمل السامري العجل الذي عبده بنو إسرائيل، ودولته في

عالم التكوين 11000 سنة ، وبيده مفتاح خلق الجنة والنار. يقول الشيخ في الباب: (1 / 61 ص 298) المخصوص بمعرفة جهنم: [وأوجدها الله بطالع الثور ولذلك كان خلقها في الصورة صورة الجاموس سواء، هذا الذي يعوّل عليه عندنا، وبهذه الصورة رآها أبو الحكم بن برجان في كشفه.... ولما خلقها الله تعالى كان زحل في الثور (ولهما طبع التراب) ، وكانت الشمس والأحمر (أي المريخ) في القوس (ولهما طبع النار) ، وكانت سائر الدراري في الجدي (وطبعه التراب) . وخلقها الله تعالى من تجلي قوله في حديث مسلم: "جعتُ فلم تطعمني وطمئتُ فلم تسقني ومرضتُ فلم تعدني" ، وهذا أعظم نزول نزله الحق إلى عباده في اللطف بهم . فمن هذه الحقيقة خلقت جهنم أعادنا الله وإياكم منها] انتهى. وقد سبق القول أنّ حقيقة هذا الحديث الذي خلقت منها جهنم تشير إلى المظهر الترابي الأدنى بالنسبة للحضرة الإلهية ، فانظر كيف ناسبت تماما حقيقة جهنم وأهلها الذين حُجبوا بكثافة المظهر السفلي الظلماني للتراب، ولجهنم التي وقودها الناس والحجارة . وتلك الهيئة الكوكبية التي وُجدت عندها جهنم هي الأنسب لها: فالثور تُرابي سفلي، وأخلاق الثور هي أخلاق النفس الغضبية الأمارة بالسوء الهائجة، وزحل هو أنحس الكواكب وهو أيضا ترابي بارد يابس أسود مظلم موحش، وأوجه في القوس الناري الذي بيده مفتاح خلق النار والأجساد النورية والظلمانية؛ وكانت الشمس وهي نارية في هذا البرج الناري وكذلك الأحمر الذي هو المريخ، أي أنّ كوكب التراب والنحس كان في أوسط البروج الترابية وأشدّها كثافة، وكوكبا النار كانا في أول البروج النارية وأبعد ما يكون عن بروج شرفها وسعدها وهي الحمل بالنسبة للشمس والجدي بالنسبة للمريخ، بينما كانت الدراري الأخرى أي المشتري والزهرة وعطارد والقمر في الجدي الترابي، وهو برج السقوط للمشتري الذي هو من أسعد الكواكب، أي أنّ وجوده في سقوطه يقلب سعده نحسا... أي أنّ تلك الهيئة الفلكية كانت أنحس هيئة ممكنة، ولذلك وُجدت النار عندها...

أمّا البرج الترابي الثالث فهو السنبله ودولته 7000 سنة وله اشتراك مع ملائكة الأجسام كالقوس والحوت والتوأمين ، وله اختصاص معيّن بالأجسام الانسانية، وعند مطلع دولته خلق الله تعالى آدم عليه السلام (راجع ما ذكره عنه الشيخ في الأبواب: خطبة الفتوحات ص 105/ باب 7- 1 ص 12-13 / الباب 60 / 1 ص 294/ باب 15: 1 ص 156...).

خلق الجنس الإنساني عند حكم برج السنبله

وبحركة هذه البروج الترابية الثلاثة وُجدت كرة الأرض، كما أنّه بحركة السرطان والعقرب والحوت وُجد فلك الماء، وبحركة الجوزاء والميزان والدلو وجد فلك الهواء، وبحركة الحمل والأسد والقوس وُجد فلك النار.

لكن قول الشيخ أنّ آدم -عليه السلام- خُلق في أول دولة السنبله، وأنّ بعثة النبي- صلى الله عليه وسلم- كانت في أول دولة الميزان بحيث يكون بينهما 7000 سنة لا ينبغي أن يؤخذ على ظاهره، لقول الشيخ في مواضع أخرى أنّ تاريخ النوع الإنساني أقدم من هذا بكثير، ففي الباب (367/ 3 ص 348) يذكر حواراه مع إدريس عليه السلام فيقول: [..قلت: فإنّي رأيت في واقعتي شخصا بالطواف أخبرني أنّه من أجدادي وسمى لي نفسه فسألته عن زمان موته فقال لي : عن أي آدم تسأل عن آدم الأقرب ؟ فقال (أي إدريس) : صدق أنّي نبي الله

ولا أعلم للعالم مدة نقف عندها بجملتها، إلا أنه بالجملة لم يزل خالفا ولا يزال دنيا وآخرة ، والآجال في المخلوق بانتهاء المدد لا في الخلق. فالخلق مع الأنفاس يتجدد . فما أعلمناه علمناه ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء] انتهى.

وذكر الشيخ أيضا في الباب (198 / 2 ص 422) قوله: [وقد نقل إلينا أنّ بعض أهرام مصر وجد تاريخ عمله والنسر في الأسد، وهو اليوم في الجدي . فانظر ما مرّ عليها من السنين ويقول أصحاب تسيير الكواكب أنّ هذه الكواكب الثابتة تقطع في كل ستين سنة من الفلك درجة واحدة ، ونقلت عن بعضهم مائة سنة] .

وقد أكد هذا المعنى الشيخ صدر الدين القونوي في شرحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: [إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض] فقال:

[...فاعلم أنّ الكشف الكامل أفادني هذا السرّ الكلي: أنّ مبدأ الدورة العرشية كان من الميزان، ومنه إلى الحوت أوجد الله فيه الأرواح السماوية والصور الأصلية الكلية المتعينة في جوف العرش، ومدة حكم هذه البروج الستة إحدى وعشرون ألف سنة . ومن أول حكم دور السنبله بموجب الأمر الإلهي الموحى به هناك ظهر النوع الانساني ومدته (أي دور السنبله) سبعة آلاف سنة . وبُعث نبينا عليه السلام في الألف الآخر من السبعة . وفي الأجزاء البرزخية الجامعة بين أحكام دور السنبله ودور الميزان المختصّ بالآخرة نظير ما يذكره أهل التعاليم في البروج نوات الجسدين بأنّ النصف الأخير منها ممتزج بخاصية الفصل المستقبل . كذلك من مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - هو امتزاج الدنيا بالآخرة..... لكن لا يتوهم أنّ زمان ظهور النوع الانساني محصور في سبعة آلاف سنة . هذا إنما كان يلزم أن لو لم يكن إلا دورة واحدة ، وليس الأمر كذلك ، بل المقصود التنبيه على أن الله سبحانه أوجد في أول الدورة الكلية الأمور المذكورة، وعند انتهاء الحكم والأمر الإلهي إلى السنبله أوجد آدم . والله يعلم عدد الأدوار التي مدة كل واحدة منها 78000 سنة والانتهايات إلى برج السنبله . وقد يعرفها سبحانه بعض عباده فيعلمها... فاعلم ذلك] انتهى.

فانظر كيف سمّى الشيخ دورة فلك البروج بالدورة العرشية إشارة إلى أنّ فلك البروج هو المظهر المحسوس للعرش ، كما أنّ فلك المنازل هو المظهر المحسوس للكرسي وللأعراف ، وهو ما يكاد يصرّح به في شرحه للحديث الشريف، وهو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس بين أصحابه قال: لو أنّ لي رصاصة مثل هذه، وأشار إلى الجمجمة، أرسلت من السماء لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنّها أرسلت - أو قال: أُقيت - من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار حتى تبلغ أصلها، أو قال: قعرها . ونبّه في حديث آخر: أنّ المراد بقعرها قعر جهنم . فيشرح القونوي - وهو تلميذ الشيخ الأكبر وخليفته - قائلا: [اعلم من معرفة سرّ هذا الحديث تبنى مقدّمة ثابتة شرعا وكشفا، وهو أنّ السماوات السبع طبيعية عنصرية قابلة للكون والفساد، وأنّها تسيل وتصير وردة كالدّهان . فقوله: من السماء إلى الأرض، يريد السماء الأولى من هذا الذي هو فلك القمر، وأمّا رأس السلسلة فمبدأه من مقعر الكرسي (يريد الشيخ مقعر فلك الكواكب التي تبدو كأنها ثابتة) لأنّ الكرسي هو أرض الجنة، وسقفها العرش (أي بمظهره المحسوس الذي هو فلك البروج)، وإذا كانت السماوات تستحيل وتصير من جملة جهنم، فالأعراف المذكور أنّه سور بين الجنة والنار يكون نفس جرم الكرسي (أي الذي مظهره المحسوس فلك المنازل) وهو الذي باطنه، يعني مُسطّحه فيه الرحمة، يعني الجنّة، وظاهره، يعني الوجه الذي يلي السماوات

والأرض من قبّله العذاب . فرأس السلسلة مبدأه من مقعر الكرسي الذي هو الأعراف .
فمراده صلى الله عليه وسلم ممّا ذكر بيان تفاوت المسافة، بمعنى أنّ مسافة ما بين السماء
الأولى إلى الأرض يسيرة بالنسبة إلى المسافة التي بين مقعر الكرسي إلى الأرض، وأنّ
التفاوت بين المسافتين بمقدار ما حده صلى الله عليه وسلم، ومثل به. فاعلم ذلك والله المرشد]
انتهى.

وإنما ذكرنا كل ما سبق إيضاحاً لمعنى المظهرين المتعاكسين للحقيقة الترابية في الكون ،
حيث أنّ القائمة العرشية الرضوانية ترابية لطيفة سعيدة طبيعية حاکمة في الجنان بواسطة
البروج الاثني عشر، أمّا الحاكم على جهنم فهي حركة فلك المنازل، أو بصفة أدق هو القدم
الثانية من الكرسي التي هي قدم الجبار والشمال والنحس والشقاوة ، وهي ترابية عنصرية
ظلمانية كثيفة، ومدها من القائمة العرشية المالكية النارية بواسطة ولاة البروج خصوصاً
النارية والترابية أولاً، ثم بواسطة نوابهم في فلك المنازل وفي أفلاك الدراري السبعة بسقف
جهنم... وقد ذكرنا سابقاً أنّ القدم الأولى اليمينية هوائية، وبين القدمين موقع الماء وهو إلى
قدم الهواء أقرب، وموقع النار وهو إلى قدم التراب أقرب.

السماء السابعة لكوكب زحل الترابي

أمّا الاسم المتوجّه على إيجاد سماء زحل الترابية السابعة فهو (الربّ)، كما ذكره الشيخ في
الفصل (21) من الباب (2/198 ص 443-444). وهذا الاسم - مثل الحقيقة الترابية - له
مظهران: مظهر الشدّة والقوة لأنّ من معانيه (السيد المالك)، ومظهر اللين والرحمة لأنّ من
معانيه (المربّي المصلح)، وهو في غاية المناسبة مع أبرز مميزات التراب وهو الثبات
والسكون، لأنّ من معاني (الربّ): الثابت .

ويتكلم الشيخ القنوي عن سرّ سلطان هذا الاسم فوق السماء السابعة عند شرحه للحديث:
"رأيت ربي في أحسن صورة" فيقول مع اختصار لكلامه :

[اعلم أنّ هذا التجلي ظهر وتعيّن من حضرة الاسم الربّ، وعنها يصدر التشريع
والتكليف، ومقامه مقام برزخي بين السماء السابعة والكرسي، وهذا المقام البرزخي متوسط
بين المقام الجبرائلي والمقام الميكائيلي عليهما السلام، ومنه يأخذ جبرائيل ما يلقيه على
الأنبياء من الأحكام الشرعية وأمّا سرّ برزخية هذه الحضرة فمن أجل أنّ الإخبارات
الربانية والنبوية متفقتة بأنّ السماوات السبع طبيعية عنصرية وأنها قابلة للكون والفساد،
بخلاف العرش والكرسي فإنّ طبيعتهما على مزاج آخر فمعقولية مرتبة الاسم الرب في
الوسط بينهما كالبرزخ الجامع بين ما يقبل التغيير والتبديل وبين ما لا يقبله، فحضرة تعيّن
الاسم (الربّ) هي الأعراف والسور الذي بين الجنة والنار، أي هو نفس الكرسي الذي هو
سقف جهنم وفي مسطّحه الجنة . وأمّا منزلة تدلي الاسم (الربّ) ومرآة تجليه فالبيت
المعمور كما ذكر في الفصّ الاسماعيلي (من كتاب فصوص الحكم للشيخ الأكبر)] انتهى.
ويصف الشيخ عبد الكريم الجيلي هذه السماء السابعة الترابية في كتابه (الانسان الكامل)
فيقول:

[وأمّا السماء السابعة، فسماء زحل المكرم، وجوهرها شفاف أسود كالليل المظلم، خلقها الله
من نور العقل الأول، وجعلها المنزل الأفضل ، فتلونت بالسواد إشارة إلى سوادها (أو

سيادتها) والبعاد، فلهذا لا يعرف العقل الأول إلا كل عالم أكمل، هذا هو سماء كيوان المحيط بجميع عالم الأكوان، أفضل السماوات وأعلى الكائنات... دورة فلكه مسيرة أربع وعشرين ألف سنة وخمسمائة عام، يقطع كوكبه في كل ساعة معتدلة مسيرة ألف سنة وعشرين سنة وعشرة أشهر، ويقطع الفلك الكبير في مدة ثلاثين سنة... واعلم أنّ ملائكة هذه السماء كلهم مقربون، ولكل من المقربين منزلة على قدر وظيفته التي أقامه الله فيها...].

وفي الباب (2/167ص279) يتكلم الشيخ عن العلوم التي تتجلى للسالك في هذه السماء فيذكر منها: [الاستدراج الذي لا يُعلم، والمكر الخفي الذي لا يُشعر به، والكيد المتين والحجاب (وهذه الأوصاف مناسبة لنحس زحل والمظهر السفلي للتراب) والثبات في الأمور والتأني فيها (أي لأنّ التراب ثقيل ثابت متماسك) ومن هنا يعرف قوله تعالى: "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس" لأنّ لهما في الناس درجة الأيوّة فلا يلحقهما أبداً قال تعالى: "أن اشكر لي ولوالديك" (وهذا المقام مناسب لقطب هذه السماء سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي هو أب الأنبياء وأب المسلمين)، ومن هذه السماء يعلم أنّ كل ما سوى الانس والجان سعيد لا دخول له في الشقاء الأخروي (لأنّ الانس والجن هما الثقلان وشقاوتهم من ثقلهم الترابي السفلي، ولذلك جاء وصف السعداء في القرآن بـ"السابقين" ووصف الأشقياء بـ"تَبَطُّهُمْ" و"كُسَالَى" و"أُخِذَ إِلَى الْأَرْضِ"...)، فالشقي يجري إلى أجل في الشقاء لأنّ الرحمة سبقت الغضب، والسعيد إلى غير أجل. ومن هنا يُعرف تفضيل خلق الانسان، وتوجه اليبدين على خلق آدم دون غيره من المخلوقات... ومن هنا زُين للإنسان سوء عمله فرآه حسناً.... ومن هنا تثبت أعيان الصور في الجوهر التي تحت هذا الفلك إلى الأرض خاصة (أي لأنّ الحقيقة الترابية تعطي التماسك والثبات) ومن هنا تعرف ملة إبراهيم أنّها ملة سمحاء ما فيها من حرج] إلى آخر ما فصله الشيخ فراجعه هناك .

ثم إنّ روحانية هذه السماء هي التي تتكفل بالجنين في بطن أمّه في شهره الأول حتى تتماسك أجزاء النطفة وتثبت في الرحم، وفي الشهر الثاني تتولاه روحانية المشتري، وللثالث المريخ، وللرابع الشمس وفيه تنفخ الروح، وللخامس الزهرة، وللسادس عطارد، وللسابع القمر، وللثامن يرجع الدور لزحل. ولهذا نجد الشيخ يقول في الفصل (13) من الباب (2/198 ص 431): [ولم أر للثمانية وجوداً في نجوم المنازل، فعلمت أنه لما لم تكن للثمانية صورة في نجوم المنازل لهذا كان المولود إذا وُلد في الشهر الثامن يموت ولا يعيش أو يكون معلولاً لا ينتفع بنفسه، فإنّه شهر يغلب على الجنين فيه برد وبيس وهو طبع الموت (أي طبع التراب المتوجه على إيجاده اسمه تعالى "المميت") وله من الجوّاري كيوان (أي زحل) وهو بارد يابس] انتهى.

وفي الفصل التاسع من الباب (3/371ص445) يذكر الشيخ بعض آثار فلك سماء زحل في المحيط الأرضي فيقول: [خلق فيه كوكبا سابحا من الخنس الكنس مسخرا فقيرا أودع لديه كل أسود حالك، وقرن به ضيق المسالك، والوعر والحزن والكره الحزن، وحسرات الفوت وسكرات الموت، وأسرار الظلمات والمفازات المهلكات، والأشجار المثمرات، والأفاعي والحيات والحيوانات المضرات، والطرق الدارسات، والعناء والمشقات. وخلق عند مساعدته النفس الكلية الجبال لتسكين الأرضين المدحيات] انتهى.

وفي الباب (12/1 ص 144) يقول الشيخ أنّ من الأمر الإلهي الموحى به إلى هذه السماء والمخصوص بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنّه: [لم يُبدل حرف من القرآن ولا كلمة،

ولو ألقى الشيطان في تلاوته ما ليس منها بنقص أو زيادة لنسخ الله ذلك، وهذا عصمة . ومن ذلك الثبات ، ما نسخت شريعته بغيرها بل ثبتت محفوظة واستقرت بكل عين ملحوظة] انتهى. وهذا الثبات وعدم التبديل عين صفات الحقيقة الترابية.

الأيام والساعات الترابية وخصوصا يوم السبت

في الباب (15/1 ص 156) يتكلم الشيخ عن الأبدال السبعة ، لكل بدل يوم من أيام الأسبوع ، فيقول عن الإقليم الأول ، وهو الإقليم المناسب لسما زحل الأولى : [وكل أمر علمي يكون في يوم السبت لهذا البديل الذي له حفظ الإقليم الأول فمن روحانية إبراهيم الخليل عليه السلام . وما يكون فيه من أثر علوي في ركن النار والهواء فمن حركة كوكب كيوان في فلكه، وما كان من أثر في العالم السفلي في ركن الأرض والماء فمن حركة فلكه...ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من باقي الأيام ليلا ونهارا علم الثبات والتمكين وعلم الدوام والبقاء] انتهى.

وقد تكلم الشيخ عن علاقة هذه السماء بنهار السبت وليلة الأربعاء إذ أنّ الوالي عليهما هو روحانية زحل، وجعل هذا اليوم مخصوصا بالاستحالات والتغيرات لأنّه هو آخر الأيام ففي الباب (1/2 ص 61) مثلا يقول:

[... فتكوّن العالم كله من أوله إلى آخره في ستة أيام أجناسا، من أول يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة، وبقي يوم السبت للانتقالات من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام والاستحالات من كون إلى كون . ثابت على ذلك لا يزول ولا يتغير. ولذلك كان الوالي على هذا اليوم البرد واليبس، وله من الكواكب زحل].

وكذلك في الباب (198/فصل 21- 2 ص444) يقول: [ومن هذا الفلك أعطى الله وجود يوم السبت وهو يوم الأبد، فليله في الآخرة لا انقضاء له ونهاره أيضا في المحل الثاني لا انقضاء له (المحل الأول هو جهنم فلها ليل السبت، ونهاره للمحل الثاني الذي هو الجنة، كما أن كثافة التراب وظلمته لجهنم ولطاقته العلوية للجنة)، وفيه تحدث الأيام السبعة ومنها السبت، وهذا من أعجب الأمور أيضا أنّ الأيام منها السبت تحدث في يوم السبت، فهو من جملة الأيام وفيه تظهر الأيام.... وفي هذا الفلك عين الموت ومعدن الراحة وسرعة الحركة في ثبات وطرح الزينة والأذى].

وفي الفصل (19) من هذا الباب (2 ص438) يقول: [ويوم السبت وُجدت حركته عن صفة الكلام، فما في الوجود جزء إلا وهو يسبح بحمد خالقه ولكن لا نفقه تسبيحه إنّ الله كان حلّما غفورا . فما في العالم جزء إلا وهو ناطق بتسبيح خالقه عالم بما يسبح به مما ينبغي لجلاله...]. فانظر كيف أنّ اسمه تعالى (القائل) أوجد حركة يوم السبت الذي له ركن التراب، وقد سبق القول أنّ الحقيقة الترابية مستندة لاسمه تعالى (المريد)، وحركة الإرادة تتجلى في الكلام أي قول (كُن).

وفي فصل المنازلات يخصص الشيخ الباب (408/ 4 ص 11-12) الذي عنوانه "منازلة يوم السبت حلّ عنك منزر الجد الذي شدته فقد فرغ العالم منّي وفرغت منه" ، وذكر اعتبار محمد السبتي بن هارون الرشيد أمير المؤمنين ليوم السبت، وهو الذي كان قطب زمانه، ويختم هذا الباب بقوله: [... إنّ الفراغ الإلهي إنّما كان من الأجناس في الستة الأيام،

وأما أشخاص الأنواع فلا . فبقي بالأزمان لا عن الأشخاص وهو قوله تعالى: "سفرغ لكم" من الشؤون الذي قال فيها : "كل يوم هو في شأن" في هذه الدنيا ، فيفرغ لنا منّا . وتنتقل الشؤون إلى البرزخ والدار الآخرة . فلا يزال الأمر من فراغ إلى فراغ إلى أن يصل أوان عموم الرحمة التي وسعت كل شيء، فلا يقع بعد ذلك فراغ يحده حال ولا يميزه ، بل وجود مستمر ووجود ثابت مستقر إلى غير نهاية في الدارين دار الجنة ودار النار. هكذا هو الأمر في نفسه. ففراغه من العالم هذا القدر الذي ذكرته أنفاً ، وفراغ العالم منه من حيث الدلالة عليه لا غير. وأما الوهب من العلم به فلا يزال دائماً لكن من غير طلب في الآخرة مقالي ، لكن التجلي دائم والقبول دائم . فالعلم متجدد الظهور على الدوام] انتهى. فانظر هذا الفراغ والراحة كيف اقترنا بيوم السبت الأبدى من حقيقته الترابية، إذ التراب آخر الأركان وله الإمساك والثبوت والبقاء، وقد قرن الحق تعالى هذا الفراغ بالثقل – ولا أثقل في الأركان من التراب – فقال: "سفرغ لكم أيها الثقلان".

وقد خصص الشيخ لهذا الباب فقرة من الباب (559) تحت عنوان: "السبت في السبت" (4 ص 421) وختمها بقوله :

[وأما في الآخرة فلا بد من الراحة، والسبت الراحة ، والسبت سير سريع في اللسان، وللراحة تسمى السبت سبتاً، وما عامله بما ينبغي له إلا أهل هذه البلاد وفي المغرب أهل سبته لا غير] انتهى. فمعنى "السبت في السبت" هو أنّ الراحة هي عاقبة من يسير سريعاً أي الذي يسابق إلى الخيرات ويسارع إلى الصالحات...

ويؤكد الشيخ هذا المعنى في كتابه (لطائف الأسرار) في فصل عنوانه: "في أنّ يوم السبت هو يوم الأبد وهو يوم الاستحالات" فيقول: [سرى يوم السبت في الموجودات سريان العدد في المعدودات والدوام في الدائمات والقيام في القائمات، فهو لا معدوم ولا موجود ولا حاضر ولا مفقود، فيه استلقى الفاعل من إيجاد الأجناس والأمهات وشهد لك بالملك والثبات، وذلك أنّ الله جل أن يسبق وجوده عدم أو يتصف بما يناقض القدم، خلق الخلق أسفله وأعلاه في ستة أيام من أيام الله، فلما كملت أجناس العالم ابتدأت يوم السبت الاستحالات والتكوين والتغيرات والتلوين، فتنوعت الصور والأشكال وتغيرت المناصب والأحوال، فصارت الآباء أبناء والأبناء آباء، وتداخلت الموجودات بعضها في بعضها وحصل خفضها في رفعها ورفعها في خفضها، واستحال المعدن نباتاً والنبات حيواناً والحيوان إنساناً والإنسان معدناً، وضرب الكل بالكل، وظهرت القوة بالفعل فقد بان أنّ يوم السبت هو يوم الأبد وعنده انتهى العدد، وليس وراءه يوم ينتظر ولا وقت يُقَدَّر، وقد ثبتت أعيان الذوات ودخلت الاستحالات والتغيرات في الأشكال والصفات] انتهى.

الصلاة المناسبة ليوم السبت الترابي

في فقرة أخرى من هذا الكتاب يقول الشيخ أنّ لكل صلاة إمام مخصوص من أقطاب السماوات السبعة، وقد اختصت صلاة الصبح بيوم السبت أي أنّ إمامها إبراهيم عليه السلام، ويصف معرجه الروحي إليه فيقول: [ثم جاءت الروحانيات الإنسانية، بأيديهم الرايات السود الخراسانية، ومعهم براق أدهم كأنه قطعة ليل مظلم (انظر كيف أنّ هذه الألوان

السوداء مناسبة للون السماء السابعة الترابية) فامتطيته عشاء، واندفعت طالبا اعتلاء، إلى أن وصلنا سماء الخليل ...] ثم بعد حوار، يدعوه الخليل إلى النزول للأرض لأداء عمرة، فينزل في الإقليم الذي يحكمه البديل الذي هو على قلب إبراهيم وهو الإقليم الأول الترابي فتأمل نسبته مع سماء زحل في قوله :

[... فنزلت بهمة مهمة فوقعت في ببداء مدلهمة، ليس فيها نبات إلا السمرات (أي أشجار ذات شوك) ولا سكان سوى الأفاعي والحيات (أي الحيوانات الترابية والسامة)، قد درست طرقها فتاه طارقها، عديمة الأنس، لم يسكنها جن ولا إنس، وحشية الطبع، كرية الوضع، فقطعتها بجهد وعناء ومقاساة وبلاء، إلى أن أشرقت عليّ الأعلام فليت بعمره يا ذا الجلال والإكرام] إلى آخر ما فصله رحمه الله...

الأرض الترابية والأراضي السبعة والأيام السبعة والأسماء الإلهية السبعة

فلننزل مع الشيخ الأكبر إلى الأرض ، أي إلى كرة التراب السفلية إذ أنه ليس تحت سماء زحل فلك ترابي غيرها :

عند سقوط الحقيقة الترابية تحت فلك الماء، انقسم اهتزازها الخاص بها إلى سبعة أصناف من الألف إلى اللطيف إلى الكثيف إلى الأكتف حسب قيمة تواتر الاهتزاز، أي أنّ توجّه ملك اليبوسة جعل ذلك التواتر يتناقص وفق سبع دورات ، أي أنّ دورها الزمني يتزايد وفق سبع درجات وتزداد معها الكثافة الترابية، فظهرت عندئذ تحت فلك الماء سبع أراض لكل أرض دورتها الزمنية الخاصة، واهتزاز خاص، وهي واحدة فوق الأخرى من حيث المكانة والمرتبة والخواص لا من حيث المكان الحسي، فإنها من حيث المكان متداخلة في بعضها البعض كتناخل الأمواج الكهرومغناطيسية في نفس النقطة من دون تزامن . وإنما كانت سبعة لأنّ العالم الأسفل كالصورة للعالم الأعلى، فكما أنّ أعلى ما في العالم الملكوتي الأول حقائق الأسماء الأمهات السبعة (حي عليم مريد قادر سميع بصير متكلم)، فكذلك في أسفل العالم العنصري الكثيف توجد هذه الأراضي السبعة . ومن هذه الأراضي السبعة كانت نشأة السماوات السبعة بعد صعود البخارات منها إلى مقعر فلك الكواكب الثابتة، وبحركتها ظهرت الأيام السبعة، ولهذا كانت حركات هذه الأيام السبعة من تلك الأسماء السبعة الأمهات، وفي هذا يقول الشيخ في الفصل (19) (من الباب 2/198 ص 436-437) عن حركة فلك البروج - وما بين قوسين ليس من كلام الشيخ - :

[وكانت أول ابتداء حركته وأول درجة من برج الجوزاء يقابل هذا القدم (أي أحد قدمي الكرسي وهي - والله أعلم - قدم اليمين الهوائية) وهو من البروج الهوائية، فأول يوم في العالم ظهر كان بأول درجة من الجوزاء ويسمى ذلك اليوم الأحد، فلما انتهى ذلك الجزء المعين عند الله من هذا الفلك إلى مقارنة ذلك القدم من الكرسي انقضت دورة واحدة هي المجموع، قابلت أجزاء هذا الفلك كلها من الكرسي موضع القدم منه، فعمت تلك الحركة كل درجة ودقيقة وثانية وما فوق ذلك من الفلك (لاحظ أنّ أوج الشمس في برج الجوزاء ولها يوم الأحد) فظهرت الأحياز وثبت وجود الجوهر الفرد المتحيز الذي لا يقبل القسمة من حركة هذا الفلك . ثم ابتداء عند هذه النهاية بانتقال آخر في الوسط أيضا إلى أن بلغ الغاية مثل الحركة الأولى بجميع ما فيه من الأجزاء الأفراد التي تألف منها لأنه ذو كميات، وتسمى

هذه الحركة الثانية يوم الاثنين، إلى أن كمل سبع حركات دورية كل حركة عيّنتها صفة إلهية ، والصفات سبع لا تزيد على ذلك ، فلم يتمكن أن يزيد الدهر على سبعة أيام يوماً، فأنه ما ثمّ ما يوجبه . فعاد الحكم إلى الصفة الأولى فأدارته ومشى عليه اسم الأحد وكان الأولى بالنظر إلى الدورات أن تكون ثامنة، لكن لما كان وجودها عن الصفة الأولى عينها لم يتغير عليها اسمها، وهكذا الدورة التي تليها إلى سبع دورات ، ثم يبتدئ الحكم كما كان أول مرة عن تلك الصفة ويتبعها ذلك الاسم أبد الأبدين دنيا وأخرة بحكم العزيز العليم . فيوم الأحد عن صفة السمع فلماذا ما في العالم إلا من يسمع الأمر الإلهي في حال عدمه بقوله: كن (لاحظ علاقة السمع بالهواء وبداية الأحد كانت في أول درجة من برج الجوزاء الهوائي) . ويوم الاثنين وُجدت حركته عن صفة الحياة وبه كانت الحياة في العالم (لاحظ علاقة الحياة بيوم الاثنين الذي هو يوم سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي به حياة العالم ، إذ هو الذي أرسله الله الأحد رحمة للعالمين، وكوكب الاثنين هو القمر كما أنّ كوكب الأحد الشمس ، فتأمل علاقة شمس الأحذية بقمر المحمّدية). ويوم الثلاثاء وُجدت حركته عن صفة البصر فما في العالم جزء إلا وهو يشاهد خالقه من حيث عينه لا من حيث عين خالقه (لاحظ نسبة البصر للمرتبة الثالثة، إذ أنّ المخلوق بعد أن حييَ بسماع كُنْ أبصر نفسه فشاهد خالقه من حيث عينه). ويوم الأربعاء وُجدت حركته عن صفة الإرادة فما في العالم جزء إلا وهو يقصد تعظيم موجدّه (أي أنّه لما أبصر نفسه شاهد خالقه فلم ينتج عن هذه المشاهدة إلا إرادة التعظيم لما رآه من الكمال). ويوم الخميس وُجدت حركته عن صفة القدرة فما في الوجود جزء إلا وهو متمكن من الثناء على موجدّه (أي أنّه لما أراد التعظيم قدير على التسبيح بحمد خالقه) . ويوم الجمعة وُجدت حركته عن صفة العلم فما في العالم جزء إلا وهو متمكن بعلم موجدّه من حيث ذاته لا من حيث ذات موجدّه (أي لأن الله قال: "إن شكرتم لأزيدنكم" فلما أتى المخلوق على خالقه زاده الله علماً به) ... ويوم السبت وُجدت حركته عن صفة الكلام فما في الوجود جزء إلا وهو يسبح بحمد خالقه (انظر كيف أنّ الكلام مظهر للإرادة، وكذلك نهار السبت منسوخ من ليلة الأربعاء لأنّ الوالي عليهما واحد وهو روحانية زحل، فتأمل هذه العلاقة وصلتها باستناد الحقيقة الترايبية للإرادة وطبيعة زحل الترايبية)) انتهى.

خصوصيات الأرض الترايبية

المظهر الخارجي المحسوس للحقيقة الترايبية الواقع تحت فلك الماء يتمثل في العناصر والأجسام الثقيلة الجامدة... وقد تكلم الشيخ في (عقلة المستوفز) وفي الباب (31) من الباب (1998/2 ص 453-456) عن الأرض، فلنذكر ما قاله فيهما مع اختصار لكلامه:

[قال تعالى: "خلق الأرض في يومين" وقال: "قدّر فيها أقواتها". وهي أول مخلوق من الأركان (أي هي أول مخلوق من عالم الدنيا الذي هو تحت مقعر فلك المنازل) ثم الماء ثم الهواء ثم النار ثم السماوات . وأخبر تعالى عنها بأمر تقضي أنها تعقل فوصفها بالقول والإبابة ، وقال لها وقالت له، ونعتها بالطاعة والأخذ بالأحوط ليدل بذلك على علمها وعقلها، وجعلها محلاً لتكوين المعادن والنبات والحيوان والانسان، وجعلها حضرة الخلافة والتدبير، فهي موضع نظر الحق، وسخر في حقها جميع الأركان والأفلاك والأملك ،

وأُنبت فيها من كل زوج بهيج من كل ذكر وأُنثى . وما جمع لمخلوق بين يديه سبحانه إلا لما خلق منها وهي طينة آدم عليه السلام ، خمرها بيديه وهو ليس كمثلته شيء، وأقامها مقام العبودية فقال: "الذي جعل لكم الأرض ذلولاً"، وجعل لها مرتبة النفس الكلية التي ظهر عنها العالم، كذلك ظهر عن هذه الأرض من العالم المولدات إلى مقعر فلك المنازل. وهذا الركن لا يستحيل إلى شيء ولا يستحيل إليه شيء، وإن كان بهذه المثابة بقية الأركان ولكّنه في هذا الركن أظهر حكما منه في غيره (أي أنّ الحقائق لا تتبدل والاستحالات ما هي إلا فرع من قوله تعالى: "بل هم في لبس من خلق جديد") فيظهر فيها (أي الأرض) أحكام الأركان ولا يظهر لها حكم في شيء . تعطي جميع المنافع من ذاتها، هي محل كل خير فهي أعز الأجسام، وهي الصبور القابلة الثابتة ، سكن ميدها جبالها لما تحركت من خشية الله، فسكنت سكون الموقنين، ومنها تعلم أهل اليقين يقينهم ، فإنها الأمّ التي منها أخرجنا وإليها نعود ومنها نخرج تارة أخرى . لها التسليم والتفويض . هي ألطف الأركان معنى ، وما قبلت الكثافة والظلمة والصلابة إلا لستر ما أودع الله فيها من الكنوز لما جعل الله فيها من الغيرة . أعطاهما صفة التقديس فجعلها طهورا . ثم أنزلها منزلة النقطة من المحيط فلو زالت زال المحيط ، ولو زال المحيط لم يلزم زوالها، فهي الدائمة الباقية في الدنيا والآخرة . أشبهت نفس الرحمن في التكوين . وفيها نكون في الجنة ، وعليها يُحشر النَّاس غير أنّ صفتها تتبدل فتكون في الحشر الساهرة – أي لا ينام عليها – والجنة مبنية كلها وخلقتها من نفائس معادنها من اللؤلؤ والمرجان والجوهر والدر والياقوت والذهب والفضة والزمرد والمسك والعنبر والكافور وما أشبه ذلك . وكما كانت الأرض للجنة من حيث ما ذكرناه (ولهذا ذكرنا أنّ قائمة التراب العرشية جنانية رضوانية) ، فمنها أيضا عناصر جهنم من كل معدن خسيس مثل الكبريت والحديد والرصاص والنحاس والقار والقطران وكل نتن وقذر. وقد عبر الشارح فقال: "سرايلهم من قطران" و "ولهم مقامع من حديد" و "صبّ في أذنيه الآتك" ويجعل لمن كان يسجد رياء وهو منافق ظهره طبقة نحاس، وقد نبه على وادي جهنم بالبيت المقدس وبطن محسر... وقسم هذه الأرض وفصلها بين الجنة والنار، فللنار منها جزء وللجنة منها جزء آخر: "بين قبيري ومنبري روضة من رياض الجنة". فالأصل الأرض، خلقها بما فيها في أربعة أيام وهي أربعة آلاف سنة ، فتعين فيها أماكن الخير وأماكن الشر... وذلك بعد أن تمّ خلق فلك الكواكب الثابتة فانصرف التوجّه الإرادي الإلهي إلى النفس الكلية (أي الملك الكريم المعبر عنه باللوح المحفوظ) فأوحى الله إليها أن تتحدر بالتدبير في عمق الجسم الكلّ إلى أقصاه، وهو المركز المعبر عنه بعجب الذنب الذي تقوم عليه النشأة وهو جزء لا يبلى ، وهو محل نظر العنصر الأعظم الذي خُلق العقل الأوّل من التفاتته . فانحدر الملك الكريم إلى أن انتهى إلى المركز فوجد نظر العنصر الأعظم إليه وأنّ أمر الكون كله منه صدر وإليه يعود، فأدار كرة الأرض ابتداء وكانت هذه الحركة من هذا الملك بطالع السرطان، وجعل ما يلي المركز صخرة عظيمة لديه في نقطة تلك الصخرة الصماء حيوانا في فمه ورقة خضراء يسبح الله ويمجده وهو الحيوان الأشرف ولنا فيه كلام طويل فإنّ مقامه من أشرف المقامات . وعمّر هذه الأرض بصنف من الملائكة يقال لهم الناشرات، وقد نبّه الشرع عليها "أنّ الملائكة تنتشر أجنحتها لطالب العلم" وهم هؤلاء، وجعل فيها مقدما من الملائكة عظيما اسمه (قاف) وإليه يُنسب الجبل المحيط للأرض أي جبل قاف فإنّه مقعد هذا الملك وبيده حكم الأرض وحكم الزلازل والرجفات والخسف، وكل ما يحدث في الأرض بيد

هذا الملك زمامه . ثم إنَّ الله تعالى خلق الأفلاك الثابتة دائرة بالتوجه نحو الكمال، فخلق في جوف كرة الأرض ما خلل وسخف ولطف فكان ماء ننتا، وهو البحر العظيم الذي يُعَدَّبُ به أهل الشقاء وهو ماء أسود كثيرا ما تظهر آثاره في الأماكن المخسوفة، ينفث له منفس فيظهر، ومنه منبع المياه الرديئة كلها . فدار هذا الماء بالصخرة وصارت الأرض عليه . ثم خلل سبحانه ما خلل ولطفه مما يلي المركز فكان الهواء المظلم ، وهو اليعقوم، فدار ذلك الريح بالمركز الذي هو الصخرة واستوت حركة هذا الهواء فامتسك هذا الماء عليه، والأرض فوق هذا الماء، وتوج الماء بهذه الريح المظلمة السمومية فمادت الأرض ،فقلت الأملآك يا ربنا كيف استقرار عبادك على هذه الأرض؟ فأبدى لهم تجليا أصعقهم، وبه خلق من الأبخرة الغليظة المتراكمة الكثيفة الصاعدة من الأرض الجبال فسكن ميد الأرض. وطوق هذه الأرض بجبل محيط بها وهو من صخرة خضراء وطوق به حية عظيمة اجتمع رأسها بذنبها رأيت من سعد هذا الجبل ومن عاين هذه الحية وكان من الأبدال أصحاب الخطوة فقال: صليت الضحى في أسفله والعصر في أعلاه وأنا بهذه المثابة يعني من اتساع الخطوة (راجع هذه القصة بالتفصيل في الباب 3/334 ص 130 وهو المخصوص بسورة ق) ثم أفاق المأل الأعلى من صعقتهم فرأوا من قدرة الله تعالى ما هالهم فقالوا: ربنا هل خلقت شيئا أشد من هذه الجبال؟ فقال لهم الحديد . فقالوا: ربنا فهل خلقت شيئا أشد من الحديد؟ قال نعم النار. فقالوا: ربنا فهل خلقت شيئا أشد من النار؟ فقال نعم الماء. قالوا: ربنا فهل خلقت شيئا أشد من الماء؟ فقال نعم الريح. فقالوا: ربنا فهل خلقت شيئا أشد من الريح؟ قال نعم الانسان يتصدق بصدقة فلا تعرف شماله ما تنفقه يمينه ، وهذا هو الذي ملك الهواء، فمن ملك هواه فهو أشد من الهواء وهو الذي ينبغي أن يقال له إنسان... واعلم أن الله تعالى قد جعل هذه الأرض بعدما كانت رتقا كالجسم الواحد - كما كانت السماء - ففتق رتقها وجعلها سبعة أطباق كما فعل بالسموات ، وأدار بالأرض كرة الماء بتسخيف من الأرض وتحليل، وعمر هذه الكرة بملائكة يقال لهم الساريات وعليهم مقدم يسمى الزاجر. وخلق العالم الملكي الذي هو عالم الذكر بين الماء والأرض، وجعل لكل أرض من الأطباق السبعة استعداد انفعال لأثر حركة فلك من أفلاك السماوات وشعاع كوكبها . فالأرض الأولى وهي التي نحن عليها للفلك الأول من هناك (أي فلك زحل) ثم نزل إلى أن تنتهي إلى الأرض السابعة والسماء الدنيا . وجعل كل أرض أصغر من الأخرى لأن على كل أرض قبه سماء أطرافها عليها نصف كرة ،والأرض لها كالبساط فهي مدحية دحاها من أجل السماء أن تكون عليها . وجعل هذه الأرض التي نحن عليها سبعة أقاليم واصطفى من عباده المومنين سبعة سماهم الأبدال لكل بدل إقليم يمسك الله وجود ذلك الإقليم به . فالإقليم الأول ينزل الأمر إليه من سماء إبراهيم عليه السلام وهو على قلبه وتنظر إليه روحانية كوكب زحل ، وللبدل الثاني الإقليم الثاني الذي له سماء المشتري وموسى ، ولالثالث المريخ وهارون مع يحي ، وللرابع الشمس وإدريس ، وللخامس الزهرة ويوسف ، وللسادس عطارد وعيسى مع يحي ، وللسابع القمر وآدم عليهم جميعا أزكى السلام، وكلهم بتأييد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم] انتهى.

الأرضي السبعة وسكانها من الجن ومناسباتها مع أقسام الجسم والنفس

خلق الله تعالى بني آدم من الأرض الأولى ، ولذلك فإن إدراكهم لا يتعدى حدود هذه الأرض، وهم محجوبون عن الأراضي الستة الأخرى، أو بعبارة أخرى: إن اهتزاز الطبيعة المادية المخلوق منها جسم الانسان وحواسه وعقله موافق لاهتزاز طبيعة الأرض الأولى التي نحن عليها لأننا مخلوقون منها . ولا يتمكن الانسان العادي من كشف الأراضي الأخرى أو الدخول فيها والاتصال بوعي مع عمّارها إلا في حالات نادرة يقع فيها تداخل بين اهتزاز الطبيعة البشرية واهتزاز طبع تلك الأراضي الأخرى... ويقارن الشيخ في الباب (1/8ص121) بين هذه الأراضي وطبقات جسم الانسان فيقول:

[وأما الأرض فسبع طباق: أرض سوداء وأرض غبراء وأرض حمراء وأرض صفراء وأرض بيضاء وأرض زرقاء وأرض خضراء . نظير هذه السبعة من الانسان في جسمه : الجلد والشحم واللحم والعروق والعصب والعضلات والعظام] انتهى.

وفي كتاب (الانسان الكامل) للشيخ عبد الكريم الجيلي نجد وصفا لهذه الأراضي السبعة وسكانها، لكنّه ممزوج بوصف دركات النفس البشرية وأحوالها، لأن كل حركة منها مناسبة في طبعا لأرض معينة، فكلامه جامع لوصف الأفاق الأرضية وما يناسبها من الأفاق النفسية، يقول - رحمه الله - مع اختصار لبعض كلامه - (ونجعل ما بين قوسين بعض الشرح أو التعليق عليه) :

أما الطبقة الأولى من الأرض الأولى فأول ما خلقها الله تعالى كانت أشدّ بياضا من اللبن (يشير الشيخ إلى صفاء الفطرة الانسانية الأولى) وأطيب رائحة من المسك، فاغربت لما مشى آدم عليه السلام عليها بعد أن عصى الله تعالى (أي أنّ النفس تفقد صفاء فطرتها عند غفلتها عن خالقها)، وهذه الأرض تُسمّى **أرض النفوس**، ولهذا كانت تسكنها الحيوانات (أي لأن كل حيوان يمثل مظهرا من مظاهر النفس البشرية) . دور كرة هذه الأرض مسيرة ألف عام ومائة عام وستة وستون عاما ومائتا يوم وأربعون يوما (دور كل طبقة هي ضعف دور التي تحتها مباشرة، ودور هذه الأرض الأولى هو تقريبا عُشر دور فلك سماء القمر الأولى). وقد غمر الماء منها ثلاثة أرباعها بحكم الحيطنة..... ويأجوج ومأجوج في الجانب الجنوبي من الأرض، نسبتهم من الأرض نسبة الخواطر من النفس، لا يعرف عددهم ولا يدرك حصرهم، لم تطلع الشمس على أرضهم أبدا فلأجل هذا غلب عليهم الضعف حتى إنهم لم يقدرُوا في هذا الزمان على خراب السدّ (أي أنّ يأجوج ومأجوج يمثلون ويرمزون إلى قوى الولاية الشيطانية الظلمانية التي لم تتصل بشمس الحقيقة، وهي تحاول باستمرار تهديد سدّ الإيمان والتوازن الكوني بمقاومتها لقوى الولاية الرحمانية، ولن تتمكن من ذلك إلا في آخر الزمان عند طغيان الظلمة وسلطان الكفر في دولة الدجال، وقد بدأت حضارة الدجال المهيمنة على الأرض بانحجاب شمس الشريعة المحمدية وراء دخان الأهواء من سنة (1040) من الهجرة النبوية، ولم تزل في تزايد وتوسع إلى يومنا هذا، وستستمر في ذلك إلى أن يظهر الإمام المهدي وينزل روح الله عيسى عليهما السلام الذي بدعوته يُميت الله يأجوج ومأجوج بعد خروجهم وغزوهم الأرض كما هو ثابت في صحيح الأحاديث) وبالجانب الشمالي (أي في المحل المعاكس لقوى يأجوج ومأجوج وهو يرمز إلى الولاية الرحمانية المستمرة عبر كل الأزمنة والتي يحفظ الله بها توازن الكون وهي الحقيقة الباطنية للسدّ الذي يحمي الأرض من غزو الظلمات الدجالية والماجوجية) وهذه الأرض (أي أرض نفوس أولياء الرحمن) بيضاء على ما خلقها الله تعالى عليه، هي مسكن رجال الغيب، وملكها

الخضر عليه السلام، أهل هذه البلاد تكلمهم الملائكة، لم يبلغ إليها آدم ولا أحد ممّن عصى الله تعالى، فهي باقية على أصل الفطرة، وهي قريبة من أرض بلغار، لا تجب فيها صلاة العشاء لأنّ شفق الفجر يطلع قبل غروب شفق المغرب فيها (يشير الشيخ هنا إلى المركز الروحي الأصلي الأوّل في الأرض والذي تفرعت منه كل المراكز الأخرى عبر أجيال الانسانية، ومحله بوسط القطب الشمالي في ذلك العهد، لأنّ وضع هذا القطب قد تحوّل خلال مختلف الأدوار الزمنية، فهو يمثّل ما يسمّيه المرحوم الشيخ عبد الواحد يحي " René Guénon" بالفرنسية: "Le centre de la tradition primordiale"، وأهل هذا المركز أي رجال الفطرة الربانية الأولى لا عشاء عندهم لأنّه لا ليل عندهم، فهم دائماً تحت إشراق شمس الحقيقة بعكس يأجوج ومأجوج الذين لم تطلع الشمس على أرضهم أبداً. قال الشاعر:

إنّ شمس النهار تغرب بالليل *** وشمس القلوب ليست تغيب

وقال آخر: "شمس الذات ليس لها مغيب" وهذه الأرض أشرف الأراضي وأرفعها قدرا عند الله تعالى لأنها محلّ النبيين والمرسلين والأولياء الصالحين (كما أنّها محلّ الكعبة المشرفة والحجر الأسود يمين الله المقدّسة، ومسكن أفضل الكائنات وسيدها سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم). فلولا ما أخذ الناس من الغفلة عن معرفتها لكانت تراهم يتكلمون بالمغيبات ويتصرّفون في الأمور المعضلات، ويفعلون ما يشاءون بقدره صانع البريات، فافهم جميع ما أشرنا إليه، واعرف ما دللناك عليه، ولا تقف مع الظاهر، فإنّ لكل ظاهر باطنا، ولكل حق حقيقة، والسلام.

وأما الطبقة الثانية من الأرض فإنّ لونها كالزمردة الخضراء تسمّى **أرض العبادات**، يسكنها مؤمنوا الجن، ليلهم نهار الأرض الأولى ونهارهم ليلها، (أي كما قال تعالى عن العباد: من الليل ما يهجعون – الذين يبیتون لربهم سجداً وقياماً) لا يزال أهلها قاطنين فيها حتى تغيب الشمس عن أرض الدنيا، فيخرجون إلى ظاهر الأرض، يتعشقون ببني آدم تعشق الحديد بالمغناطيس، ويخافون منهم أشد من خوف الفريسة للأساد. (دور كرة هذه الأرض ضعف دور الأرض الأولى، وهذا يعني أنّ زمانها مخالف لزمان أرضنا، فزمن طويل في أرضنا يعتبر قصيراً في هذه الأرض الثانية، وهكذا زمان كل أرض بالنسبة للتي تحتها، ولهذا فإنّ عمّر الجنّ، زيادة على نشأتهم النارية الهوائية المخالفة لنشأة الانسان الطينية، طويل جداً بالنسبة لأعمار بني آدم، فالواحد من الجنّ قد يصل عمره قروناً عديدة...) و ليس فيها خراب بل الجميع معمور بالسكن، وأكثر مؤمني الجنّ يحسدون أهل الأرادات والمخالفات، فكثر هلاك السالكين من جنّ هذه الأرض . يأخذون الشخص من حيث لا يشعر بهم، ولقد رأيت جماعة من السادات، أعني طائفة من متصوّفة هذا الزمان (أي من العباد المتشبهين بأهل الله في ظواهرهم) مقيدّين مغلغلين قد قيدهم جنّ هذه الأرض (أي العباد الواقفون مع جهدهم النفسي، العاشقون لحالهم ظناً منهم أنّه الكمال، وما هم إلا في أول درجات السير فوقفوا عندها وسجنوا فيها) فأصمّمهم وأعمى أبصارهم، وقد كانوا ممن يسمع كلام الحضرة بأذنيه، فصار إذا خوطب من غير جهة هذه الأرض لا يسمع ولا يعقل (أي هذا حال من يصل إلى مقامات عالية مثل مقام المخاطبة الإلهية ثم يسقط فيقع في هذه الأرض النفسية) وهم محجوبون بما هم فيه، فلو قيل لهم بما هم عليه لأنكروا ذلك، فافهم ما أشرت إليه وتحقق بما دللتك عليه، واستعن بالله في إحكام الطريق ينجيك الحق من كيد هذا الفريق.

وأما الطبقة الثالثة من الأرض فإنّ لونها أصفر كالزعفران تسمى **أرض الطبع** ، يسكنها مشركو الجنّ، ليس فيها مؤمن بالله، قد خُلقوا للشرك والكفر، يتمثلون بين الناس على صفة بني آدم، لا يعرفهم إلا أولياء الله تعالى، لا يدخلون بلدة فيها رجل من أهل التحقيق إذا كان متمكنا بشعاع أنواره، وأما قبل ذلك فإنهم يدخلون عليه ويحاربهم فلا يزالون كذلك حتى ينصره الله تعالى عليهم فلا يقربون بعد هذا من أرضه (أي أنّ السالك لا يبلغ درجة التحقيق حتى يتخلص تماما من جميع نوازع الطبع وحُجبه)، ومن توجه منهم إليه احترق بشعاع أنواره، ليس لهؤلاء عمل إلا إشغال الخلق عن عبادة الله تعالى بأنواع الغفلة، كلها عامرة بالسكن ليس فيها خراب، لم يذكر الحق سبحانه وتعالى فيها منذ خلقها إلا مرة واحدة بلغة غير لغة أهلها (أي أنّ الانسان إذا فقد صفاء فطرته الذاكرة لله، وعصى الله فاغبرّت أرضه، ثم غفل عن عبادة ربه الشرعية يهبط من الأرض الثانية، فيسقط في أرض الكفر حيث يفقد نطق الروح الأصلي الذي هو التسبيح بحمد خالقه... وفي كلام الشيخ إشارة إلى أنّ انحراف اللغة عن أصلها الروحاني الجناني تابع لانحراف الانسان عن طريق الحق...) فافهم ما أشرنا إليه واعرف ما دللناك عليه .

وأما الطبقة الرابعة من الأرض: فإنّ لونها أحمر كالدّم تسمى **أرض الشهوة**، (أي هي تحت أرض الطبع لأنّ الطبع إذا اشتدّ حكمه يصبح شهوة) . كلها عامرة بالسكن، يسكنها الشياطين وهم على أنواع كثيرة يتوالدون من نفس إبليس (أي أنّ هذه الأرض مقابلة عكسيا للسماء الرابعة التي بها قطب الأرواح إدريس وقطب الكواكب الشمس فهي قلب السماوات، وهذه الأرض الرابعة ينزل إليها الأمر الإلهي من تلك السماء الرابعة، فتعكس نورانيته ظلمة ، ولذلك نجد بها قطب الأرواح والنفوس السفلية الظلمانية إبليس، فمنع الظلمات من مركزها، كما أنّ منبع الأنوار من الشمس) فإذا تحصلوا بين يديه جعلهم طوائف، يعلم طائفة منهم القتل أدلة عليه لعبادة الله، ثم يعلم طائفة منهم الشرك ليوطن بنيان الكفر في قلوب أهلها، ويعلم طائفة العلم ليجادلوا العلماء، ويعلم طائفة منهم المكر، وطائفة الخداع، وطائفة الزنا وطائفة السرقة، حتى لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا وقد أرصد لها طائفة من حذفته، ثم يأمرهم أن يجلسوا في مواضع معروفة، فيعلموا أهل الخدع والمكر وأمثال لك أن يقيموا في دركة الطمع، ويعلموا أهل القتل والطعن وأمثال ذلك أن يقيموا في دركة الرياسة، وأهل الزنا والسرقة وأمثالهما في دركة الطبع. ثم جعل بأيديهم سلاسل وقيودا يأمرهم أن يجعلوها في أعناق من يحتكم لهم سبع مرات متواترات ليس بينها توبة، ثم يسلمونه إلى عفاريت الشياطين فينزلون إلى الأرض التي تحتهم، ويجعلون أصول تلك السلاسل فيها، فلا يمكنه مخالفتهم بعد أن توضع تلك السلاسل في عنقه أبدا (أي يُمسي صاحبها من أولياء الشيطان وعبدة الطاغوت) والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما الطبقة الخامسة من الأرض فإنّ لونها أزرق كالنيلة واسمها **أرض الطغيان**. كلها عامرة بالسكن، يسكنها عفاريت الجن والشياطين، ليس لهم عمل إلا قيادة أهل المعاصي إلى الكبائر، وهؤلاء كلهم لا يصنعون إلا بالعكس فلو قيل لهم اذهبوا جاؤوا ، ولو قيل لهم تعالوا ذهبوا، هؤلاء أقوى الشياطين كيدا، فإنّ من فوقهم من أهل الطبقة الرابعة كيدهم ضعيف كما قال الله تعالى: (إنّ كيد الشيطان كان ضعيفا)، وأما هؤلاء فكيدهم عظيم يحكمون على بني آدم بغلبة القهر فلا يمكنهم مخالفتهم أبدا.

وأما الطبقة السادسة من الأرض فهي أرض الإلحاد لونها أسود كالليل المظلم ، كلها عامرة يسكنها المردة ومن لا يتحكم لأحد من عباد الله تعالى.

واعلم أنّ سائر الجن على اختلاف أجناسهم كلهم على أربعة أنواع: نوع عنصريون ونوع ناربيون ولو كانت النار راجعة إلى العنصريين فثمة نكتة، ونوع ترابيون . فأما العنصريون فلا يخرجون عن عالم الأرواح وتغلب عليهم البساطة، وهم أشدّ الجنّ قسوة، سموا بهذا الاسم لقوة مناسبتهم للملائكة وذلك لغلبة الأمور الروحانية على الأمور الطبيعية السفلية منهم، ولا ظهور لهم إلا في الخواطر. قال الله تعالى: (شياطين الانس والجن)، ولا يتراءون إلا للأولياء (أي لأنهم هم الذين يعرفون التمييز الدقيق بين الخواطر) . وأما الناربيون فيخرجون من عالم الأرواح غالباً، وهم يتنوعون في كل صورة، أكثر ما يفاجئون الانسان في عالم المثال، فيفعلون به ما يشاءون في ذلك العالم وكيد هؤلاء شديد، فمنهم من يحمل الشخص بهيكله فيرفعه إلى موضعه، ومنهم من يقيم معه فلا يزال الرائي مصروعاً ما دام عنده . وأما الهوائيون فإنهم يتراءون في المحسوس مقابلون للروح فتنعكس صورتهم على الرائي فينصرع . وأما الترابيون فإنهم يلبسون الشخص ويعفرونه بترابهم، وهؤلاء أضعف الجنّ قوة ومكراً.

وأما الطبقة السابعة من الأرض فإنها تسمى أرض الشقاوة وهي سطح جهنم خلقت من سفليات الطبيعة يسكنها الحيات والعقارب وبعض زبانية جهنم، وحياتها وعقاربها كأمثال الجبال وأعناق البخت . وهي ملحقة بجهنم نعوذ بالله منها. ثم اعلم أنّ أطباق الأرض إذا أخذت في الانتهاء دار الدور عليها في الصعود) انتهى كلام الجيلي.

وفي الجملة الأخيرة نجد توافقاً مع القول الذي يقول به آخرون ، وهو أنّ هذه الطبقات السبع تظهر واحدة تلو الأخرى في العالم المحسوس، حسب ترتيبها، وفي أدوار زمنية محدّدة طويلة الأمد، ولكل طبقة دورة ظهور معينة، ومخلوقات يسكنون فيها ...

مقامات الولاية المناسبة للأركان الأربعة

ذكرنا أنّ المقام الترابي عند أولياء الله يرمز إلى مقام العبودية المحضة، والانكسار الدائم، والثبات واليقين والسكينة، والستر والخيرة على الأسرار، فهو مقام أكابر الملامتية الذين رغم علو مقامهم ودوام شهودهم لا يظهر على ظواهرهم شيء خارجاً عن العادة، وسبق القول أنّ هذا المقام الترابي مناسب لمقام سقيط الرفرف بن ساقط العرش وللأبدال السبعة ، خصوصاً رابعهم الذي هجيرته: (يا ليتني كنت تراباً)...

وذكرنا في ركن النار كيف أنّ المقام الناري عند أهل الله هو مقام تجلي السبحات الوجهية وما يتعلق به من مقامات الرؤية والشهود والفناء والسحق والمحق والبقاء ، وكثيراً ما يشير الشيخ للمقام الناري بالاصطلاح الذي خصص له باباً في فصل المقامات...

وأما الركن الهوائي فمقامه في السلوك هو مقام (نفس الرحمن)، ورجاله هم رجال النفس الرحماني الذين تكلم الشيخ عنهم في عدّة أبواب من الفتوحات مثل الأبواب (15/34/35/49/51/198/...).

وأما الماء فمقامه عند أهل البداية خصوصا هو مقام التوبة التي خصص لها الشيخ البابين (75/74)، وعند أهل الوصول – ولا نهاية للوصول – فهو مقام الرحمة العامة والعلم اللدني، ولذلك قرن الله سبحانه بين الرحمة والعلم ومجمع البحرين في شأن عبده خضر عليه السلام، فلقبه موسى بمجمع البحرين بعد إحياء الحوت ثم قال عنه : " أَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا " .

الفصل السادس

الركن الخامس

الركن الخامس هو أصل الأركان الأربعة الأخرى

كنا ذكرنا أنّ الركن الخامس هو أصل الأركان الأخرى، فهو عين المسمى بالطبيعة في اعتدالها الأصلي المبدئي . وباهتزاز منه ظهرت الحقيقة الهوائية، وبتوجّه ملك البرودة على الهواء تكثّف فظهرت الحقيقة المائية، وبتوجّه ملك الحرارة على الهواء تلتفّ فظهرت الحقيقة النارية، وبتوجّه ملك اليبوسة على الماء تكثّف فظهرت الحقيقة الترابية . وأصل ذلك الاهتزاز الأصلي الأوّل في الركن الأوّل كان بتوجّه ملكي الرطوبة والحرارة ، وتوجّه ملك الحرارة أصله من أمر نازل من القوة العملية للنفس الكلية حرّكها اسمه تعالى " المفصل " كما قال تعالى: "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ". وتوجّه ملك الرطوبة أصله من القوة العلمية للنفس الكلية التي تحرّكت باسمه تعالى " المدبّر "، ولهذا قال تعالى: " وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ " ، فذكر الرطوبة المنفصلة عن البرودة واليبوسة المنفصلة عن الحرارة ، والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ الذي هو النفس الكلية، ولهذا كان لتموّج الاهتزاز ميّزتين أساسيتين وهما طاقة أو قدرة الاهتزاز وتواتر الاهتزاز، ثم بانتشار تموّج الاهتزاز ظهر المكان والزمان، فكلّما كان تواتر الاهتزاز أكبر تكون الدورة الزمنية وطول التمّوج أصغر .

مختلف وجهات النظر في تعيين أصل الأركان

وكما سبق ذكر مواقع حقائق الأركان الأربعة عبر مراتب الوجود، ف كذلك لحقيقة هذا الركن الأصلي – والذي يُسمّى عند بعضهم بالأثير – نظائر مواقعها عبر تلك المراتب تكافئ موقعه المركزي .

*فالموقع المكافئ له بالنسبة للحضرة الإلهية هو عين الذات، وفي حضرة الأسماء الحسنى موقعه هو حضرة (الله الحي القيوم) أي الاسم الأعظم للذات العلية .

وقد سبق القول أنّ الحكماء اختلفوا في أصل الأركان الأربعة على ستّة مذاهب، ومستند هذا الاختلاف هو كما يلي :

- فمن رأى أنّ أصلها هو هذا الركن الأصلي الخامس فلأنّ الأسماء الأمّات الأربعة أصلها الذات، وقد ذكرنا كيف أنّه من تلك الأسماء انفعلت الطبائع الأربعة التي بازواجها ظهرت الأركان الأربعة .

- ومن رأى أنّ أصلها الهواء، فذلك من حيث حضرة الظهور التي برزت بنفس الرحمن الذي هو الهواء الوجودي العام . والمتوجّه على إيجاد الهواء هو الاسم (الحي) الذي إليه ترجع حقائق الأسماء الأمّات الثلاثة الأخرى، إذ أنّ القدرة تابعة للإرادة، والإرادة تابعة للعلم، والعلم نابع من الحياة .

- ومن رأى أنّ أصلها الماء فمن حيث حضرة الوجود الخَلقي الذي أصله الحقيقة المحمّدية التي هي ماء حياة الكون، والعرش المحيط محمول في الماء، فبه حياة العالم، وأصل المخلوقات ثبوتها في العلم الإلهي القديم الذي هو عين الماء الأول العام، وعلاقة الماء بالعلم وبالأحياء سبق ذكرها. يقول الشيخ الأكبر في باب منزل سورة "الملك" (3 / الباب 317 / 65-66) :

[" وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ " : على هنا بمعنى: في، أي كان العرش في الماء، كما أنّ الانسان في الماء أي منه تكوّن، فإنّ الماء أصل الموجودات كلها وهو عرش الحياة الإلهية ، ومن الماء خلق الله كل شيء، وكل ما سوى الله حيّ، فإنّ كل ما سوى الله مسبّح بحمد الله ولا يكون التسبيح إلا من حي ... فالعرش هنا هو عبارة عن الملك، وكان حرف وجودي ، فمعناه أنّ المُلك موجود في الماء ، أي الماء أصل ظهور عينه ، فهو للمُلك كالهوى ظهر فيه صور العالم الذي هو مُلك الله] انتهى .

- ومن رأى أنّ أصل الأركان النار، فلأنّها أنسب الأركان للحرارة، والحرارة منفصلة عن الحياة أي من الاسم الأوّل (الحي) الذي هو ينبوع الكمالات، والنار هي أنسب الأركان للنور، ولا ظهور إلا بالنور، أي أنّ أصل الظهور النور الذي هو المظهر العلوي للنار. ثمّ إنّ أصل الحياة في الأرض مرتبط بالشمس التي هي من أكمل مظاهر النار والنور في عالم الدنيا، ولهذا نجد الشيخ عبد الكريم الجيلي يصف سماء الشمس في (الانسان الكامل) فيقول: [وأما السماء الرابعة فهي الجوهر الأفخر ذات اللون الأزهر سماء الشمس الأنور، وهو قطب الأفلاك، خلق الله تعالى هذه السماء من النور القلبي، وجعل الشمس فيها بمنزلة القلب للوجود، به عمارته ومنه نضارته، ... فالشمس أصل لسائر المخلوقات العنصرية كما أنّ الاسم (الله) اسم لسائر المراتب العلية، نزل ادريس عليه السلام هذا المقام الرفيع لعلمه بالحقيقة القلبية ... ثمّ إنّ الملك الجليل المسمّى إسرافيل هو الحاكم على ملائكة هذه السماء، وهي روحانية الشمس ذات السناء، لا يرفع في الوجود خفض ولا يحدث فيه بسط ولا قبض إلا بتصريف هذا الملك ... وهو أعظم الملائكة هيبية وأكبرهم وسعا و أقواهم همّة، له من سدرة المنتهى إلى ما تحت الثرى يتصرف في جميعها، ويتمكن من شريفها ووضيعها، منصّته عند الكرسي ومحتده هذا الفلك الشمسي، وعالمه السماوات والأرض وما فيهما من عقل وحس...واعلم أنّ الله تعالى جعل الوجود بأسره

مرموزا في قرص الشمس، تبرزه القوى الطبيعية في الوجود شيئا فشيئا بأمر الله تعالى، فالشمس نقطة الأسرار ودائرة الأنوار، أكثر الأنبياء أهل التمكين في دائرة هذا الفلك المكين مثل عيسى وسليمان وداوود وإدريس وجرجيس وغيرهم ممن يكثر عدده ويطول أمده ، كلهم نازلون في هذا المنزل الجلي وقاطنون في هذا المكان العلي] .

- ومن رأى أنّ أصل الأركان هو التراب فلكونه وُجد بتوجّه ملك اليبوسة المنفعلة عن الإرادة، وأصل الإيجاد كله هو الإرادة الإلهية كما قال تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُنَا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ". والارض هي أوّل ما وُجد من عالم الدنيا الكائن تحت فلك الكواكب الثابتة، ومن دخانها خلقت السموات السبع...ثمّ هي المقصودة أوّلا بالإيجاد إذ أنّها هي التي اختارها الله تعالى محلاً لخليفته وأصلا لعمد قبة الوجود بأسره، فكل الأفلاك والأماك والأركان لخدمتها دائرة دوران المحيط حول مركزه، فكما أنّ المركز أصل المحيط، فالتراب من هذه الحيثية أصل الأركان....

- ومن رأى أنّ كل واحد من الأركان أصل لنفسه لا لغيره فمن حيث أنّ كلّ اسم من الأسماء الحسنى التي بها قيام تلك الأركان، له نفس النسبة للذات، فكلّ اسم حقيقته الذاتية المتميّزة. [حول موضوع الأسماء الحسنى راجع الباب: 1 باب 4 ص 99-101 / 3 باب 177 ص 299-307 / 4 باب 558 فصل حضرات الأسماء/ راجع أيضا كتاب (إنشاء الدوائر)] . وقد نبّه الشيخ في الفصل (31) من الباب (2/198) ص (454) على أنّه لا يستحيل ركن إلى ركن ولا شيء إلى شيء فقال:

[...واعلم أنّ العالم واحد بالجواهر كثير بالصورة ، وإذا كان بالجواهر فإنه لا يستحيل وكذلك الصورة أيضا لا تستحيل لما يؤدي إليه من قلب الحقائق، فالحرارة لا تكون برودة واليبوسة لا تكون رطوبة والبياض لا يستحيل سوادا والتثليث لا يصير تربيعا، لكن الحارّ قد يكون باردا لا في زمان كونه حارا، وكذلك البارد قد يوجد حارا لا في زمان كونه باردا، وكذلك الأبيض قد يكون أسودا بمثل ما ذكرنا، فبطلت الاستحالة، فالارض والماء والهواء والأفلاك والمولدات صور في الجوهر، فصور تخلع عليه فيسمّى بها من حيث هيئته وهو الكون، وصور تخلع عليه فيزول عنه بزوالها ذلك الاسم وهو الفساد، فما في الكون استحالة يكون المفهوم منها أنّ عين الشيء استحالة عينا آخر إنّما هو كما ذكرنا، والعالم في كل زمان فرد يتكوّن ويفسد، ولا بقاء لعين جوهر العالم لولا قبول التكوين فيه ، فالعالم مُفتقر على الدوام...]. إلى آخر ما فصله رحمه الله ... وكذلك في الفصل (44) من هذا الباب يقول: [...اعلم أنّ اللطف من المحال أن يرجع كثافة، فإنّ الحقائق لا تنقلب ، ولكن اللطيف يرجع كثيفا كالجار يرجع باردا] انتهى.

نظير الركن الأصلي الخامس في الملكوت الأعلى

وبعد أن ذكرنا نسبة الركن الخامس الأصلي للذات واسمها (الله الحي القيوم) فلنتتبع المواقع المكافئة لحقيقة هذا الركن عبر مراتب الوجود:

- ففي مرتبة الملكوت الأعلى وفي الحضرة الجامعة لمواقع حقائق الأركان الخمسة ، هنالك نجد الحقيقة الهوائية عند العقل الأوّل أي القلم الأعلى وهو المخاطب بقول الحق عزّ وجلّ [أقبّل] و [أدبر] و [اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة] . فهذا الخطاب تحمله الحقيقة الهوائية كما سبق ذكره ، والعلم الإجمالي الذي يستمد منه القلم هو ما يُسمّى بحضرة الملك النوني الذي هو بمثابة دواة مداد سطور الكائنات ، فالحقيقة المائية عند النون ، أمّا الحقيقة الترابية فلها اللوح المحفوظ المنبعث من القلم . وكلمة (اللوح) وما توحى به من كثافة وتماسك وثقل ووصفه بـ (المحفوظ) أي الذي له البقاء والثبات كاف في بيان علاقته بالتراب الذي له نفس هذه المميّزات . وأمّا الحقيقة النارية فقد سبق القول أنّ لها أنوار الجلال الماحقة المتجلّية على الأرواح المهيمّة في ذلك الملكوت الأعلى. وأمّا الركن الخامس الأصلي فمكافؤه عند العنصر الأعظم الذي تكلم الشيخ عنه في كتابه (عقلة المستوفز) فقال ما خلاصته :

[اعلم أنّ الله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، فلهذا نرى الحق من غير الوجه الذي يرانا، وإنّما يقع الاحتراق والأثر إذا وقعت الرؤية من وجه واحد وهو البصر منا على البصر منه . واعلم أنّ الله كان ولا شيء معه ، هذا نصّ الخبر النبوي وزاد علماء الشريعة : "وهو الآن على ما عليه كان" ، فهذه الزيادة مدرجة في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعرفها كل أحد ، وقد سبق في علمه أن يكمل الوجود العرفاني بظهور آثار الأسماء الإلهية والنسب والاضافات ، لا أن يكمل هو بذلك تعالى عن ذلك علوا كبيرا فهو الكامل على الإطلاق . فتجلى الحق سبحانه بنفسه لنفسه بأنوار السّبحات الوجهية من كونه عالما مريدا، فظهرت الأرواح المهيمّة من الجمال والجلال، وخلق في الغيب المستور الذي لا يمكن كشفه لمخلوق العنصر الأعظم، وكان هذا الخلق دفعة واحدة من غير ترتيب سببي أو على ترتيب نسبي لا سبيل إلى ذلك ، وما ثم روح يعرف أنّ ثمّ سواه لفنائه في الحقّ بالحقّ واستيلاء سلطان الجلال عليه. ثم إنّ هذا العنصر الأعظم المخزون في غيب الغيب له التفاتة مخصوصة إلى عالم التدوين والتسطير ولا وجود لذلك العالم في العين . وهذا العنصر المشار

إليه، لكل موجود في العالم تعلّق به، فأوجد سبحانه عند تلك الالتفافة على ما قال القادر الشاهد العقل الأوّل، وقيل فيه أوّل لأنّه أوّل عالم التدوين والتسطير، والالتفافة إنّما كانت للحقيقة الانسانية من هذا العالم، فكان المقصود بخلق العقل وغيره إلى أسفل عالم المركز أسبابا مقدّمة لترتيب نشأته كما سبق في العلم ترتيبه . فعين الانسان هي المقصودة وإليه توجهت العناية الكلية فهو عين الجمع والوجود والنسخة العظمى والمختصر الأكمل . فالعنصر الأعظم الشريف لكرة العالم كالمركز والقلم لها كالمحيط . وللعنصر التفافة واحدة وللعقل وجوه كثيرة في القبول . وليس فوق القلم موجود مُحدث يأخذ عنه يعبر عنه بالدواة وهي النون كما ذكر بعضهم، وإنّما نونه التي هي الدواة عبارة عن ما تحمله في ذاته من العلوم بطريق الإجمال من غير تفصيل، فلا يظهر لها تفصيل إلا في النفس الذي هو اللوح ، فهو محل الإجمال، واتلنفس محل التفصيل . وهذا القلم له ثلاثمائة وستون سنا من حيث ما هو قلم، وثلاثمائة وستون وجها ونسبة من حيث ما هو عقل، وثلاثمائة وستون لسانا من حيث ما هو روح مترجم عن الله، ويستمدّ كل سن من ثلاثمائة وستين بحرا...]. انتهى.

استطراد : العنصر الأعظم و (يس) وأقسام الأفلاك في إزار العظمة

فالعنصر الأعظم هو قلب الحقيقة المحمّدية المرموز إليه بحرف السين في فاتحة (يس) من سورتها التي هي قلب القرآن وتعد له عشر مرات "تلك عشرة كاملة" ... فهي سين سرّ العنصر الأعظم التي يصفها الشيخ بقوله في الباب الثاني (1 ص 73):

في السين أسرار الوجود الأربع وله التحقيق والمقام الأرفع
من عالم الغيب الذي ظهرت به آثار كون شمسها تتبرقع

وعدد هذا الحرف بحساب أهل الأسرار المغاربة هو: (سين = 300+10+50) أي (360) عدد البحور العلمية النابعة منه ، وحيث أنّ نهاية كلمة (سين) هي النون، فكسرة السين تشير إلى التفافة العنصر الأعظم إلى عالم التدوين والتسطير التي هي عين تلك النون، أي أنّ سين (السين) تشير للعنصر الأعظم، ويأهه تشير لالتفافته، ونونه إلى دواة العلم الاجمالي رأس عالم التسطير. وحيث أنّ النون دائرة وشاملة إجماليا كتلك الثلاثمائة والستين، فقد ظهرت دائرة الفلك ولها نفس هذا العدد من الدرجات ، ونجد في القرآن اقتران الدرجات بذلك العدد نفسه، فقد ورد اسمه تعالى (رفيع) مرة واحدة في القرآن في سورة (غافر) وهو قوله تعالى: "رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو

العَرْشِ" وعدد (رفيع = $70+10+80+200$) يساوي (360) ، وقرنه بالعرش لأنه سبق القول أنّ فلك البروج هو المظهر المحسوس الخارجي للعرش ... ثم قُسم هذا الفلك إلى اثني عشر برجاً، أي على العدد الصغير بحساب المشاركة أهل الأنوار والظهور لحروف (سين = $12=5+1+6$)... وإلى هذا كله الإشارة في قوله تعالى في سورة (القلم): "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ" إلى قوله "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"، فعدد: (نون والقلم = 313) كما أنّ (ياسين = 131) منطوية في عدد (محمد = 132) فبينهما درجة واحدة . وحرف (وَمَا) نائبه عن العلوم التي يسطرها القلم في اللوح، ولهذا إذا أضفنا عدد (نون والقلم = 313) إلى عدد (وما = 47) فإننا نجد عدد أمّهات تلك العلوم أي (360)، ثم جعل الحق تعالى هذا كله قَسَمًا على أنّ سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم على خُلُقٍ عَظِيمٍ لبيان أنّ ذلك كله مداره على الحقيقة المحمّدية وعنصرها الأعظم . وكلمة (يَسْطُرُونَ) نافذة في اللوح المحفوظ وأولها حرف الياء الذي عدده (10) وأقسام العلوم المسطرة في اللوح راجعة إلى العشرة كما بيّنه الشيخ في الفصل (12) من الباب (198/ ص 429) وهي المقولات العشرة المشهورة عند الحكماء .

وأخيراً فإنّ عدد (نون + القلم = $16+12=28$) بالجزم الصغير هو نفس عدد المنازل القمرية في فلك المنازل . وكما أنّ عدد: (نون والقلم وَمَا = 360) فإنّها اثنا عشر حرفاً على عدد البروج التي مجمل درجاتها (360)، ثم إنّ عدد الآية (نون والقلم وما يسطرون) بالحساب المغربي الكبير يساوي (935) وبالحساب المغربي الصغير يساوي (71) وهي (18) حرفاً في (4) كلمات، فالمجموع هو: (1028) وهو عدد مواقع المجموعات النجمية منها (1021) في فلك الكواكب الثابتة وأفلاك الدراري السبعة، وهذا العدد له علاقة أصيلة بإزار العظمة إذ أنّه عند الشيخ عدد الصور المنطبعة في إزار العظمة الذي هو عين الكون المشهود، كما أنّ الانسان الكامل هو عين الرّداء. والاسم (عظيم) عدده (1020) أي ينقص بدرجة واحدة عن ذلك العدد النجمي، وأقسم الله تعالى في سورة الواقعة بمواقع النجوم وقرنها بالعظمة فقال: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ"، كذلك قرن قَسَمَ الآية الأولى من سورة القلم التي لها ذلك العدد (1028) بعظمة الخلق المحمّدي فجعل خبر جواب القسم قوله: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" كما قال له "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" كما أقسم بمواقع النجوم على كرم القرآن بقوله عقبها: "إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ" ... وقد ذكرنا سابقاً كيف أنّ فلك المنازل مظهر خارجي للكرسي وله علاقة أصيلة مع الحروف والأصوات والنغمات والسماع، ولهذا ورد في قصّة المعراج أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أصابه هيّمان حين سمع صريف الأقدام في

مقام (وَمَا يَسْطُرُونَ)، وإلى هذا يشير الشيخ في (عقلة المستوفز) عند حديثه على فلك الكواكب الثابتة:

[... وإن الله لما خلق الفلك رتب في مقعره ألف مرتبة وإحدى وعشرين مرتبة قسّم الفلك عليها أقساما... وجعل في كل قسم ملكا من الملائكة على صورة عالم من العوالم الكائنة في عالم الأركان بحصر صور عالم الأركان بتلك الأقسام، فدار هذا الفلك دورة برز فيها عالم الجنّات بحركة الأرض في إخراج النّبات... وهذا الفلك فلك الحروف، ومن هنا أنشأت في عالم الأجسام على الثمانية والعشرين منزلة وثمانية وعشرين حرفا على المخارج المستقيمة ثم حروف خرجت على حدود الاستقامة في الانسان وغيره من الحيوانات وهي تعدد ما بقي من الأقسام بمقدار لا يزيد ولا ينقص ومثالها في الانسان كالحروف بين الباء والفاء وكالحروف بين الجيم والشين وكحروف الخيشوم وهكذا في الحيوانات] انتهى.

وفي الباب (3 / 167) من الفتوحات يقول عند وصول السالك إلى فلك المنازل والكرسي: [... فرقي في فلك المنازل فتلقاه من هنالك من الملائكة والأرواح الكوكبية ما يزيد على ألف وعشرات من الحضرات تسكنها هذه الأرواح (يشير الشيخ إلى ذلك العدد 1021).... ثم يخرج بالتتابع مع حاصله إلى الكرسي... ثم إنه يفارق هذا الموضع ويزج به في النور الأعظم فيغلبه الوجد، وهذا النور هو حضرة الأحوال الظاهر حكمها في الأشخاص الإنسانية، وأكثر ما يظهر عليهم في سماع الألحان، فإنّها إذا نزلت عليهم تمرّ على الأفلاك ولحركات الأفلاك نغمات طيبة مستلذة تستلذ بها الأسماع كنغمات الدولاب، فتكسو الأحوال وتنزل بها على النفوس الحيوانية في مجالس السماع... انتهى...]

كذلك في الباب (3 / 367) الذي يصف فيه معراج النبي صلى الله عليه وسلم، يقول أنّ بعد شهوده سدرة المنتهى فوق السماء السابعة: [يمشي به إلى أن ظهر لمستوى سمع منه صريف القلم والأقلام في الألواح.... ثم زجّ في النور زجة فأفرده الملك الذي كان معه وتأخر عنه... وأخذه هيمان مثل السكران في ذلك النور وأصابه الوجد... وكان سببه سماع إيقاع تلك الأقلام وصريفها في الألواح فأعطت من النغمات المستلذة أداه إلى ما ذكرناه...].

نظير الركن الخامس في العرش وفلك البروج الأطلس

- ففي المراتب المعقولة الأربعة بين اللوح والعرش، وهي الطبيعة والهباء والشكل الكل والجسم الكل، موقعه في الطبيعة بل هي عينه وفي هذا يقول الشيخ في الباب

(11 / 1 ص 139): [...وهذا المذهب بالأصل الخامس هو الصحيح عندنا وهو المسمى بالطبيعة، فإنّ الطبيعة معقول واحد عنه ظهر ركن النار وجميع الأركان، فيقال ركن النار من الطبيعة ما هو عينها...].

- وفي مرتبة العرش نجد الموقع المكافئ للركن الأصلي في مركز وسط الدائرة العرش حيث الروح الأكبر الذي منه تستمدّ حقائق العرش الثمانية ، فهو مركز وجوه طبائعه الأربعة ومركز قوائم أركانه الأربعة، والدائرة العرشية مقسّمة على الحملّة الثمانية .

فقد جعل الله تعالى لكل جهة تناسبا مع أحد الأركان الأربعة كما سنذكره في تقسيم البروج على الجهات، فإذا أسقطنا مقام الركن الخامس بمركز العرش على مظهره المحسوس في فلك البروج فأين موقعه؟ الجواب - والله أعلم - أنّ موقعه في أول درجة من برج الميزان، ومعلوم أنّ نقطة الاعتدال الأولى بين الليل والنهار عند الميزان والثانية عند الحمل، والميزان هوائي الطبع ، فلما ابتدأت الحركة الاهتزازية للركن الأصلي في أول درجة الميزان ظهرت الحقيقة الهوائية في فلك البروج، وبظهور تلك الحركة ظهر الزمان والمكان والأجسام المتحيزة (راجع الباب 12 / 1 ص 143-146) ولهذا نجد الشيخ في (عقلة المستوفز) يقول عن الميزان: "وجعل بيد هذا الملك الكريم مفاتيح خلق الأحوال والتغيرات والزمان الذي خلق الله فيه السماوات والأرض وأحدث فيه الليل والنهار وهو متحرك" انتهى، وبحركته نشأت البروج الأخرى كما أنّه من الهواء نشأت الأركان الأخرى، وفي هذا يقول الشيخ في الباب ((12 / ص 146 ..):

[فبالميزان أوحى في كل سماء أمرها وبه قدّر في الأرض أقواتها، ونصبه الحق في العالم في كل شيء، فميزان معنوي وميزان حسي لا يخطئ أبداً، فدخل الميزان في الكلام وفي جميع الصنائع المحسوسة وكذلك في المعاني إذ كان أصل وجود الأجسام والأجرام وما تحمله من المعاني عند حكم الميزان، وكان وجود الميزان وما فوق الزمان عن الوزن الإلهي الذي يطلبه الاسم الحكيم ويظهره الحَكَم العدل لا إله إلا هو، وعن الميزان ظهر العقرب وما أوحى الله فيه من الأمر الإلهي والقوس والجدي والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة وانتهت الدورة الزمانية إلى الميزان لتكرار الدور، فظهر محمد صلى الله عليه وسلم وكان له في كل جزء من أجزاء الزمان حكم اجتمع فيه بظهوره صلى الله عليه وسلم... فكانت روحانية محمد صلى الله عليه وسلم تكتسب عند كل حركة من الزمان أخلاقا بحسب ما أودع الله في تلك الحركات من الأمور الإلهية ، فما زالت تكتسب هذه الصفات الروحانية قبل وجود تركيبها إلى أن ظهرت صورة جسمه في عالم الدنيا بما جبله الله عليه من الأخلاق

المحمودة فقيل فيه: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ" [انتهى. وإنما تطابق موقع الركن الأول في فلك البروج مع الميزان المحمدي الهوائي لأنّ نظير موقع الركن الأول في الملكوت الأعلى هو العنصر الأعظم الذي قلبه الحقيقة المحمدية، كما أنّ نظيره العرشي هو عين مقام الروح المحمدي، فتأمّل كيف قابلت نقطة اعتدال القمر المحمدي بالميزان نقطة اعتدال الشمس ببرج شرفها الذي هو الحمل، والليل عند المسلمين سابق على النهار لأنّ الميزان الذي منه البداية سابق بنصف دورة الفلك على الحمل، فحسابهم بالشهر القمري، وبداية السنة عندهم في أول الخريف المناسب لليل، وعند آخرين بدايتها أول الربيع بالحمل المناسب للنهار، وبدايتها في الأصل أول الشتاء عند أول درجة من برج الجدي .

ثم إذا سقطت الجهات العرشية على فلك البروج فإننا نجدتها تتوزّع على البروج حسب طبائعها: فالشرق للبروج النارية (حمل- أسد - قوس)، والجنوب للبروج الترابية (ثور- سنبله - جدي) ، والغرب للبروج الهوائية (جوزاء - ميزان - دلو)، والشمال للبروج المائية (سرطان - عقرب - حوت) .

نظير الركن الخامس في الكرسي وأركان الإسلام وأحكام الشريعة

*وبعد هذه الجولة الطويلة مع الأوتاد نرجع إلى نظائر الركن الأصلي الخامس في مراتب الوجود. فبعد أن ذكرنا نظيره في العرش ومسقطه في فلك البروج، فلننزل إلى الكرسي ونظيره في فلك المنازل . فموقع نظيره في الكرسي في مركز دائرة القدم الصدق الهوائية المخصوصة بأهل اليمين، ومظهر هذا المركز في الآخرة جنّة الوسيلة التي يصفها الشيخ في الباب (65/ 1 ص 319) بقوله:

[وأما الوسيلة فهي أعلى درجة في جنّة عدن وهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصلت له بدعاء أمّته... فإننا بسببه نلنا السعادة من الله وبه كنّا خير أمة أخرجت للناس وبه ختم الله بنا الأمم كما ختم به النبيين...]. وعدن هي أعلى الجنان، وبنائها الحق عزّ وجلّ بيده ، وفي وسطها الكثيب حيث يرى المؤمنون ربّهم . فكما تفرّعت الأركان من الركن الأصلي الخامس، فكذلك كلّ الجنان تفرّعت من وسيلته صلى الله عليه وسلم .

ونظير هذا الركن في الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله ، فمن هذا الركن الأوّل تتفرّع الأركان الأربعة الأخرى، فللصلاة نسبة مع ركن النار، ولهذا فإنّ كلمة الصلاة من التصلية أي الاصطلاء بأنوار المشاهدة في مقام "وقرة عيني في

الصلاة"، وللزكاة نسبة مع الركن المائي لأنّ التزكية هي التطهير والتقديس وهذا هو شأن الماء، وللصوم نسبة مع الركن الهوائي لأنّه تغلب على هوى النفس وشهواتها، وللحجّ نسبة مع الركن الترابي لأنّه عبودية محضة كشأن التراب ، وفيه طواف حول الكعبة وهي من تراب ، ووقوف على تراب عرفة ، ورجم بحصى من تراب ، وسعي بين الصفا والمروة وهما من تراب . ومن هذه الأركان الأربعة تفرّعت شعب الإيمان الثمانية والسبعين التي أعلاها قول " لا إله إلا الله " . ومن هذه الشعب نشأت جنات الأعمال بدرجاتها الثمانية والسبعين كتفرّع الحروف الثمانية والسبعين فواتح السور التسعة والعشرين من أولها أي الألف، وكتفرّع الثمانية والسبعين مقاما فلكيا من أول درجة لبرج الميزان...

وأما المسقط الظلماني لنظير الركن الأصلي في جهنّم فهو الباب الثامن المغلوق الذي يمثل مقام أهلها في قوله تعالى: "إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُوبُونَ"، ومن هذا الحجاب تفرّعت المظاهر الجهنمية الأخرى....

وحيث ذكرنا نسبة أركان الإسلام مع أركان الطبيعة، فلنذكر أيضا ما قاله الشيخ عن نسبة هذه الأركان مع الصلوات الخمس، فهو يقول في الباب الرابع من (لطائف الأسرار): [واختصت منها الصلوات الخمس، لمطابقتها أصول تركيب الإنس، ولأنّ الخمسة وحدها من بين سائر الأعداد تحفظ نفسها وغيرها ، فاعرف قدرها واشكر خيرها: فصلاة الظهر نورية، وصلاة العصر نارية، وصلاة المغرب مائية، وصلاة العشاء ترابية ، وصلاة الصبح هوائية ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنّه لقول رسول كريم] انتهى. وفي كتابه هذا ذكر الشيخ المناسبة بين الصلوات والسموات ، فللظهر سماء المشتري الموسوية السادسة ، وللعصر سماء الكاتب العيسوية الثانية الجامعة لكل الطبائع ، وللمغرب سماء الزهرة اليوسفية الثالثة ، وللعشاء سماء المريخ الهارونية الخامسة ، وللصبح سماء زحل الإبراهيمية السابعة ، و للإمام سماء الشمس القطبية ، وللمأموم سماء الخلافة اللآدمية الأولى .

فلماذا هذه المناسبات؟ أولا يبدو من كلام الشيخ أنّ الصلاة المناسبة للركن الأصلي الأول هي صلاة الظهر، ولذلك نسبها للنور أي النور الأصلي الأول الذي بحركته نشأت الحقيقة الهوائية كما مرّ ذكره . وقد ورد في الحديث المعروف أنّ أول صلاة صلاها جبريل بالنبي صلّى الله عليه وسلم صلاة الظهر، ووقت الظهر هو وقت انتشار أنوار الشمس عند الزوال، فالوقت المقابل عكسيا للظهر هو وقت انتشار ظلمات الليل عند العشاء، وكما أنّ نور الظهر يمثل اللطافة التامة، فمقابله أي ظلمة العشاء تمثل الكثافة التامة المتمثلة في التراب ومعلوم أنّ لون التراب أسود، فهو الأنسب لسواد الليل. ولهذا قال الشيخ أنّ صلاة العشاء ترابية . أمّا إذا اعتبرنا الرمزية

العليا لسواد الليل والتراب ، فالليل يمثل الغيب الذاتي في إطلاق الهوية ، ورجال هذا المقام الأعلى هم المتحققون بالمقام الأسفل أي العبودية الترابية المحضنة، لأنّ نهاية الأطراف المتقابلة تتحد في الدور، وأمر الوجود دوري...

وكما أنّ أنسب الأركان للنور هي النار، وأقرب صلاة للظهر هي صلاة العصر فلهذا كانت العصر نارية، خصوصا وأنّ وقتها هو وقت سلطان الشمس في نقطة الاعتدال بين الليل والنهار أي الغيب والشهادة ، وطبع الشمس ناري...وقد ذكرنا أنّ أنسب أركان الاسلام الخمسة للركن الناري هو الصلاة، فهذا يستلزم أنّ كمال حقيقة الصلاة تتجلى خصوصا في صلاة العصر، ولهذا فإنّ صلاة العصر لها خصوصية على الصلوات الأخرى، وهي الصلاة الوسطى بلا شك عند العارفين كما صرّح بذلك الشيخ في آخر كتاب (لطائف الأسرار) حيث يقول:

[شاهدت عين السرّ في حضرة الوتر أنّ الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، لأنّ الظهر لظهوره في مقام الفناء، والمغرب لظهوره في مقام البقاء، والعشاء لظهوره في مزج الأولياء بالأعداء، والصبح لظهوره في طريق أخبار السفراء، والعصر لظهوره في خط الاستواء، لأنّ شجرة المشاهد لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار (في كلام الشيخ هذا إشارة لتناسب مواقع الشمس خلال اليوم مع شهود شمس الذات عند المصلي) والمراد بقاء الأبصار، فجمع بين العالم البسيط اللطيف، وعالم التخطيط الكثيف، ولم يتغير في هذا المشهد شيء من أشكال نظام الأحوال فشاهده الانسان في كماله، بقوة اعتداله، وما عدا هذا المقام فانحرف عن الاعتدال بنور أو ظلام، والحقّ المطلوب والفضيلة عند الرجال إنما هي في المشاهدة والاعتدال ، فضّمه إليه عند صحوه، وأثبتته بعد محوه، وألحفه لحف الجمال والانس، وأمره أن يخلع على عالم النفس، فلا تعرف الحقائق الروحانية إلا بتنزلات الرقائق الإلهية، ولتكف هذه الإشارة في الوسطى من الوسط والأوسط، فإنّها تنزّل من الحكيم المقسط.]. انتهى. (راجع أيضا أسرار أوقات الصلوات في الباب: 1/69 ص 387-396)

وقد تكلم الشيخ بكلام نفيس جدا عن كون أنّ الصلاة العصر هي عين الانسان الكامل في الباب (281/2 ص 614-615) وهو المخصوص بمنزل سورة العصر) وافتتحه بقوله:

[صلاة العصر ليس لها نظير

لضمّ الشمل فيها بالحبيب

هي الوسطى لأمر فيه دور

محصلّة على أمر عجيب].

فإذا كانت النار وهي أطف الأركان للعصر، والتراب وهو أكثف الأركان للعشاء، فما بينهما وسط بين اللطافة والكثافة، وحيث أنّ المغرب أقرب للعشاء من الصبح، كما أنّ الماء أقرب للكثافة الترابية من الهواء، فهذا فإنّ صلاة المغرب مائية، والصبح هوائية، خصوصا وأنّ النّفس الهوائي ينتشر عند الفجر وإشراق الشمس كما قال تعالى: "وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ" .

وكما أنّ أركان الاسلام خمسة وأصلها الشهادتين، فكذلك أحكام الشرع خمسة وهي: الواجب وهو مناسب لركن الهواء، والمندوب وهو للماء، والمحظور وهو للنار، والمكروه وهو للتراب، والمباح وهو للركن الأصلي الخامس، لأنّ الأصل في الأشياء الإباحة، والأحكام الأربعة الأخرى عارضة وتتبدّل حسب الشرائع، وما يقع فيها من النسخ هو بمثابة استحالة ركن إلى آخر، وذلك لأنّ أصل الوجود الإطلاق، والتقييد تابع للحدوث أي التغيير والزوال، ولهذا كان مآل الخلق في الجنة إلى الإباحة المطلقة فلم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدعون... ولهذه الحقيقة شرع للرجل في الاسلام الزواج بأربعة نساء ونكاح ما يشاء ممّن ملكت يمينه، وهذا ما يشير إليه الشيخ في الباب (11 / 1 ص 138) حين يقول: [...وكذلك جاء شرعنا أكمل الشرائع حيث جرى مجرى الحقائق الكلية، فأوتي جوامع الكلم، واقتصر على أربع نسوة وحرّم ما زاد على ذلك بطريق النكاح الموقوف على العقد فلم يدخل في ذلك ملك اليمين، وأباح ملك اليمين في مقابلة الأمر الخامس الذي ذهب إليه بعض العلماء، كذلك الأركان من عالم الطبيعة أربعة، وبنكاح العالم العلوي لهذه الأربعة يوجد الله ما يتولد فيها] انتهى.

مواقع الأركان في السدرة

ثم إنّ للأحكام الشرعية الخمسة مصدر ومستقر، وفي هذا يقول الشيخ في الباب (58 / 1 ص 290): (والتكليف إنّما انقسم من السدرة، فإنّه قطع أربع مراتب والسدرة هي المرتبة الخامسة، فنزل من قلم إلى لوح إلى عرش إلى كرسي إلى سدرة . فظهر الواجب من القلم، والمندوب من اللوح، والمحظور من العرش، والمكروه من الكرسي، والمباح من السدرة، والمباح قسم النفس وإليها تنتهي نفوس عالم السعادة، ولأصولها وهي الزقوم تنتهي نفوس أهل الشقاء...] .

فمن كان هواه تابعا للواجب الهوائي القلمي والمندوب المائي اللّوحي كان مآله الجنة "عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى" ، ولهذا فقد ذكرنا سابقا أنّ ولاة البروج

الهوائية والمائية هم الذين يرسلون الرحمات على أهل الجنان والتخفيف من العذاب على أهل النيران، لأنّ الهواء والماء راجعان لحضرة الجمال والبسط والحياة . ومن كان هواه تابعا للمحذور الناري العرشي والمكروه الترابي الكرسي كان مآله جهنم وغذاؤه من زقوم أصول السدرة، ولهذا فإنّ ولاة البروج النارية والترابية هم الذين يرسلون العذاب على أهل النار، لأنّ النار والتراب راجعان لحضرة الجلال والقبض والموت . إذن فنظير الركن الأصلي الخامس في هذه المرتبة هو مركز سدرة المنتهى . ويتفجر من أصلها أربعة أنهار: نهر الماء ونهر اللبن ونهر العسل ونهر الخمر الوارد ذكرها في القرآن؛ فنهر الماء له ركن الماء، ونهر اللبن له ركن الهواء، ونهر العسل له ركن التراب، ونهر الخمر له ركن النار. ولها أربعة مظاهر في الدنيا أشار إليها الحديث النبوي الذي ذكر أنّ الأنهار سيحان وجيحان والنيل والفرات من الجنة .

وقد تكلم الشيخ عن السدرة وأنها في عدّة أبواب من الفتوحات نذكر منها: الأبواب: (167-2 ص279-280 / 198-2 ص441-443 / 367-3 ص341-342 / 352-350-342 ص371-371-342) فلنختصر ما ذكره في هذه الأبواب فيما يلي:

[يرى السالك العارج بروحه في أعلى السماوات سدرة المنتهى، وعندها صور أعمال السعداء، ويرى عمله من جملة أعمالهم، ويعاين هنالك أربعة أنهار منها نهر كبير عظيم وجدول صغار تنبعث من ذلك النهر الكبير، وذلك النهر الكبير تنفجر منه الأنهار الكبار الثلاثة؛ فالنهر الأعظم هو القرآن، والثلاثة الكبار التوراة والزبور والانجيل، والجدول الصحف المنزلة على الأنبياء . فمن شرب من أي نهر أو أي جدول فهو لمن شرب منه وارث (تأمل هنا علاقة الكتب الأربعة بالأركان الأربعة) . ونظر السالك إلى حسن النور الذي غشى تلك السدرة فرأى قد غشاها منه ذلك الذي غشى فلا يستطيع أحد أن ينعتها للغشاء النوري الذي لا تدركه الأبصار، فهي شجرة الطهور، فيها مرضاة الحق، ومن هنا شرع السدر والماء في غسل الميت ليناله طهورهما للقاء الله ، وإليها تنتهي أعمال بني آدم السعدية وفيها مخازنها إلى يوم الدين ، وهناك أول أقدام السعداء، والاسم (الربّ) هو الذي أعطى السدرة نبقها وخضرتها ونورها منه ومن الاسم: الله ، وأعطى الاسم (الرحمن) من نفسه بفتح الفاء - عرفها أي رائجتها ، ومن الاسم (الله) أصولها ، وزقومها لأهل جهنم . وقد جللها الله بنور الهوية فلا تصل عين إلى مشاهدتها ، والنور الذي كساها نور أعمال العباد، ونبقها على عدد نسم السعداء، لا بل على عدد أعمال السعداء، لا بل هي أعيان أعمال السعداء . وما من جنة الأعمال قصر ولا طاق إلا وغصن من أغصان هذه السدرة داخل فيه ، وفي ذلك الغصن من النبق على قدر ما في العمل من الحركات، وما من ورقة في ذلك الغصن إلا وفيها من الحسن بقدر ما حضر هذا العبد مع الله في

ذلك العمل ، وأوراق الغصن بعدد الأنفاس في ذلك العمل . وشوك هذه السدرة كله لأهل الشقاء، وأصولها فيهم، والشجرة واحدة، ولكن تعطي أصولها النقيض مما تعطيه فروعها من كل نوع ، فكل ما وصفنا به الفروع توصف بنقيضه الأصول . وأسعد الناس بهذه السدرة أهل بيت المقدس ، كما أنّ أسعد الناس بالمهدي أهل الكوفة، كما أنّ أسعد الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الحرم المكي، كما أنّ أسعد الناس بالحق أهل القرآن . وإذا أكل أهل السعادة من هذه الشجرة زال الغلّ من صدورهم . ومكتوب على ورقها : " سبوح قدوس رب الملائكة والروح " . وللحق فيها تجل خاص عظيم يقيد الناظر ويحير الخاطر. وإلى جانبها منصة مقعد جبريل عليه السلام . وفيها من الآيات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنّ نبقها كالقلال وورقها كأذان الفيلة وأنها مقر الأرواح ، فهي نهاية لما ينزل مما هو فوقها ونهاية لما يعرج إليها مما دونها كأعمال بني آدم ، ورأى يخرج من أصلها أربعة أنهار، نهران ظاهران ونهران باطنان، فالظاهران النيل والفرات ويرجعان يوم القيامة إلى الجنة وهما نهر العسل واللبن، والباطنان نهران يمشيان للجنة . والمظهر الأعلى لهذه السدرة في الجنة هو شجرة طوبى التي تولى الحق تعالى غرسها بيده في جنة عدن ، ولما سواها نفخ فيها من روحه وزينها بثمر الحلي والحلل، فنحن أرضها فإنّ الله جعل ما على الأرض زينة لها ، وأعطت في ثمر الجنة كله من حقيقتها عين ما هي عليه كما أعطت النواة النخلة وما تحمله مع النوى الذي في ثمرها (فسدرة المنتهى هي أصل كل الأشجار الدنيوية والجنانية والجهنمية) . وقسم الحق تعالى الجنات على ثلاثة أقسام للثلاثة الوجوه التي لكل برج: جنات الاختصاص وهي الأولى، وجنات الميراث، وجنات الأعمال . ثم جعل في كل قسم أربعة أنهار مضروبة في ثلاثة يكون منها اثنا عشر نهرا ، ومنها ظهر في حجر موسى اثنتا عشرة عينا لاثني عشر سبطا ، " قد علم كل أناس مشربهم " ، النهر الواحد نهر الماء الذي هو غير آسن أي غير متغير وهو علم الحياة، ونهر الخمر وهو علم الأحوال، ونهر العسل الذي فيه شفاء للناس، وهو علم الوحي على ضروبه، ولهذا تصعق الملائكة عندما تسمع الوحي كما يسكر شارب الخمر، ونهر اللبن وهو علم الأسرار الذي تنتج الرياضات والتقوى فهذه علوم الوهب الأربعة . والانسان مثلث النشأة نشأة باطنة معنوية روحانية، ونشأة ظاهرة حسية طبيعية، ونشأة متوسطة برزخية مثالية، ولكل نشأة من هذه الأنهار نصيب، كل نصيب نهر لها مستقل يختلف مطعمه باختلاف النشأة فيدرك منه بالحس ما لا يدركه بالخيال، ويدرك منه بالخيال ما لا يدركه بالمعنى، وهكذا كل نشأة ، فلإنسان اثنا عشر نهرا: في كل واحدة من الجنات الثلاثة أربعة أنهار...] انتهى.

نظير الركن الخامس في فلك المنازل

• فإذا وصلنا إلى فلك المنازل فأين نجد هذا النظير؟

الجواب – والله أعلم- أننا نجده في بداية أول منزل من المنازل التابعة للبروج الهوائية الثلاثة، أي أننا نجده أولاً بالأصالة في أول منزلة غفر من برج الميزان الذي بحركته ظهر الزمان وببدا ملكه مفتاح الليل والنهار، ونجد مرتبته الثانية في أول الثلث الثاني من منزلة سعد السعود ببرج الدلو الذي ببدا ملكه مفتاح خلق الأرواح، ونجد مرتبته الثالثة في أول الثلث الأخير من منزل الهقعة التابع لبرج الجوزاء الذي يناسب قدم الكرسي الهوائية اليمينية السعدية وعنده ابتدأت أول حركة فلكية في يوم الأحد، كما سبق ذكره .

نظير الركن الخامس في السماوات السبع

فإذا نزلنا إلى السماوات، فأى سماء أنسب إلى الركن الأصلي الخامس؟

الجواب – والله أعلم- إنها سماء عيسى ويحيى الثانية ، أي سماء عطارذ أو الكاتب التي لها معدن الزئبق، ولها من الأيام ليلة الأحد ونهار الأربعاء . ولعطارذ من البيوت: برج الجوزاء الهوائية والسنبلة الترايبية (أي الركنين المتنافرين فمجموعهما يعطي الطبائع الأربعة)، ووابل هذا الكوكب القوس الناري والحوت المائي (أي الركنين الآخرين المتنافرين أيضاً، فبيوت عطارذ الأربعة جامعة للأركان الأربعة)، وأوجه في الميزان ورأس جوزهره في الحمل، وشرفه وسقوطه في العذراء والحوت...أمّا صفة هذه السماء وكوكبها فهي ممتزجة من كل الصفات والطبائع والأزمان خلافاً لكل السماوات الستة الأخرى . فكوكبها مذكر مؤنث سعيد نحس ليلي نهاري هوائي مائي ناري ترابي حار بارد رطب يابس . فهذه السماء قابلة لكل صفة ولون وطبع وهيئة ، ولهذا كان لونها أشهباً أي خليطاً لعدّة ألوان بدون أن يغلب لون على الآخر. ولعدم اختصاصها بهيئة ثابتة كانت أنسب سماء للركن الأصلي الخامس .

وقد ذكر الشيخ في (لطائف الأسرار) ما منحه عيسى عليه السلام من العلوم في هذه السماء فقال: [تَمَّ منحني عوارف اللطائف وفنون المعارف وترتيب المواقف ومنازل العلوم والأسرار وما تحمله في سباحتها النجوم، وميّز لي بين الخواطر، وأوقفني على المراتب والكراسي والأسرة والمنابر، وأدخلني حضرة الإلهام والوحي، وحذرنى

موارد القياس والرأي، ورفع عن منازل المبشرات، وكشف لي عن معادن النبوات، ونصب لي موازين الفكر، وعرض عليّ مقادير النظم والنثر، وخاطبني بغرائب السجع والشعر، وأبان لي عن سر التحقيق بالتحليل، وفرق لي بين التحقيق والتخييل، وأوقفني على غلطات الأذهان، والتفرس في الأعيان، وسرّ المشي على الماء وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وكشف لي عن خواص المعادن والأحجار..].

وفي الباب (3/371ص445) يصف الشيخ فلك هذه السماء فيقول:

[خلق فيه كوكبا سابحا من الخنس الكنس أودع لديه الأوهام والإيهام ، والوحي والالهام، ومهالك الآراء الفاسدة والقياسات والأحلام الرديئة، والمبشرات، والاختراعات الصناعات، والاستنباطات العمليات، وما في الأفكار من الغلطات والاصابات ، والقوى الفعالات والوهميات، والزجر والكهانات والفراسات والسحر والعزائم والطلسميات . وخلق عند مساعدته النفس الكل مزج البخارات الرطبة بالبخارات اليابسات...].

وفي الباب (1/15ص155) يتكلم عن يوم هذه السماء والبدل الذي على قلب عيسى والحاكم على إقليم الأرض السادس فيقول:

[وكل أمر علمي يكون في يوم الاربعاء فمن روحانية عيسى عليه السلام وهو يوم النور...وكل أثر في عنصر الهواء والنار فمن روحانية سباحة الكاتب في فلكه، وكل أثر سفلي في ركن الماء والتراب فمن حركة فلك السماء الثانية . وللبدل صاحب هذا اليوم الإقليم السادس ، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعته من الأيام : علم الأوهام والإلهام والوحي والآراء والأقيسة والرؤيا والعبادة والاختراع الصناعي والعطردة وعلم الغلط الذي يعلق بعين الفهم وعلم التعاليم وعلم الكتابة والآداب والزجر والكهانة والسحر والطلسمات والعزائم] .

وقد ذكر الشيخ في الباب (2/198ص445) أنّ الاسم المحصي هو المتوجه على إيجاد هذه السماء كما ذكر في الباب (1/6ص120) أنّ نظير كوكب الكاتب وفلكه في الانسان القوة الخيالية ومقدّم الدماغ .

وفي الباب (2/167ص274) يذكر العلوم التي توهب للسالك في هذه السماء فيقول:

[فأوقفاه (أي عيسى ويحي عليهما السلام) على صحّة رسالة المعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلالة إعجاز القرآن فإنّها (أي هذه السماء) حضرة الخطابة والأوزان وحسن مواقع الكلام ، وامتزاج الأمور وظهور المعنى الواحد في الصور الكثيرة، ويحصل له الفرقان في مرتبة خرق العوائد، ومن هذه الحضرة يعلم علم السيمياء

الموقوفة على العمل بالحروف والأسماء لا على البخورات والدماء وغيرها، ويعرف شرف الكلمات وجوامع الكلم، وحقيقة كن واختصاصها بكلمة الأمر لا بكلمة الماضي ولا المستقبل ولا الحال، وظهور الحرفين من هذه الكلمة مع كونها مركبة من ثلاثة، ولماذا حذفت الكلمة الثالثة البرزخية التي بين حرف الكاف وحرف النون وهي حرف الواو الروحانية، ويعلم سرّ التكوين من هذه السماء وكون عيسى يحيى الموتى، وإنشاء صورة الطير ونفخه في صورته وتكوين الطائر طائراً هل هو بإذن الله أو تصوير عيسى (خلق الطير ونفخه فيه هو بإذن الله) وبأي فعل من الأفعال اللفظية يتعلق قوله "بإذني" وبإذن الله، فعند أهل الله العامل فيه "يكون"، وعند مثبتي الأسباب وأصحاب الأحوال العامل فيه "تنفخ". فيحصل لمن دخل هذه السماء واجتمع بعيسى ويحيى علم ذلك ولا بد، ولا يحصل ذلك لصاحب النظر وأعني حصول ذوق. وعيسى روح الله، ويحيى له الحياة، فكما أنّ الروح والحياة لا يفترقان لما يحملانه من هذا السرّ، فإنّ لعيسى من علم الكيمياء الطريقتين: الانشاء وهو خلقه الطير من الطين والنفخ، فظهرت عنه الصورة باليدين والطيّران بالنفخ الذي هو النفس، فهذه طريقة الانشاء في علم الكيمياء. والطريق الثانية إزالة العلل الطارئة، وهو في عيسى إبراء الأكمه والأبرص، وهي العلل التي طرأت عليها في الرحم. ومن هنا يحصل للتابع علم المقدار والميزان الطبيعي والروحاني لجمع عيسى بين الأمرين، ومن هذه السماء يحصل لنفس هذا التابع الحياة العلمية التي يحيى بها القلوب كقوله: "أَوْ مِنْ كَانٍ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ". وهي حضرة جامعة فيها كل شيء (أي هذه السماء حضرة جامعة ولهذا فهي أنسب السماوات للركن الجامع الأصلي الخامس)، وفيها الملك الموكل بالنطفة في الشهر السادس، ومن هذه الحضرة يكون الامداد للخطباء والكتاب لا للشعراء. ولما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم خوطب من هذه الحضرة وقيل "ما علمناه الشعر" لأنّه أرسل مبينا مفصلا، والشعر من الشعور فمحلّه الاجمال لا التفصيل وهو خلاف البيان. ومن هنا تعلم تقليات الأمور، ومن هنا توهب الأحوال لأصحابها. وكلما ظهر في العالم العنصري من النيرنجيات الأسمائية فمن هذه السماء، وأمّا الفلقطيرات فمن غير هذه الحضرة، ولكن إذا وُجدت فأرواحها من هذه السماء لا أعيان صورها الحاملة لأرواحها... (ومن هذه السماء علم) ما يكون عن سبب في مدة طويلة يكون عن ذلك السبب في لمح البصر أو هو أقرب... ومن هذه السماء قوله في ناشئة الليل أنها أقوم قبلا].

ويتكلم الشيخ عبد الكريم الجبلي في كتابه (الانسان الكامل) عن هذه السماء، فلنختصر ما ذكره فيما يلي: [إنها جوهر شفاف لطيف لونها أشهب، خلقها الله من الحقيقة الفكرية، فهي للوجود بمثابة الفكر للإنسان، ولهذا كانت محلا لفلك الكاتب مظهر اسمه تعالى (القدير)، وسمائه من نور اسمه (العليم الخبير)، هي أكثر ملائكة من

جميع السماوات ، ومنها ينزل العلم إلى الأكوان، وملائكتها تمدّ أهل الصنائع، ولا يتصور شيء في الوجود إلا وهي المتولية لتصويره، عليها يدور أمر الآيات والمعجزات والكرامات، ملائكتها ترشد الخلق إلى أنوار الحقّ، من ركب على ظهر ملك منها طار بجناحه إلى السبعة الأفلاك، وأنزل الصور الروحانية في القوالب الجسمانية متى شاء وكيف شاء . والملك الحاكم فيها اسمه نوحائيل عليه السلام ، ورأيت نوحا عليه السلام في هذه السماء جالسا على سرير خلق من نور...].

من ناحية أخرى: كنّا ذكرنا أنّ موقع الركن الأصلي الخامس من الصلوات الخمس هو في صلاة الظهر التي وصفها الشيخ بالنورية، والنور هو المظهر العلوي للنار، فأقرب الأركان، من حيث اللطافة إلى الركن الأصلي هو النار التي لها صلاة العصر الوسطى، فهذا نجد أنّ هناك علاقة أصلية بين هذه السماء الثانية والسماء الوسطى النارية سماء الشمس ومحلّ قطب الأرواح إدريس عليه السلام ولها يوم الأحد . ولهذا فإنّ نهار الأربعاء الذي هو تابع للسماء الثانية ليلته هي ليلة الأحد التابعة للسماء الرابعة، أي أنّ روحانية عطارد هي المتصرّفة في ليلة الأحد ونهار الأربعاء. وللأحد وإدريس في حضرة الصلوات مقام الإمام الذي هو الركن الأصلي للجماعة كما ذكره الشيخ في (لطائف الأسرار)...ولهذه العلاقة بين سماء الشمس الادريسية وسماء الكاتب العيسوية نجد الشيخ الجيلي في (الانسان الكامل) جاعلا عيسى عليه السلام في السماء الرابعة مع إدريس عليه السلام، فسماء الشمس هي قلب السماوات، والقلب هو موقع الركن الأصلي الخامس في الانسان وهو إمام الجوارح، كما أنّ إدريس هو قطب الأرواح وله موقع ركن الحجر الأسود من الأوتاد الأربعة ، وعلى يمينه عيسى صاحب الركن اليماني . فالسماء الرابعة والسماء الثانية مشتركتان في حقيقة الركن الأصلي الخامس . ولهذا فإنّ العلوم الادريسية والعيسوية متداخلة متشابكة مع بعضها البعض، ومن هنا جاء الرمز الشمسي المشهور به عيسى عليه السلام . فعيسى له علم الحروف والأسماء والطب والكيمياء، وإدريس يسميه الشيخ في الباب (15/1ص152) بمداوي الكلوم أي الطبيب، وهو أول من خط بالقلم الحروف وشرح أسرارها وعلوم الكيمياء ترجع إليه، والحروف والأسماء اللفظية من نفس الرحمان متصلة بالمقام الادريسي حيث أنّ أقطاب الانفاس هم ورثته عليه السلام كما ذكره في الباب المذكور أعلاه...وحيث أنّ روح عيسى وحياة يحيى لا يفترقان، وحيث أنّ لعيسى مقاما قريبا من مركز سماء الشمس الرابعة، فكذلك ليحيى مقاما قريبا من مركز سماء المريخ الخامسة التي لها نفس طبع الرابعة ، أي أنّ لهما معا ركن النار، ولهذا نجد الشيخ يقول أنّه رأى يحيى مع عيسى في الثانية ثم التقى به أيضا مع قطب الخامسة هارون الخليفة عليه السلام، فلنذكر باختصار ما ذكره الشيخ من بعض علوم هذين الفلكين:

[فكل أمر علمي يكون في يوم الأحد فمن مادة إدريس عليه السلام ، وكل أثر علوي يكون في ذلك اليوم في عنصر الهواء والنار فمن سباحة الشمس، وما يكون من أثر في عنصر الماء والتراب في ذلك اليوم فمن حركة الفلك الرابع . ويحصل للبدل الذي على قلب إدريس من العلوم علم أسرار الروحانيات وعلم النور والضياء وعلم البرق والشعاع وعلم كل جسم مستنير ولماذا استنار وعلم الكمال في المولدات والملك وعلم الحركة المستقيمة ومعالم التأسيس وأنفاس الأنوار وخلع الأرواح المدبّرات وإيضاح المبهمات وعلم النعمات والأصوات وآثارها في الحيوان والنبات ونهاية المعاني الروحانية والروائح العطرية وعلم الشمّ . وأمّا علوم البدل الذي على قلب هارون وله الاقليم الثالث والمريخ: فتدبير الملك والسياسة والحمية والحماية والجيش والحروب وعلم القرايين وأيام النحر وعلم الهدى والضلال وتمييز الشبهة من الدليل] .

ويتكلم الجيلي في (الانسان الكامل) عن السماء الخامسة فيقول عنها – مع اختصار لكلامه - :

[إنها سماء الكوكب بهرام ،وهو مظهر العظمة الإلهية والانتقام ، نزل به يحيى عليه السلام لملاحظته العظمة والجبروت والعزة والملكوت، سماؤه مخلوقة من نور الوهم ولونها أحمر كالدّم، جعل الله عباد ملائكة هذه السماء تقرب البعيد وإيجاد الفقيد، فمنهم من عبادته تأسيس قواعد الايمان في القلوب، ومنهم من يطرد الكفار عن الأسرار، ومنهم من عبادته شفاء المريض وجبر الكسير، ومنهم من خلق لقبض الأرواح، وحاكم هذه السماء عزرائيل وهو روحانية المريخ صاحب الانتقام والتوبيخ] انتهى.210

فتأمل مناسبة يحيى عليه السلام الذي له حياة الروح مع عزرائيل الذي يقبض الأرواح عند موتها، كما أنّ يحيى هو الذي يذبح الموت في صورة كبش بين الجنة والنار عند انقضاء يوم القيامة .

وأخيرا راجع علاقة عيسى وسماءه الثانية بإدريس وسمائه الرابعة في مقال كتبه الشيخ عبد الواحد يحيى (R. Guénon) تحت عنوان: (هرمس – أي إدريس- Hermès) وهو موجود في كتاب جامع لبعض بحوثه تحت عنوان: (Formes traditionnelles et cycles cosmiques) .

ونشير أيضا أنّ ما يقابل المقام الإدريسي القطبي الشمسي العلوي، أي ما يقابله عكسيا في العالم الظلماني الأسفل هو الدرك الابليسي في وسط الأرض الرابعة التي سماؤها تلك السماء الإدريسية القلبية الرابعة . فلا إدريس شمس النور، وفي مقابله العكسي

إبليس قطب الزور، وكذلك مقامه الجهنمي، فإنه يكون في الطبقة الرابعة الوسطية ليكون له من كل أصناف العذاب العليا والدنيا نصيب...

الفصل السابع

بعض مظاهر الرباعيات الوجودية

أوتاد البروج العرشية وعلومهم

ولكلّ جهة مع بروجها رجل من أولياء الله يحفظها، فهم الأربعة أوتاد الذين تكلم الشيخ عن علومهم في آخر الباب (17/ 1 ص ص 160-161) فقال:

[...فمنهم من تمده روحانية إسرافيل وآخر روحانية ميكائيل وآخر روحانية جبرائيل وآخر روحانية عزرائيل، ولكلّ وتد ركن من أركان البيت؛ فالذي على قلب آدم عليه السلام له الركن الشامي، والذي له الركن العراقي على قلب إبراهيم، والذي على قلب عيسى عليه السلام له الركن اليماني، والذي على قلب محمد صلى الله عليه وسلم له ركن الحجر الأسود وهو لنا بحمد الله ... واعلم أنّ هؤلاء الأوتاد يحوون على علوم جمة كثيرة، فالذي لا بد لهم من العلم به وبه يكونون أوتادا فما زاد من العلوم، فمنهم من له خمسة عشر علما، ومنهم من له ولا بدّ ثمانية عشر علما، ومنهم من له أحد وعشرون علما، ومنهم من له أربعة وعشرون علما... فمنهم من له الوجه وهو قوله تعالى عن إبليس: "لَأَتَّبِعُنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ". لكلّ جهة وتد يشفع يوم القيامة فيمن دخل عليه إبليس من جهته].

وفي الباب (73 / 2 ص 7) يقول عنهم: [...] الواحد منهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه ، والآخـر المغرب والآخـر الجنوب والآخـر الشمال والتقسيم من الكعبة . وهؤلاء قد يعبر عنهم بالجبال لقوله تعالى: " أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا " فإنه بالجبل سكن ميد الأرض، كذلك حكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض.... فيحفظ الله بالأوتاد هذه الجهات، وهم محفوظون من هذه الجهات فليس للشيطان عليهم سلطان، إذ لا دخول له على بني آدم إلا من هذه الجهات] .

وفي هذا الباب بين الشيخ أنّ هؤلاء الأربعة نواب الدائمين الأربعة الحافظين لأركان بيت الدين الأربعة وهي الرسالة والنبوة والولاية والإيمان . فأولهم القطب الذي له ركن الحجر الأسود هو إدريس، والثاني الذي له الركن اليماني عيسى، والثالث الذي له الركن الشامي إلياس والرابع الذي له الركن العراقي الخضر عليهم السلام (هذا التفصيل لم يذكره الشيخ وإنما هو اجتهاد مني والله أعلم بصحّته فليصحّحه من تحقّق بخطئه).

خلاصة القول: أنّ الوتد الأوّل على قلب سيدنا محمد وإدريس عليهما السلام وله ركن الحجر الأسود، وله الوجه، وله جهة الشرق، وهو الحاكم للبروج النارية وهي الحمل – الذي مدّة دولته في العالم 12000 سنة - والأسد – ومدّة ولايته 9000 سنة – والقوس – ومدّة ولايته 3000 سنة -، أي أنّ مجموع هذه المدد 24000 سنة ، ولذلك فإنّ هذا الوتد الناري له أربعة وعشرون علما، كل علم يناسب يوما واحدا من أيام الربّ أي ألف سنة، واسم هذا الوتد: عبد الحي، لأنّه من الحياة انفعلت الحرارة التي هي الطبع الغالب على النار، والحرارة سبب حركة العالم . وقد ذكر الشيخ أسماء هذه العلوم فإذا تأملتها وجدتها كلها متعلّقة بخواصّ النار المعنوية أو الحسية وآثارها وهي:

- 1- علم الاصطلام. 2- والوجد. 3- والشوق. 4- والعشق. 5- وغامضات المسائل.
- 6- وعلم النظر. 7- وعلم الرياضة. 8- وعلم الطبيعة. 9- والعلم الإلهي. 10- وعلم الميزان. 11- وعلم الأنوار. 12- وعلم السباحات الوجهية. 13- وعلم المشاهدة. 14- وعلم الفناء. 15- وعلم تسخير الأرواح. 16- وعلم استنزال الروحانيات العلى. 17- وعلم الحركة. 18- وعلم إبليس. 19- وعلم المجاهدة. 20- وعلم الحشر. 21- وعلم النشر. 22- وعلم موازين الأعمال. 23- وعلم جهنم. 24- وعلم الصراط) . فالاثنا عشر علما منها تابعة لبرج الحمل، وتسعة منها للأسد، وثلاثة للقوس.

أمّا الوتد الثاني فعلى قلب عيسى عليه السلام وله الركن اليماني، وله اليمين، وله الغرب والبروج الهوائية وهي: الجوزاء ومدّة ولايتها 10000 سنة، والميزان ومدّة دولته 6000 سنة، والدلو ومدّة ولايته 2000 سنة، أي أنّ المجموع 18000 سنة . ولذلك فإنّ هذا الوتد الهوائي له ثمانية عشر علما، واسمه: عبد القدير، لأنّه من القدرة

انفعلت الرطوبة التي هي الطبع الغالب على الهواء، وقدرة عيسى على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله معلومة، واسمه روح الله، وعلاقة الروح بالهواء والرياح والنفس الرحماني بالنفس سبق ذكرها، وعلوم هذا الوتد كلها متعلقة بخواص الهواء المعنوي والحسي وأثارها وآثار البروج الهوائية، وهي: (1-علم البرازخ. 2- وعلم الأرواح البرزخية. 3- وعلم منطق الطير. 4- وعلم لسان الرياح. 5- وعلم التنزيل. 6- وعلم الاستحالات. 7- وعلم الزجر. 8- وعلم مشاهدات الذات. 9- وعلم تحريك النفوس. 10- وعلم الميل. 11- وعلم المعراج. 12- وعلم الرسالة. 13- وعلم الكلام. 14- وعلم الأنفاس. 15- وعلم الأحوال. 16- وعلم السماع. 17- وعلم الحيرة. 18- وعلم الهوى) . فعشرة من هذه العلوم تابعة لبرج الجوزاء، وستة للميزان، واثنان للدلو.

أمّا الوتد الثالث فعلى قلب إبراهيم والخضر عليهما السلام وله الركن العراقي، وله جهة الجنوب، وله البروج الترايبية ، وهي الثور الذي ولايته 11000 سنة، والسنبلة وولايتها 7000 سنة، والجدي وولايته 4000 سنة، فمجموعها 21000 سنة ، ولذلك فإنّ عدد علومه واحد وعشرون كلها تتعلق بخواصّ التراب وبروجه وآثاره ، وهي: [1- علم الأسرار. 2- علم الغيوب. 3- علم الكنوز. 4- علم النبات. 5- علم المعدن. 6- علم الحيوان. 7- علم خفيات الأمور. 8- علم المياه. 9- علم التكوين. 10- علم التلوين. 11- علم الرسوخ. 12- علم الثبات. 13- علم المقام. 14- علم القدم. 15- علم الفصول المقومة. 16- علم الأعيان. 17- علم السكون. 18- علم الدنيا. 19- علم الجنة. 20- علم الخلود. 21- علم التقلبات.] انتهى. فعشرة منها لبرج الثور، وسبعة للسنبلة، وأربعة للجدي، واسم هذا الوتد عبد المرید لأنّه من الإرادة انفعلت اليبوسة التي هي الطبع الغالب على التراب...

وأما الوتد الرابع فعلى قلب آدم وإلياس عليهما السلام واسمه عبد العليم لأنّ له البروج المائية، والماء يغلب عليه طبع البرودة المنفعلة عن العلم، وله جهة الشمال الجوفية وله 15 علماً لأنّ مدّة ولاية برجه 15000 سنة، منها تسعة للسرطان وستة للعقرب وواحد للحوث، وكلها تتعلق بخواصّ الماء وآثاره الحسية والمعنوية وهي: [1- علم الحياة. 2- علم الأحوال المتعلقة بالعقائد. 3- علم النفس. 4- علم التجلي. 5- علم المنصات. 6- علم النكاح. 7- علم الرحمة. 8- علم التعاطف. 9- علم التودد. 10- علم الذوق. 11- علم الشرب. 12- علم الري. 13- علم جواهر القرآن. 14- علم درر الفرقان. 15- علم النفس الأمّارة.] .

ثم إنّ لكل واحد من هؤلاء الأوتاد الأربعة سورة معينة هي السور الأوتاد من القرآن و منها تتبع علومه . وكذلك لكل بدل من الأبدال السبعة سورة معينة منها يستمد علومه وأحواله .

علوم الولاية والأدوار الزمنية

وعلاقة أنواع العلوم بالمُدّد الزمنية نبّه الشيخ عليها في عدّة مواضع، فعدد أمّهات العلوم التي سطرها القلم في اللوح هو (360)، وهو عدد أيام السنة في نقطة الاعتدال القطبية . وفي الباب (15 / 1 ص 157) يقول أنّ خليفة مداوي الكلوم – أي إدريس عليه السلام- واسمه المستسلم له علم الزمان وما مات حتى علم من أسرار الحق في خلقه: (36500) علم من العلوم العلوية خاصة، أي أنّه له في كل يوم من أيام السنة علم لأنه عاش مائة سنة . وقد رأينا أنّ علوم الأبدال السبعة متعلقة بالأيام السبعة وساعاتها، والاثنا عشر نبيا لهم العلوم المتعلقة بالبروج الاثني عشر وأزمانها، والرجبيون الأربعون لهم حال وعلوم متعلقة بشهر رجب، والثلاثمائة الذين هم على قلب آدم عليه السلام يقول الشيخ عنهم في الباب (73 / 2 ص 9):

[ولهذه الطائفة من الزمان الثلاثمائة من السنين التي ذكر الله أنّها لبثها أهل الكهف وكانت شمسية ولهذا قال: "وَأَزْدَادُوا تِسْعًا" فإنّ الثلاثمائة سنة الشمسية تكون من سنين القمر (309) سنين قمرية على التقريب، وكل سنة تمام الزمان بفصوله، وهذه الجملة قريية من ثلث يوم واحد من أيام الربّ وإنّ يوما عند ربّك كآلف سنة ممّا تعدّون، فإذا أخذ العارف في مشهد من مشاهد الربوبية حصل في مقدار يومها في تلك اللحظة من العلوم الإلهية ما يحصل غيره في عالم الحسّ مع الاجتهاد والتهيؤ من العلوم الإلهية في ألف سنة من هذه السنين المعلومة، وعلى هذا المجرى يكون ما يحصله واحد من هؤلاء الثلاثمائة من العلوم الإلهية إذا اختطف عن نفسه وحصره يوم من أيام الربّ] انتهى.

وفي هذا الباب ذكر الشيخ أيضا أنّ من أولياء الطبقات الثابت عددها، طبقة الرجال الستة الذين لعلومهم تعلق بالجهات الستة والأيام الستة التي تمّ فيها خلق السماوات والأرض، وكذلك طبقة الرجال الأربعة وعشرين وهم رجال الفتح الذين بهم يفتح الله على قلوب أهل الله ما يفتحه من المعارف والأسرار، فهم على عدد الساعات لكل ساعة رجل مُعَيّن... وكذلك في جوابه عن السؤال السادس من أسئلة الترمذي (الباب

73 / 2 ص 44) يربط الشيخ بين عدد أهل الشهود والحديث وهم أربعون، مع عدد أيام الخلوة الأربعينية...

الأوتاد والكعبة والركن الخامس وموقعه في الأعداد والحروف

فالأركان الأربعة للكعبة (أربعة للحس وأربعة للمعنى) مناسبة للحقائق العرشية الثمانية ، وإذا أضفنا الروحانيات الملكية الأربعة الممدّة لهم أي جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل فالعدد يصبح اثنا عشر على عدد البروج . والمنازل الثمانية والعشرون راجعة للبروج الاثني عشر، والبروج راجعة لثمانية العرش، وثمانية العرش راجعة لأربعة الطبيعة (حرارة برودة يبوسة رطوبة) وهذه الأربعة راجعة للثنتين أي قوتي النفس الكلية : العلمية والعملية ، وهاتان القوتان راجعتان إلى مظهري العقل الأوّل وهما علمه الإجمالي المعبر عنه بالنون وقدرته التفصيلية المعبر عنها بالقلم الأعلى، وهذان المظهران راجعان للاسمين (العليم المدبر) و (التقدير المفصل)، فللعليم المدبر الإجمال والأمر، وللتقدير المفصل التفصيل والخلق، قال تعالى: "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ"، وقال: "وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ" فالأمر واحد مجمل، وقال: "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ" فالآيات الخلقية مفصلة، فالعليم المدبر له الكيف، والتقدير المفصل له الكم... وهذان الاثنان أصلهما من الكمال المطلق الجامع للأضداد، فكّم تفصيل الآيات الخلقية من التقييد والحدوث، وكيف إجمال الأمر العلمي الواحد من الإطلاق والقدم، وهما وجهان لحقيقة الحقائق في وحدة أحييتها المتجلية في الكثرة اللامتناهية ...

وكما أنّ موقع نظير الركن الخامس في العرش في مقام الروح المركزي، وموقعه في فلك البروج عند أول درجة الميزان، فموقع نظيره في الكعبة هو ركن الحجر الأسود أي ركن قطب الأوتاد الأربعة الذي اسمه (عبد الله) ، ونظيره في الأعداد العدد (واحد) ، ومجموع أعداد الحروف الثمانية والعشرين كما سبق ذكره هو (5995) ، ومجموع هذه الأرقام هو (28) ، و $10=2+8$ ، ثم $1=1+0$ فهذا الواحد هو النظير لذلك الركن الخامس .

وكذلك نظيره في الحروف حرف الألف ، ولهذا يقول الشيخ في الباب الثاني (1 ص 56): [وعن حقيقة الألف صدرت هذه الحروف كلّها، وهو فلكها روحا وحسّا، وكذلك ثم موجود خامس هو أصل لهذه الأركان] .

ثم إن للأركان الخمسة تناسبا مع الألوان الخمسة : الأبيض والأصفر والأحمر والأزرق والأسود .

علوم الأوتاد وفواتح السور النورانية المحمدية الثمانية والسبعون

ولهذا فإنّ أول حرف تحققت به الروحانية المحمّدية عند بداية حركتها بمطلع برج الميزان هو الألف، وهذا لأنّ ثمة علاقة أصيلة بين فواتح السور الثمانية والسبعين، أي الحروف المقطعة التي افتتحت بها تسعة وعشرون سورة، وبين العلوم الثمانية والسبعين اللازمة للأوتاد الأربعة، وبين المدة الدهرية للدورة البرجية أي 78000 سنة . وفي هذا المعنى يقول الشيخ في الباب (2 / 255 ص 555): [ولا يتمكن لهذا الخليفة (أي قطب الأوتاد) أن يقوم في الخلافة إلا بعد أن يحصل معاني حروف أوائل السور سور القرآن المعجمة...]. وهذا لأنّ القطب هو خليفة للإنسان الكامل سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم الذي اكتسبت روحه بحركة الزمان عبر البروج أخلاق الكمال ببروزها من كمونها الغيبي إلى فعلها الروحاني، ولهذا كان بينه صلى الله عليه وسلم وبين كل واحد من الرسل ثمانية وسبعون حظا ومقاما كما ذكره الشيخ في جوابه الخامس والسبعين عن أسئلة الترمذي (2 ص 87) ، لأنّه كان نبيا وآدم بين الماء والطين ، فكان صلى الله عليه وسلم هو الممدّد لهم جميعا وقت ظهورهم . ومن هذه الأخلاق المحمّدية الثمانية والسبعين نشأت شعب الإيمان الثمانية والسبعين التي منها ظهرت جنّات الأعمال التي لها نفس هذا العدد (راجع جوابه عن السؤالين 74 و 75 من أسئلة الترمذي: 2 ص 87).

فكما أنّ مبدأ ظهور الخلق الملكوتي الأعلى كان من حضرة النّون، فكذلك إلى هذا الحرف انتهت الدورة الفلكية العرشية التي ابتدأت من الألف، وكذلك أقسم الحق تعالى بهذا الحرف على عظمة الخلق المحمّدي، لأنّه بانتهاء تحقق روحه صلى الله عليه وسلم بأخلاق هذا الحرف في آخر برج السنبلّة، ظهر بجسده الشريف كاملا مكتملا في أول برج الميزان مع ألف التوحيد فقال الشيخ عنه صلى الله عليه وسلم: [فما زالت تكتسب هذه الأخلاق الروحانية قبل وجود تركيبها إلى أن ظهرت صورة جسمه في

عالم الدنيا بما جبله الله عليه من الأخلاق المحمودة فقليل فيه: "وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ"
فكان ذا خلق لم يكن ذا تخلق...] - الباب 1/14 ص 146-

ويشير الشيخ إلى علاقة فواتح السور بشعب الايمان فيقول في الباب الثاني ص 60:
[فلا يكمل عبد الأسرار التي تتضمنها شعب الايمان إلا إذا علم حقائق هذه الحروف
على حسب تكرارها في السور، كما أنه إذا علمها من غير تكرار علم تنبيه الله فيها
على حقيقة الإيجاد وتفرد القديم سبحانه بصفاته الأزلية.... ثم إنه سبحانه جعل أولها
الألف في الخط والهمزة في اللفظ وآخرها النون، فالألف لوجود الذات على كمالها
لأنها غير مفتقرة إلى حركة، والنون لوجود الشطر من العالم.... فالألف كاملة من
جميع وجوها والنون ناقصة فالشمس كاملة والقمر ناقص لأنه محو فصفة محوه
معاراة وهي الأمانة التي حملها] انتهى.

ولفواتح السور توزيع آخر حسب أيام الشهر القمري لكل منزلة حروفها حسب ترتيبها
في السور نبه الشيخ عليه في الباب (198/ فصل 27- 2 ص 448-449) حيث
يقول: [فصورها مع التكرار تسعة وسبعون ملكا بيد كل ملك شعبة من الإيمان... فمن
نظر في هذه الحروف بهذا الباب الذي فتحت له يرى عجائب، وتكون هذه الأرواح
الملكية التي هذه الحروف أجسامها تحت تسخيرها، وبما بيدها من شعب الإيمان تمده
وتحفظ عليه إيمانه... ولكل حرف ليلة من الشهر....] إلى آخر ما فصله فراجع...

الأوتاد والطبائع الإنسانية وجهاتها الأربعة وطوائف الجنة والنار

ثم إن أولئك الأوتاد هم الذين يحفظ الله بهم أركان بيت الدين وهي الرسالة والنبوة
والولاية والايمان، وأصحابها هم أهل الجنة بطوائفها الأربعة، أي أهل المناير
والكراسي والأرائك والمراتب (راجع أحوالهم في "لطائف الأسرار" وفي الباب 65/
ج 1 ص 317.... والبابين 61/62) ، لأنهم حفظوا جهاتهم الأربعة من دخول
الشیطان عليهم منها.. وأمّا الذين تولاهم الشيطان بدخوله فيهم من أحدها فهم طوائف
جهنم الأربعة : المشركون والمعطلة والمتكبرون على الله والمنافقون... وإنما يدخل
الشیطان على العبد حسب طبع مزاجه وميل هواه، لأن طبعه هو حجابته الذي يخلد به
إلى الأرض، وهواه هو الذي يضلّه عن سبيل الله تعالى..

فجهة الأمام مناسبة لركن النار، ولصاحب المزاج الصفراوي (راجع ما قاله الشيخ
عن اعتدال المزاج وانحرافه حسب أخلاطه وطبائعه في باب معرفة الفراسة وهو

الباب 148/ج 2 ص 235...) وعنه يقول الشيخ: [وأما كون ميل طباعه إلى المرّتين فهو أن يغلب عليه في الصفراء الجنوح إلى العالم العلوي، وفي السوداء إلى العالم السفلي واستخراج ما أخفى فيه من قرّة أعين ممّا تحجب الطبيعة أكثر العقول في النظر فيها...]. فوجدت هذه الجهة هي التي يدخل منها الشيطان للمشارك ليفسد عليه رؤية شمس التوحيد وهي مشرقة كما ورد في الحديث أنّ الشمس تطلع بين قرني الشيطان، فالقرنان يشيران للاتينية التي هي عقيدة المشرك، وفي هذا يقول الشيخ في الباب (16/ ج 1 ص 158) عن الشيطان (وما بين قوسين توضيح لكلامه):

[ويستعين على الانسان بالطبع فإنّه المساعد له فيما يدعو إليه من اتباع الشهوات، فأمر الانسان أن يقاتله من هذه الجهات وأن يحصن هذه الجهات بما أمره الشرع أن يحصنها به حتى لا يجد الشيطان إلى الدخول إليه منها سبيلا، فإن جاء من بين يديك وطردته لاحت لك من العلوم علوم النور منة من الله عليك وجزاء حيث آثرت جناب الله على هواك، وعلوم النور على قسمين علوم كشف وعلوم برهان بصحيح فكر (تأمل علاقة علوم النور بعلوم الوجد الذي له هذه الجهة الأمامية الشرقية أي البروج النارية، فعلوم الكشف هي المظهر العلوي للحقيقة النارية ولها النور، وعلوم البرهان هي مظهرها الوسطي لامتزاجها بدخان الفكر)...] إلى آخر ما فصله...

وجهة الخلف الغربية مناسبة لركن الهواء، ولصاحب المزاج الدموي، فإذا غلب هذا المزاج على صاحبه بحيث ينحرف عن الاعتدال ويكون عبدا لهواه كما وصف الحق صاحبه بقوله: "وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ"، وإنما يجتث بها الريح إذا اشتدت، وهي ريح الهوى التي يقول عنها الشيخ في فاتحة الباب 273 :

[هلاك الخلق في الريح إذا ما هبّ في اللوح

ولاذ بغير مولاه إله الجسم والروح]

وجهة الخلف هذه هي التي يدخل الشيطان منها على المعطلة الذين ينفون وجود إله للعالم لأنّ الخلف ما هو محلّ للنظر، وهم الذين قال الله عنهم (وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً). يقول الشيخ:

[وإن جاءك من خلفك وهو ما يدعوك إليه أن تقول على الله ما لا تعلم وتدّعي النبوة والرسالة.... فإذا طردته من خلفك لاحت لك علوم الصدق ومنازله وأين ينتهي بصاحبه كما قال تعالى: "فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ"، ألا إنّ ذلك صدقهم هو الذي أقعدهم ذلك المقعد: "عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ" فإنّ الاقتدار يناسب الصدق فإنّ معناه القوى، يقال رمح

صدق أي صلب قوي . ولما كانت القوة صفة هذا الصادق حيث قوي على نفسه فلم يتزين بما ليس له والتزم الحق في أقواله وأحواله وأفعاله وصدق فيها أقعده الحق عند ملك مقدر، أي أطلعه على القوة الإلهية التي أعطته القوة في صدقه الذي كان عليه، فإنّ الملك هو الشديد أيضا فهو مناسب للمقدر (تأمل العلاقة بين هذه القوة والهواء الذي هو أقوى الأركان، فللهواء مظهرين متعاكسين: الهواء السفلي هو الريح العقيم المميت الذي يطفئ سراج نور الهداية باتباع الهوى النفساني الشيطاني، والهواء العلوي وهو الرياح اللواحق من نفس الرحمان التي تبعث الحياة وتسوق السحب وتنعش نور ذلك السراج في مقام قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يومن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به") فيحصل لك إذا خالفته (أي الشيطان) في هذا الأمر الذي جاءك به علم تعلق الاقتدار الإلهي بالإيجاد.... ويحصل لك علم العصمة والحفظ الإلهي حتى لا يؤثر فيك وهمك ولا غيرك فتكون خالصا لربك] انتهى.

وجهة اليمين الجوفية مناسبة لركن الماء ولصاحب المزاج البلغمي، فإذا انحرف عن الاعتدال ودخل عليه الشيطان من هذه الجهة الموصوفة بالقوة، فإنه يعمل على نفخ التكبر في نفسه إلى أن يصل إلى دركة فرعون الذي قال لقومه: "أنا ربكم الأعلى"، فجهة اليمين هي التي يأتي منها الشيطان إلى المتكبر لأنّ لليمين القوة، ولولا القوة الذي توهمها المتكبر في نفسه لما تكبر عن الحق وعباده. يقول الشيخ: [وإن جاءك من جهة اليمين فقويت عليه ودفعته، فإنه إذا جاءك من هذه الجهة الموصوفة بالقوة فإنه يأتي إليك ليضعف أيمانك ويقينك ويلقي عليك شبحا في أدلتك ومكاشفاتك... وإن جاءك من جهة الشمال بشبهات التعطيل أو وجود الشريك لله تعالى في ألوهيته فطرده فإنّ الله يقويك على ذلك بدلائل التوحيد وعلم النظر....]. وهذه الجهة الشمالية الجنوبية مناسبة لركن التراب ولصاحب المزاج السوداوي، ومنها يدخل الشيطان على المنافقين، وهي أضعف الجهات لأنّ الشمال له الضعف ولا أضعف من ركن التراب، فالنار أقوى منه، والماء أقوى من النار، والهواء أقوى من الماء، وكذلك فإنّ المنافق هو أضعف الطوائف الأربعة الهالكة لأنّه لم يتمكن من الإسلام لضعف يقينه وتوحيده، ولم يتمكن من التصريح بالكفر لخوفه على نفسه، ولذلك فقد أخبر القرآن أنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار، لأنّ ترايبتهم السوداء هي أسفل الأركان، وعندما يلتمسون يوم القيامة النور من المؤمنين يقال لهم ارجعوا وراءكم، أي ارجعوا إلى طبيعتكم الشمالية السوداء، كما قال تعالى: " سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ".

وإنما يدفع المومن الشيطان بواسطة قلبه وجوارحه السبعة المكلفة، وكلما دفعه من جهة ترقى إلى سبع مقامات، لكل جراحة مقام (راجع مقامات الجوارح وما تنتجها طاعاتها في كتاب "مواقع النجوم" للشيخ الأكبر)، فمجموع هذه المقامات (28=4*7) ، والتاسع والعشرون هو مقام القلب القطبي الذي هو موقع الركن الخامس الأصلي في

الانسان كموقع الروح في مركز العرش . فتأمل علاقة هذا العدد بمواقع فواتح السور التسعة والعشرين . ثم إنّ هذه المقامات الثمانية والعشرين منسحبة على كل ركن من أركان بيت الدين أي الرسالة والنبوة والولاية والايمان، فالمجموع الكلي هو حينئذ (112=4*28) أي على عدد سور القرآن باعتبار الأنفال والتوبة سورة واحدة، كما هو موقف الشيخ الأكبر، وكمال الـ113 هو فاتحة الكتاب التي لها منزل القلب وموقعها من القرآن موقع الركن الخامس الأصلي من بقية الأركان، ومن هنا جاءت نسبتها الكاملة مع سورة (يس) قلب القرآن . فمن أكمل التحقيق بهذه الـ113 مرتبة قرآنية فهو العبد القرآني الكامل وهو عين بيت الدين الجامع للأركان الأربعة، و طول ارتفاع الكعبة مناسب لهذا العدد نفسه...

من ناحية أخرى: قلنا إنّ المومن إذا دفع الشيطان من إحدى الجهات الأربعة فإنه يكتسب 7 مقامات، وإنما تمّ له ذلك الدّفْع بإمداد باطني من حضرة الأسماء الحسنى المائة، أي أنّ له في تلك المقامات السبعة، سبعمائة درجة كما إليه الإشارة في قوله تعالى متكلماً عن ثواب صدقات أهل الجنة: "كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ"، وفي مقابلهم يتكلم عن عذاب البخلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيقول أنّه تُكوى بها جباههم (أي جهة الأمام بدرجاتها السبعمائة) وجنوبهم (أي جهتيّ اليمين والشمال لكل جهة ذلك العدد من الدرجات) وظهورهم (أي جهة الخلف وله أيضا ذلك العدد) فمجموع الدرجات الجهنمية $2800=4*700$ وكذلك الدرجات الجنانية.

الأوتاد وفاتحة الكتاب ومنازل القمر

وتأكيدا لعلاقة الأوتاد بالفاتحة وارتفاع الكعبة ومنازل القمر ودرجات الجنان والنيران نذكر باختصار كبير بعض ما ذكره الشيخ في هذا الشأن:

ففي الباب (383/ 3 ص 521-522) المخصوص بمنزل فاتحة الكتاب يقول: [..فهو تعالى حافظ هذه المدينة الانسانية (أي ذات العبد) لكونها حضرته التي وسعته وهي عين مملكته . وما وصف نفسه بالجنود والقوة إلا وقد علم أنه تعالى قد سبقت مشيئته في خلقه أن يخلق له منازعا ينازعه في حضرته (أي الشيطان) وسلطه على الانسان...فجعل الله في مقابلة أجناده أجناد ملائكته، فلما تراءى الجمعان، وهو في قلب جيشه في باطن الانسان في مقابلة قلب جيش الشيطان، وجعل على يمينته الاسم الربّ وعلى يسارته الاسم الملك وعلى تقدمته الاسم الرحمان وفي ساقته الاسم

الرحيم، وجعل الاسم الهادي يمشي برسالة الرحمن في المقدمة إلى هذا الشيطان...ولا يزال القتال يعمل على هذا الانسان المومن خاصة فيقاتل الله عنه ليحفظ عليه إيمانه، ويقاقل عليه إبليس ليسلبه الايمان ويخرجه عن طريق سعادته حسدا منه...] انتهى.

وفي الباب 71 الخاص بالصيام يقول (1 ص 658):

[واعلم أنّ الشهر هنا بالاعتبار الحقيقي هو العبد الكامل إذا مشى القمر الذي جعله الله نورا فأعطاه اسما من أسمائه ليكون هو تعالى المراد لا جرم القمر، فالقمر من حيث جرمه مظهر من مظاهر الحق في اسمه النور، فيمشي في منازل عبده المحصورة في ثمانية وعشرين، فإذا انتهى سمّي شهرا على الحقيقة لأنه قد استوفى السير واستأنف سيرا آخر، هكذا من طريق المعنى دائما أبدا. فإنّ فعل الحق في الكائنات لا يتناهى فله الدوام بإبقاء الله تعالى، كما أن العبد يمشي في منازل الأسماء الإلهية وهي تسعة وتسعون، التاسع والتسعون منها الوسيلة، وليست إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم، والثمانية والتسعون لنا كالثمانية والعشرين من المنازل للقمر. والعشرون خمس المائة لأنها في الأصل مائة اسم، لكن الواحد أخفاه للوترية فإنّ الله وتر يحب الوتر... وإنا قلنا منبهين على منازل القمر ثمان وعشرين منزلة لأنها قامت من ضرب أربعة في سبعة، ونشأة الانسان قامت من أربعة أخلاط مضروبة في سبع صفات من حياة وعلم وإرادة وقدرة وكلام وسمع وبصر، فكان من ضرب المجموع بعضه في بعضه الانسان، ولم يكن له ظهور إلا بالله من اسمه النور.....] انتهى.

وفي الباب 72 الخاص بالحج (1 ص 666-667) يقول مع اختصار كبير لكلامه:

[إنّ الله تعالى جعل لبيته أربعة أركان لسرّ إلهي، كما جعل للقلب أربعة خواطر، فالخاطر الإلهي لركن الحجر الأسود، والملكي للركن اليماني، والنفسي للركن الشامي، والشيطاني للركن العراقي..... وارتفاع البيت سبعة وعشرون ذراعا وذراع التحجير الأعلى فهو ثمانية وعشرون ذراعا، كل ذراع مقدار لأمر ما إلهي يعرفه أهل الكشف، فهذه المقادير نظير منازل القلب التي تقطعها كواكب الايمان السيارة لإظهار حوادث تجري في النفس المضاهي لمنازل القمر والكواكب السيارة لإظهار الحوادث في العالم العنصري، حرفا بحرف ومعنى بمعنى] انتهى.

ويقول أيضا :

[...جهنّم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم...فإذا ضربت الأربعة التي هي المراتب التي دخل عليهم منها إبليس في السبعة الأبواب (المناسبة للجوارح السبعة: باب سجين للبصر، باب الحطمة للسمع، باب لظى للسان، باب سقر لليدين، باب

السعير للبطن، باب الجحيم للفرج، باب جهنم للقدمين، والباب الثامن المغلق للقلب المحجوب عن رؤية ربه، وهو عين الباب المفتوح في أعلى الجنة ومنه يدخل السعداء لكثيب الرؤية في جنة عدن، وتلك السبعة في مقابلة الجنان السبعة وهي: جنة عدن فالفردوس فالنعيم فالمأوى فالخلد فدار السلام فدار المقامة) كان الخارج ثمانية وعشرون منزلاً، وكذلك جعل الله المنازل التي قدرها الله للإنسان المفرد وهو القمر وغيره من السيارة الخنّس الكنّس، تسير فيها وتنزلها لإيجاد الكائنات ، فيكون عنده هذا السير ما يتكون من الأفعال في العالم العنصري، فإنّ هذه السيارة قد انحصرت في أربع طبائع مضروبة في ذواتها وهنّ سبعة فخرج منها منازلها الثمانية والعشرون... وكان مما ظهر عن هذا التسيير الإلهي في هذه الثمانية والعشرين وجود ثمانية وعشرين حرفاً، ألف الله الكلمات منها وظهر الكفر في العلم والإيمان بأن تكلم كل شخص بما في نفسه من إيمان وكفر.... (راجع في الباب 198 علاقة هذه الحروف بمراتب الوجود الثمانية والعشرين) فجعل منازل النار ثمانية وعشرين منزلاً، وجهنم كلّها مائة درك من أعلاها إلى أسفلها نظائر درج الجنة التي ينزل فيها السعداء، وفي كل درك من هذه الدركات ثمانية وعشرين منزلاً، فإذا ضربت ثمانية وعشرين في مائة فما برحت الثمانية والعشرون تصحبنا وهذه منازل النار، فلكل طائفة من الأربع سبعمائة نوع من العذاب، وهم أربع طوائف فالمجموع ثمان وعشرون مائة نوع من العذاب، كما لأهل الجنة سواء من الثواب، يبين ذلك في صدقاتهم كمثّل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة، فالمجموع سبعمائة، وهم أربعة طوائف رسل وأنبياء وأولياء ومؤمنون، فلكلّ متصدق من هؤلاء الأربعة سبعمائة ضعف من النعيم في عملهم . فانظر ما أعجب القرآن في بيانه الشافي... [انتهى.

هلاك الأمم عند انحرافهم بغلبة أحد الأخلاط الأربعة

يوجد تناسب بين الأركان والحواس والأخلاط في جسم الإنسان : فلنار بصر العين والصفراء ، وللهواء سمع الأذن وشم الأنف والدم ، وللماء ذوق اللسان والبلغم ، وللتراب لمس الجلد والسوداء . ونظير الركن الخامس في الحواس روحها الحيواني ، ونظيره في الأخلاط المزاج .

ولعلاقة الشيطان والفوز أو الهلاك بالأركان والجهات والأخلاط الأربعة نجد أنّ هلاك الأمم الضالة كان بواسطة هذه الأركان الأربعة، فالأمم التي غلب عليها التراب الأسود

كقوم لوط أو مثل قارون هلكوا بالتراب فخشفت بهم الأرض، لأنّ جزء كل أحد من جنس عمله وطبعه كما قال تعالى: "سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ". والأمم التي غلب عليها الهواء باتباع الهوى هلكوا بالريح العقيم لا تأتي على شيء إلا جعلته كالريميم أو هلكوا بالصيحة . والأمم التي غلب عليها الطبع الناري هلكوا بالصواعق وريح السموم المحرقة كقوم هود وصالح . والأمم التي غلب عليها المزاج البلغمي بالإفراط في طبع الماء هلكوا بالغرق كقوم نوح وفرعون، وإلى هذا يشير الشيخ في (باب سفر نوح عليه السلام) من (كتاب الأسفار) فيقول:

[ولما كان الماء يماثل العلم في كون الحياة عنهما حسا ومعنى، لهذا أهلكوا بالماء لردهم العلم، وكان من التنور لأنهم ما كفروا إلا بماء التنور، وما ردوا إلا العلم الذي شافهم به على لسان تنور جسمه، وما علموا أنّه مترجم عن معناه الذي هو النور المطلق، فأنحبوا بماء التنور عن التنور، وما علموا أنّه النور دخلت عليه تاء تمام النشأة بوجود الجسم فعاد تنورا أي نورا تام الملك فهو نور، النار مظهره... ألا ترى أنّ موسى عليه السلام لما أراد أن يدعو على قومه بالهلاك دعا عليهم بالبخل فلما بخلوا هلكوا...]. فقول الشيخ أنهم انحبوا بماء التنور عن نوره، دليل على غلبة طبع الماء على أمزجتهم حتى أفقدهم الاعتدال الذي يجعل العبد ثابتا في الطريق المستقيم...

ثم إنّ غلبة هذه الطبائع إلى حدّ الانحراف تابع لأدوار زمنية تتعلق بولاية البروج، فطوفان نوح عليه السلام مثلا متعلق بحكم خاص لبرج السرطان المائي، وفي هذا يقول الشيخ في (كتاب الأسفار) باختصار: [واعلم أنّ إدريس عليه السلام لما علم أنّ الله تعالى قد ربط العالم ببعضه ببعضه، وعان أن الكواكب قريبة الاجتماع من برج السرطان، علم أنّه لا بدّ أن يكون طوفانا عاما ويهلك الناس وينسى العلم، وأراد بقاء هذا العلم على من يأتي بعدهم فأمر بنقشها في الصخور والأحجار.... ولما عرف نوح عليه السلام أنّ الطوفان الذي قدره الله قد قرب وقته ورأى أنّ ذلك يكون في برج السرطان وهو مائي، وهو البرج الذي خلق الله الدنيا به وهو متقلب غير ثابت . ولما كان البرج بهذه الصفة فكان طالع الدنيا به، شاء الحق بفنائها وانقلابها إلى الدار الآخرة مثل طالعها وهو الأسد وهو برج ثابت، فأخذ نوح ينشئ السفينة] انتهى.

يقول الشيخ أنّ الدنيا – أي كل ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة - خلقت عند مطلع برج السرطان المائي، وهو أحد الأربعة بروج المنقلبة، والثلاثة الأخرى هي الحمل والميزان والجدي، وأمّا الثابتة فهي الثور والأسد والعقرب والدلو، والأربعة الباقية تسمى ذات جسدين- ولذلك كان مصير الدنيا بانقلاب أمرها للآخرة الثابتة لأنّها مخلوقة بطالع برج الأسد الناري الثابت. وكما وقع الطوفان لما كانت الكواكب السيارة في هيئة هي أقرب ما يكون من السرطان، فكذلك ستتقلب الدنيا إلى الآخرة عندما

تكون تلك الكواكب في هيئة فلكية وحكم برجى مناسب . والمتفق عليه في جميع الكتب المقدسة أنّ انقلاب أمر الدنيا إلى الآخرة سيكون تحت حكم النار، ولهذا كثيرا ما يقول الشيخ أنّ كل عالم الدنيا يتحوّل إلى جهنّم ما عدا أماكن معينة من الأرض. ويقول بعض أهل هذا العلم أنّه إذا بلغ قلب الأسد إلى حد المريخ - وهو الكوكب الناري وهو نحس محض- في برج الأسد، فيكون طالع القران بين المريخ وزحل وطالع الأسد ويستولي المريخ عليها، فيكون طوفان من النار يعمّ الدنيا. وفي القرآن آيات كثيرة دالة على هذا حتّى أنّ الماء الذي له طبع منافر تماما للنار يتحوّل نارا كما قال تعالى: "وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ"، وقال: "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ"، ومن شدة الحرارة حينئذ تكون الجبال "كثيبًا مهيبًا"، ثم تزداد حرارتها فتكون "كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ"، إلى أن يتحقق فيها قوله عزّ وجلّ: "وَسَيَّرَ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا". فإذا أصبحت أقوى أجزاء الأرض سرابا فكيف بما عداها .

رجال الهيبة والجلال الأربعة

فلأولئك الأوتاد الأربعة علاقة بمثل هاته العلوم . ومع جلاله قدرهم فإنهم يستمدون من رجال أربعة آخرين يصفهم الشيخ في الباب (73 / 2 ص 12) بقوله - وما بين قوسين هو كالتعقيب على كلامه - [ومنهم رضي الله عنهم أربعة أنفس في كل زمان لا يزيديون ولا ينقصون آيتهم من كتاب الله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ"، وآيتهم أيضا في سورة "تبارك الملك": "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاقُوتٍ"، هم رجال الهيبة والجلال، كأنما الطير منهم فوق رؤوسهم لا خوف ظلم ولكن خوف إجلال، وهم الذين يمدّون الأوتاد، الغالب على أحوالهم الروحانية، قلوبهم سماوية، مجهولون في الأرض، معروفون في السماء، الواحد من هؤلاء الأربعة هو ممّن استثنى الله تعالى في قوله: "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ"، والثاني له العلم بما لا يتناهى وهو مقام عزيز يعلم التفصيل في المجمل وعندنا ليس في علمه مجمل، والثالث له الهمة الفعالة في الإيجاد ولكن لا يوجد عنه شيء ، والرابع توجد عنه الأشياء وليس له إرادة فيها ولا همة متعلقة بها. أطبق العالم الأعلى على علو مراتبهم، أحدهم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، والآخر على قلب شعيب عليه السلام، والثالث على قلب صالح عليه السلام، والرابع على قلب هود عليه السلام (قال الشيخ في الفتوحات أنّ هؤلاء الرسل الأربعة هم بمثابة الأشهر الحرم الأربعة من بقية المشهور، وهم من العرب) ينظر إلى أحدهم من الملاء الأعلى عزرائيل، وإلى الآخر

جبرائيل، وإلى الآخر ميكائيل، وإلى الآخر إسرافيل (أي مثل الأوتاد) . أحدهم يعبد الله من حيث نسبة العماء (وهذا هو الممدّ لوتد البروج الهوائية لأنّ الهواء هو أقرب الأركان للعماء - والله أعلم -)، و الثاني يعبد الله من حيث نسبة العرش إليه (وهو الممدّ لوتد البروج المائية لقوله تعالى: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ") ، والثالث يعبد الله من حيث نسبة السماء إليه (وهو الممدّ لوتد البروج النارية لقوله تعالى: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ" والدخان من مظاهر النار)، والرابع يعبد الله من حيث نسبة الأرض إليه (وهو الممدّ لوتد البروج الترابية) . فقد اجتمع في هؤلاء الأربعة عبادة العالم كله ، شأنهم عجيب وأمرهم غريب ما لقيت فيمن لقيت مثلهم...] انتهى.

خلاصة القول أنّ رجال الجلال الأربعة قلوبهم تنظر إليها ملائكة الطوائع الأربعة الذين مقامهم بالملكوت الأعلى بين اللوح المحفوظ والعرش، ولذلك سمّاهم الشيخ برجال الهيبة والجلال لأنّ مقامهم في عالم الجلال الأعلى الملحق بالأرواح المهيمّة والقلم واللوح؛ فإسرافيل ناظر لرجل العماء، وميكائيل لرجل العرش، وجبريل لرجل السماء، وعزرائيل لرجل الأرض. أمّا الأوتاد الأربعة فقلوبهم تنظر إليها روحانيات الأركان الأربعة ، وملائكة البروج الاثني عشر تنظر إلى قلوب الأقطاب الاثني عشر وإلى النقباء الاثني عشر.

الأوتاد والفصول الأربعة

وكل هؤلاء الرجال والأملاك لهم التصرّف في الفصول الأربعة من السنة، ولهذا نجد الشيخ في كتابه (لطائف الأسرار) يتكلم عن بعض العلوم التي أخذها من إدريس عليه السلام في سماء الشمس ، فيذكر منها علوم كل فصل وآثاره الحسية والمعنوية في الكون، فلنذكر ما قاله باختصار، ونجعل بين قوسين شرحا بسيطا للغامض من كلامه، قال:

[فقلت له (أي لإدريس عليه السلام): أريد أن توقفني مشاهدة عين، على تأثيراتك في قلوب العارفين والعلماء والمريدين من عالم الكون وما تعطيه أفلاكك وما تهبه أملاكك، فأشار إلى أكرم خُدمائِه (أي روحانية الشمس) وقال: اخترق به الدور المربّع (أي فلك البروج بأقسامه الأربعة) وأشرف به على الكون المسبّع (أي فلك المنازل، ففي كل ربع من دائرة الفلك سبعة منازل ، أو الكواكب الدراري السبعة في أفلاكها)، فإذا حصل مفاتيح الخزائن (لكل خزانة درجة فلكية) وموازن المعارف رُدّه إليّ. فاخترق بي تسعين فلكا (أي هي التسعين درجة فلكية في البروج الثلاثة الأولى التي

تقطعها الشمس وهي الحمل والثور والجوزاء، في كل برج ثلاثون درجة) فرأيت مع كل فلك ملكا، يرجع أمر هؤلاء الأملاك إلى ثلاثة أملاك: الملك الواحد موكل بالتحليل (وهو ملك الحمل الناري وللنار التحليل) ومدة تدبيرهم في العالم ثلاثة وثلاثون ألف سنة (أي للحمل اثنا عشر ألف وللثور إحدى عشر ألف وللجوزاء عشرة آلاف)، وتدبيراتهم شريفة حسنة (لشرف الربيع وحسنه) بين أيديهم سبعة أملاك على صورة المردان لا نبات بعوارضهم (هم أملاك المنازل السبعة الأولى: النطح والبطين والثريا والدبران والهقعة والتحية والذراع، وكونهم في صورة المردان إشارة إلى مناسبة الربيع مع فترة الصبا أي الربيع الأول من عمر الانسان) ولا تأخر عندهم في أداء فرائضهم، بأيديهم الطوالع والمفاتيح (إشارة إلى طلوع الكوكب ونقطة شرفه وأوجه وسقوطه)، فمنهم خمسة لهم حركة واحدة (أي خمسة من هذه المنازل لهم طبع واحد وهم الموجودون بكاملهم في نفس البرج ، وهم النطح والبطين والدبران والتحية والذراع) واثنان لهما حركتان (أي منزلتان لهما طبيعتين ، وهم الثريا بين الحمل الناري والثور الترابي، والهقعة بين الثور والجوزاء الهوائية). واثنان منهم بين يدي ملك التحليل (أي ملكا النطح والبطين يستمدان من ملك برج الحمل الناري) واثنان بين يدي ملك الأنفاس (أي ملكا التحية والذراع يستمدان من ملك الجوزاء الهوائي وللواء الأنفاس). وواحد منهم بين يدي ملك الموت (أي ملك الدبران يستمد من ملك الثور الترابي). وأما الاثنان (أي ملكا المنزلتين اللتين لهما طبيعتين لوجودهما في برجين) فالواحد منهم (وهو ملك الثريا) له علم التحليل (لوجود الثلث الأول من الثريا في الحمل الناري) والموت (لوجود الثلثين الأخيرين من الثريا في الثور الترابي)، والثاني (أي الهقعة) له علم الأنفاس (لوجود الثلث الأخير من الهقعة في الجوزاء الهوائية) والموت (لوجود ثلثيهما الأولين في الثور الترابي) فملك الموت تصريفهما معا، وملك التحليل تصريف الواحد منهما، وملك الأنفاس تصريف الآخر. وهم على درجات متساوية في العد والقوة وأحكام الفعل، غير أنّ الاثنين (أي الثريا والهقعة) أعلم من الخمسة لتحصيلهم العلمين (أي لوجودهم في برجين متتابعين). فلما عاينت هذه المراتب، أشرف بي على الكون المسبّب والعرش الأكمل المعظم المكرم الأرفع، فعاينت ما أحدث الله في قلوب العباد وعلى مراتبهم في حركات تلك الأفلاك وتوجيهات أولئك الأملاك، وذلك أنّ الله تعالى خلق عند تلك الحركات الفلكية والتوجّهات الملكية يجمع بين الأنوار والأسرار في موقف السواء على دقيقة من الحقيقة في العالم المعقول والمحسوس، ويسوّي بين حقائق النفوس ويظهر معارف التأسيس (يبدأ الشيخ هنا في ذكر آثار فصل الربيع في الحسّ والمعنى) ويكسو الأرواح أنفاس النور ويذهب كل باطل وزور، ويحلّ على العلماء بالله وبالأحكام المسائل المعقدة، في العلوم المقيدة وغير المقيدة، ويوضح المبهمات ويشرح المشكلات، ويفتح معالم الصنائع في قلوب الصنائع، ويحسن مواقع النغمات في

الأسماع (ولكل شأن من هذه الشؤون سماء معيّنة، روحانية كوكبها السابح عبر البروج هي التي تنزله إلى الأرض في أوقاته المعيّنة، فكسو الأرواح أنفاس النور من روحانية القمر بالسماء الأولى، وحل العلماء للمشكلات من روحانية الكاتب بالسماء الثانية، وفتح الصنائع وتحسين المواقع من روحانية الزهرة بالسماء الثالثة)، وتسبيل أودية المعارف في قلوب العارفين، وتتفجر عيون العلوم في نفوس العالمين وتعظم أسرار الأسرار والحكم في قلوب الحكماء المحققين (تأمل الترقّي من النفس والعلماء إلى القلب والعارفين إلى السرّ والمحققين، وهذا الشأن من روحانية الشمس بالسماء الرابعة) وتترادف التنزلات الغيبية وترتفع الأسرار الرحموتيات إلى أعلى فروع سدرة الانتهاء (أي إلى عليين بالجنة) وتفتح على الشيوخ المرابين علوم العلل والأدوية ومعرفة اعتدالات الأهوية النفسانية المرديّة وغير المرديّة (وهذا أيضا من شأن سماء ادريس الذي يسمّيه الشيخ بمداوي الكلوم ومن شأن سماء إبراهيم عليه السلام أب المسلمين ومربّي أطفال المؤمنين)، وتبدو لأهل المشاهدات نتائج المجاهدات (وهذا من شأن سماء المريخ سماء الحرب والجهاد والنصر والاستشهاد) فطائفة منهم تنعم بالمشاهدات الذوقية (أي لأنّ لربيع الحسّ فواكه وكذلك لربيع الأرواح) وطائفة منهم تتنعم بمشاهدات الأنفاس والروائح العطرية (فانار المجاهدة من نار الحمل، وذوق المشاهدة من تراب الثور، ومشاهدة الأنفاس من هواء الجوزاء) وفي الحضرة تجتمع هذه المقامات، وفي هذه التوجّهات والحركات، تنفخ أرواح المعاني في قلوب أهل البدايات (لأنّ النفخ راجع للهواء الربيعي أوّل فصول السنة الشمسية) ويرضع أطفال المريدين ثدي أوائل التجليات وينتشر عالم الصعود (أي لأنّ بروج الربيع تشكل الربع الشمالي الصاعد في الفلك) وتقلب أحوال البقاء (لأنّ الحمل برج منقلب)، وتتشوق همم العارفين إلى الوصال ويتسابق العبّاد بالأعمال والمريدون بالأحوال، ويفنى ما يضاد البقاء ويمحى ما يناقض الإثبات (لأنّ الربيع هو فصل انبعاث الحياة من جديد). فهذا ذكر ما عاينت في الكون من تأثير النمط الأوّل من هذا الدّور.

ثمّ ردني إلى النمط الثاني من هذا الدّور (أي دور فصل الصيف، وله في دائرة الفلك الربع الشرقي الصاعد الذي يشمل برج السرطان والأسد والسنبلة) فقطع بي تسعين فلكا، أبصرت أيضا مع كل فلك ملكا، يرجع أمرهم إلى ثلاثة أملاك: الواحد موكّل بالحياة (أي السرطان المائي) والآخر موكّل بالتركيب (أي ملك الأسد الناري، فالنار لها التركيب من يبوستها كما أنّ لها التحليل من حرارتها) والملك الآخر موكل بالفناء (أي ملك السنبلة الترابي، والموت للتراب) ومدة تدبيرهم في العالم أربع وعشرون ألف سنة (أي منها تسعة للسرطان وثمانية للأسد وسبعة للعدراء) بين أيديهم سبعة أملاك (هي للمنازل السبعة في هذا الربع الفلكي الثاني) مقتبلوا الشباب

كأنهم أبناء خمس وعشرين سنة (أي أنّ فصل الصيف يناسب فترة الشباب أو الربع الثاني من عمر الانسان) معصومون في أعراضهم، أشداء على التصريف، وحالهم مع الثلاثة الأملاك (أي استمداد ملائكة المنازل من أملاك البروج) كحال السبعة الأملاك المتقدّمين في الخدمة وترتيب الحكمة: خمسة منهم علماء بفن واحد (لأنّ لهم طبع ركن واحد لوجودهم في برج واحد) واثنان (أي ملكا النثرة والطرف) لملك الحياة (أي لبرج السرطان) وواحد (أي الخرثان) لملك التركيب (أي لبرج الأسد)، واثنان (أي الصرفة بين الأسد والعذراء) لملك الفناء (أي لبرج السنبله) . فلما عاينت منحاهم أشرف بي على الكون المحبوب (اختار الشيخ هذا الوصف لأنّ الحبّ مناسب لحرارة الصيف وناره، وهو فصل الشباب الفائض بالحب) لأرى تأثيراتهم في القلوب بأنواع الغيوب، وذلك أنّ الله تعالى عند هذه الحركات الفلكية والتوجهات الملكية يظهر عالم الأسرار على عالم الأنوار، ويكون العلم في المغرب أكثر منه في المشرق (لأنّ الحركة في هذا الفصل متجهة إلى وتد الغروب ببرج الميزان) ويقر العارف الرباني بالسبق الإلهي المحقق (أي أنّ العارف رباني المقام، أما المحقق فهو إلهي المقام، فالعارف الرباني قمري ليلي ويستمدّ من المحقق الإلهي الشمسي النهاري، وفي بروج الربيع والصيف أي من الحمل إلى نهاية السنبله الليل أقصر من النهار فالعارف الليلي يقرّ في هذين الفصلين بسبق المحقق الإلهي) ويتقوى سلطان الاصطلام على أهل الأحوال والكرامات (أي لأنّ حال الاصطلام مناسب لشدة حرارة الصيف)، ويتمكن العلم النوري في قلوب أهل المقامات (أي لأنّ الصيف مناسب لركن النار التي لها النور، فلاهل الأحوال الاصطلام، ولأهل المقامات التمكين) واستحكم سلطان الشهوات على عالم النفوس (أي لغلبة الشهوة في فصل شباب الزمان) وبانت حقائق الحس والمحسوس (أي لإشراق الشمس في صفاء سماء الصيف) وظهر الضعف في العقول وانقطعت موارد المعقولات (أي أنّ الظهور الحسي يغلب البطون المعنوي كغلبة النهار على الليل في الصيف) واستمرت مواد المنقولات، واحتترقت النفوس شوقاً إلى التجليات، واستحكم سلطان الحبّ في نفوس المحبين حين ظهرت لهم اتصالات النهايات، ورفعت لهم أعيان الغايات، وتعمّرت بحار المحسوسات بفنون الانفعالات، ورضع أطفال المرئيين ثدي الملقيات، وتجلت العظمة المعظمة لأسرار الأولياء (إشارة إلى عظمة شمس الذات المشرقة في صفاء سماء أسرارهم الصيفية) وتمكنت النشأة البشرية بما أعطيت من الأسرار الإلهية (أي لأنّ في السنبله آخر بروج الصيف، كان ظهور آدم عليه السلام الذي علّمه الله الأسماء كلها) من تسخير الأرواح البرزخية (أي الجنّ) والأرواح التي أسرارها في أقدامها (كالحيوان والإنسان) والأرواح التي معارفها في جوانبها (أي الملائكة ذات الأجنحة)...). فهذا بعض ما عاينت في الكون من تأثير النمط الثاني من هذا الدور) .

ثم رَدّني إلى النمط الثالث من هذا الدور (أي دور فصل الخريف وله في الفلك الربع الجنوبي الهابط الذي يشمل الميزان والعقرب والقوس) فجبّت تسعين فلكا قد وُكّل الله مع كل فلك ملكا، يرجع أمرهم إلى ثلاثة أملاك، الملك الواحد موكل بالتنفيس (وهو الميزان الهوائي)، والآخر موكل بالأرواح (وهو العقرب المائي ومن الماء الحياة التي للروح)، والثالث موكل بالنيران (وهو القوس الناري). ومدة تدبيرهم في العالم خمسة عشر ألف سنة (أي منها ستة للميزان وخمسة للعقرب وأربعة للقوس)، يتصرف بين أيديهم سبعة أملاك كهول (أي للمنازل السبعة الواقعة في تلك البروج) وقد كملت قواهم وتحكمت عقولهم (أي أنّ الخريف مناسب للكهولة في عمر الانسان). فلما اطلعت على سرهم نزلت إلى الكون لأرى تأثيرهم، وذلك أنّ الله تعالى ساوى في الدقيقة بين عالم الأسرار وبين عالم الأنوار (أي بين عالم التوجّهات الروحية وعالم الظواهر الحسية) وسكن قلق المشتاق وخدمت نيران الاشتياق (أي انقضت حرارة الصيف) وطرأت على القلوب التغيرات (لأنّ الميزان منقلب بالزمان) وقلّت المعارف وتوقفت التنزّلات واحتجبت المقامات وانقطعت موارد علوم العلل والشفاء (لأنّ الخريف له ركن التراب وهو ركن الفناء والموت) وذهبت أسرار الأقدام فكان أصحابها على شفاء، ورجع العارفون عالمين بسرّ الانتقاص (لأنّه في هذا الفصل ينقص النهار ويطول الليل) وتوفرت دواعي الإخلاص، وحصل الواقفون في موقف السلب وتجلّى الاسم الحفيظ وسمع في الملأ الأعلى من انظاظهم كظيظ، وانتقلت المحبة من المحبوب إلى المحبوب المطلوب ووقعت العصمة على الخواطر والقلوب وانطردت الوسواس والأبالس، ولم يكن لعلام الأرواح قوة التصرف إلا في الخسائس، فظهرت أسرار الأكوان وما تضمنه الملوان، واستوى الخفيف والثقيل والبعيد والقريب. فهذا بعض ما عاينت في الكون من هذا النمط الثالث من هذا الدور.

ثم رَدّني إلى النمط الرابع من هذا الدور (أي دور الشتاء بالربع الغربي الهابط و دائرة الفلك الذي له الجدي والدلو والحوت) فدرت مع تسعين فلكا، قد رتب الله بكل فلك ملكا، يرجع أمرهم أيضا إلى ثلاثة أملاك الملك الواحد موكل بالمحو (وهو للجدي الترابي) والآخر بالأرجاء (وهو للدلو الهوائي) والثالث موكل بالعلم (وهو للحوت المائي)، ومدة تدبيرهم ستة آلاف سنة (منها ثلاثة للجدي واثنان للدلو وواحد للحوت) بين أيديهم سبعة أشياخ هرم (أي المنازل السبعة الأخيرة المناسب ربعمهم إلى الربع الأخير من العمر). فلما فككت رموزهم اطلعت على الكون لأرى ما ظهر من سلطان هذا الدور، وذلك أنّ الله تعالى عند هذه الحركات العلويات والتوجّهات الأفقيّات أظهر عالم الأنوار على عالم الأسرار ووقعت النجوم وكثرت التنزلات من الحي القيوم (أي كنزول أمطار الشتاء الذي به الحياة والقيومية) وكورت الشمس وطمس الحسن (أي لكثرة السحب)، وسيرت الجبال (لانجراف تربتها بالمياه) ونسفت

الرمال(بالرياح الشتوية) وعُطلت العشار الظاهرة وحشرت الوحوش المتنافرة (أي أنّ الشتاء مناسب في أحواله لآخر الزمان وقرب قيام الساعة) ووقع الطوفان وزفر البركان، وزوجت النفوس وتعشق بالمحسوس، ونشرت الصحائف وبنث المعارف وظهرت اللطائف واتصل حبل التلاق (إشارة إلى آخر منزلة وهي الرشا ومعناه الحبل) وخلي البرزخ من سكانه وتعشق التاجر بدكانه، وتبحر أهل السلوك وتنعّم سمراء الملوك، ونبت الريحان في النيران، وعمرت المعادن كلها بروح التكوين، وجاء الربّ في ظلل من الغمام والملائكة في لحف الظلام ... فهذا ما عاينت في الكون من تأثير هذا النمط. [انتهى...]

وكما أنّ الكواكب السيارة السبعة تسير عبر المنازل الفلكية فتحدث الانفعالات الكونية، فكذلك الأبدال السبعة، ولكلّ بدل كوكبه، يسيرون في مقاماتهم مستمدين من الأوتاد الأربعة للتصرّف بإذن الله تعالى في أقاليمهم السبعة ... ولهؤلاء الأبدال في كل فصل من الفصول الأربعة سفر روحاني في مقامات سبعة مناسبة للمنازل الفلكية السبعة في ذلك الفصل، فسفرهم في رحلة الشتاء من وتد المغرب إلى وتد الأرض عبر المنازل التي في برج الجدي والدلو والحوت ، فيمكثون في هذه الرحلة ستة أيام مكتسبين في كل يوم علماً لأنّ الولاية الزمنية لهذه البروج ستة آلاف سنة أي ستة أيام من أيام الربّ . وفي رحلة الصيف يرحلون من وتد المشرق إلى وتد السماء عبر المنازل السبعة الواقعة في السرطان والأسد والسنبلة فيمكثون في هذه الرحلة أربعة وعشرون يوماً لكل يوم علمه الصيفي. وقس على ما ذكرناه رحلة الخريف والربيع . وهؤلاء السبعة الأبدال يُرمز إليهم بكلمة (قريش)، فإنّ مجموع أعداد حروفها بالجزم الصغير سبعة (3+1+2+1)، ولهذا نجد الشيخ يشير إلى ما ذكرناه في الباب الذي خصصه لمنزل سورة (قريش) وهو الباب (278 / 2 ص 604-605) فيقول: - وما بين قوسين تعقيب على كلامه - : [فاعلم أنّ هذا المنزل هو منزل سفر الأبدال السبعة المجتمعين (لأنّ النقرش هو التجمع، فالكواكب السبعة مجتمعة في السماوات متفرقة في الأفلاك والحركات، وكذلك الأبدال السبعة مجتمعين في المقام البدلي ومتفرقين في أقاليمهم) المتألفين مع القبض الذي هم عليه بعضهم عن بعض وإنكار بعضهم عن بعض (أي كإنكار روحانية المشتري الهوائية على روحانية زحل الترايبية لأنّ طبع الهواء الحار الرطب منافر لطبع التراب البارد اليابس، فبدلُ الإقليم الثاني يعارض ما يراه بدل الإقليم الأول) مع وجود الصفاء فيما بينهم (لأنّهم جميعاً من أولياء الله القائمين بأمره مع اختلاف مظاهره)، ولهم سفران في باب المعرفة (أي إشارة إلى الآية: "رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ")، سفر منهم إلى الإله في مظهره (وهو سفر الشتاء حين تحتجب شمس الذات بسحب المظاهر)، وسفر آخر منهم أيضاً إلى الذات (وهو سفر الصيف حين تتجلى شمس الذات في صفاء السرّ) . فسفرهم إلى الإله من

ربوبيتهم، وسفرهم إلى الذات من ذواتهم (لأنّ الذات واحدة وللربوبية مظاهر). فإذا أرادوا السفر إلى الذات قصدوا اليمن (وهذا في رحلة الصيف) ، وإذا أرادوا السفر إلى الإله قصدوا الشام وبلاد الشمال (أي في رحلة الشتاء).... فإذا قصدوا اليمن لم يقيموا فيه سوى أربعة وعشرين يوماً يحصلون فيها مرادهم ويرجعون إلى سنة أخرى، وإذا قصدوا الشمال لم يقيموا فيه إلا ستة أيام يحصلون فيها مرادهم ويرجعون إلى سنة أخرى (أي أنّ عدد أيام رحلتهم على عدد أيام شهر الكمال الانساني لكل يوم من تلك الأيام الربّية حرف فبتمام الثمانية والعشرين مع الهزمة ولام الألف تتمّ لهم الثلاثين). وسفرهم روحاني لا جسماني. فأما العلوم التي يستفيدونها في سفرهم إلى اليمن فعلوم الاصطلام (أي الاصطلاء بأنوار شمس الذات في صفاء صيف السرّ)، وعلم السباحات من وراء الحجب علم ذوق. وأما العلوم التي يستفيدونها في سفرهم إلى الشمال فعلوم زيادات اليقين بما يتجلى لهم، وعلم العبودية والقبض وما تنتج الخوات لهم من ذوق، وموطنهم الذي يستقرون فيه مكة (فمكة هي موقع الركن الخامس أصل الأركان، لأنّ الكعبة بمكّة هي مركز دائرة الجهات) فإنّ التنزّل في روحانيتها أتمّ التنزّل لأنّها كما قال تعالى: " أمّ القرى " وقال : "تُجبي إليه ثمرات كل شيء" فعمّ ، وقال فيه: " رزقا من لدنا " فما أضافه إلى غيره ، فهي علوم وهب تحيا بها أرواحهم، ولم يقل ذلك في غير مكة (أي كعبة القلب في مكّة الجسم الطاهر) . ولا تحصل هذه العلوم التي أشرنا إليها إلا لمن كان حاله الذلّة والافتقار ومقامه الجلال والقبض والهيبة والخوف (يشير الشيخ إلى الآية "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ" وهذا الحال الجلالي مناسب لأولئك الأربعة الرجال رجال الهيبة والجلال)...واعلم أنّ هذا المنزل إذا دخلته تجتمع فيه مع جماعة من الرسل صلوات الله عليهم (وهم الأنبياء أقطاب السماوات السبعة بكواكبها السبعة في رحلتها الفلكية بين اليمين والشمال في الدورة السنوية ، وهم : إبراهيم وموسى وهارون وإدريس ويوسف وعيسى ويحيى وآدم عليهم السلام . ويمكن أيضا أن تكون الإشارة إلى سيدنا محمد وشعيب وصالح وهود أي الرسل العرب لأنّ سورة قريش هي منزل السرّ القريشي العربي)، فتستفيد من ذوقهم الخاص بهم علوما لم تكن عندك فتكون لك كشفا كما كانت لهم ذوقا (ثمّ عدّد الشيخ بعض هذه العلوم) [...] انتهى.

وأخيرا نشير إلى أنّ ثمة علاقة بين الأوتاد الأربعة والجلالين الأربعة وأربعة أقطاب آخرين لهم صلة بالخضر عليه السلام، ولهذا ذكرهم الشيخ في الباب الذي خصصه للخضر وهو الباب (1/25 ص 185-188) الذي عنوانه: [في معرفة وتد مخصوص معمر وأسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم وسرّ المنزل والمنازل ومن دخله من العالم .] وفيه يقول – وما بين قوسين تعقيب على كلامه :- [اعلم أنّ رجال الله على أربع مراتب: رجال لهم الظاهر، ورجال لهم الباطن ، ورجال

لهم الحدّ ، ورجال لهم المطلع (أي على حسب مراتب فهم الآيات القرآنية كما بينها الحديث الشريف: "ما من آية إلا ولها ظاهر وباطن وحد ومطلع").. ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف قطب وعلى ذلك القطب يدور فلك ذلك الكشف . دخلت على شيخنا أبي محمد عبد الله الشكاز... فقال لي الرجال أربعة: "رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ" وهم رجال الظاهر، ورجال "لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ" وهم رجال الباطن جلساء الحقّ تعالى ولهم المشورة، ورجال الأعراف وهم رجال الحدّ قال الله تعالى "وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ" أهل الشّمّ والتمييز والسراح عن الأوصاف فلا صفة لهم كان منهم أبو يزيد البسطامي، ورجال إذا دعاهم الحقّ إليه يأتونه رجالا لسرعة الإجابة لا يركبون: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا" وهم رجال المطلع . فرجال الظاهر هم الذين لهم التصرّف في عالم الملك والشهادة . وأمّا رجال الباطن فهم الذين لهم التصرّف في عالم الغيب والملكوت فيستنزلون الأرواح العلوية بهمهم فيما يريدونه وأعني أرواح الكواكب لا أرواح الملائكة ، فيفتح لهؤلاء الرجال في باطن الكتب المنزلة والصحف المطهرة وكلام العالم كلّه ونظم الحروف والأسماء من جهة معانيها ما لا يكون لغيرهم اختصاصا إلهيا . وأمّا رجال الحدّ فهم الذين لهم التصرّف في عالم الأرواح النارية عالم البرزخ والجبروت فإنّه تحت الجبر، وهم رجال الأعراف، وهم رجال الرحمة التي وسعت كل شيء فلهم في كل حضرة دخول واستشراق . وأمّا رجال المطلع فهم الذين لهم التصرف في الأسماء الإلهية فيستنزلون بها ما شاء الله وهذا ليس لغيرهم، وهم يستنزلون بها كل ما هو تحت تصرف الرجال الثلاثة رجال الحد والباطن والظاهر، وهم أعظم الرجال، وهم الملامية هذا في قوتهم وما يظهر عليهم من ذلك شيء منهم [انتهى.

المشارب الأربعة وعلوم الوهب :

يقول الله تعالى في الآية 15 من سورة " محمد " : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) . فبين الرباعيات الأوتاد السابق ذكرها وهذه الأنهار الجنانية الأربعة تناسبات ، كما لها أيضا تناسب مع الكتب الإلهية الأربعة : القرآن العظيم والتوراة والزيور والإنجيل ، ومنها تتفرع جداول الصحف الأخرى المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ، حسبما بينه الشيخ الأكبر في الباب 167 والباب 367 من الفتوحات عند ذكره للأنهار الأربعة المتفجرة من أصل شجرة سدرة المنتهى .

وله أيضا رسالة عنوانها " مراتب علوم الوهب " بين فيها ما ترمز إليه هذه المشارب الأربعة من علوم العارفين بالله تعالى . وخلصتها أن الماء الخالص هو العلم العقيم الذي لا ينتج أصلا وهو العلم بالذات المقدسة التي تجل عن الإدراك . وإن خالصا بعد المزج بما طرأ عليه في أطوار الاستحالات ، فإنه العلم بالإعادة والنشأة الآخرة، وتميز طبقات ذلك العالم مخلصا من المزج والتداخل فلا الشقي يظهر في صورة السعيد ولا العكس . وإن كان من الماء الممتزج بمياه الأنهار والعيون بعد التخليص ، فإنه يعطيك العلم بتنزل المعاني الروحانية المنشأة من القوالب الجسمانية ، وهي اللطائف الإنسانية والحيوانية ، والملائكة المخلوقون من الأنفاس ، فستعرف مراتب هذه الأرواح المدبرة لهذه الأجسام . فإذا كان من الماء المنبعث من الأرض كالعيون وشربه ، فحظه من صور العلوم علم الطبيعة وكيفيةها، ولماذا ترجع؟ وهل هي حقيقة في نفسها غير معلولة لعل أو هي معلولة لعل معلولة؟ وأين مرتبتها؟ وما سبب ظهورها؟ وهل يتقيد أول ظهورها بالزمان أم لا؟ ومن شرب هذا الماء يعرف لماذا تعلق التكوين والفساد بالدار الدنيا ، ولم يتعلق بالدار الأخرى مع وجودها فيها .

وإن كان المشروب لبنا ، فإنها علوم الفطرة والأحكام المشروعة ومن أين صدرت وما حضرتها وإلى أين ترجع؟ وتقف كشفا على مقامات الرسل وأن الدين واحد والشرائع مختلفة الأحكام ، وما يثمر الإيمان والكفر . ويعلم أيضا تنزل الروحانيات الأمان على قلوب الأنبياء ، وعلى قلوب الأولياء ، واين يجتمع الرسول والولي .

وإذا كان المشروب عسلا، فإنه يعطيه معرفة الشرائع الحكيمة والرهبانية المبتدعة، وما تقتضيه دورات الأفلاك وحركات الكواكب من الأوضاع الإلهية والأسرار الحكيمة ، ومن هذا الشرب تكون علوم الإلهام الواضحة والاصطلام والوله الغالب على القلب .

وإذا كان المشروب خمرا ، فإنه يعطي علوم الأحوال العجيبة وضروب التجليات وما تعطيه من الآثار في النفوس ، ولصاحبها جولان في عالم التركيب والتصريف والتسخير وقوة الكشف المستصحية .

فإذا امتزج بعض هذه المشروبات ببعض فإنه يعطي من العلوم ما يعطيه كل منها ، ويعطي المزج ذوقا آخر يعرفه شاربه .

القسم الرابع

نشأة الإنسان روحا وجسما

الفصل الأول

نشأة الإنسان

نلخص في ما يلي ما فصله الشيخ الأكبر حول نشأة الإنسان وجمعيته ومرتبته من " فصوص الحكم " ، ومن " الفتوحات المكية " الأبواب : 7 / 15 / الفصل 37 من الباب 198 / 353 / باب نشأة الإنسان الأول من " عقلة المستوفز " .

الإنسان الكامل الخليفة روح العالم وجمعه للحضرتين الأسمائية والكونية

في فص حكمة إلهية في كلمة آدمية من كتابه " فصوص الحكم " يقول الشيخ الأكبر ما خلاصته :

لما شاء الحق سبحانه من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها، وإن شئت قلت أن يرى عينه، في كون جامع يحصر الأمر كله لكونه متصفا بالوجود، ويظهر به سره إليه ؛ فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمر آخر له كالمرأة ، فإنه يظهر له نفسه في صورة يعطيها المحل المنظور مما لم يكن يظهر له من غير وجود هذا المحل ولا تجليه له . وقد كان الحق سبحانه أوجد العالم كله وجود شبح مسوى لا روح فيه ، فكان كمرأة غير مجلوة . ومن شأن الحكم الإلهي أنه ما سوى محلاً إلا ويقبل روحاً إلهياً عبّر عنه بالنفخ ، وما هو إلا حصول الاستعداد من تلك الصورة المسوأة لقبول فيض التجلي الدائم الذي لم يزل ولا يزال . وما بقي إلا قابل، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس . فالأمر كله منه، ابتداءً وانتهاءً "وإليه يرجع الأمر كله" ، كما ابتدأ منه . فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم، فكان آدم عين جلاء تلك المرأة ، وروح تلك الصورة . وكانت الملائكة من بعض قوى تلك الصورة التي هي صورة العالم المعبر عنه في اصطلاح القوم "بالإنسان الكبير" ، فكانت الملائكة له كالقوى الروحانية والحسية التي في النشأة الإنسانية . فكل قوة منها محجوبة بنفسها لا ترى أفضل من ذاتها، وأن فيها فيما تزعم الأهلية لكل منصب عال، ومنزلة رفيعة عند الله ، لما عندها من الجمعية الإلهية مما يرجع من ذلك إلى الجنب الإلهي، وإلى جانب حقيقة الحقائق، وفي النشأة الحاملة لهذه الأوصاف إلى ما تقتضيه الطبيعة الكلية التي حصرت قوالب العالم كله أعلاه وأسفله. وهذا لا يعرفه عقل بطريق نظر فكري، بل هذا الفن من الإدراك لا يكون إلا عن كشف إلهي منه يعرف ما أصل صور العالم القابلة لأرواحه . فسمي هذا المذكور إنساناً وخليفة . فأما إنسانيته فلعوم نشأته وحصره الحقائق كلها . وهو للحق

بمنزلة إنسان العين من العين الذي يكون به النظر، وهو المعبر عنه بالبصر. فهذا سمي إنساناً، فإنه به ينظر الحق إلى خلقه فيرحمهم، فهو الإنسان الحادث الأزلي، والنشئ الدائم الأبدى، والكلمة الفاصلة الجامعة، قيام العالم بوجوده، فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم، وهو محلّ النقش والعلامة التي بها يختم الملك على خزانته. وسمّاه خليفة من أجل هذا، لأنه تعالى الحافظ به خلقه كما يحفظ الختم الخزائن. فما دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحه إلا بإذنه، فاستخلفه في حفظ الملك. فلا يزال العالم محفوظاً ما دام هذا الإنسان الكامل. ألا تراه إذا زال وفكّ من خزانة الدنيا، لم يبق فيها ما اختزنه الحق فيها، وخرج ما كان فيها، والتحق بعضه ببعض، وانتقل الأمر إلى الآخرة ختماً على خزانة الآخرة ختماً أبدياً. فظهر جميع ما في الصور الإلهية من الأسماء في هذه النشأة الإنسانية فحازت رتبة الإحاطة والجمع بهذا الوجود، وبه قامت حجة الله تعالى على الملائكة. فَتَحَفُّظُ فَقَدْ وَعَظَكَ اللهُ بِغَيْرِكَ، وانظر من أين أتى من أوتي عليه. فإنّ الملائكة لم تقف مع ما تعطيه نشأة هذا الخليفة، ولا وقفت مع ما تقتضيه حضرة الحق من العبادة الذاتية، فإنه ما يعرف أحد من الحق إلا ما تعطيه ذاته، وليس للملائكة جمعية آدم، ولا وقفت إلا مع الأسماء الإلهية التي تخصّها، وسبّحت الحق بها وقدّسته، وما علمت أنّ الله أسماء ما وصل علمها إليها، فما سبّحت بها ولا قدّسته تقديس آدم. فغلب عليها ما ذكرنا، وحكم عليها هذا الحال فقالت من حيث النشأة: " أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا"، وليس إلا النزاع وهو عين ما وقع منهم. فما قالوه في حق آدم هو عين ما هم فيه مع الحق. فلولا أنّ نشأتهم تعطي ذلك ما قالوا في حق آدم ما قالوه وهم لا يشعرون. فلو عرفوا نفوسهم لعلّموا، ولو علموا لعصموا. ثمّ لم يقفوا مع التجريح حتى زادوا في الدعوى بما هم عليه من النسيب والتّقدیس. وعند آدم من الأسماء الإلهية ما لم تكن الملائكة عليها، فما سبّحت ربّها بها ولا قدّسته عنها تقديس آدم وتسيبته. فوصف الحق لنا ما جرى لنقف عنده ونتعلّم الأدب مع الله تعالى، فلا ندعي ما نحن متحقّقون به وحاوون عليه بالتّفويّد. فكيف أن نطلق في الدعوى فنعم ما ليس لنا بحال ولا نحن منه على علم فنفتضح. فهذا التعريف الإلهي ممّا أدب الحق الأدباء الأئمّة الخلفاء.

فما جمع الله لآدم بين يديه إلا تشريفاً. ولهذا قال لإبليس " مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي"، وما هو إلا عين جمعه بين الصورتين: صورة العالم، وصورة الحق، وهما يدا الحق. وإبليس جزء من العالم لم تحصل له هذه الجمعية. ولهذا كان آدم خليفة، فإن لم يكن ظاهراً بصورة من استخلفه فيما استخلفه فيه، فما هو خليفة. وإن لم يكن فيه جميع ما تطلبه الرعايا التي استخلف عليها، لأنّ استنادها إليه فلا بدّ أن يقوم بجميع ما تحتاج إليه، وإلا فليس بخليفة عليهم. فما صحّت الخلافة إلا للإنسان الكامل، فأنشأ صورته الظاهرة من حقائق العالم، وصوره وأنشأ صورته الباطنة على صورته تعالى، ولذلك قال فيه: " كنت سمعه وبصره "، ما قال: كنت عينه وأذنه، ففرّق بين الصورتين. وهكذا هو في كلّ موجود من العالم بقدر ما تطلبه حقيقة ذلك الموجود. ولكن ليس لأحد مجموع ما للخليفة؛ فما فاز إلا بالمجموع.

نشأة جسد الإنسان ونفسه الناطقة

خلق الله الجان من النار، والطير والدواب البرية والبحرية والحشرات من عفونات الأرض، ليصفو الهواء لنا من بخارات العفونات التي لو خالطت الهواء الذي أودع الله حياة هذا الإنسان والحيوان وعافيته فيه لكان سقيماً مريضاً معلولاً، فصفى له الجو سبحانه لطفاً منه بتكوين هذه المعفونات ، فقلت الأسقام والعلل .

ولما استوت المملكة وتهيأت وما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلها من أي جنس يكون هذا الخليفة الذي مهد الله هذه المملكة لوجوده، فلما وصل الوقت المعين في علمه لإيجاد هذا الخليفة ، وذلك لما دخل حكم برج السنبله ، أمر الله بعض ملائكته ، قيل أنه عزرائيل ، أن يأتيه بقبضة من كل أجناس تربة الأرض، فأتاه بها في خبر طويل معلوم عند الناس، فأخذها سبحانه وخمرها بيديه ، فهو قوله : " لما خلقت بيدي " . وكان الحق قد أودع عند كل ملك من الملائكة الذين ذكرناهم وديعة لأدم، وقال لهم إني خالق بشراً من طين وهذه الودائع التي بأيديكم له فإذا خلقته فليؤد إليه كل واحد منكم ما عنده مما أمنتكم عليه ، ثم إذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فلما خمر الحق تعالى بيديه طينة آدم حتى تغير ريحها وهو المسنون وذلك الجزء الهوائي الذي في النشأة ، جعل ظهره محلاً للأشقياء والسعداء من ذريته، فأودع فيه ما كان في قبضتيه فإنه سبحانه أخبرنا أن في قبضة يمينه السعداء وفي قبضة اليد الأخرى الأشقياء وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، وقال هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون . وأودع الكل طينة آدم وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة ، وأنشأه على الحركة المستقيمة ؛ وصوره وعدله وسواه ثم نفخ فيه من روحه المضاف إليه، فعين له بهذا النفخ من النفس الكلية النفس الناطقة الجزئية ، فكان الروح الحيواني والقوى من النفس الرحمانى – بفتح الفاء – ، وكانت النفس الناطقة الجزئية من أشعة النفس الكلية ، وجعل بيد الطبيعة العنصرية تدبير جسده ، وبيد النفس الجزئية تدبير عقله ؛ وأيدها بالقوى الحسية والمعنوية ، وتجلى لها في أسمائه لتعلم كيفية تدبير ما ملكها إياه . ثم جعل في هذه النفس الناطقة قوة اكتساب العلوم بواسطة القوى التي هي كالأسباب لتحصيل ما تريد تحصيله . فبالنفس الرحمانى كانت حياة هذه النشأة ، وبالنفس الناطقة علمت وأدركت ، وبالقوة المفكرة فصلت ما أجمل الحق فيها فأنزلت الأشياء مراتبها وأعطت كل ذي حق حقه . فيما هو من الطبيعة هو من ماء مهين ، وبما هو من النفس الكلية والروح المضاف إليه تعالى هو حافظ عاقل دراك متصور ذاك ، إلى أمثال هذه الصفات الإنسانية والقوى .

الطبائع والأخلاق في مزاج الإنسان

وحدث عند ذلك النفخ فيه بسرِيانه في أجزائه أركان الأخلاق التي هي الصفراء والسوداء والدم والبلغم . فسوى جسده من التراب ، ورطوبته من الماء ، وحرارته من النفس ، وبرودته من الروح . وجعل في الجسد أربعة أنواع أخر لا تقوم واحدة منهن إلا بالأخرى ، وأسكن بعضهم في بعض : فأسكن الحرارة في المرة الصفراء عن الركن الناري الذي أنشأه الله منه في قوله تعالى: " من صلصال كالفخار" ، وأسكن اليبوسة في المرة السوداء عن التراب وهو قوله: " خلقه من تراب " ، وأسكن الرطوبة قي الدم من الهواء وهو قوله: " مسنون " ، وأسكن البرودة في البلغم من الماء الذي عجن به التراب فصار طيناً . فإذا اعتدلت هذه الأخلاق كملت صحة الجسد ، وإذا اختل الاعتدال بغلبة إحداهن دخل عليه السقم ، وعلم الطب يزيد في الناقص أو ينقص من الزائد طلباً للاعتدال .

أنواع القوى في نشأة الإنسان

ثم أحدث فيه القوة الجاذبة التي بها يجذب الحيوان الأغذية ، ثم القوة الماسكة وبها يمسك ما يتغذى به الحيوان، ثم القوة الهاضمة وبها يهضم الغذاء، ثم القوة الدافعة وبها يدفع الفضلات عن نفسه من عرق وبخار ورياح وبراز وأمثال ذلك . وأما سريان الأبخرة وتقسيم الدم في العروق من الكبد وما يخلصه كل جزء من الحيوان فبالقوة الجاذبة لا الدافعة ، فحظ القوة الدافعة ما تخرجه كما قلنا من الفضلات لا غير؛ ثم أحدث فيه القوة الغذائية والمنمية والحاسية والخيالية والوهمية والحافظة والذاكرة . وهذا كله في الإنسان بما هو حيوان لا بما هو إنسان فقط ، غير أن هذه القوى الأربعة قوة الخيال والوهم والحفظ والذكر هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان . ثم خص آدم الذي هو الإنسان بالقوة المصورة والمفكرة والعاقلة، فتميز عن الحيوان . وجعل هذه القوى كلها في هذا الجسم آلات للنفس الناطقة لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية، ثم أنشأه خلقاً آخر وهو الإنسانية، فجعله دراكاً بهذه القوى حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً على حد معلوم معتاد في اكتسابه، فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنه سبحانه ما سمى نفسه باسم من الأسماء إلا وجعل للإنسان من التخلق بذلك الاسم حظاً منه يظهر به في العالم على قدر ما يليق به ، ولذلك تأول بعضهم قوله عليه السلام : " أن الله خلق آدم على صورته " على هذا المعنى؛ وأنزله خليفة عنه في أرضه ، إذ كانت الأرض من عالم التغيير والاستحالات، بخلاف العالم الأعلى فيحدث فيهم من الأحكام بحسب ما يحدث في العالم الأرضي من التغيير فيظهر لذلك حكم جميع الأسماء الإلهية، فلذلك كان خليفة في الأرض دون السماء والجنة . ثم كان من أمره ما كان من علم الأسماء وسجود الملائكة وإبابة إبليس.

النفوس الثلاثة

ولما خلق الله النفس الناطقة في الإنسان سلط عليه ثلاثة أشياء جعلها من لوازم نشأته وهي النفس النباتية والنفس الشهوانية والنفس الغضبية . فالنباتية والغضبية تزولان في أهل الجنان ولا تبقى في نشأتهم إلا الشهوانية وبها تكون اللذة . والنباتية هي التي تطلب الغذاء فينمى به الجسم ، ولها أربعة وزعة : الجاذب والماسك والهاضم والدافع . وأما الشهوانية فتطلب ما يحسن عندها ولا تعرف هل يضرها ذلك أو ينفعها ، وهذا ليس إلا في نشأة الإنسان ، وأما سائر الحيوان فلا يتناول الغذاء إلا بالإرادة لا بالشهوة ليدفع عن نفسه ألم الجوع والحاجة ولا يقصد إلا لما فيه المنفعة ، و يبقى حكم الشهوة في الحيوان في الاستكثار من الغذاء ، فمنه يدخل عليه الخلل . وأما النفس الغضبية فهي التي تطلب القهر والانتقام ولا تعرف ميزان الظلم والعدل إلا بالعقل وناموس الوقت .

الأنواع الأربعة للأجسام الإنسانية وسبب المودة بين الرجل والمرأة

ثم إن الله قد جعل خلق الإنسان على أربعة أنواع جمعها في آية من القرآن في سورة الحجرات فقال "يا أيها الناس إنا خلقناكم" يريد آدم " من ذكر" يريد حواء " وأنثى" يريد عيسى ومن المجموع " من ذكر وأنثى" يريد بني آدم بطريق النكاح والتوالد.

ولما ظهر جسم آدم كما ذكرناه ولم تكن فيه شهوة نكاح، وكان قد سبق في علم الحق إيجاد التوالد والتناسل ، والنكاح في هذه الدار إنما هو لبقاء النوع، فاستخرج من ضلع آدم من القصيري حواء، وكانت من الضلع للأحناء الذي في الضلوع لتحنو بذلك على ولدها وزوجها ، فحنو الرجل على المرأة حنوه على نفسه لأنها جزء منه، وحنو المرأة على الرجل كونها خلقت من الضلع، والضلع فيه انحناء وانعطاف . وعمر الله الموضع من آدم الذي خرجت منه حواء بالشهوة إليها إذ لا يبقى في الوجود خلاء ، فلما عمره بالهوى حن إليها حينئذ إلى نفسه لأنها جزء منه ، وحنن إليه لكونه موطنها الذي نشأت فيه ، فحب حواء حب الموطن، وحب آدم حب نفسه ، ولذلك يظهر حب الرجل للمرأة إذ كانت عينه . وأعطيت المرأة القوة المعبر عنها بالحياء في محبة الرجل، فقويت على الإخفاء ، لأن الموطن لا يتحد بها اتحاد آدم بها ، فصور في ذلك الضلع جميع ما صورته وخلقه في جسم آدم . فكان نشء جسم آدم في صورته كنشء الفاخوري فيما ينشئه من الطين والطبخ، وكان نشء جسم حواء نشء النجار فيما ينحته

من الصور في الخشب، فلما نحتها في الضلع وأقام صورتها وسواها وعدلها نفخ فيها من روحه ، فقامت حية ناطقة أنثى ليجعلها محلاً للزراعة والحرث لوجود الإنبات الذي هو التناسل، فسكن إليها وسكنت إليه، وكانت لباساً له وكان لباساً لها، قال تعالى "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"، وسرت الشهوة منه في جميع أجزائه فطلبها فلما تغشاها وألقى الماء في الرحم ودار بتلك النطفة من الماء دم الحيض الذي كتبه الله على النساء ، تكون في ذلك الجسم جسم ثالث على غير ما تكون منه جسم آدم وجسم حواء . فهذا هو الجسم الثالث، فتولاه الله بالنشء في الرحم حالاً بعد حال بالانتقال من ماء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظم، ثم كسا العظم لحماً، فلما أتم نشأته الحيوانية أنشأه خلقاً آخر فنفخ فيه الروح الإنساني، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولولا طول الأمر لبينا تكوينه في الرحم حالاً بعد حال ومن يتولى ذلك من الملائكة الموكلين بإنشاء الصور في الأرحام إلى حين الخروج ، ولكن كان الغرض الإعلام بأن الأجسام الإنسانية وإن كانت واحدة في الحد والحقيقة والصور الحسية والمعنوية، فإن أسباب تأليفها مختلفة ، لنلا يتخيل أن ذلك لذات السبب، تعالى الله ، بل ذلك راجع إلى فاعل مختار يفعل ما يشاء كيف يشاء من غير تحجير ولا قصور على أمر دون أمر لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

اتصال الإنسان بالعقل الأول

فهذا قد ذكرنا ابتداء الجسوم الإنسانية وأنها أربعة أجسام مختلفة النشء كما قررنا ، وأنه آخر المولدات، فهو نظير العقل الأول وبه ارتبط ، لأن الوجود دائرة ، فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول فهو أول الأجناس ، وانتهى الخلق إلى الجنس الإنساني، فكملت الدائرة واتصل الإنسان بالعقل كما يتصل آخر الدائرة بأولها، فكانت دائرة وما بين طرفي الدائرة جميع ما خلق الله من أجناس العالم بين العقل الأول الذي هو القلم أيضاً وبين الإنسان الذي هو الموجود الآخر.

الإنسان عمد خيمة الكون دنيا وأخرى

وأقام سبحانه هذه الصورة الإنسانية بالحركة المستقيمة صورة العمدة الذي للخيمة فجعله لقبة هذه السموات، فهو سبحانه يمسكها أن تزول بسببه، فعبرنا عنه بالعمد . فإذا فنيت هذه الصورة ولم يبق منها على وجه الأرض أحد متنفس وانشقت السماء فهي يومئذ واهية لأن

العمد زال وهو الإنسان ، ولما انتقلت العمارة إلى الدار الآخرة بانتقال الإنسان إليها وخربت الدنيا بانتقاله عنها علمنا قطعاً أن الإنسان هو العين المقصودة لله من العالم، وأنه الخليفة حقاً ، وأنه محل ظهور الأسماء الإلهية، وهو الجامع لحقائق العالم كله من ملك وفلك وروح وجسم وطبيعة وجماد ونبات وحيوان ، إلى ما خص به من علم الأسماء الإلهية ، مع صغر حجمه وجرمه .

ابتلاء الإنسان بالفكر

وإنما قال الله فيه بأن " خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس " ، لكون الإنسان متولداً عن السماء والأرض فهما له كالأبوين، فرفع الله مقدارهما ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فلم يرد في الجرمية فإن ذلك معلوم حساً ، غير أن الله تعالى ابتلاه ببلاء ما ابتلى به أحداً من خلقه إما لأن يسعده أو يشقيه على حسب ما يوفقه إلى استعماله . فكان البلاء الذي ابتلاه به أن خلق فيه قوة تسمى الفكر، وجعل هذه القوة خادمة لقوة أخرى تسمى العقل وجبر العقل مع سيادته على الفكر أن يأخذ منه ما يعطيه ، ولم يجعل للفكر مجالاً إلا في القوة الخيالية ؛ وجعل سبحانه القوة الخيالية محلاً جامعاً لما تعطى القوة الحساسة؛ وجعل له قوة يقال لها المصورة فلا يحصل في القوة الخيالية إلا ما أعطاه الحس أو أعطته القوة المصورة من المحسوسات فتركب صوراً لم يوجد لها عين لكن أجزاءها كلها موجودة حساً، وذلك لأن العقل خلق سانجاً ليس عنده من العلوم النظرية شيء ، وقيل للفكر ميز بين الحق والباطل الذي في هذه القوة الخيالية ، فينظر بحسب ما يقع له فقد يحصل في شبهة وقد يحصل في دليل عن غير علم منه بذلك ولكن في زعمه أنه عالم بصور الشبه من الأدلة وأنه قد حصل على علم ، ولم ينظر إلى قصور المواد التي استند إليها في اقتناء العلوم فيقبلها العقل منه ويحكم بها فيكون جهله أكثر من علمه بما لا يتقارب . ثم إن الله كلف هذا العقل معرفته سبحانه ليرجع إليه فيها لا إلى غيره ، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحق بقوله تعالى " أولم يتفكروا " "لقوم يتفكرون" فاستند إلى الفكر وجعله إماماً يقتدى به وغفل عن الحق في مراده بالتفكر أنه خاطبه أن يتفكر فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلا بتعريف الله فيكشف له عن الأمر على ما هو عليه ، فلم يفهم كل عقل هذا الفهم إلا عقول خاصة الله من أنبيائه وأوليائه يا ليت شعري هل بأفكارهم قالوا: " بلى " حين أشهدهم على أنفسهم في قبضة الذرية من ظهر آدم ؟ لا والله، بل عناية إسهاده إياهم ذلك عند أخذه إياهم منهم من ظهورهم، ولما رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة في معرفة الله لم يجتمعوا قط على حكم واحد في معرفة الله، وذهب كل طائفة إلى مذهب وكثرت القالة في الجنب الإلهي الأحمى واجترؤا غاية الجراءة على الله . وهذا كله من الابتلاء الذي ذكرناه من خلقه الفكر في الإنسان . وأهل الله افتقروا إليه فيما كلفهم من الإيمان به في معرفته ، وعلموا أن المراد منهم رجوعهم إليه في ذلك وفي كل حال ؛ فمنهم القائل: " سبحان من لم

يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته "، ومنهم من قال: " العجز عن درك الإدراك إدراك" ، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا أحصي ثناء عليك"، وقال تعالى: "ولا يحيطون به علماً"، فرجعوا إلى الله في المعرفة به، وتركوا الفكر في مرتبته ووفوه حقه لم ينقلوه إلى ما لا ينبغي له التفكير فيه ، وقد ورد النهي عن التفكير في ذات الله والله يقول: "ويحذركم الله نفسه"، فوهبهم الله من معرفته ما وهبهم وأشهدهم من مخلوقاته ومظاهره ما أشهدهم، فعلموا أنه ما يستحيل عقلاً من طريق الفكر لا يستحيل نسبة إلهية . فالذي ينبغي للعاقل أن يدين الله به في نفسه أن يعلم أن الله على كل شيء قدير من ممكن ومحال، ولا كل محال نافذ الاقتدار، واسع العطاء ليس لإيجاده تكرار بل أمثال تحدث في جوهر أوجده وشاء بقاءه ولو شاء أفناه مع الأنفاس، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

جمعية الإنسان من الاسم الأعظم المفرد الجامع

الاسم الجامع هو الله، ولهذا جمع الله لنشأة جسد آدم بين يديه فقال: " لما خلقت بيدي" . وأما خلق الله السماء بأيد فتلك القوة، فإن الأيد القوة، قال تعالى: " داود ذا الأيد" أي صاحب القوة، ما هو جمع يد . فلما أراد الله كمال هذه النشأة الإنسانية جمع لها بين يديه، وأعطاهما جميع حقائق العالم، وتجلى لها في الاسماء كلها ، فحازت الصورة الإلهية والصور الكونية، وجعلها روحاً للعالم، وجعل أصناف العالم كالأعضاء من الجسم للروح المدبر له ، فلو فارق العالم هذا الإنسان مات العالم . فلما كان له هذا الاسم الجامع قابل الحضرتين بذاته، فصحت له الخلافة وتدبير العالم وتفصيله . فإذا لم يحز إنسان رتبة الكمال فهو حيوان تشبه صورته الظاهرة صورة الإنسان . وكلامنا في الإنسان الكامل، فإن الله ما خلق أولاً من هذا النوع إلا الكامل وهو آدم عليه السلام ، ثم أبان الحق عن مرتبة الكمال لهذا النوع فمن حازها منه فهو الإنسان الذي أريده ومن نزل عن تلك الرتبة فعنده من الإنسانية بحسب ما تبقى له . وليس في الموجودات من وسع الحق سواه ، وما وسعه إلا بقبول الصورة، فهو مجلى الحق والحق مجلى حقائق العالم بروحه الذي هو الإنسان . فأوليته حق وآخريته خلق، فهو الأول من حيث الصورة الإلهية ، والآخر من حيث الصورة الكونية ، والظاهر بالصورتين، والباطن عن الصورة الكونية بما عنده من الصورة الإلهية . فالكمال هم الخلائف . واستخدم الله له العالم كله فما من حقيقة صورية في العالم الأعلى والأسفل إلا هي ناظرة إليه نظر كمال أمينة على سر أودعها الله إياه لتوصله إليه . وقولي صورية أي لها صورة معينة في العالم تحوز مكانها ومكانتها .

المضاهاة بين حقائق الإنسان ومراتب الكون والحضرة الإلهية

يقول الشيخ الأكبر في آخر الباب السادس من الفتوحات :

إن العوالم أربعة : العالم الأعلى هو عالم البقاء ، ثم عالم الاستحالة وهو عالم الفناء ، ثم عالم التعمير وهو عالم البقاء والفناء ، ثم عالم النسب . وهذه العوالم في موطنين : في العالم الأكبر وهو ما خرج عن الإنسان ، وفي العالم الأصغر وهو الإنسان .

فأما العالم الأعلى : الحقيقة المحمدية وملكها الحياة ، نظيرها من الإنسان اللطيفة والروح القدسي . ومنه العرش المحيط ونظيره من الإنسان الجسم . ومن ذلك الكرسي ونظيره من الإنسان النفس . ومن ذلك البيت المعمور ونظيره من الإنسان القلب . ومن ذلك الملائكة ونظيرها من الإنسان الأرواح التي فيه والقوى . ومن ذلك زحل وملكه نظيرها من الإنسان القوة العلمية والنفس - بفتح الفاء - . ومن ذلك المشتري وملكه نظيرهما القوة الذاكرة ومؤخر الدماغ . ومن ذلك الأحمر وملكه نظيرهما القوة العاقلة واليافوخ . ومن ذلك الشمس وملكها نظيرهما القوة المفكرة ووسط الدماغ . ثم الزهرة وملكها نظيرهما القوة الوهمية والروح الحيواني . ثم الكاتب وملكها نظيرهما القوة الخيالية ومقدم الدماغ . ثم القمر وملكه نظيرهما القوة الحسية والجوارح التي تحس .

وأما عالم الاستحالة : فمن ذلك كرة الأثير وروحها الحرارة واليبوسة ، وهي كرة النار ، ونظيرها الصفراء وروحها القوة الهاضمة . ومن ذلك الهواء وروحه الحرارة والرطوبة ، ونظيره الدم وروحه القوة الجاذبة . ومن ذلك الماء وروحه البرودة والرطوبة ، نظيره البلغم وروحه القوة الدافعة . ومن ذلك التراب وروحه البرودة واليبوسة ، نظيره السوداء وروحها القوة الماسكة . وأما الأرض فسبع طباق : أرض سوداء وأرض غبراء وأرض حمراء وأرض صفراء وأرض بيضاء وأرض زرقاء وأرض خضراء ، نظير هذه السبعة من الإنسان في جسمه : الجلد والشحم واللحم والعروق والعصب والعضلات والعظام .

وأما عالم التعمير : فمنهم الروحانيون نظيرهم القوى التي في الإنسان . ومنهم عالم الحيوان نظيره ما يحس من الإنسان . ومنهم عالم النبات نظيره ما ينمو من الإنسان . ومن ذلك عالم الجماد نظيره ما لا يحس من الإنسان .

وأما عالم النسب : (وهي المقولات العشرة المشهورة عند الحكماء) فمنهم العرض نظيره الأسود والبيض والألوان والأكوان . ثم كيف نظيره الأحوال مثل الصحيح والسقيم . ثم الكم نظيره الساق أطول من الذراع . ثم الأين نظيره العنق مكان للرأس والساق مكان للخذ . ثم الزمان نظيره حركت رأسي وقت تحريك يدي . ثم الإضافة نظيرها هذا أبي فأنا ابنه . ثم الوضع نظيره لغتي ولحني . ثم أن يفعل نظيره أكلت . ثم أن يفعل نظيره شبع . ومنهم اختلاف الصور في الأمهات كالفيل والحمار والأسد والصرصر ، نظير هذا القوة الإنسانية التي تقبل الصور المعنوية من مذموم ومحمود مثل : هذا فطن فهو فيل ، هذا بليد فهو حمار ، هذا شجاع فهو أسد ، هذا جبان فهو صرصر .

وفي الفصل 16 من الباب 198 يذكر الشيخ مظاهر هذه المقولات في الحضرة الإلهية فيقول :

العالم كله عمل الله ، فعمله على شاكلته ، فما في العالم شيء لا يكون في الله . والعالم محصور في عشر لكمال صورته إذ كان موجودا على صورة موجد : فجوهو العالم لذات الموجد . وعرض العالم لصفاته

. وزمانه لأزله . ومكانه لاستوائه . وكمه لأسمائه . وكيفه لرضاه وغضبه . ووضعه لكلامه . وإضافته لربوبيته. وأن يفعل لإيجاده . وأن يفعل لإجابته من سأله . و ما من شيء ظهر في تفاصيل العالم إلا وفي الحضرة الإلهية صورة تشاكل ماظهر أي يتقيد بها ولولا هي ما ظهر . ألا ترى الفلك الأطلس كيف ظهر من الحيرة في الحق ، لأن المقادير فيه لا تتعين للتماثل في الأجزاء ، كالأسماء والصفات للحق لا تتعدد . ووضع الفلك المكوكب بالمنازل على شكل الدلالات على ما وقعت فيه الحيرة ، فاستدل بالمنازل على ما في الأطلس من بروج ، فهو على شكل الدلالة ، وجعل تنوع الأحكام بنزول السيارة في المنازل والبروج بمنزلة الصور الإلهية التي يظهر فيها الحق . فبما للأطلس فيها من الحكم تجهل ويقال ليس لله صورة بالدلالة العقلية . وبما للمنازل فيها من الدلالات تعلم ويقال هذا هو الحق .

في الإنسان الكامل، وأنه محمد صلى الله عليه وسلم وأنه مقابل للحق والخلق

يقول الشيخ عبد الكريم الجيلي في الباب 60 من كتابه " الإنسان الكامل " ما خلاصته :

إنّ أفراد هذا النوع الإنساني كل واحد منهم نسخة للآخر بكماله، لا يفقد في أحد منهم مما في الآخر إلا بحسب العارض، كمن تقطع يده ورجلاه، أو يخلق أعمى لما عرض له في بطن أمه، ومتى لم يحصل العارض فهم كمرأتين متقابلتين يوجد في كل واحدة منهما ما يوجد في الأخرى، ولكن منهم من تكون الأشياء فيه بالقوة، ومنهم من تكون فيه بالفعل، وهم الكمل من الأنبياء والأولياء . ثم إنهم متفاوتون في الكمال فمنهم الكامل والأكمل، ولم يتعين أحد منهم بما تعين به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الوجود من الكمال الذي قطع له بانفراده فيه، شهدت له بذلك أخلاقه وأحواله وأفعاله وبعض اقواله، فهو الإنسان الكامل، والباقون من الأنبياء والأولياء والكمل صلوات الله عليهم ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل، ومنتسبون إليه انتساب الفاضل إلى الأفضل .

واعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الأبدين، ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين . ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، وله في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في ذلك الزمان . وسر هذا الأمر تمكنه صلى الله عليه وسلم من التصور بكل صورة، فالأديب إذا رآه في الصور المحمدية التي كان عليها في حياته فإنه يسميه باسمه ، وإذا رآه في صورة ما من الصور وعلم أنه محمد، فلا يسميه إلا باسم تلك الصورة، ثم لا يوقع ذلك الاسم إلا على الحقيقة المحمدية .

ثم إياك أن تتوهم شيئاً في قولي من مذهب التناسخ، حاشا لله وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك مرادي، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم له من التمكين في التصور بكل صورة يتجلى في هذه الصورة ، وقد جرت سنته صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ليعلي شأنهم ويقيم ميلانهم، فهم خلفاؤه في الظاهر وهو في الباطن حقيقتهم .

واعلم أن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته . فأول ما يبدو في مقابلته للحقائق الخلقية : يقابل العرش بقلبه، ويقابل الكرسي

بإنيته، ويقابل سدره المنتهى بمقامه، ويقابل القلم الأعلى بعقله، ويقابل اللوح المحفوظ بنفسه، ويقابل العناصر بطبعه، ويقابل الهولي بقابليته، ويقابل الهباء بحيز هيكله، ويقابل الفلك الأطلس برأيه، ويقابل الفلك المكوكب بمدركته، ويقابل السماء السابعة بهمته، ويقابل السماء السادسة بوهمه، ويقابل السماء الخامسة بهمه، ويقابل السماء الرابعة بفهمه، ويقابل السماء الثالثة بخياله، ويقابل السماء الثانية بفكره، ويقابل السماء الأولى بحافظته . ثم يقابل زحل بالقوى اللامسة، ويقابل المشتري بالقوى الدافعة، ويقابل المريخ بالقوى المحركة، ويقابل الشمس بالقوى الناظرة، ويقابل الزهرة بالقوى المتلذذة، ويقابل عطارد بالقوى الشامة، ويقابل القمر بالقوى السامعة . ثم يقابل فلك النار بحرارته، ويقابل فلك الماء ببرودته، ويقابل فلك الهواء برطوبته، ويقابل فلك التراب ببيوسته . ثم يقابل الملائكة بخواطره، ويقابل الجن والشياطين بوسواسه، ويقابل البهائم بحيوانيته، ويقابل الأسد بالقوى الباطشة، ويقابل الثعلب بالقوى الماكرة، ويقابل الذئب بالقوى الخادعة، ويقابل القرد بالقوى الحاسدة، ويقابل الفأر بالقوى الحريصة، وقس على ذلك باقي قواه . ثم إنه يقابل النار بالمادة الصفراوية، ويقابل الماء بالمادة البلغمية، ويقابل الريح بالمادة الدموية، ويقابل التراب بالمادة السوداوية . ثم يقابل السبعة أبحر بريقه ومخاطه وعرقه ونقاء أذنه ودمعه وبوله والسابع المحيط، وهو المادة الجارية بين الدم والعرق والجلد، منها تتفرع تلك الستة ؛ ولكل واحد طعام، فطو وحمض، ومر وممزوج، ومالح وثنن وطيب . ثم يقابل الجوهر بهويته وهي ذاته، ويقابل العرض بوصفه، ثم يقابل الجمادات بأنيابه، فإن الناب إذا بلغ وأخذ حده في البلوغ بقي شبه الجمادات لا يزيد ولا ينقص وإذا كسرت لا يلتحم بشيء، ثم يقابل النبات بشعره وظفره، ويقابل الحيوان بشهوانيته، ويقابل مثله من الادميين ببشريته وصورته . ثم يقابل أجناس الناس، فيقابل الملك بروحه، ويقابل الوزير بنظره الفكري، ويقابل القاضي بعلمه المسموع، ورأيه المطبوع، ويقابل الشرطي بظنه، ويقابل الأعوان بعروقه وقواه جميعها، ويقابل المؤمنين بيقينه، ويقابل المشركين بشكه وريبه . فلا يزال يقابل كل حقيقة من حقائق الوجود برقيقة من رفاقته، فقد بينا فيما مضى من الأبواب خلق كل ملك مقرب من كل قوى من الإنسان الكامل (إسرائيل من قلبه ، وجبريل من العقل الأول ، وعزرائيل من وهمه ، وميكائيل من همته)، وبقي أن نتكلم عن مقابلة الأسماء والصفات .

واعلم أن نسخة الحق تعالى كما أخبر صلى الله عليه وسلم حيث قال: (خلق الله آدم على صورة الرحمن) وفي حديث آخر (خلق الله آدم على صورته) وذلك أن الله تعالى حي عليم قادر مريد سميع بصير متكلم، وكذلك الإنسان حي عليم.. الخ، ثم يقابل الهوية بالهوية، والإنية بالإنية، والذات بالذات، والكل بالكل، والشمول بالشمول، والخصوص بالخصوص . وله مقابلة أخرى يقابل الحق بحقائقه الذاتية، وقد نبهنا عليها في هذا الكتاب في غير ما موضع، وأما هنا فلا يجوز لنا أن نترجم عنها، فيكفي هذا القدر من التنبيه عليها .

ثم اعلم أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي، فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات، ليس لها مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل؛ فمثاله للحق مثال المرأة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكن أن يرى صورة نفسه إلا بمرأة الاسم (الله) فهو مرآته ، والإنسان الكامل أيضاً مرآة الحق، فإن الحق تعالى أوجب على نفسه أن لا ترى أسماؤه وصفاته إلا في الإنسان الكامل، وهذا معنى قوله تعالى: [إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] يعني قد ظلم نفسه بأن أنزلها عن تلك الدرجة، جهولا بمقداره لأنه محل الأمانة الإلهية وهو لا يدري.

واعلم أن الإنسان الكامل تنقسم جميع الأسماء والصفات له قسمين: فقسم يكون عن يمينه كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وأمثال ذلك ؛ وقسم يكون عن يساره، كالأزلية الأبدية والأولية والآخزية وأمثال ذلك ؛ ويكون له وراء الجميع لذة سريانية تسمى لذة الألوهية يجدها في وجود جميعه بحكم الانسحاب، حتى أنّ بعض الفقراء تمنى استرساله في تلك اللذة ، ولا يغرّك كلام من يزيّف هؤلاء، فإنه لا معرفة له بهذا المقام . ويكون للإنسان الكامل فراغ عن متعلقاته كالأسماء والصفات والذات، لا يعلم في الوجود غير هويته بحكم اليقين والكشف، يشهد صدور الوجود أعلاه وأسفله منه، ويرى متعدّدات أمر الوجود في ذاته كما يرى أحدنا خواطره وحقائقه . وللإنسان الكامل تمكين من منع الخواطر عن نفسه جليلها ودقيقها، ثم إنّ تصرفه في الأشياء لا عن اتصاف ولا عن آلة ولا عن اسم ولا عن رسم، بل كما يتصرّف أحدنا في كلامه وأكله وشربه . وللإنسان الكامل ثلاث برازخ وبعدها المقام المسمى بالختام: البرزخ الأول يسمى البداية وهو التحقق بالأسماء والصفات . البرزخ الثاني يسمّى التوسط وهوفلك الرقائق الإنسانية بالحقائق الرحمانية، فإذا استوفى هذا المشهد علم سائر المكتّمات واطلع على ما شاء من المغيبات . البرزخ الثالث وهو معرفة التنوّعات الحكيمة في اختراع الأمور القدرية ، لا يزال الإنسان تخرق له العادات بها في ملكوت القدرة حتى يصير له خرق العوائد عادة في فلك الحكمة ، فحينئذ يؤذن له بإبراز القدرة في ظاهر الأكوان، فإذا تمكّن من هذا البرزخ حل في المقام المسمى بالختام والموصوف بالجلال والإكرام، وليس بعد ذلك إلا الكبرياء، وهي النهاية التي لا تدرك لها غاية، والناس في هذا المقام مختلفون فكمال وأكمل وفاضل وأفضل (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل).

الفصل الثاني

القوى الباطنية للإنسان

في الباب 56 من كتابه النفيس (عوارف المعارف) أعطى الشيخ العارف شهاب الدين السهروردي (توفي سنة 632 هـ) تفصيلا بديعا للقوى الباطنة للإنسان أي : الروح العلوي والروح الحيواني والنفس ومراتبها والقلب والعقل والسر والبصيرة ، ونلخصه في ما يلي :

الروح الإنساني العلوي السماوي من عالم الأمر، والروح الحيواني البشري من عالم الخلق ، وهو محل الروح العلوي ومورده . وهذا الروح الحيواني جسماني لطيف حامل لقوة الحس والحركة ، ينبعث من القلب – أعني بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل المودعة في الجانب الأيسر من الجسد، وينتشر في تجاويف العروق الضواريب ؛ وهذه الروح لسائر الحيوانات، ومنه تفيض قوى الحواس، وهو الذي قوامه بإجراء سنة الله بالغذاء غالبا ، ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلاط . ولورود الروح الانساني العلوي على هذا الروح تجنس الروح الحيواني وبإين أرواح الحيوانات، واكتسب صفة أخرى فصار نفسا محلا للنطق والإلهام ، قال تعالى: [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] ، فتسويتها بورود الروح الإنساني عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات . فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي، وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الأدمي من الروح العلوي في عالم الأمر، كتكون حواء من آدم في عالم الخلق، وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه . قال الله تعالى: [وَوَخَّلَقْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا] فسكن آدم إلى حواء، وسكن الروح الإنساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفسا .

وتكوّن من سكن الروح إلى النفس القلب ، وأعني بهذا القلب اللطيفة التي محلها المضغة اللحمية، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق، وهذه اللطيفة من عالم الأمر. وكان تكوّن القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق . ولولا المساكنة بين الزوجين الذين أحدهما الروح والآخر النفس ما تكون القلب . فمن القلوب قلب متطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوي ميال إليه، وهو القلب المؤيد الذي ذكره رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فيما رواه حذيفة - رضي الله عنه - قال: " القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والصدید، فأی المادتين غلبت عليه حكم له بها " . والقلب المنكوس ميال إلى الأم التي هي النفس الأمانة بالسوء . ومن القلوب قلب متردد في ميله إليها، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة .

والعقل جوهر الروح العلوي ولسانه الدال عليه ، وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البارّ، والزوج للزوجة الصالحة ؛ وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمانة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق ، والزوج للزوجة السيئة ؛ فمنكر لهما من وجهه ومنجذب إلى تدبيرهما من وجهه ؛ إذ لا بد له منهما .

وقول القائلين واختلافهم في محل العقل : فمن قائل إن محله الدماغ ، ومن قائل إن محله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك، واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد، وانجذابه إلى البار تارة وإلى العاق أخرى، وللقلب والدماغ نسبة إلى البارّ والعاق، فإذا روي في تدبير العاق قيل مسكنه الدماغ، وإذا روي في تدبير البارّ قيل مسكنه القلب؛ فالروح العلوي يهيم بالارتقاع إلى مولاه تشوقا وحنوا وتنزها عن الأكوان، ومن الأكوان القلب والنفس؛ فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنو الولد الحنين البار إلى الوالد، وحن النفس إلى القلب الذي هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها، وإذا حنت

النفس ارتقت من الأرض وانزوت عروقها الضاربة في العالم السفلي وانطوى هواها وانحسرت مادته وزهدت في الدنيا وتجاقت عن دار الغرور وأنابت إلى دار الخلود . وقد تخلد النفس التي هي الأم إلى الأرض بوضعها الجبلي لكونها من الروح الحيواني المجنس، ومستندها في ركونها إلى الطبائع التي هي أركان العالم السفلي . قال تعالى: [وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ] ، فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس انجذاب الولد الميال إلى الوالدة المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم، وينجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده، فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه . وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة [ذَلِكَ تَفْذِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ] .

وقد ورد في أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان: أين موضع العقل منك؟ قال: القلب؛ لأنه قالب الروح، والروح قالب الحياة .

وقيل: النفس لطيفة مودعة في القالب ، منها الأخلاق والصفات المذمومة، كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب، منها الأخلاق والصفات المحمودة، كما أن العين محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق، وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف المحمودة . وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين، أحدهما الطيش، والثاني الشره، وطيشها من جهلها، وشرهها من حرصها . وشبهت النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب، لا تزال متحركة بجبلتها ووضعها ؛ وشبهت في حرصها بالفراش الذي يلقي نفسه على ضوء المصباح ولا تقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذي فيه هلاكه، ومن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر، والصبر جوهر العقل، والطيش صفة النفس، وهواها وروحها لا يغلبه إلا الصبر، إذ العقل يقمع الهوى، ومن الشره يظهر الطمع والحرص.

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها، لأنها مخلوقة من تراب، ولها بحسبه وصف، وقيل: وصف الضعف في الأدمي من التراب، ووصف البخل فيه من الطين، ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون، ووصف الجهل فيه من الصلصال . وقيل قوله: [كَالْفَخَّارِ] فهذا الوصف فيه شيء من الشيطنة لدخول النار في الفخار؛ فمن ذلك الخداع والحيل والحسد؛ فمن عرف أصول النفس وجبلاتها عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها، فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر دواعي الحيوانية فيه بالعلم والعدل، وهو رعاية طرفي الإفراط والتفريط، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيه والأخلاق المذمومة، وكمال إنسانيته يتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك، ثم تنكشف له الأخلاق التي تنازع بها الربوبية من الكبر والعز وروية النفس والعجب وغير ذلك، فيرى أن صرف العبودية في ترك المنازعة للربوبية .

والله تعالى ذكر النفس في كلامه القديم بثلاثة أوصاف : بِالطَّمَانِينَةِ ، قال: [يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ]؛ وسماها لوامة، قال: [لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ]؛ وسماها أمارة، فقال: [إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ] وهي نفس واحدة . ولها صفات متغايرة، فإذا امتلأ القلب سكينه خلع على النفس خلع الطمأنينة، لأن السكينة مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منع من حظ اليقين . وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب، وفي ذلك طمأنينتها؛ وإذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعي طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة فهي لوامة؛ لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها إلى محلها التي كانت فيه أمارة بالسوء؛ وإذا أقامت في محلها

لا يغشاها نور العلم والمعرفة، فهي على ظلمتها أمانة بالسوء؛ فالنفس والروح يتطاردان؛ فتارة يملك القلب دواعي الروح، وتارة يملكه دواعي النفس .

وأما السر فقد أشار القوم إليه ، ووجدت في كلام القوم أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح . ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف . وقالوا: السر محل المشاهدة، والروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة . والسر الذي وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور في كتاب الله، وإنما المذكور في كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها والقلب والفؤاد والعقل. وحيث لم نجد في كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه، ورأينا اختلاف القوم فيه ؛ فنقول - والله أعلم : الذي سموه سرّاً ليس هو بشيء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس، وإنما لما صفت النفس وتزكت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس، فأخذ في العروج إلى أوطان القرب، وانتزع القلب عند ذلك عن مستقره متطلعاً إلى الروح؛ فاكتسب وصفاً زائداً على وصفه، فانعجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سرّاً .

ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح اكتسب الروح وصفاً زائداً في عروجه وانعجم على الواجدين فسموه سرّاً، والذي زعموا أنه ألطف من الروح: روح متصفة بوصف أخص مما عهدوه، والذي سموه قبل الروح سرّاً: هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه . وفي مثل هذا الترقى من الروح والقلب تترقى النفس إلى محل القلب، وتتخذ من وصفها فتصير نفساً مطمئنة تريد كثيراً من مرادات القلب من قبل إذ صار القلب يريد ما يريد مولاه متبرئاً من الحول والقوة والإرادة والاختيار، وعندها ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حراً عن إرادته واختياراته .

وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان. وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبَلْ فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَذْبِرْ فَأَذْبَرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: انْطِقْ فَانْطَقَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اصْمُتْ فَصَمْتَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَعَظَمَتِي وَكِبْرِيَانِي وَسُلْطَانِي وَجَبْرُوتِي مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ وَلَا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، بِكَ أَعْرَفْتُ، وَبِكَ أَحْمَدُ، وَبِكَ أَطَاعُ، وَبِكَ أَخْذُ، وَبِكَ أَعَاتِبُ، وَلَكَ التَّوَابُ وَعَلَيْكَ الْعِقَابُ، وَمَا أَكْرَمْتُكَ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الصَّبْرِ" وقال عليه السلام: "لَا يُعْجِبُنْكُمْ إِسْلَامُ رَجُلٍ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا عَقَلَهُ وَعَقْلُهُ".

وقيل: عقل الإيمان مسكنه في القلب ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد، والذي ذكرناه - من كون العقل لسان الروح - هو عقل واحد ولكنه على ضربين : فإذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضعها، وهذا العقل هو المستضيء بنور الشرع؛ لأن انتصابه واعتداله هداه إلى الاستضاءة بنور الشرع، لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة . فالبصيرة تحيط بالعلوم التي يستوعبها العقل والتي يضيق عنها نطاق العقل، لأنها تستمد من كلمات الله التي ينفذ البحر دون نفاذها . والعقل ترجمان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطرا، كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان . ولهذا المعنى من جمده على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظي بعلوم الكائنات التي هي الملك، والملك ظاهر الكائنات .

ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت، والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر والعقول دون الجامدين على مجرد العقول . وقد قال بعضهم: إن العقل عقلان، عقل للهداية مسكنه في القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتعمله الصدر بين عيني الفؤاد، والعقل

الأخر مسكنه في الدماغ ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد . فبالأول يدبر أمر الآخرة ، وبالثاني يدبر أمر الدنيا . والذي ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة دبر الأمرين، وإذا تفرد دبر أمرا واحدا وهو أوضح وأبين . والله الملهم للصواب.

أوصاف القوى الباطنة للإنسان وجمعيته

روى الإمام الشعراني في كتابه " الطبقات الكبرى " عن أستاذه الشيخ علي الخواص قوله :

[العلم والمعرفة والإدراك والفهم والتمييز من أوصاف العقل . والسمع والبصر والحاسة والذوق والشم والشهوة والغضب من أوصاف النفس . والتذكر والمحبة والتسليم والإنقياد والصبر من أوصاف الروح . والفطرة والإيمان والسعادة والنور والهدى واليقين من أوصاف السر . والعقل والنفس والروح والسر المجموع أوصاف للمعنى المسمى بإنسان ، وهي حقيقة واحدة غير متميزة . وهذه الحقيقة وأوصافها روح هذا القلب المتحرك المتميز والجميع روح صورة هذا القلب . والمجموع من الجميع روح جميع العالم] .

حقيقة الروح ومظاهره عند الأمير عبد القادر الجزائري في كتابه " المواقف "

الموقف: (365)

قال تعالى: [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي] (الإسراء: 85/17).

وقال: [ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ] (الطلاق: 5/65).

اعلم أنّ الروح أمره غريب وشأنه عجيب، لا تكشف عن محياه عبارة، ولا يفتح بابها بإشارة، العلم بكنهه محال إلا للكبير المتعال:

وإن قميصا خيط من نسج تسعة وعشرين حرفا عن معانيه قاصر

ولهذا لما تعدت العقول أطوارها ووجهت إلى العلم بحقيقته أفكارها انقلبت خاسئة حاسرة بائرة خاسرة، ولعجز العقول عن الوصول إلى العلم بالروح لم يرد في الكتب الإلهية والاحباريات النبوية وصف الروح إلا بضرب أمثال وإشارات وتلويحات واستعارات رحمة بالعباد ورفقا بالعقول. فإنّ من أطلعه الله - تعالى - على شيء من صفات الروح من غير المتشرعين ظن أنّه الإله المعبود، وإنما يدرك بعض صفات الروح بالوهب الإلهي لا بالنظر العقلي. فإنّ للعقول حدّا تقف عنده، فإذا تعدته ظل ، ولكن لها القبول لما يهبها الوهاب - تعالى - .

وليس في قوله: [الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي] إشارة عن الكف عن السؤال والجواب عن الروح كما قيل، بل هو جواب إجمالي: أي الروح أمر ربي "فمن" بيانية كما قال تعالى: [ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ] (الطلاق: 5/15) ، إخبارا لجميع المخلوقات . ولما كان الروح لا تنقضي اشكالاته ولا تنتهي بالنسبة إلى إدراك العقول محالاته جنح إلى الاجمال بقوله: [من أمر ربي] ، أي هو أمر ربي الصادر عنه بالأمر بلا واسطة مادة . فأقول لك مقالا وأضرب أمثالا تخيلا وتقريبا، وإلا فأين الثريا من يد المتناول.

اعلم أنّ الله – تعالى – لما توجه لخلق العالم خلق روحا كليا سمّاه حضرة الجمع والوجود، لكونه جامعا لحقائق الوجود، وسمّاه بالحقيقة المحمّدية، لكون محمد – صلى الله عليه وسلم – أكمل مظاهرها. على أنّه ما في الجنس الانساني أحد إلا وهو مظهر هذه الحقيقة، كل إنسان يكون فيه ظهورها وبطونها على حسب كماله ونقصانه. ولا بدّ من ظهورها في كلّ إنسان كامل. وما زال الحق – تعالى – يخلق الموجودات من الحقيقة المحمّدية علوية وسفلية، لطيفة وكثيفة، بسيطة ومركبة . وكلما خلق صورة قبضها إلى الإنسان صورة الجمع والوجود، لأنّها بسطت فيها ولم تنقبض عنه . ثم خلق الله العماء الذي كان فيه الرب قبل خلق الخلق، وكان أول ما خلق الله – تعالى – في العماء الأرواح المهيمة والعقل والنفس الكلية . فهم مخلوقون من حضرة الجمع والوجود، وهم مظاهر لها، لكن دون مظهرية الإنسان الكامل. ومحمد – صلى الله عليه وسلم – الأكمل، فإنّه لا إنسان يماثل محمدا – صلى الله عليه وسلم – وكل ما عداه فهو مخلوق منه، فهو عين الوجود الصادر من الله – تعالى – بلا واسطة سوى الأمر، فهو صورة الأمر الإلهي الذي لا صورة له في نفس الأمر. وكلما فعلت الطبيعة الكلية صورة نفخ فيها روحا على قدر قابليتها واستعدادها . فالتبيعة ظاهرة وهو باطنها، بل ليست الطبيعة غير الروح باعتبار كثافة بعض الصور ولطافة بعضها، فقبل الطبيعة مغايرة للروح . فإذا أراد الله – تعالى – إيجاد شيء توجه إليه الروح وتوجهه عينه، وعين ما توجه إليه، بمعنى أنّ شعوره بمراد الله – تعالى – عينه وعين ما شعر به، وهو الشيء الذي أراد الله إيجاده، كالتوجه على المرأة هو عين وجود صورة المتوجه عين التوجه عين الصورة وعين وجود الصورة في المرأة، ولا ترتيب إلا في العقل لا في زمان ؛ كالبرق عين لمعانه عين الإضاءة به عين انكشاف الأشياء عين تعلق البصر، لا ترتيب بين هذه الأشياء إلا في العقل لا في زمان . وهذا التوجه هو المعني بالنفخ في قوله: [وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي] (الحجر: 29/15).

أي نفخت فيه من روعي فـ "مِنْ" للبيان. والمراد من النفخ لازمه وهو إيصال نفس النافخ إلى المنفوخ فيه. والنفس المنفوخ هو نفس الرحمن، وهو الروح. ولهذا عبّر بالنفخ فإنه لا ينفخ إلا بنفس . وهو لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، ولا امتزج بشيء ولا ينفصل عن شيء ولا يتصل بشيء، وكل شيء منه وفيه فهو عين كل شيء ، فلا يدخل فيه شيء ولا يخرج عنه شيء، ولا هو في جهة لشيء، بل هو منزّه عن جميع صفات الحوادث وله جميع الكمالات إلا الوجوب بالذات . وتدبيره للعالم طبيعي لا عن إرادة، وبعض تدبيره بإرادة، يدبّر كل صورة حسب مزاجها واستعدادها ومرتبته وقابليتها، فلا تُدبّر صورة أزيد من قابليتها ومرتبته ولا أنقص . فليس المنع من جهة الروح، وإنما المنع من الصور، فهي التي لا تقبل غير استعدادها. كالشمس تشرق على العالم، والصور تقبل تدبيرها حسب قابليتها، فتدبّر أشياء وتجمّد أشياء وتربي أشياء وتبيس أشياء، وتضر أشياء وتنفع أشياء، والشمس حقيقة واحدة . كذلك هو الروح في تدبير كل صورة كما قلنا لا يتبعض ولا يتغير، فلا يقال روح الفرس أكبر أو أزيد من روح البعوض من حيث الحقيقة . كما لا يقال في الحقائق الكلية أنّها تجزأت أو زادت أو نقصت، كالانسانية فإنها حقيقة واحدة، وهي موجودة بكمالها في كلّ فرد من أفراد الإنسان لا تزيد ولا تنقص، متعددة بتعدد أشخاصها التي لا تنحصر كثرة، فلا يقدر في وحدتها الحقيقية كثرة ظهورها في الأشخاص

. وكالبياضية فإنها حقيقة واحدة غير متعددة، فلا يقال أنها زادت في هذا الأبيض ونقصت في هذا، ولا تعددت بل هي على وحدتها الحقيقية لا تزيد بظهوراتها في كل أبيض ولا تنقص . فكل شيء فيه كل شيء . وهذه الحصص التي تختص بكل صورة حسب استعدادها ومرتبعتها من تدبير الروح وإمداده هي المسمّاة عند الحكماء بالنفوس الجزئية، وعند أهل الله بالأرواح الجزئية . ولما كان المدبّر - اسم فاعل - على صورة - المدبّر - اسم مفعول - كان الروح يعلم في تدبيره صورة زيد مثلا، لاستعداده للعلم وقابليته . والروح هو ما تبدّل ولا يتغيّر. ولهذا يقول المحققون من أهل الله: ليس المدبّر لصور العالم كله روح واحد، يريدون وحدة التدبير والإمداد، لأنه يلزم أنّ ما يعلمه زيد لا يجهله عمرو، إذ العالم منهما واحد . فتعددت الأرواح بتعدّد الصور مع وحدة حقيقة الروح .

ولم يعقل الروح نفسه إلا في صورة . وأول الصور النور المحمّدي لما روي: "أول ما خلق نور نبيك يا جابر".

فإذا كانت الصورة جمادية لا تقبل ظهور شيء من آثار الروح وإمداده إلا تماسك أجزاء صورها أمدها الروح بذلك لا غير فإنها لا تقبل؛ وسمّى ذلك الامداد نفسا جمادية من الجمود على حالة واحدة وعدم التحرك والانتقال . وهي من حيث وجهها الذي لخالقها عالمة مسبّحة حيّة إلى سائر الإدراكات خلاف الوجه الذي لنا . فإذا أراد الله فناء تلك الصورة الجمادية قطع الروح إمداده عنها فتداعت للفناء والانحلال فتحللت وذهب عنها اسم صورتها وذلك موتها، فإنّ موت كل صورة بحسب مرتبتها، وحينئذ رجعت العناصر التي كانت الصورة مركبة منها إلى أصولها، فرجع التراب إلى عنصره الأعظم وكذلك الماء والهواء والنار. وإن بقي شيء من الصورة لم يتحلّل يُدبّره الروح على مراد الله إلى أن يتحلل ويلتحق بالكل. ويلبس روح هذه الصورة التي تحللت وفنيت صورة برزخية وتذهب تسبّح الله وتمجّده أبد الأبدين ودهر الداهرين.

وإن كانت الصورة نباتية تقبل التغذية والنموّ باستعدادها وقابليتها، فإن النبات يُمدّه الروح بقوتين: قوة تمسك أجزاء الصورة وقوة تقبل الغذاء والنمو، وسميت نفسا نباتية . فإذا أراد الله موت شجرة مثلا قطعت، ذهبت عنها القوة المغذية المنمية وبقيت عليها النفس الجمادية، وذلك موتها . فإذا أراد الله فناءها بالكلية فاحترقت وصارت رمادا، أو طال عليها الأمر فتحللت أجزاءها، ورجع كل عنصر إلى أصله الأعظم كما قدّمنا، ولبس الروح صورة برزخية وذهبت تسبّح الله كما قدّمنا.

وإذا كانت الصورة حيوانية أمدها الروح زيادة على القوتين الجمادية والنباتية بجميع القوى ما عدا القوة المختصة بالإنسان وهي الفكر واكتساب العلوم بالنظر، فإذا أراد الله موتها وفناءها كان الأمر على ما تقدّم.

وإن كانت الصورة إنسانية أمدها الروح بجميع صفاته وكمالاته إذا كانت الصورة كاملة فاضلة قابلة كصور الأنبياء وورثتهم - صلى الله عليه وسلم -، وإلا فبحسب مزاجها وقابليتها ما بين كامل وأكمل وناقص وأنقص. فإذا أمات الله - تعالى - إنسانا انتقلت روحه إلى جسد برزخي مناسب لأحوال صاحب الجسم التي كان عليها في الدنيا بجميع صفاته نقصا وكمالا وأخلاقه الباطنة . فإنّ الله وعد الأرواح الإنسانية أن ينشئها نشأة أخرى كما قال مخاطبا للأرواح: [وَنُنشِئُكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ] (الواقعة: 61/56). وقد علمت النشأة الأولى، فهذه غيرها بلا شك.

والأرواح الإنسانية لها انتقالات في الصور: كانت يوم أخذ الميثاق في صورة، وفي الدنيا في صورة، وبعد الموت تصوير إلى صورة، فإذا وُضعت في القبر رجعت إلى صورتها للسؤال والجواب، ثم تصوير إلى صورة برزخية، ثم بعد البعث تصوير إلى صورة لا نعلمها الآن . وهي في كل صورة تنسى ما كان لها من العلوم والأحوال في الصورة التي قبلها.

والجسم الإنساني إذا فارقه روحه يبقى كسائر الجمادات تدبره الروح الجمادية إلى أن يتحلل ويفنى . ولهذا قد يسمع من بعض القبور بعد مضي أيام أو شهور أو سنين صراخ أو صياح أو كلام، فهذا من كلام النفس الجمادية إنذارا وتحذيرا للسامع، وإظهارا لإهانة صاحب ذلك القبر، خرقا للعادة، كما يخرق الله لبعض الناس العادة فيسمعون كلام الجمادات والأحجار والأشجار، كما سمع الصحابة حنين الجذع وتسبيح الحصى؛ ومن هذا كلام الجنائز كما ورد في الصحيح أنها إن كانت سالحة تقول: "قدموني"، وإلا قالت عند ذلك: "ياويلها أين تذهبون بها"، وقوله: "تلك يهود تُعذب في قبورها". وإلا فالعذاب بعد السؤال إنما هو في البرزخ، وأضيف إلى العبد لأنه المعروف للعموم.

فإذا تحلل جسم الإنسان رجع كل عنصر إلى أصله كسائر الصور العنصرية، إلى أن يبعث الله الأرواح الإنسانية وينشئها نشأة أخرى في صور، هو - تعالى - يعلمها.

فالصور كلها فانية والأرواح كلها باقية كانت ما كانت الأرواح . وإنما للأرواح صعق عند النفخة الأولى يُشبه الغشي لا غير. وكان الروح قبل إيجاد العالم موجودا معلوما . فلما وُجد العالم خارجا أعطاه العالم وجودا خارجيا، كما يُقال في الحقيقة الإنسانية مثلا هي معقولة ولها وجود خارجي ضمن أفرادها وأشخاصها الموجودة خارجا. فلولا العالم ما عُرف هو، ولولا هو مع وساطة الحق - تعالى - ما وُجد العالم . وليس هو بمتقدم على العالم، ولا العالم متأخر عنه . وهو العنصر الأعظم الممدّ لجميع العالم، جواهره وأعراضه ونسبه المنحصرة في المقولات العشر. فإن قلت هو العالم صدقت، وإن قلت هو غير العالم صدقت .

واختلف هل تعيين الروح للصورة مقدما عليها أو معها أو الروح مع الصورة كانت ما كانت الصورة؟ فإن وجودها عين حياتها وحياتها عين روحها.

وأما قوله بعد ذكر أطوار الخلقة: [ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ] (المؤمنون: 14/23) ، وقوله عليه السلام: "ثم ينفخ فيه" ، فالمراد ظهور آثار الروح للعيان . وذلك بالتغذي والحركة، بعد كمال التعديل والتسوية . فالمولود حالة كونه نطفة وعلقة ومضغة جماد لا يقبل من آثار الروح إلا ما يقبله الجماد . ثم بعد يقبل من تدبير الروح ما يقبله الحيوان . فإذا ولد صارت آلاته وقواه يظهر استعدادها لقبول آثار الروح فيها شيئا فشيئا. فكلما كمل استعداد آلة ظهر أثر الروح فيها بحسب ذلك الاستعداد كاملا ونقصا .

فها قد سمعت من بعض ما يتعلق بالروح ما يكون به صدرك أثلج، وصبحك أبلج، فإنه كلام أهل الله أهل الكشف والوجود. فارم بكل ما يخالفه من أقوال الحكماء والمتكلمين الذين تفكروا حيث لا يصح فكر، وقاسوا حيث لا يستقيم قياس، وخبطوا في الروح والإعادة خبط عشواء، والله الموفق، لا رب غيره.

تسوية الإنسان من آخر الموقف 248 من كتاب " المواقف " للأمر عبد القادر الجزائري

قال تعالى خطابا للملائكة في حق آدم - عليه السلام - : [فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ] (ص: الآية 72). وقال في حق أولاده: [الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ] (الانفطار: الآيتان 7, 8). وقال: [فَخَلَقَ فَسَوَّى] (القيامة: الآية 38).

فمعنى التسوية والتعديل في خلق آدم - عليه السلام - هو جعل صورته على هيئة واستعداد، تقبل به صورة الروح المنفوخ فيه قبولا تاما، أتم من قبول جميع الصور المخلوقة، ولا الملائكة والأرواح العلوية، فلا بد من فعل في الطين حتى يصير متغيرا متعفنا؛ فإن المولدات ظهرت عن أربعة عناصر وأربعة أخلاط : صفراء وسوداء ودم وبلغم؛ فكان السوداء عن التراب، وهو قوله: "من طين"، وكان الصفراء عن النار، وهو قوله: [خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ] (الرحمن الآية 14). وكان الدم عن الهواء، وهو قوله: [مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ] (الحجر: الآية 26). وكان البلغم عن الماء الذي عجن به التراب فصار طينا .

والتسوية والتعديل في حق أولاده هي أن يصير الطين نباتا، فيأكله الانسان فيصير دما، ثم تأخذ قوته القوة المميزة، فيصير نطفة، ثم يمتزج بماء المرأة فيزيد اعتدالا، ثم ينضج الرحم فيزيد تناسبا. ثم يزيد في الصفاء إلى أن يستعد لقبول الروح المنفوخ فيه قبولا، لا مثل له، كالفتيلة التي تستعد بشرب الدهن وكمال النظافة والغلظ لقبول النار وإمساكها. وأشخاص الانسان متفاوتون في التعديل والتسوية لصورهم، فكامل وأكمل وناقص وأنقص. وهذا هو السبب الثاني للثقافات بينهم في الانوار والعلوم والمعارف :

ففتيلة، أعني صورة طبيعية ، في غاية النظافة صافية الدهن وافرة الجسم يكون قبولها أعظم في اتساع النور، وفي كمية جسم النور، وأكبر من فتيلة نزلت على هذه الصفة من النظافة والصفاء، فكان الثقافات بين الأنوار بحسب استعدادات الفتائل . لذا كان في الناس شقي وسعيد، وعالم وبليد . فبالتعديل والتسوية للصورة صارت كالمرأة المجلوة، تقبل صورة ما فاض عليها وقابلها على الكمال، وتحكيه كما هو؛ فنفخ الروح عام في كل صورة، والتسوية والتعديل خاص بالصورة الأدمية الإنسانية، فهو كناية عن التجلي الجاعل لها مثلا للمتجلي في قبول المجلي. فالنافخ كما هو الإنسان، لما يرى منه بواسطة الأجرام الصقيلة، منه ظهرت، وبه قامت، وإليه تعود، لأنها ظلّه ومثاله وهما ، وإلا فهي هو حقيقة وعلما. فالروح المنفوخ عن الجود الإلهي روح الله، من حيث أنه حق ؛ وروح من نفخ فيه، من حيث أنه خلق؛ فله خصائص الإله وأحكامه بالحيثية الأولى ، وخصائص الخلق وأحكامه بالحيثية الثانية . فانظر ما أجمعه !! ولا يعرف كيف ارتباط الحياة الإنسانية لهذا البدن، بوجود هذا الروح لمقارنة الطبيعة فيه، لوجود الروح الحيواني، فلا يدري هذه الحياة البدنية، للروح الظاهرة عن النفخ الإلهي، أو للطبيعة، أو للمجموع .

الفصل الثالث

حقيقة الروح وقواها

حقيقة الروح

وأما حقيقة الروح ففيه من الأقوال كثرة بلغت ألف قول ! والقول الحق هو ما عليه أهل الكشف والوجود، أنه ليس بجسم يحلّ البدن، ولا عرض يحلّ في القلب أو الدماغ، وإنما هو جوهر مجرد، غير متحيز، ولا منقسم، ولا له صورة من ذاته، ولا هو داخل البدن، ولا خارج عنه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا هو في جهة. فهو منزّه عن الحلول في المحال، والاتصال بالجهات، وعن جميع عوارض الأجسام فلا يدخل تحت مساحة، ولا يقبل إشارة حسية . فالأرواح متّصلة بالأجسام بالتدبير، منفصلة بالحدّ والحقيقة . والتدبير للأرواح ذاتي كالشمس، غير أن الشمس لا علم لها بما تدبّره من مصالح العالم ، والروح لها علم، فإن كانت فاضلة، فلها علم بجزئيات الجسم الذي تدبّره . فالإنسان عالم بجميع الأمور المغيبة فيه، من حيث روحه المدبّر له، إمّا تفصيلا وإمّا إجمالاً؛ فهو يعلم ولا يعلم أنه يعلم، بمنزلة الساهي والناسي. وليس المدبّر لصور العالم كله روح واحدة، كما قيل ، وأن روح زيد هي روح عمر، فإنه يلزم أن ما يعلمه زيد لا يجله عمر ، لأن العالم من كل واحد منهما روحه.

واختلف في الأرواح : هل وجودها مع أجسامها أو قبلها أو بعدها ؟ والحقّ عند أهل الله أنّ أرواح الكمل، كالأنبياء والرسل وكمل ورثتهم مساوقة للعقل الأول، فهي موجودة متعينة متميزة قبل إيجاد أجسامهم، ولهذا قال – صلى الله عليه وسلم - : " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " . يريد : أن آدم لم يخلق حينئذ، أعلمه الله بذلك، وهو روح ، والنبوة الخبر، ولا يكون مخبرا إلا لمخبرين. وما عداهم من إنسان وغيره، فأرواحهم المدبرة لصورهم كانت موجودة في حضرة الإجمال، كالحروف في المداد، غير متميزة لأنفسها ، وهي متميزة عند الله مفصلة في حال إجمالها. فإذا كتب القلم في اللوح ظهرت صور الحروف مفصلة بعدما كانت مجملة في المداد، فقيل: هذا ألف، وهذا باء، وهذا دال ... في البسائط ، وهي أرواح البسائط . وقيل: هذا زيد وهذا عمرو .. وهي أرواح الأجسام المركبة . فإذا سوى الله الصور، أي صورة كانت ؛ كان الروح الكلّ، كالقلم ويمين الله الكاتبة ، والصور كالحروف في اللوح . فنفخ الروح في صور العالم فظهرت الأرواح متميزة، فقيل: هذا إنسان وهذا فرس وهذه حية وهذا طير ... فعين وجود الصور عين حياتها ، عين نفخ الروح فيها كل صورة بحسب استعدادها ومرتبته، كما نبهنا على ذلك مرارا.

وذكر سيدنا ختم الولاية المقيدة محيي الدين – رضي الله عنه – أن الرجل إذا أفضى إلى زوجته وواقعها، واتّحدا لهذا الاجتماع المخصوص، وعمّتها اللذة لهذا الاجتماع، فكانا كالمقدمتين، عند ذلك ينفصل من رويهما روح الولد الذي هو النتيجة . وينفصل من جسديهما جسد الولد، وليس إلا النطفة . فجسد كل إنسان روحه المتجسدة في الخيال المنفصل. وإذا انفصلت النطفة من الوالدين واستقرت في الرحم دبّرت نفسها إلى زمان انطلاقها من قيد التجسد، إمّا بالموت الإرادي أو الطبيعي .

وتسمّى هذه الحقيقة المدركة من الإنسان بأسماء كثيرة، بحسب تنزلاتها واعتباراتها ، فلها بكل اعتبار وتنزل اسم . تسمّى علما من حيث أنها بها تحققت الأشياء وبانت مراتبها وتميزت أعيانها.

وتسمّى روحا من حيث أنها صورة الحياة الإلهية، ومن حيث أنها لا صورة لها تخصّها، فلا تعرف إلا بآثارها في الصور، مشتقة من الريح، فإنها لا تدرك إلا بما تحركه من الأشجار، وبما تحمله من الروائح

مثلا . وتسمى اللطيفة الإنسانية لأنها ظهرت بالنفخ الإلهي، فهي سر لطيف ينسب إلى الله على جهة الإجمال، من غير تكيف.

وتسمى بالنفس الناطقة ، عند الحكماء، يعنون المفكرة بالقوة .

وتسمى عقلا، لأنها أول شيء عقل عن الله ما يلقي إليه، ولأنه قيد الأثياء وحددها بعد إطلاقها ، مأخوذ من العقال، وهو القيد .

وتسمى قلبا لتقلبها ؛ لتنفسها في صور المراتب التي تنزل إليها، وانصباغها بكل شيء يريد الحق – تعالى – منها .

وتسمى سرا لتجردها الحقيقي عن كل شيء يتوهم ملابتها له ومباينتها لكل صورة ؛ فإنها الوجود الحق الذي ليس منه شيء في شيء، فلروح الإنسان باطن، وهو السر، وللسر باطن وهو سر السر، ولسر السر باطن وهو الخفا، وللخفا باطن وهو الأخرى . وباطن كل شيء حقيقته ومادته، مثلا، السرير باطنه قطع الخشب، وباطن قطع الخشب الشجر، وباطن الشجر العناصر الأربعة، وباطن العناصر الهولي الأولى . فالروح الأمري، حال كونه في غاية اللطافة، يسمى الأخرى ، وحال تنزله درجة يسمى الخفا ، وحال تكافئه أكثر مما قبله يسمى السر . ثم كذلك فيسمى القلب، ويسمى النفس الناطقة . فإن تنزل فيسمى بالنفس الأمانة .

والمراد من هذا المعنى، الذي البدن مركبه ومحل تدبيره وآلات تحصيل معلوماته المعنوية والحسية، وكان ظهوره وتعلقه بالبدن عن وجود لا عن عدم . فما حدث إلا إضافة التولية إليه بتدبير هذا البدن . وأعطى الروح في هذا المركب الآلات الروحانية والحسية، لإدراك علوم لا يعرفها إلا بواسطة هذه الآلات السمع والبصر والشم ، لا الأذن والعين والأنف؛ فهو لا يدرك المسموع إلا من كونه صاحب سمع، لا صاحب أذن. ولا يدرك المبصر إلا من كونه صاحب بصر، لا صاحب حدقة وأجفان، فإضافة هذه الآلات لا يصح ارتفاعها، وليست ترجع إلا إلى عين الحقيقة الإنسانية. وتختلف الأحكام فيها باختلاف المدركات، والعين واحدة . هذا مذهب أهل الكشف والوجود، ولا عبرة بمن خالف هذا من الحكماء أهل النظر.

قوى الروح الإنساني وكيفية تدبيرها

القلب والعقل

لما أنشأ الله الصورة الإنسانية كانت بمثابة مدينة أنزل فيها الروح، وجعل بمثابة الخليفة، عين له موضعا منها هو موضع أمره ومحل خطابه ونفوذ أحكامه ، سمّاه تعالى القلب ، أعني القلب النباتي، الذي هو مضغة لحم، في الجانب الأيسر، وهو لا فائدة فيه إلا من حيث أنه مكان لهذا السر المطلوب المتوجّه عليه الخطاب، وهو المجيب إذا ورد عليه السؤال، وهو الباقي إذا فني الجسم . ثم بنى – تعالى – للخليفة متنزّها عاليا في أرفع مكان في هذه المدينة الإنسانية، سمّاه الدماغ، وفتح له فيه طاقات وخواص يشرف منها على مدينته وهي العينان والأذنان والأنف والفم .

ثم بنى له في مقدّم ذلك المتنزّه خزانة سمّاها الخيال، جعلها تعالى مستقرا، وخزانة للمبصرات والمسموعات والمشمومات والمطعمومات والملبوسات وما يتعلق بها. ومن هذه الخزانة تكون المرآة التي يراها النائمون، وهي خزانة واسعة جدا، وفيها من الأمور العظام وخرق العادات ما لا يوجد في هذه الدار، وفيها توجد المحالات العقلية كقيام الأعراض بأنفسها وحياتها لأنفسها ونطقها وإيراد الكبير على الصغير مع بقاء الكبير على كبره والصغير على صغره، وتكلم الجمادات ووجود الشخص الواحد في مكانين، واجتماع الضدين . . . وغير ذلك مما لا يتصور وقوعه في هذا العالم، وهي المكتوى عنها عند سادات القوم – رضوان الله عليهم – بأرض السمسة . وهذه الخزانة يسميها المتكلمون بالحسّ المشترك، ويسميها الحكماء البنطاسيا، يريدون لوح النفس . وبنى له – تعالى – في وسط هذا المتنزّه، وهو الدماغ خزانة الفكر، وهي التي ترفع إليها المتخيّلات، فيقبل الصحيح منها ويرد الفاسد. وبنى له في آخر هذا المتنزّه، وهو الدماغ، خزانة الحفظ، أودع فيها محفوظات الإنسان .

ثم جعل – تعالى – للخليفة الروح وزيرا هو العقل؛ لأن الحكمة الإلهية اقتضت أنه لا يستقيم أمر خليفة إلا بوزير، يكون واسطة بينه وبين رعاياه، أوجده – تعالى – في ثاني مقام من الخليفة، وهو موجود عجيب ومخترع غريب، نور مشرق في القلوب، فكما أن العالم الكبير له الروح الكل، والعقل الكل، والنفس الكلية، كذلك العالم الصغير، له الروح الجزئي، والعقل الجزئي، والنفس الجزئية . فالروح له الأولوية؛ إذ هو أمر الله، والعقل ناشئ عنه . فالروح يمدّ المدينة الإنسانية والصورة الأدمية بالحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام، ويمدّ العقل بالعلم وكيفية تدبير المدينة . ومن ثمّ ترى الذين لا عقول لهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون ويقدرّون ، ومع ذلك ليس لهم تدبير ولا علم بمواقع الأمر والنهي، لخلوّ مدينتهم عن العقل، فإنّه إنما سمّاه - تعالى - عقلا ، لأنه يعقل عن الله أمره ونهيه وخطابه، وكلما يلقيه إليه، فعليه يتوجّب الخطاب، إذ هو وزير المدينة الإنسانية ومدبّرّها . فلو كانت المدينة خالية من الخليفة لكانت في حكم الجمادات ؛ ولو كانت خالية من الوزير لكانت من جملة البهائم، وإن كان الروح فيها قائما عليها؛ إذ الروح ليس له تدبير المدينة الإنسانية، فلا يفرق بين الحلال والحرام، ولا بين الطهارة والنجاسة، ولا بين الحسن والقبح، وإنما هذا للعقل . فلا تقوم المدينة الإنسانية إلا بالخليفة ، ولا يستقيم أمرها إلا بالوزير.

أنزل – تعالى – العقل الوزير، من الروح الخليفة منزلة القمر من الشمس، فليس للقمر نور في نفسه، فأشرقت الشمس بنورها على القمر؛ فاكتست منها نورا لضياءه، فكان هو الشمس في نفس الأمر من حيث النور، وافترقا من حيث الرتبة، فإنّ الشمس نورها ذاتي لها، والقمر نوره مكتسب. فلذلك إذا طلعت الشمس بالنهار وأشرق نورها واختفى نور القمر وغيره. وإذا طلع القمر بالليل وأشرق نوره ظهرت معه جميع الأنوار. فالروح أمر الله، له النور التام، إذا ظهر لا يظهر معه نور، فلا يكون للعقل الوزير حكم. فلهذا إذا غلب حكم الروح على إنسان بهت، وتراه لا يعقل ولا يدرك، كالقمر إذا وقع في قبضة الشمس . فمتى لم يغلب على الإنسان نور الروح أو ظلمة الطبيعة كان معتدلا يؤدي إلى كل ذي حق حقه؛ لأنّ الظلمة لها حق في مقام العبودية، فيؤدي حق الخالق والخلق. ومتى غلب على الإنسان النور أو الظلمة المحض، ولم يراع ما يقتضيه العقل قبل كماله فسد أمر عبوديته والتحق بالمجانين أو الملحدين الإباحيين. وكذلك إذا وقف عند العالم بحيث يمنعه النظر في عالم طبيعته عن النظر في عالم النور.

والعقل، يمدح باعتبار أنه نور، وعليه يدور أمر الإيمان والشرائع ومقتضيات العبودية، ويذمّ باعتبار أنه العقل المعاشي المربوط بشهوة النفس؛ لأن العقل من حيث هو مقيد تحت فلك القمر؛ فليس له قوة الإطلاق، وهو روحاني مهياً لقبول المعاني الإلهية، متوجّه إلى العالم الأعلى ؛ وحيواني مهياً لتدبير

المعايش الكونية، متوجّه إلى العالم الأسفل؛ فالأول عقل أصحاب الأرواح الطاهرة، والثاني عقل أصحاب النفوس الأمّارة الحيوانية . فإذا اشتغل الجسم بالأمر الطبيعية السفلية يغيب الخليفة الروح عن المدينة الإنسانية، ويبقى الوزير العقل يفيض أنوار حكمه على المدينة الإنسانية، كالقمر ليلاً. وفيضانه إلى النفس النباتية، فتسوسه نفسه النباتية التي هي جسمه، بما هي عليه من صلاح المزاج، فيكون كالطفل الذي مات أبوه . فمتى احتجب الخليفة، كان للوزير الظهور وإنفاذ الأوامر والإعطاء والمنع. ألا ترى القمر إذا حصل في قبضة الشمس، لا يكون له نور ولا ظهور ؟ فإذا كانت الليالي البيض كان له النور التام، لغيبه الشمس عن أعين الناظرين. فالقمر في ذلك الوقت، قد كمل نوره لكمال مشاهدته، لمن هو مستمدّ منه. والناس لا يشاهدون ذلك الوقت إلا القمر.

ولما أنشأ الله - تعالى - العقل الوزير أودع فيه حسن التدبير، وجميع الأمور اللازمة للمدينة الإنسانية، فصار محلاً للعلوم الإنسانية ورأساً في تدبير الأمور الكونية، ولا يدري المحلات التي يصرفها فيها ولا متى يصرفها ، حكمة من الحق - تعالى - ليكون العقل مضطراً إلى الخليفة الروح، ليفيده ويعلمه ما جهل . وكيفية تلقي العقل الوزير العلوم من الروح الخليفة، أنه إذا أراد العقل معرفة شيء في تدبير المدينة الإنسانية وإصلاحها، توجّه إلى مشاهدة الروح الخليفة. فعند مشاهدته يلوح له المراد، فيقوم له التجلّي من الروح منزلة الخطاب، من غير حرف ولا صوت؛ إذ المراد حصول علم تدبير المدينة الإنسانية، فهو كشف روحاني ومعنى ذوقي. وبهذا يعبر عن مخاطبيه كل ما ليس له كلام، إذا لم تكن هناك حروف ولا أصوات ولا غير ذلك من الدلائل. فلك أن تنظر إلى ما تؤدي إليه تلك الأدلّة من الأصوات وغيرها في قلب السامع، وهو حصول المعنى. وهو أثر الكلام من المخاطب . فإذا حصل للعقل آثار العلوم من فيض الروح عبر عنه بالكلام والقول والخطاب. فإذا أراد الخليفة الأعظم، وهو الروح الكلّ، العقل الأول، أن يظهر أمراً من الأمور من عالم الغيب إلى عالم الشهادة تجلّي للقلب، فانشرح الصدر لذلك الأمر. وذلك عبارة عن كشف الغطاء عن ذلك الأمر، فارتقم في القلب مراد الإمام الأعظم الروح الكلّ، والقلب هو مرآة العقل الجزئي وزير الروح ، المولّى على المرتبة الإنسانية، فرأى العقل في مرآته ما لم يكن رآه قبل ذلك، لأن القلب هو النقطة التي يدور عليها محيط الأسماء. فإذا قابلت اسماً من الأسماء انطبع ذلك الإسم ، أعني ما يطلبه ذلك الاسم من الأثر. فلهذا سمي قلباً، لسرعة تقلّبه لمقتضيات الأسماء. فإذا رأى العقل ما رأى، وعرف أنه مراد الخليفة الأعظم الروح الكلّ استدعى الكاتب، وهو الروح الجزئي، فأطلعه على المراد وقال له: اكتب في لوح النفس، أعني النفس الجزئية، كذا وكذا. فإذا حصل في لوح النفس خرج على الجوارح. لا يقال العقل وزير الروح فهو دونه، فكيف يستدعيه إلى الكتابة ؟ لأننا نقول: الروح له حضرتان: حضرة في الغيب، وهو الروح الأعظم الذي لا يعبر عنه بعبارة، فإنّه مقدّس عن إدراك العقول، فضلاً عن غيرها، وله حضرة في الشهادة، وهو الروح المنفوخ في الصورة، المدبّر لها بما يلقي إليه من روح الروح، فيكتبه في لوح النفس، بإشارة العقل؛ لأنه صاحب تدبير المدينة الإنسانية؛ فهو فرق اعتباري، ولا فرق بينهما في مقام الجمع، لكن له مراتب يظهر فيها؛ فالتعدّد للمراتب لا للظاهر فيها. ومنها يظهر الفرق عند أهل الفرق.

النفس ومراتبها

ثم أوجد الله - تعالى - للروح الجزئي الخليفة على المدينة الإنسانية، النفس الجزئية ، وهي متولدة بين الطبيعة وهي أمها ، والروح الإلهي أبوها، يقول سيدنا ختم الولاية المحمدية محيي الدين - رضي الله عنه :-

أنا ابن آباء أرواح مطهّرة وأمّهات نفوس عنصريّات

فالنفس المقام الثالث، لأنها نشأت عن العقل، كما نشأت حواء من آدم فهي بعضه، وكما نشأت النفس الكلية من العقل الأول، فهي بعضه، ولوح كتابته . فالنفس الجزئية لوح كتابة العقل الجزئي.

والإنسان له أربع نفوس: نفس جمادية ، وبحياة هذه النفس تشهد الألسنة والأيدي والأرجل والجلود يوم القيامة. ونفس نباتية ، بها يطلب الإنسان التغذي . ونفس حيوانية ، وبها يحسّ ويتحرك، ونفس إنسانية .

والنفس من حيث هي جوهر شأنه الإدراك والفعل والتعلّق بجسم تتصرف فيه؛ فإن كان الجسم لا يقبل إلا تصرفاً واحداً على وتيرة واحدة فهي النفس الكلية . ثم إن لم يكن أظهر أمور النفس إلا حفظ صورة الجسم ونظامه، فهي النفس الجمادية . وإن كانت النفس مع ذلك تعطي تنمية وتوليد الأشخاص من نوعه فهي النفس النباتية . وإن كانت النفس مع ذلك تعطي تحريكاً اختيارياً وإحساساً، فهي النفس الحيوانية . وإن كانت مع ذلك تصدر الأفعال والحركات منها عن تميّز ونظر ورؤية فهي النفس الإنسانية . ثم إن كانت قوة تمييزها ونظرها حاصلة لها حال تعلّقها بالجسم، وبعد مفارقتها فهي قوة ربانية، تسمّى النفس باعتبارها روحاً .

فالنفس الإنسانية تفيض في النفس الحيوانية قوى فعلية . والنفس الحيوانية تفيض في النفس النباتية قوى حركية . والنفس النباتية تفيض في النفس الجمادية قوى هي مبادئ ما تمسك الجسم على صورته ونظامه

والنفس الإنسانية هي محل التغيير بالمخالفات الشرعية، ومحل التطهير بالموافقات والطاعات الإلهية . وفي الحقيقة لا مخالفة للنفس من حيث هي، ولا خبث فيها ولا معصية لها، وإنما الحق - تعالى - جعلها في كل هيكل على حسب ما يليق به، فتدبره بما هو مكتوب له وعليه من الأزل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر . فكلما يكتبه الكاتب في لوح النفس حسن جميل لأنّه أمر الله، حتى يصدر عن النفس، فيحكم عليه الشرع بحكمه، من حسن وقبيح . فالنفس طاهرة مقدّسة، تنفذ أمر الله بالعبد خبثاً أو غيره ، فلها وجهان: وجه إلى الملكوت، وهي بهذا الاعتبار أمر الله وروحه المقدّسة ؛ ووجه إلى الملك وهي النازلة إلى أسفل سافلين . فقد دُنست بتدنيس أوانيها، كالماء الطاهر ينزل في الأواني النجسة . فلا تدمّ النفس إلا بتصرفها آلتها في المذموم شرعاً .

والنفس برزخ بين ظلمة الكون ونور العقل ؛ والعقل برزخ بين النفس ونور الروح ؛ والروح برزخ بين الخالق والمخلوقات . فالروح صورة الحياة، والنفس ظل الروح، والجسم قابل الروح والنفس . فالروح باق، والنفس فان، والجسم موات . فمنزلة النفس الإنسانية الناطقة من الجوهر الروح الكل منزلة قوى النفس الناطقة من الجوهر الجسم .

فقد تبين مما ذكرنا أن مجموع حقيقة الإنسان، باعتبار التفصيل : روح وعقل ونفس؛ فهم الحاكمون على المدينة الإنسانية . أمّا الروح فهو واحد قدسي، تختلف أحكامه باختلاف الأعضاء، فهو واحد كثير، ولا يدبّر الجسم، لأنه الخليفة، له الاحتجاب . وأمّا العقل فهو نور الروح ، وهو يدبّر المدينة الإنسانية بأمر

الروح. وأمّا النفس فهي نور العقل، وهي بمنزلة الخادم، يصرفها كيف شاء . فإن كمل العقل في تدبيره كملت النفس في خدمتها، والعكس بالعكس. وجملة هذه الثلاث – في الحقيقة – أمر واحد، هو أمر الله الواحد بالذات، المتكثّر بحسب كثرة مراتبه . مثال ذلك: الشمس، إذا قابلت الجسم الصقيل فإنه ينبعث من ذلك الصقيل نور يضيء به موضعا لا تقابله الشمس بقرصها، بانعكاس الشعاع ؛ كضوء القمر، فإن الشمس بالليل تحجبها عنا الأرض، فيضرب نورها إلى السماء، فإذا كان القمر فوق الأرض في السماء ضرب فيه نور الشمس، لكون القمر صقيلا، وهو يقابل الشمس، فيخرج من القمر نور ينعكس إلى الأرض، فتشرق الأرض؛ فمن أراد أن يرى الشمس، من غير أن ينظر إليها فلينظر الموضع الذي ضرب فيه نور الشمس من الجسم الصقيل، فإنه يشهد الشمس في ذلك الموضع، من غير أن ينظر إليها في السماء، لأن الذي رآه هو عين ما في السماء؛ فهنا ثلاثة أركان: قرص الشمس، والجسم الصقيل، وموضع ضرب الشعاع المنعكس .

ولما أوجد الله – تعالى – الروح الخليفة، على الكمالات التي ذكرناها، والأوصاف العلية التي أسلفناها، أراد – تعالى – أن يعرفه بعجزه وافتقاره، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله مبدعه وربّه ومولاه ، فأوجد له – تعالى – منازعا في مملكته، وأثار عليه في مدينته التي ولاه الله عليها ثائرا قويا كثير الخيل والرجل، سمّاه – تعالى – الهوى، وهو كل ما تميل إليه النفس وتستحليه من الأمور الطبيعية واللذات المعجلة المحببة لها، المزينة في عينها في الوقت، فوقعت النفس بين أمرين قوبين: هذا يناديها لطاعته ومشيتها على ما يرضيه، وهذا يناديها لطاعته واستعمالها لما يشتهي، فإن أجابت النفس داعي العقل، الذي هو وزير الخليفة ومدبّر المدينة الإنسانية حصل لها اسم المطمئنة. وإن أجابت داعي الهوى والشيطان حصل لها اسم الأمارة بالسوء، والكلّ من عند الله تعالى. قال: [فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوِيَهَا] (الشمس: الآية 8) وقال: [قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ] (النساء: الآية 78). وقال: [كَلَّا نُمَدُّ هُوَآءًا وَهَؤَآءًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا] (الإسراء: الآية 20).

فعندما حصل الحرب والمنازعة بين الروح الخليفة والهوى المنازع له ، رجع الروح بالشكوى إلى الله – تعالى – يطلب منه النصر والعون على دفع الثأر وقمعه وردّه على عقبه. وهذا كان مراد الحق – تعالى – وهو الحكمة في إجابة النفس داعي الهوى والشهوة، وعماها عن رشدها وطريق سعادتها ، وأن النفس عرفت ما عندها وما لها، من حيث حقيقتها في إجابة دعوة الخليفة ؛ ولما سمعت داعي الهوى يدعوها أرادت أن تعرف ما عنده، وماذا تحت طيّ دعوته .

فأصل النفس روح الله، وروحه أمره، وأمره صفته، وصفته عين ذاته؛ فما أعماها وأضلها عن أصلها إلا القرب المفرط، وما تشهده الحواس من العالم الطبيعي الكثيف، فلهذا صارت النفس جاهلة بأصلها، وهو الحق – تعالى – ولولا ذلك لظهر بالفعل ما هو باطن فيها من الكمالات الإلهية .

أطوار الروح

اعلم أن الروح المسمى باللطيفة، لما تعلق بالجسم وتديبره، وشهد ما هي الأجسام عليه، وما تنتجه مما لم يشهده في عالمه عالم المجردات، إذ عالم المجردات لا ذوق له في عالم الأجسام، فلما أهبط إلى عالم الأجسام تولّع بها وعشق الهيكل وأحبّه حبّا لا يتصوّر أشدّ منه ولا أعظم؛ لأن الهيكل هو

الواسطة في شهوده لعالم الأجسام، وإدراك الجزئيات من العلوم، وغيرها، وتحصيل ما لا يحصل إلا من تعلقه بالأجسام، ولشدة محبة الأرواح لهياكلها غفلت عن أنفسها، وذهلت عنها، ولم يثبت عندها إلا أجسامها، فإنها نظرت إلى أجسامها نظر الاتحاد . فحلت فيها حلول الشيء في هويته ومادته، فاكتملت التصوير الجسمي. فليس عندها إلا الأجسام، كما يذوقه جميع الناس، حتى قالت طائفة : مسمى الإنسان ليس إلا الجسم فقط . وهذا وإن ورد في القرآن فهو ظاهر لا نص، والحق أن مسمى الإنسان: مجموع الجسم والروح، لا الجسم وحده، ولا الروح وحده، وإنما أحب الروح وحده الظهور، كما ورد في قوله: "أحببت أن أعرف".

وإذا فارقت الأرواح هياكلها وأجسامها لا ترى أنفسها إلا على صورة هياكلها وصورها قبل الموت الطبيعي وبعده ، ولا تغفل عنها طرفة عين، إلا أهل الكشف والانسلاخ، من أهل الله، فإن أرواحهم مطلقة في الدنيا والبرزخ . وأرواح من عداهم مقيدة دنيا وبرزخا . والتجسد والتصوير للأرواح المقيدة إنما هو في نظرها وشعورها؛ وإلا فهي مجردة أبدا . فهيكلكل إنسان وصورته هو روحه المتجسد حالة تجرده في عالم الخيال المطلق، كما يتجسد العلم في الخيال المقيد، ويظهر بصورة اللبنة وهو هو . فتجسد الأرواح وظهورها بالهياكل والصور ليس إلا في شعورها لا غير. فإذا زال عنها ذلك الشعور، بالموت الطبيعي أو الإرادي؛ بقيت عند نفسها على ما كانت عليه في نفس الأمر من التجرد، فإنها في حال تجسدها في شعورها كانت في نفس الأمر مجردة، ولا يزول عنها هذا الذهول والغفلة إلا بالموت الطبيعي أو الإرادي، قال تعالى: [فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ] (ق: الآية 22).

فالروح على حاله من الأزل إلى الأبد، وما كان تنزله إلا بحسب شعوره بالمراتب الخلقية، والتنزلات الوهمية، ما انتقل إلى غيره ولا ارتحل إليه غيره . وأن أول المراتب التي تنزل إليها نشأة العقل الأول، وذلك عبارة عن شعوره بها ، لأنه لما شعر – وشعوره عينه وعين ما شعر به – انصبغت ذاته بها عنده، فظهر عند نفسه بصورتها، لا أنه انتقل إليها ولبسها، ولا أنها انتقلت إليه وقامت به . فإذا علمت أن الأرواح مجردة حال تجسدها، ومجسدة حال تجردها أعني بعد الموت ؛ وما ورد في الآيات القرآنية، والإخبارات النبوية، من نسبة الدخول والخروج وغير ذلك من صفات الأجسام كالحلول والقبض عليها، والدخول والخروج، وفتح أبواب السماء لها، وغلقها دونها ونحو هذا؛ فكله تمثيل، وكناية وتوصيل؛ إذ الأرواح عند تعلقها بالأجسام وتدبيرها لها لا تفارق أصلها، وهي ناظرة إلى أجسامها وهياكلها، فهي تحلّ موضع نظرها من غير مفارقة لمركزها الأصلي. وهذا أمر تحيله العقول المعقولة بعقل الحسّ والعادة . ويعد نظرها إلى الأجسام دخولا وحلولا .

وإذا بطل تدبير الأرواح لهذه الأجسام العنصرية بالموت الطبيعي انتقلت إلى تدبير أجسام خيالية طبيعية . واختلف أهل الطريق في هذه المسألة على ثلاث فرق . والحق أن الأرواح المدبرة لا تزال مدبرة برزخا وآخرة، لأنها لم تظهر إلا عن تدبير وهيكل مدبر، وهو أصل وجودها، فلا تنفك عن التدبير أبدا . فهي تدبر صوراً طبيعية عينية حسية لها دنيا وبرزخا وآخرة، وحيث كانت . فأول صورة لبستها الصورة التي أخذ عليها الميثاق فيها، ثم الصورة الدنيوية ؛ فإذا مات – وموت كل صورة هو بطلان حكم روحها فيها – فإذا مات الإنسان حشر روحه إلى صورة أخرى، إلى وقت سؤاله ؛ فإذا جاء وقت سؤاله حشر إلى جسده الموصوف بالموت، فيسأل فيه . وغير بعيد في الاقتدار الإلهي أن يصير جسم الأرض كجسم الهواء أو جسم الماء، فإن كثافة الأرض ما هي ذاتية لها . ثم بعد سؤاله يحشر إلى صورة أخرى في البرزخ، إلى نفخة البعث، فيبعث من تلك الصورة التي كان فيها في الدنيا، إن كان عليها سؤال، فإن لم يكن عليه سؤال حشر في الصورة التي يدخل بها الجنة . والمسؤول، إذا فرغ من سؤاله

حشر إلى الصورة التي يدخل بها الجنة أو النار. وفي كل صورة ينسى صورته التي كان عليها، ويرجع حكمه إلى الصورة التي انتقل إليها. وتنتقل القوى مع الروح إلى الصورة التي انتقل إليها، فتكون درّاجة بجميع القوى، سواء . لا سيما أهل الهياكل المنوّرة، فإنهم لا يبالون لمفارقته متى كانت، لأنهم في مزيد علم دائماً، فهم ملوك أهل تدبير دائماً، والآلات مصاحبة لا تنفك في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة .

الروح بعد الموت

والصور البرزخية للأرواح على صور أخلاقها، وهي قوله: [فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ] (الانفطار: الآية 8). أي الصور الروحية، فتمّ شخص، الغالب عليه البلادة والبهيمة، فروحه روح حمار؛ فتكون صورته في البرزخ صورة حمار، وتمّ شخص الغالب عليه المكر والخديعة والروغان، فروحه روح ثعلب، فصورته في البرزخ صورة ثعلب، وتمّ شخص الغالب عليه النهم والشره وكثرة الأكل، فروحه روح خنزير، فصورته في البرزخ صورة خنزير، وكذا كل صفة .

وأكمل الأرواح صفة الإنسان وروحه . فليس الموت بعدم محض، ولا هو ضدّ الحياة، عند المحققين من أهل الله، أعني الحياة التي هي بغير سبب، فإنّ للأشياء حياتين: حياة بسبب، وحياة بغير سبب، وهي ذاتية للأشياء؛ إذ الحياة فيض من حياة الحق – تعالى . - فالأشياء حية في حال ثبوتها وعدمها. ولهذا سمعت وامتلئت الأمر بـ " كُنْ " فكانت لأنفسها، فما نسب – تعالى – الكون إلا لها بقوله: " فَيَكُونُ " . فمنه – تعالى – الأمر بالكون فقط . وإنما الموت عبارة عن عزل الوالي عن تدبير الجسم، وتوليته لتدبير آخر، لا على طريق التناسخية؛ فإنهم يقولون برجوع الأرواح إلى تدبير أجسام عنصرية في هذا العالم المحسوس .

فالموت بطلان تصرف الروح في الجسم، الذي كان لها التصرف فيه فقط . وإذا أراد الله أن ينشئنا للنشأة الآخرة كانت الصورة التي ينشئها للبقاء طبيعية لا عنصرية، فتقبل الاستحالة والفناء، فهي كالأجسام التي خلقها الله للبقاء : العرش والكرسي والأطلس وفلك الثوابت، أعني صور السعداء، وأمّا الأشقياء، فإنّ صورهم عنصرية ، ولذا قبلت النضج والتبديل في الجلود، كما ورد؛ فالنشأة الآخرة، ما هي الأولى من كل وجه، ولا نشأة الناس كلهم فيها سواء. ولذا قال تعالى: [وَنُنشِئُكُمْ فِيهَا لَّا تَعْلَمُونَ] (الواقعة: الآية 61). وورد في الأخبار النبوية، من صفات أهل الجنة والنار، ما يخالف هذه النشأة التي علمناها، قال: [وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى] (الواقعة: الآية 62)، بعد قوله: [وَنُنشِئُكُمْ فِيهَا لَّا تَعْلَمُونَ] (الواقعة: الآية 61). وأمّا قوله: [كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ] (الأعراف: الآية 29) ، فمعناه: كما بدأكم على غير مثال مسبق، كذلك تعودون على غير مثال. فالخطاب للأرواح الإنسانية، يخبرها إلى أنّها تعود إلى تدبير أجسام في الآخرة، كما كانت في الدنيا، على المزاج الذي يخلق الله تلك الأجسام عليه . فهذه فائدة قوله: [تَعُودُونَ] (الأعراف: الآية 29) . فلا تلتفت إلى أقوال المتكلمين وكثرة اختلافهم في هذه المسألة، أعني مسألة ما يعاد من الإنسان، فإنهم خبطوا خبط عشواء. فإذا سوى – تعالى – الصورة الآخرة كانت كالحشيش اليابس، وهو الاستعداد لقبول الأرواح، كاستعداد الحشيش لقبول الاشتعال، والصور البرزخية كالسراج، مشتعلة بالأرواح التي فيها، فينفخ إسرافيل - عليه السلام - فتمرّ النفخة على الصور البرزخية

فتطفيها. وينفخ نفخة أخرى، فتمرّ على الصور المستعدة للاشتعال، فتشتعل بأرواحها، فإذا هم قيام ينظرون، وقد ورد في الخبر الذي قدمناه : أن السماء تمطر مطرا شبه المنى، فتمخض به الأرض، فتنشأ منه الأجسام على عجب الذنب، ويؤيد هذا الخبر، ما ورد في آيات كثيرة، من تشبيه البعث بإخراج النبات من الأرض. قال تعالى: [وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا] (ق: الآية 9) إلى قوله: [كَذَلِكَ الْخُرُوجُ] (ق: الآية 11)، الخروج يعني البعث. وقوله: [وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ تُنْفِثُ بِهِ نَافِثًا لِيُنزِلَ الْهَاضِمَاتِ] (الأعراف: الآية 57) إلى أن قال: [كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى] (الأعراف: الآية 57). وقال: [فَانظُرْ إِلَى أُثْرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى] (الروم: الآية 50). ونحو هذا كثير في القرآن، وقد ورد في الصحيح: "كل ابن آدم يأكله التراب، إلا عجب الذنب". وعجب "كفلس" وهو الذرة التي هي أصل شجرة الجسم، وحبّة بذره، وعليها أنشأ الله النشأة الأولى، وعليه ينشأ النشأة الآخرة .

واختلف أهل الطريق في تفسير عجب الذنب الذي تتركب عليه النشأة، وهو لغة، ما ضمّنه الوركين من الحيوان، وهو العصعص. فقال حجة الإسلام الغزالي: "هو النفس" يعني الجمادية. وقال أبو زيد الرقراقي: هو جوهر فرد، عليه تراكبت النشأة الأولى الدنيا، ويبقى لا يتغير، وعليه تراكبت النشأة الأخرى، يعني بهذا الجوهر حقيقة الماء، الذي هو أصل الأجسام؛ فإن أصل كل مركّب: جوهر صفته النفسية الجوهرية والفردية وقبول التحيز والاتصاف بأمور وجودية تحلّ فيه وترتفع منه ، وبسيلانه يصبح مقدارا ذا أبعاد، وهو الجسم . وقال ختم الولاية المحمدية سيدنا محيي الدين – رضي الله عنه - : عجب الذنب هو ما تقوم عليه النشأة، وهو لا يبلى، أي لا يقبل البلى . انتهى كلام الأمير عبد القادر.

مراجع حول الإنسان الكامل

- المرجع : المواقف طبعة دار الهدى 2007 (ثلاثة أجزاء) :
- آخر الموقف 26 : جزء 1 ص 36 سطر 9 : الإنسان الكامل أكمل مظهر للوجود الحق
- آخر الموقف 89 : جزء 1 ص 230 سطر 11 : الإنسان الكامل اسم للحقيقة المحمدية .
- الموقف 178 : جزء 1 ص 382 384 : خلافة الإنسان الآدمي .
- موقف 248 : فصل 1 : جزء 2 من ص 515 إلى ص 520 : الإنسان الكامل مرآة حضرتي الحق والخلق .
- المرجع : فصوص الحكم للشيخ الأكبر :
- الإنسان الكامل : ينظر فص آدم الأول / بداية فص إدريس الرابع/ بدايات فص شعيب الثاني عشر /فص موسى الخامس والعشرون .
- الإنسان الكبير : بداية فص آدم/ فص هود العاشر / آخر فص هارون : فضله على الملائكة .
- توجد في الفتوحات المكية للشيخ الأكبر عشرات الفصول حول الإنسان الكامل ، وقد لخصها الشيخ محمود محمود الغراب في كتاب مستقل عنوانه : الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد .
- للشيخ الأكبر في الموضوع كتاب لطيف عنوانه : " نسخة الحق " .

- للشيخ سيدي عبد الحفيظ الخنقي – وهو من أقطاب الطريقة الرحمانية في الجزائر – رسالة حول الإنسان الكامل توجد ضمن رسائله المطبوعة الطبعة الأولى الوحيدة في تونس .
- للدكاترة عبد الرحمان بدوي ومصطفى محمود ويوسف زيدان ، لكل منهم ، كتاب حول الإنسان الكامل في الإسلام وفي الفكر الصوفي .
- كتاب عبد الكريم الجيلي " الإنسان الكامل " وكتابه " الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية " .
- للدكتور عبد الوهاب فرحات أستاذ في جامعة قسنطينة أطروحة دكتوراه عنوانها : " نظرية الإنسان الكامل عند ابن عربي " .
- بعض مواقع في الفتوحات (طبعة دار صادر بيروت – 4 مجلدات) :
- الإنسان الكامل : ج1 ص163 / ج2 ص105 – 223 – 391 – 396 / ج3 ص156- 162 – 187- 267 – 430- 437- 443- 447 / ج4 ص111 – 231 .
- الإنسان الأول الكل الأقدم والإنسان العالم والإنسان الأدمي : ج3 ص231 (باب 351)
- الإنسان الخليفة : ج1 ص119
- الإنسان الصغير والكبير : ج2 ص139
- الإنسان العام : ج3 ص156
- الإنسان الكبير : ج2 ص67 – 124 – 150 / ج2 ص446 / ج3 ص110 / ج4 ص260 / كتاب إنشاء الدوائر : ص11
- الإنسان الكبير الكامل : ج4 ص141
- الإنسان الكل الكبير : ج3 ص297
- الإنسان الكلي : كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار ص17
- الإنسان المفرد : ج2 ص446- 447
- الإنسان الواحد : كتاب إشارات القرآن ص59
- الإنسان خليفة : ج3 ص370
- العبد الجامع : ج4 ص111
- العبد الجامع الكامل : ج4 ص132
- العبد الخصوصي : كتاب مواقع النجوم ص104
- العبد الكامل : ج3 ص409 / ج4 ص10
- العبد الكلي : ج2 ص616 / كتاب مواقع النجوم : ص89- 91
- العبد المحض : ج4 ص232
- العبد المحمدي : كتاب الكتب ص48
- العبد المقدس : كتاب مواقع النجوم ص138
- العبد الإلهي : ج2 ص224

مراجع فقرات كتاب "الإنسان الكامل من كلام الشيخ الأكبر" في الفتوحات المكية

جمع و تأليف محمود محمود الغراب

- ظهور الإنسان من وجود فرق إلى وجود جمع : ج3 ص390
- معنى الكمال : ج3 ص270/ج4 ص112/ج2 ص159
- الفرق بين الإنسان الكامل والإنسان الحيوان : ج3 ص297 , ج2 ص357/ج4 ص398
- العالم على صورة الحق : ج3 ص409/ج4 ص21
- الإنسان الكامل مختصر العالم : ج4 ص409 / ج3 ص331,315
- الإنسان الكامل على الصورة الإلهية : ج3 ص409 / ج4 ص85,415/ج3 ص412.
- الإنسان الكامل هو الحق المخلوق به : ج2 ص396 / ج4 ص13/ ج3 ص270
- الإنسان الكامل جامع لصورة الحق وصورة العالم : ج3 ص152, 437, 447 / ج4 ص21, 230, 132, 231/ كتاب عقلة المستوفز
- الإنسان الكامل أعظم رحمة لأنه ظل الله في أرضه : ج3 ص187,281
- الإنسان الكامل حامل السر الإلهي وهي كلمة "كن" : ج3 ص295
- الإنسان الكامل عمد السماء : ج2 ص616/ج3 ص418/ج4 ص396
- الإنسان الكامل نداء الحق فلا أجمل منه : ج1 ص64, 103,112/ ج4 ص245, 246, 408
- الإنسان الكامل قي التحقق بالفقر و الغنى : ج4 ص308,309
- علامة الإنسان الكامل من نفسه: ج3 ص290,295, 370,371, 298
- جهل الملائكة بمرتبة الإنسان الكامل: ج2 ص468
- سجود الملائكة دائم للإنسان الكامل بعد تحققها بمرتبته : ج3 ص152
- من عرف الإنسان الكامل عرف الحق : ج3 ص282,409 / ج4 ص132,133
- من كمال معرفة الإنسان الكامل : ج4 ص113
- الإنسان الكامل والخلافة: ج2 ص272 /ج3 ص256,369,370,442/ج4 ص3,45,385
- الخليفة مع الحق كالبدر مع الشمس : ج2 ص565
- إحتجاب الحق بظهور الإنسان الكامل الخليفة : ج3 ص145,270,297
- آدم الإنسان الكامل خليفة الله : ج3 ص295/ ج4 ص230,231
- وعلم آدم الأسماء كلها : ج3 ص398,409
- لا أكمل من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : ج1 ص679, 696/ج3 ص186
- 331,ج4ص60
- الخيال أحق الموجودات باسم الإنسان الكامل: ج3 ص290,331
- المرجع : كتاب " المواقف " للأمير عبد القادر الجزائري ، تحقيق عبدالباقي مفتاح ، طبعة دار الهدى، الجزائر 2007 (ثلاثة أجزاء) :
- آخر الموقف 26 : جزء 1 ص 36 سطر 9 : الإنسان الكامل أكمل مظهر للوجود الحق
- آخر الموقف 89 : جزء 1 ص 230 سطر 11 : الإنسان الكامل اسم للحقيقة المحمدية .
- الموقف 178 : جزء 1 ص 382 384 : خلافة الإنسان الأدمي .
- موقف 248 : فصل 1 : جزء 2 من ص 515 إلى ص 520 : الإنسان الكامل مرآة حضرتي الحق والخلق .

مراجع فقرات كتاب "القطب الغوث الفرد صاحب الوقت" في الفتوحات المكية

جمع و تأليف محمود محمود الغراب

- معنى القطب :ج4 ص75/ج2ص6/ج4ص76/ج3ص68
- القطب الواحد في العالم هو روح محمد صلى الله عليه وسلم: ج1ص151
- الرسل الذين هم على قيد الحياة الآن: ج2 ص 5
- إدريس عليه السلام هو القطب الذي على قيد الحياة : ج 2ص 445,455
- الأقطاب المحمديون و الأقطاب الورثة لباقي الأنبياء: ج4 ص 75/ج4ص76 / ج1 ص 222
- القطب النائب واحد من الأفراد :ج2 ص675/ج2ص137/ج1ص93/ج3ص137
- القطب هو الإمام وخليفة الله في أرضه: ج3ص137, 80-"التدبيرات الإلهية"
- ظهور الإمام في وقت وخفاؤه في وقت : ج3ص 137 , 138/ج2ص6,131
- المرأة تشترك مع الرجل في جميع المراتب حتى في القطبية: "عقلة المستوفز" – ج3 ص88,89
- الإسم الذي ينادى به القطب: ج2 ص7,571,6
- خليفة الله في أرضه لا بد أن يكون على علم بمعاني حروف أوائل السور:ج2ص555
- الخلوة الإلهية بالغوث:ج2ص 555
- مبايعة القطب : ج3 ص136/ج2ص594
- إيضاح وبيان لمنصب البيعة وصورتها :ج3 ص 136/ج2ص571/ج3ص137
- مبايعة القطب من الحضرة النباتية: ج 3ص138
- أحوال القطب العامة لا الأحوال الخاصة:ج2ص573
- مقام القيومية والحفظ:ج3ص 228/ج2 ص 182
- منزل القطب و مقامه ومسكنه وحاله : كتاب "منزل القطب"
- الذكر للقطب و التحميد للإمامين : ج4 ص75/ج3ص521
- كل من عرف القطب من الناس لزمته ببيعته : ج3ص138
- الأئمة : ج2 ص6 , 571
- حال الإمام الأقصى وهو عبد ربه :ج2ص572
- حال الإمام الأدنى وهو عبد الملك :ج2 ص 572
- معرفة الشيخ الأكبر لجميع الأقطاب في الأمة المحمدية:ج3 ص 208 / ج4ص77
- السبب الذي منع الشيخ من ذكر الأقطاب من زمانه إلى يوم القيامة : ج4 ص 194

القسم الخامس

حقيقة الخيال ومرتبته وعوالمه

الفصل الأول

حقيقة الخيال ومرتبته في الوجود

(مدخل للباب الثامن من الفتوحات المكية)

يقول الشيخ الأكبر في ديوانه :

إن الخيال هو الذي يتحكم في أصله وهو المزاج الأقدم
فتراه يحكم في المزاج وفي النهي من نفسه فهو الإمام الأعظم
يقضي على سر الوجود بحالته من جسم المعنى فذاك الأحكم
ويحد من لا يعتريه تحيز بتحيز وثيقن يتوهم
ويقسم الأمر الذي مافيه تقسيم ويمضي ما يشاء ويحكم

التأصيل الشرعي لوجود عالم المثال

في كتابه النفيس " حجة الله البالغة " خصص مؤلفه العلامة الحافظ العارف ولي الله الدهلوي (توفي سنة 1176هـ) فصلاً لتعريف عالم المثال ، جاء فيه ما يلي – بتصريف قليل جداً في الأسلوب - :

باب ذكر عالم المثال: في الوجود عالم غير عنصري :

اعلم أنه دلت أحاديث كثيرة على أن في الوجود عالماً غير عنصري، تتمثل فيه المعاني بأجسام مناسبة لها في الصفة ، وتتحقق هنالك الأشياء قبل وجودها في الأرض نحواً من التحقق ، فإذا وجدت كانت هي بمعنى من معاني هو هو ، وأن كثيراً من الأشياء مما لا جسم لها عند العامة تنتقل وتنزل ولا يراها جميع الناس. وقد تحدث النبي – صلى الله عليه وسلم - عن شيء من هذا العالم، منها قوله : « لما خلق الله الرحم قامت فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة » .

وقال : « إن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف، تحاجان عن أهلها » .

وقال : « تجيء الأعمال يوم القيامة : فتجيء الصلاة، ثم تجيء الصدقة ، ثم يجيء الصيام » الحديث .

وقال : « إن المعروف والمنكر لخليقتان تنصبان للناس يوم القيامة ، فأما المعروف فيبشر أهله ، وأما المنكر فيقول : إليكم إليكم ، ولا يستطيعون له إلا لزوماً » .

وقال : « إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة كهيئتها ، ويبعث الجمعة زهراء منيرة » .

وقال : « يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها ، مشوه خلقها » .

وقال : « هل ترون ما أرى ؟ فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » .

وقال في حديث الإسراء : « فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » .

وقال في حديث صلاة الكسوف : « صورت لي الجنة والنار » ، وفي لفظ : « بيني وبين جدار القبلة » ، وفيه أنه بسط يده ليتناول عنقودا من الجنة ، وأنه تكعكع من النار ، ونفخ من حرها ورأى فيها سارق الحجيح ، والمرأة التي ربطت الهرة حتى ماتت ، ورأى في الجنة امرأة مومسة سقت الكلب ، ومعلوم أن تلك المسافة لا تتسع للجنة والنار بأجسادهما المعلومة عند العامة

وقال : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ، ثم أمر جبريل أن ينظر إليهما .

وقال : « ينزل البلاء فيعالجه الدعاء » .

وقال : « خلق الله العقل فقال له : أقبل فأقبل وقال له : أدبر فأدبر » .

وقال : « هذان كتابان من رب العالمين » ، الحديث .

وقال : « يؤتى بالموت كأنه كبش ، فيذبح بين الجنة والنار » .

وقال تعالى : { فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا } .

واستفاض في الحديث أن جبريل كان يظهر للنبي صلى الله عليه وسلم ويتراءى له فيكلمه ، ولا يراه سائر الناس ، وأن القبر يفسح سبعين ذراعا في سبعين أو يضم حتى تختلف أضلاع المقبور ، وإن الملائكة تنزل على المقبور ، فتسأله وأن عمله يتمثل له ، وأن الملائكة تنزل إلى المحتضر بأيديهم الحرير أو المسح ، وأن الملائكة تضرب المقبور بمطرقة من حديد ، فيصيح صيحة يسمعها ما بين المشرق والمغرب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تينياً تنهسه ، وتلدغه حتى تقوم الساعة » .

وقال : « إذا أدخل الميت القبر مثلت له الشمس عند غروبها ، فيجلس يمسح عينيه ، ويقول : دعوني أصلي » .

واستفاض في الحديث : أن الله تعالى يتجلى بصور كثيرة لأهل الموقف ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يدخل على ربه وهو على كرسيه ، وأن الله تعالى يكلم ابن آدم شفاها . إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة .

والناظر في هذه الأحاديث بين إحدى ثلاث : إما أن يقر بظاهرها ، فيضطر إلى إثبات عالم ذكرنا شأنه . وهذه هي التي تقتضيها قاعدة أهل الحديث ، نبه على ذلك السيوطي رحمه الله تعالى ، وبها أقول ، واليهما أذهب .

أو يقول : إن هذه الوقائع تتراءى لحس الرائي ، وتتمثل له في بصره ، وإن لم تكن خارج حسه ، وقال بنظير ذلك عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : { يوم تأتي السماء بدخان مبين } : إنهم أصابهم جذب فكان أحدهم ينظر إلى السماء ، فيرى كهيئة الدخان من الجوع .

ويذكر عن ابن الماجشون أن كل حديث جاء في التنقل والرؤية في المحشر ، فمعناه أنه يغير أبصار خلفه ، فيرونه نازلا متجليا ويناجي خلقه ، ويخاطبهم وهو غير متغير عن عظمتة ولا منتقل، ليعلموا أن الله على كل شيء قدير .

أو يجعلها تمثيلا لتفهم معان أخرى ، ولست أرى المقتصر على الثالثة من أهل الحق .

وقد صور الإمام الغزالي (توفي سنة 505 هـ) في عذاب القبر تلك المقامات الثلاث حيث قال : أمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ، ولكنها عند أبواب البصائر واضحة ، فمن لم ينكشف له حقائقها ، فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها ، بل أقل درجات الإيمان التسليم والتصديق . فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ، ونراقبه ، ولا نشاهد شيئا من ذلك ، فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟

فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا :

أحدها وهو الأظهر والأصلح والأسلم : أن تصدق بأنها موجودة ، وهي تلدغ الميت ، ولكنك لا تشاهد ذلك فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل عليه السلام ، وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك . وإن كنت أمنت به ، وجوزت أن يشاهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ما لا تشاهده الأمة ، فكيف لا تجوز هذا في الميت . وكما أن الملك لا يشبه الأدميين والحيوانات ، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا ، بل هي جنس آخر ، وتدرك بحاسة أخرى .

المقام الثاني : أن تتذكر أمر النائم ، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه ، وهو يتألم بذلك حتى تراه ربما يصيح ويعرق جبينه ، وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده ، وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حوائيه حية ولا عقربا ، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد ، وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخلل أو تشاهد .

المقام الثالث : إنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها هو ألم السم ، ثم السم ليس هو الألم ، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة ، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون بالإضافة للتعريف بالسبب ، وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة والسبب ، والسبب يراد لثمرته لا لذاته ، وهذه الصفات المهلكات تتقلب مهلكات مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت ، فيكون ألامها كآلام لدغ الحيات من غير وجودها . انتهى .

تعريف علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل :

في الباب (177 / ج 2 ص 297-319) قال الشيخ أنّ لمقام المعرفة سبعة أنواع من العلوم، السادس منها هو علم الخيال . فلنلخص ما ذكره في ما يلي :

[من علوم المعرفة علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل . وهذا ركن عظيم من أركان المعرفة . وهذا هو علم البرزخ ، وعلم عالم الأجساد التي تظهر فيها الروحانيات ، وهو علم سوق الجنة ، وهو علم التجلي الإلهي في القيامة في صور التبدل ، وهو علم ظهور المعاني التي لا تقوم بنفسها مجسدة مثل الموت في صورة كبش ، وهو علم ما يراه الناس في النوم، وعلم الموطن الذي يكون فيه الخلق بعد الموت وقبل البعث، وهو علم الصُّور، وفيه تظهر الصور المرئيات في الأجسام الصقيلة كالمرأة . وليس بعد العلم بالأسماء الإلهية ولا التجلي وعمومه أتم من هذا الركن، فإنه واسطة العقد، إليه تعرج الحواس وإليه تنزل المعاني وهو لا يبرح من موطنه، تجبى إليه ثمرات كل شيء، وهو صاحب الإكسير الذي تحمله على المعنى فيجسده في أي صورة شاء، تعضده الشرائع وتثبتته الطبائع، فهو المشهود له بالتصرف التام ، وله التحام المعاني بالأجسام، يحرر الأدلة والعقول ...

الحب منشأ نفس الرحمان الذي هو منشأ العماء، والعماء هو الخيال المطلق

[واعلم أنّ حقيقة الخيال المطلق هو المسمّى بالعماء الذي هو أوّل ظرف قبّل كينونة الحق: ورد في الصحيح أنّه قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ " قال: " كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء " . ففتح الله في ذلك العماء صور كل ما سواه من العالم . فذلك العماء هو الخيال المحقق . ألا تراه يقبل صور الكائنات كلها ، ويصوّر ما ليس بكائن لاتساعه، وهو المعبر عنه بظاهر الحق في قوله: " هو الأول والآخر والظاهر والباطن " . وانتشاء هذا العماء من نفس الرحمن الذي أصله حكم الحبّ ، والحبّ له الحركة في المحبّ ، والنفس حركة شوقية لمن تعشق به، وقد قال تعالى كما ورد: " كنت كنزا لم أعرف فأحبيت أن أعرف "؛ فبهذا الحبّ وقع التنفّس ، فظهر النفس فكان العماء الذي عمّر الخلاء كله . فهذا العماء هو الحق المخلوق به كل شيء ، فظهرت فيه أجناس العالم طورا بعد طور إلى أن كمل من حيث أجناسه ، وبقيت أشخاص الأجناس تتكون دائما تكوين استحالة من صور إلى صور أخرى كلّها قائمة بالحق تعالى تحريكا وتسكينا . وحقيقة الخيال التبدل في كل حال والظهور في كل صورة فلا وجود حقيقي لا يقبل التبدل إلا الله . فما في الوجود المحقق إلا الله . وأما ما سواه ففي الوجود الخيالي . وإذا ظهر الحق في هذا الوجود الخيالي، ما يظهر فيه إلا بحسب حقيقته لا بذاته ، فكل ما سواه في مقام الاستحالة والتبدل دائما أبدا وليس الخيال إلا هذا] انتهى.

ولهذا نجد الدكتور حامد أبو زيد يعرف العماء من خلال علاقته بالخيال، الذي يتحد بحقيقة الحقائق من ناحية وبالأسماء الإلهية من ناحية أخرى.

يقول نصر أبو زيد:

"إن الخيال أو البرزخ قابل لكل الصفات المتقابلة، وجامع لكل الثنائيات المتعارضة. وإذا كان ابن عربي - كما قلنا - ينطلق من ثنائية أولية بين الذات الإلهية والعالم، فإن الوسيط القادر على تلقي طرفي هذه الثنائية بذاته هو الخيال. والخيال بهذا الفهم حقيقة كلية معقولة تتوسط بين كل ما يتفرع عن هذه الثنائية الأولية من ثنائيات ثانوية أو فرعية. وإذا كان الخيال باعتبار حقيقته العقلية يتحد بحقيقة الحقائق فهو من حيث وظيفته البرزخية من الجمع بين الأضداد والقابلية للوصف

بكل المتعارضات، يتوحد بالألوهة التي هي جماع الأسماء الإلهية. ومن السهل - كما سنرى - أن يلتقي مفهوم الخيال أيضاً بحقيقة العماء، وبالْحَقِيقَةُ المَحْمَدِيَّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وهذه هي الحقيقة المعقولة - الخيال - يمكن أن تسمى بهذه الأسماء كلها. وتعدد الأسماء عليها إنما يدل على جوانب مختلفة لذات الحقيقة الواحدة التي لا تكثر فيها بأي حال من الأحوال. وإلى جانب الأسماء السابقة يمكن أن يطلق عليها اسم عالم الجبروت، أي العالم الفاصل بين عالم الملك وعالم الملكوت، أو عالم الشهادة وعالم الغيب (فإن قلت وما عالم البرزخ؟ قلنا عالم الخيال، ويسميه أهل الطريق عالم الجبروت. وهكذا هو عندي).

وفي نص آخر، يوحد نصر أبو زيد بين العماء وبين حضرة الخيال المعقولة التي تجلى فيها الحق بأعيان صور الممكنات، فيجعل العماء هو الألوهة وهو حقيقة الحقائق، وهو الحقيقة المحمّدية، حيث يقول:

"وإذا كان الوجود في تصور ابن عربي في خلق دائم جديد نحن في لبس منه "بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ" -15 ق-، فالحضرة الخيالية حضرة دائمة مستمرة في الدنيا والآخرة. وبهنا هنا التركيز على الجانب الميتافيزيقي للخيال الوجودي، وهو الذي يطلق عليه ابن عربي الخيال المطلق أو برزخ البرازخ. إن هذا الخيال يمثل الحضرة المعقولة التي تجلى فيها الحق بأعيان صور الممكنات. هي مرتبة التمثل الإلهي من الوحدة الذاتية المطلقة إلى التعيين المحدود بمراتبه المختلفة. هي الألوهة والعماء وحقيقة الحقائق والحقيقة المحمّدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. هو عالم الجبروت المقابل بطبيعته الخاصة لجانبي الإطلاق والتحدد، والوحدة والكثرة. لذلك كله يعتبر ابن عربي حضرة الخيال أوسع الحضرات، لأنها تقبل كل شيء بذاتها، حتى المحال الذي لا يتصوره وجوده. وإذا كان ابن عربي يقيم تفرقة حادة بين الذات الإلهية والعالم، فإن هذه التفرقة تضيق إلى حد الاختفاء، وذلك عن طريق هذا الوسيط الكلي الذي ينتظم الوسائط كلها، إذ من خلال هذه الوسائط يتجلى الحق في صور أعيان الممكنات، وليست هذه الوسائط - كما سنرى - سوى وسائط خيالية أو برزخية، باعتبار أن كلاً منها يقابل الحق بذاته وعينه التي بها يقابل الخلق (فما أوسع حضرة الخيال، وفيها يظهر وجود المحال، بل لا يظهر فيها على التحقيق إلا وجود المحال، فإن الواجب الوجود وهو الله تعالى لا يقبل الصور وقد ظهر بالصورة في هذه الحضرة، فقد قبل المحال الوجود الوجود في هذه الحضرة).

ونجد التماثل بين العماء وبين البرزخ الخيالي في كلام الأمير عبد القادر أيضاً، حيث يقول:

"البرزخ المسمى بالخيال المنفصل، وبالخيال المطلق، وبالعماء، وبالحق المخلوق به كل شيء.

وهو البرزخ بين المعاني التي لا أعيان لها في الوجود كالعلم والثبات ونحوها، وبين الأجسام النورية والطبيعة، وفيه تظهر الصور المرئية في الأجسام الصقيلة مثل المرايا ونحوها. وشأن هذا البرزخ الخيالي العمائي تكثيف (بل تقييد) اللطيف المطلق: وهو الحق تعالى، فإنه من هذا البرزخ الخيالي ظهر موصوفاً بصفات المحدثات منعوتاً بنعوتها، كما ورد في الكتب الإلهية وسنن الأنبياء من المتشابهات . ومنه اتصف الممكن المحدث بالصفات الإلهية كالحياة والعلم والقدرة ونحوها . فالبرزخ العمائي هو الخيال، والصور المرئية فيه هي المتخيلات، وفي هذه المتخيلات ما يرى بعين الحسّ ومنه ما يرى بعين الخيال... وصور جميع الجسمانيات هي في هذا البرزخ الخيالي صور روحانية خيالية على وجه لطيف، لا يمتنع فيه التداخل ولا التزاحم ولا إيراد الكبير على الصغير، بل ولا الجمع بين الضدين، ولا وجود شخص واحد في مكانين".

الخيال هيولى جميع العوالم

ويؤكد الجبلي - رحمه الله - هذا المعنى في كتابه (الإنسان الكامل) فيجعل الباب (57) تحت عنوان: " في الخيال وأنه هيولى جميع العوالم " ، ويقول باختصار: [اعلم أنّ الخيال أصل الوجود، والذات الذي فيه كمال ظهور المعبود . ألا ترى إلى اعتقادك في الحق وأنّ من له الصفات والأسماء ما هو له أين محل، هذا الاعتقاد الذي ظهر لك فيه الله تعالى إنّما هو الخيال . فلأجل هذا قلنا إنّ ذاته الذي فيه كمال ظهوره تعالى . فالخيال أصل جميع العالم ، لأنّ الحق هو أصل جميع الأشياء، وأكمل ظهورها لا يكون إلا في محل هو الأصل . فكل أمة مقيدة بالخيال في أي عالم كانت من العوالم : فأهل الدنيا مثلاً مقيدون بخيال معاشهم أو معادهم وكلا الأمرين غفلة عن الحضور مع الله فهم نائمون، والحاضر مع الله منتبه، وعلى قدر حضوره مع الله يكون انتباهه من النوم. ثم أهل البرزخ نائمون لشغلهم بما هم فيه من عذاب أو نعيم، فهم غافلون عن الله تعالى، لكن نومهم أخف من نوم بعض أهل الدنيا . وكذلك أهل القيامة فإنهم ولو وقفوا بين يدي الله للمحاسبة فإنهم مع المحاسبة لا مع الله ، وهذا نوم لأنّه غفلة عن الحضور، ولكنهم أخفّ نوماً من أهل البرزخ . وكذلك أهل الجنة والنار فإنّ هؤلاء مع ما ينعمون به، وهؤلاء مع ما يعذبون به ، وهذا غفلة عن الله ونوم لا انتباه ، لكنهم أخف نوماً من أهل المحشر. على أنّ كلا من أهل هذه العوالم وإن كانوا في نظر مع الحق لقوله تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) فإنهم معاً بالنوم لا باليقظة . فلا انتباه إلا لأهل الأعراف ومن في الكئيب فقط فإنهم مع الله ، وعلى قدر تجلي الحق عليهم يكون الإنتباه . ومن حصل له من الله في الدنيا ما تأخر لأهل الجنة في الكئيب فتجلى عليه الحق وعرفه فهو يقظان . فإذا عرفت أنّ أهل كل عالم محكوم عليهم بالنوم فاحكم على تلك العوالم كلها أنّها خيال [انتهى.

مجلى الخيال في أرض السمسمة عند العقل الأول

ثم إنَّ العماء من حيث أنه هو الخيال المطلق وهيولى العالم يسمّى من حيث نسبته للإنسان الكامل بأرض السمسة . وحيث أنّ أول مظاهر الإنسان الكامل هو العقل الأوّل الذي منه تنتزّل كل العلوم في العالم، فإنّ أخصّ علم تلقّاه هذا العقل هو علم السمسة كما صرّح به الشيخ في جوابه عن السؤال (153) من أسئلة الترمذي (الباب 73 / ج 2 ص 130) حيث يقول: [فإن قلت: وما الدرة البيضاء؟ قلنا: العقل الأوّل صاحب علم السمسة . فإن قلت: وما السمسة؟ قلنا : معرفة دقيقة في غاية الخفاء تدق عن العبارة ولا تدرك بالإشارة مع كونها ثمرة شجرة . فإن قلت: وما هذه الشجرة؟ قلنا الإنسان الكامل مدير هيكل الغراب. فإن قلت: وما الغراب؟ قلنا : الجسم الكل] انتهى.

إذن فمرتبة علم السمسة تقارن مباشرة مرتبة العقل الأوّل أي القلم الأعلى المسمّى بالدرة البيضاء . ولهذا نجد الشيخ في كتاب (الإسرا) يجعل فصل (مناجاة السمسة) مباشرة قبل فصل: (مناجاة الدرة البيضاء)، أي أنّ السالك لا يتمكّن من الدخول لأرض السمسة أي أرض الحقيقة إلا عند إشرافه في الملكوت الأعلى على حضرة العقل الأوّل بساحل بحر عظمة الإطلاق الذاتي الذي لا ساحل له، وما ذلك الساحل إلا موجة منه ...

الخيال مجلى اسمه تعالى القدير الخلاق

وأصل علاقة العقل الأوّل بأرض السمسة هو أنّ كلّاً منهما يستمدّ من اسمه تعالى (القدير). يقول الشيخ في الباب (60 / ج 1 ص 294) باختصار:

[اعلم أنّ الله تعالى جعل له خواصا من عبادته وهم الملائكة المهمة . ثم اتخذ حاجبا منهم أعطاه علمه في خلقه وسمّى ذلك الملك نونا وهو رأس الديوان الإلهي ؛ والحق من كونه عليما لا يحتجب عنه . ثم غيّن من دونه ملكا سماه القلم واتخذة كاتباً، فيعلمه الله بوساطة النون، وتجلي له من اسمه القادر] إلى آخره .

فعلم السمسة عو علم القدرة الخلاقة المطلقة . ومن دخل أرض السمسة لا يكون شيء لديه مستحيلا أصلا لأنّ قدرته تعالى مظهر من مظاهر عظمة ذاته العلية المطلقة، ولا نهاية ولا قيد لتلك العظمة ... ومع كل هذا فما السمسة إلا ثمرة من شجرة الإنسان الكامل، لأنّ الخيال قوة من قواه، بل العظمة ذاتها صفة من صفاته لأنّه كما يقول الشيخ في فصل حضرة العظمة (الباب 558 / ج 4 ص 241):

[اعلم أنّ العظمة حال المعظم - اسم فاعل - لا حال المعظم - اسم مفعول - ، إلا أن يكون الشيء يعظم عنده ذاته ... إلا أنّ عظمة الحق في القلوب لا توجهها إلا المعرفة في قلوب المومنين، وهي من آثار الأسماء الإلهية، فإنّ الأمر يعظم بقدر ما ينسب إلى هذه الذات المعظمة من نفوذ الاقتدار وكونها تفعل ما تريد ... وهي العظمة الأولى ... والمرتبة الثانية هي ما يعطيه التجلي في قلوب أهل الشهود والوجود من غير أن يخطر لهم شيء من تأثير الأسماء ولا من الأحكام الإلهية ، بل بمجرد التجلي تحصل العظمة عند نفسه فلا أعظم من الحق عند من يشهده في تجليه ببصر الحق لا ببصره ... فيرونه من غير تقييد فذلك هو الحق المشهود فلا يلحق عظمتهم عظمة معظم أصلا ... ولما كان الحق عظيما عند نفسه ، كان هو المعظم والمُعظم ... ولا يقدر أحد من الطوائف من العلماء بالله على مثل هذا العلم الإلهي إلا العلماء الراسخون من أهل الله الذين هوية الحق علمهم كما هي سمعهم وبصرهم . فاعلم ذلك] انتهى .

الخيال هو الإنسان الكامل القابل لصورة الحق على الكمال

إذن فالعالم فرع من الخيال الذي هو العماء أو الحق المخلوق به ، وهو في نفس الوقت مظهر العظمة الذاتية التي لا مرآة لها على الكمال إلا قلب الإنسان الكامل ، ولهذا يقول الشيخ في الباب (360) المخصوص بمنزل سورة (النور): [... فله الإيجاد على الإطلاق ما عدا نفسه تعالى . وللخيال الإيجاد على الإطلاق ما عدا نفسه . فالخيال موجد لله عزّ وجلّ في حضرة الوجود الخيالي . والحق موجد للخيال في حضرة الإنفعال الممثل . وإذا ثبت إلحاق الخيال في قوة الإيجاد بالحق ما عدا نفسه فهو على الحقيقة المعبر عنه بالإنسان الكامل . فإنّه ما تمّ على الصورة الحقية مثله، فإنّه يوجد في نفسه كل معلوم ما عدا نفسه، والحق نسبة الموجودات إليه مثل هذه النسبة . فتوحيد الإلحاق توحيد الخيال مع كونه من الموجودات الحادثة، إلا أنّ له هذا الإختصاص الإلهي الذي أعطته حقيقته . فما قيل شيء من المحدثات صورة الحق سوى الخيال . فإذا تحققت ما قلناه علمت أنّه في غاية الوصلة] .

الخيال الأوسع ثمرة الأرض البدنية

ومن هنا يظهر الشرف الأعظم للجسد الحسيّ الإنساني الذي بتسويته تظهر قوة الخيال فيه . فأرض السمسة التي هي أوسع ما في العالم ما هي إلا ثمرة أرض الله الواسعة، وهي الأرض البدنية البشرية . وهذا ما وضّحه الشيخ في الباب (355/ ج3 ص247) المخصوص بمنزل سورة العنكبوت وعنوانه: "معرفة منزل السبل المولدة وأرض العبادة واتساعها وقوله تعالى: يَا عِبَادِي إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون" وفيه يقول:

" إنّ أرض بدنك هي الأرض الحقيقية الواسعة التي أمرك الحق أن تعبد فيها ... وجعلها واسعة لما وسعته من القوى والمعاني التي لا توجد إلا في هذه الأرض البدنية الإنسانية ... فإنّ الخيال قوة من قواها ...] إلى آخر ما فصله فراجعه فإنّه في غاية النفاسة ...

ويشير الجيلي في الباب (60) من الإنسان الكامل إلى بروز العالم من خيال الإنسان الكامل فيقول: [يشهد - أي الإنسان الكامل - صدور الوجود أعلاه وأسفله منه، ويرى متعدّدات أمر الوجود في ذاته كما يرى أحدنا خواطره وحقائقه . وللإنسان الكامل تمكّن من منع الخواطر عن نفسه جليها ودقيقها ثمّ إنّ تصرّفه في الأشياء لا عن اتصاف ولا عن آلة ولا عن اسم ولا عن رسم بل كما يتصرّف أحدنا في كلامه وأكله وشربه] انتهى .

فهذا الوصف قريب من وصف الشيخ الأكبر لآخر الأقطاب الذين ذكر الشيخ هجيراتهم في أبواب الفصل السادس من الفتوحات، وهو القطب الذي كان منزله: " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ " (الباب 556/ ج4 ص 195) فيقول الشيخ عنه: [... واعلم بأنّ الذاكر بهذا الذكر الخاص لا بد أن ينقذ له أنّ عينيه يد الحق التي بها الملك، فيرى الحق يعطي به من لا يرى أنّه يده وهذا لا يكون إلا لمن كمل من رجال الله] انتهى .

بعض خصائص الخيال : هو طلسم مسلط وقهر لحوض الجسم

في الباب (375) المخصوص بمنزل سورة التوبة (ج3 ص 470) الذي عنوانه : "في معرفة منزل التضاهي الخيالي" ، يفصّل الشيخ ما ذكره سابقا حول المقارنة بين إيجاد الله تعالى لما سواه وإيجاد الخيال لما سواه، كما قارن بين تجلي الحق في الشؤون والصور وتغيير العالم بالخلق المتجدّد ، ثم يقول:

[وإنما سمى ذلك خيالاً لأننا نعرف أنّ ذلك راجع إلى الناظر لا إلى الشيء في نفسه ، فالشيء في نفسه ثابت على حقيقته لا يتبدل لأنّ الحقائق لا تتبدل] إلى آخره .

وفي الباب (352) المخصوص بمنزل سورة السجدة (ج 3 ص 232) ذكر الشيخ الطلاس الثلاثة المسلطة على الإنسان، الثاني منها هو: [الخيال سلطه الله على المعاني يكسوها مواد يظهرها فيها ، لا يتمكن لمعنى يمنع نفسه منه ... فهو طلسم على أهل الأفهام القاصرة التي لا علم لها بالمعاني المجردة] . ثمّ بيّن الشيخ كيفية استعمال هذا الطلسم في محلّه دون الخروج به عن طريقه ، وكيفية إدراك المعاني المجردة ، فراجع هناك فإنّه مفيد .

وقد تكلم الشيخ في الباب (276) المخصوص بمنزل سورة الكوثر (ج 2 ص 594) عن أخذ الأولياء المحققين العلوم مجردة عن سلطان الخيال الذي من شأنه أن يُلبس كلّ معنى صورة مأخوذة من الحسّ فقال مع اختصار لكلامه :

[إنّ المعلومات إذا أدركها العلم على ما هي عليه في ذواتها فذلك العلم الصحيح والإدراك التام الذي لا شبهة فيه البتة ؛ فإذا برز بعكس صورته ، أو برزت المعاني في صور الأجسام كالعلم في صورة اللبّن، والثبات في الدين في صورة القيد ، والإيمان في صورة العروة ، والإسلام في صورة العمدة، والأعمال في صور الأشخاص من الجمال والقبح، فذلك هو الكدر الذي يلحق العلم، فيحتاج من ظهر له هذا إلى قوة إلهية تعديّه من هذه الصورة إلى المعنى الذي ظهر له في هذه الصورة فيتعب . وسبب ذلك حضرة الخيال والتمثل والقوة المفكرة ، وأصل ذلك الجسم الطبيعي وهو المعبر عنه بالحوض في هذا المنزل. وقعر هذا الحوض هو خزانة الخيال، وكدر ماء قعره هو ما يخرج الخيال عن صورته فيطرأ التلبّيس على الناظر فما يدري أيّ معنى لبس هذه الصورة ... فلهذا جنح العارفون وامتنعوا أن يأخذوا العلم إلا من الله بطريق الوهب الذي طريقه الذكر لا الفكر، فيعطوا المعاني مجردة بذواتها في صور حقائقها ...] إلى آخر ما فصله، فانظره هناك .

الحروف الخيالية المستحضرة وأثرها

رأينا أنّ أرض السمسم أو أرض الحقيقة هي مجلى لاسمه تعالى (القدير)، وهذا الإسم يتطابق معنى حقيقته مع اسمه تعالى (القائل)، ولهذا كثيرا ما يبذل الشيخ الأكبر (القدير) ب (القائل)، لأنّ قدرته تعالى في إبراز المخلوقات تتجلّى في قوله: (كُن) . فأصل الإيجاد هو القول . ومن هذا الأصل الإلهي اختصّ الإنسان الكامل الخليفة بكمال النفس الناطقة، أي اختصّ بعلم الحروف والأسماء والألفاظ ، وبها يتصرّف في الوجود أعلاه وأسفله . ومن فروع هذا الأصل التصرّف بخواص الأسماء والحروف والعزائم والأدعية ، وكذلك الوجد والوجود عند السماع، ولهذا نجد الشيخ في الباب (26/ ج 1 ص 189) يتكلم عن أقطاب الرموز فيقول إنّ من أسرارهم الحال والخيال والرؤيا والبرازخ ، ومن علومهم خواص العلم بالحروف والأسماء . ثمّ تكلم عن أنواع التصرّف بالحروف اللفظية والرقمية والمستحضرة، فيقول عن هذه الأخيرة:

[وأعني بالمستحضرة الحروف التي يستحضرها الإنسان في وهمه وخیاله ويصوّرها وهي باقية إذ كان وجود أشكالها في البرزخ لا في الحس، وفعلا أقوى من فعل سائر الحروف، ولكن إذا استحكم سلطان استحضارها واتحد المستحضر لها ولم يبق فيه متسع لغيرها، ويعلم ما هي خاصيتها حتى يستحضرها من أجل ذلك فيرى أثرها وهذا الفعل بالحرف المستحضر يعبر عنه بعض من لا علم له بالهمة وبالصدق وليس كذلك، وإن كانت الهمة روحا للحرف المستحضر لا عين الشكل المستحضر] إلى

آخر ما فصله رحمه الله .والإنسان عموما يتصرف في الوجود بقوته المخيلة بواسطة توجّه الهمة وسلطان الحال ،أو بالحروف والكلمات أو بواسطة جوارحه .

تطور خيال الإنسان عبر أطوار سيرورته

وأصل القوة المخيلة مجموعة من ذرات العناصر ألف الله بينها في خلايا متماسكة على شكل دودة وضعها في مقدّم الدماغ، ووصلها بمختلف أجزاء المخ . وعندما ينفخ الله الروح في الجسد تبدأ النشأة الروحية المتصلة بتلك الخلايا في الظهور والتوسّع تدريجيا خصوصا بعد الولادة، وذلك بواسطة القوة المصوّرة والقوة المفكرة والذاكرة ... ولا تزال بالنسبة لكل شخص تنمو وتتوسع إلى أن يموت فيتجرد عندئذ عن الخيال المنفصل – المسمّى بعالم الحسّ وبالحيّة الدنيا – ، ويدخل إلى عالم البرزخ حيث يظهر السلطان الأعظم للقوة المخيلة ، وفيه تلبس الروح جسدا برزخيا لطيفا يناسب مقامها النوراني أو الظلماني. فهذا البرزخ الفاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة نشأ مع الإنسان لما خلق الله آدم عليه السلام بمطلع برج السنبله (راجع ما ذكره الشيخ حول البرزخ في الباب 63 / ج 1 ص 304-307، والباب 382 / ج 3 ص 518). وعند البعث يوم القيامة ودخول الناس الجنّة والنار يعود للحسّ سلطانه لكن يكون تحت هيمنة الروحانية المتصرّفة بقوة الخيال، بحيث لا يتخيل أهل الجنة شيئا من النعيم إلا ويوجد عندهم ذلك النعيم في الحال لأنهم رجعوا إلى صفاء فطرة الروح التي هي من أمر الله تعالى، وأمره تعالى إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

سماوات الخيال وأنبيأؤه

القوة المتخيلة هي من أهمّ مميّزات الروح القائمة باسمه تعالى (الحيّ) ، ولهذا جعلها الشيخ نظير كوكب السماء الثانية حيث روح الله عيسى وابن خالته يحي عليهما السلام (الباب 6 / ج 1 ص 120). أمّا مجالي القوة المخيلة وأثارها وعوالمها فتابعة للسماء الثالثة حيث يوسف عليه السلام ، ولهذا قال الجيلي عنها أنّها [خلقت من حقيقة الخيال وجُعلت محلا لعالم المثال، جعل الله كوكبها مظهرا لاسمه العليم، وجعل فلکها مجلى قدرة الصانع الحكيم، فملائكتها مخلوقة على كل شكل من الأشكال، فيها من العجائب والغرائب ما لا يخطر بالبال، يسوعُ فيها المحال وربّما امتنع فيها الجائز الحلال وملائكة هذه السماء تحت حكم الملك المسمّى صورائيل وهو روحانية الزهرة ... فمنهم من وكّله الله بالإحياء إلى النائم إمّا صريحا وإمّا بضرب مثل يعقله العالم (راجع ما ذكر الشيخ الأكبر عن الرؤية في الباب 188 / ج 2 ص 375-380) ... اجتمعت في هذه السماء بيوسف عليه السلام ... فقال: إنّ الحق تعالى جعل أسرار كَنوز إشارات مودعة في أسرار عبارات، فهي ملقاة في الطريق دائرة على السنة الفريق، يجهل العام إشارتها ويعرف الخاص ما سكن عبارتها فيؤولها على حساب المقتضى، ويؤوبها إلى حيث المرتضى ، وهل تأويل الأحلام إلا رشحة من هذا البحر أو حصة من جنادل هذا القفر ...] انتهى.

إذن فعلوم الخيال وعالم المثال مصدرها في الدنيا من السماء الثانية والسماء الثالثة ، ولهذا نجد الشيخ في الباب (167/ ج 2 ص 274-275) عند كلامه عن العلوم التي يتلقاها السالك هنالك يقول:

[ومن هذه الحضرة – أي السماء الثانية – يعلم علم السيمياء الموقوفة على العمل بالحروف والأسماء لا على البخورات والدماء وغيرها، ويعرف شرف الكلمات وجوامع الكلم وحقيقة : كُنْ ومن هنا تعلم تقليبات الأمور، ومن هنا توهب الأحوال لأصحابها، وكلما ظهر في العالم العنصري من النيرانجيات

الأسماوية، وأما الفلقطيرات فمن غير هذه الحضرة ولكن إذا وُجدت فأرواحها من هذه السماء لا أعيان صورها فلما قرعا السماء الثالثة فتحت ... فجاء كوكب الزهرة إلى يوسف عليه السلام ... وهو يلقي إليه ما خصّه الله به من العلوم المتعلقة بصور التمثل والخيال، فإنّه كان من الأئمة في علم التعبير فأحضر الله بين يديه الأرض التي خلقها الله من بقية طينة آدم عليه السلام (أي أرض السمسم التي خصص لها الشيخ الباب الثامن من الفتوحات)، وأحضر له سوق الجنة (وهو السوق الذي يأخذ فيها الإنسان أي صورة تعجبه فيتشكل بها ويرجع بها إلى أهله وتبقى الصورة نفسها في محلها من السوق ولو تلبّس بها ما لا يُحصى من العباد)، وأحضر له أجساد الأرواح النورية (أي الملائكة) والنارية (أي الجن) والمعاني العلوية] إلى آخر تلك العلوم المتعلقة بعالم المثال وحضرة الخيال ... وقد رجع إليها الشيخ بتفصيل أوضح وبيان أطول في الباب (381) المخصوص بسورة آل عمران (ج 3 ص 505-510) .

الخيال الدجالي الظلماني السفلي في مقابلة الخيال النوراني العلوي الخصري

والقوة المخيّلة في الإنسان، أو بعبارة أخرى: مسكن الإنسان في أرض السمسم، تتوسّع بتوسّع المدرّكات . فبالنسبة لأهل الظلام تمتد نحو الأسفل إلى سجين في الدنيا، وإلى الدرك الأسفل من جهنّم في الآخرة، فهؤلاء هم أصحاب الهمم السفلية والولاية الشيطانية كأئمة الكفر ودعاة الضلال وكالسحرة والحساد وأصحاب العين والنفوس الخبيثة الذين يكون لهمهم أثر في الخارج المحسوس، ويستعينون في ذلك بالشياطين وخواصّ الحروف والطلاسم والسيما. وقطب أقطابهم هو الدجال المرصود في جزيرة الشمال والذي سيخرج آخر الزمان فيُعوي أكثر الناس بتصرفه العجيب في الأرض ، كما أخبر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أن ينزل عيسى عليه السلام ويقتله . وإنما سيكون قتله على يد روح الله بن مريم عليه السلام لأنه هو سلطان العالم البرزخي كما مرّت الإشارة إليه عند ذكر سمائه الثانية، فهو ملك عالم المثال النوراني لأنّ أصل تكوينه من التمثل الخيالي للروح جبريل النافخ في مريم عليهما السلام، فهو كالبرزخ جامع لطرفي الأرواح والأجسام، ولهذا أنزله الله تعالى في سماء المزج: فالسماء الثانية جامعة للطبائع الأربعة وللذكورة والأنوثة والليل والنهار كما هو معلوم في مصطلحات الفلك القديم ... وقد جعل الله تعالى في مقابلة قطب التصرف الشيطاني الدجال، قطبا للتصرف النوراني الرحماني وهو أبو العباس أحمد بلياً بن ملكان المسمّى بالخضر صاحب موسى عليه السلام، وقصتهما في سورة الكهف مشهورة، وقد كان من قرن أبراهيم عليه السلام ونال مقام الشرب من عين الحياة ، وشاهد في الغيب أولياء الأمة المحمدية واشتاق إليهم فأبقاه الله حيا إلى وقت خروج الدجال وعيسى، فتقع المواجهة حساً وجها لوجه بين الخضر والدجال . قال الشيخ في الباب (366/ ج3 ص 329):

[وأما الخضر الذي يقتله الدجال في زعمه لا في نفس الأمر، وهو فتى ممثلي شبابا، هكذا يظهر له في عينه ...] فيراجع هذا الباب المخصوص بسورة الكهف ففيه أسرار عجيبة ... ويراجع أيضا ما ذكره الشيخ حول الخضر في الباب (25) والباب (16) ... ومن هذه العلاقة الضدية بين الدجال والخضر التي ابتدأت من بداية الدورة الإبراهيمية وستنتهي بنزول عيسى عليه السلام ورد الحديث أنّ من قرأ الآيات الأولى - وفي رواية الآيات الأخيرة - من سورة الكهف يُعصم من الدجال، لأنّ سورة الكهف هي التي أظهر الله فيها مكانة عبده خضر في العلم والرحمة والتصريف ... ولهذا يقول الشيخ في الباب (463) أنّ القطب الذي سورته الكهف - وهو على قدم لوط عليه السلام - هو الذي يقتله الدجال .

الخضر ملك رجال الغيب وسلطان مملكة السمسمة

ولهذا أيضا نجد العارف الجليل السيد الكامل الشيخ عبد الكريم الجيلي يخصّص فقرة طويلة للخضر عليه السلام في الباب (57) المخصوص بالخيال في كتابه (الإنسان الكامل) حيث يقول أنّ الخضر هو ملك مملكة رجال الغيب التي لا يصعد إليها السالك إلا بعد دخوله لأرض السمسمة . فلنذكر جملاً من هذه الفقرة الرائعة باختصار:

[در ورمز في بحر لغز: سافر الغريب المعبر عنه بروح إلى أن بلغ العالم المعبر عنه ببوح، فلما وصل إلى ذلك السماء قرع باب الحمى ... فبرز إليّ رجل قد نزل به الشيب وقال: اعلم هذا عالم الغيب رجاله جزيلة العدد جميلة المدد، ينبغي للواصل إليهم والداخل عليهم أن يتزيا بزيهم الفاخر ويتطيب بطيبهم العاطر. قلت وأين أجد تلك الأثواب؟ وأين تباع تلك الأطياب؟ فقال: الثياب في سوق السمسمة الباقية، والأطياب في أرض الخيال الراوية ، وإن شئت أن تعكس هذه العبارة فخذ الثياب من نسج الخيال، والطيب من أرض السمسمة فإنهما أخوان بلا ريب ... فذهبت أولاً إلى أرض الكمال ومعدن الجمال المسمّى لبعض وجوهه بعالم الخيال، فقصدت رجلاً هناك عظيم الشأن يسمّى روح الخيال ويكنّى بروح الجنان، فقلت له: يا سيدي ما هذا العالم المعبر عنه بالسمسمة الباقية من آدم؟ فقال: إنّها اللطيفة التي لا تفنى على الدوام، والمحل الذي لا تمر عليه الليالي والأيام، خلقها الله من هذه الطينة ، وألقى هذه الحبة من جملة العجينة ، وجعلها حاكمة على الجميع، وأمّا للكبير والوضيع ، يجوز فيها المحال ، ويشهد فيها بالحسّ صورة الخيال . فقلت: وهل أجد سبيلاً إلى هذا المحلّ العجيب؟ فقال: نعم إذا كمل وهمك وتمّ، فانسعت لجواز المحال وتمكّنت بمشاهدة هذا الحسّ لمعاني الخيال، وعلمت النكتة وقرأت سرّ النقطة، حينئذ تنسج لك من تلك المعاني ثياباً، وإذا لبستها فتح لك إلى السمسمة باباً . فقلت له يا سيدي إنّني على الأمر المشروط، وعلمت بالكشف والوجود أنّ عالم الأرواح أظهر وأقوى من عالم الحسّ في الذوق والشهود، فأشار بيده بعد همهمة ، فإذا أنا في أرض السمسمة .

ومن الجواهر ربعها وبقابها
وكذلك أدورها نعم وعتابها
حقاً ومن ماء الحياة شرابها
فيها وكم أروى العطاش شرابها
يحظى بها في الأرض كاب مآبها
يدري الأمور ولم يفته حسابها
بل نارها وهوأؤها وترابها
ويجيب داعي الساحرين خطابها
منها فيرفع للعيون نقابها
لممكن بين الوري أترابها
كمل الزكاة بها فتمّ نصابها
بخسا فداها وزاد حجابها
فجميع أنساب له أنسابها
لطف وبالمقدور طال ركابها
هو آدم ما في سواه جنابها

أرض من المسك النقي ترابها
أشجارها متكلمات نطق
في طعمها من كل شيء لذة
حاز الجمال فصار يشهد صورة
هي نسخة من جنة المأوى لمن
هي سرّ قدرة قادر برزت لمن
ليست بسحر إنّما هي مأؤها
هي أصلها والسحر فرع للقضا
يستخرج الرجل الشجاع مراده
تبدو بقوة همّة فعالة
والناس فيها بين ناج فائز
أو هالك باع السعادة بالثقا
هي أخت آدم بل هي ابنة سرّه
يفنى الجميع وتلك باقية على
هي نخلة ظهرت من الثمر الذي

وإذا دعى الإنسان جاء جوابها
غيرا لما قد قلت هاك صوابها

فيجيبها الإنسان يوما إن دعت
ليست خيالاً ولا حساً ولا

فلما دخلت هذه الأرض العجيبة وتطيبتُ من أطياب عطرها الغربية، ورأيت فيها ما لا يخطر بالبال، طلبت الصعود إلى عالم الغيب، فأتيت إلى الشيخ الذي كان أول دال، فوجدته قد رَقَّ من العبادة حتى صار كالخيال، لكنّه قوي الجنان والهمّة، فقلت: أريد الدّخول إلى رجال الغيب فقد جئت بالشروط ولا ريب، فقال: هذا أوان الدخول، ثم قرع الحلق فانفتح الباب وانغلق، فدخلت إلى مدينة عجيبة الأرض، عظيمة الطول والعرض، أهلها أعرف العالم بالله، أرضها درمكة بيضاء، وسماؤها زبرجدة خضراء، عربها عرب كرام ، ليس فيهم ملك إلا الخضر عليه السلام] .

ثم عرّفه الخضر بحقيقته وأخبره أنّه لا يصل إليه إلا الإنسان الكامل، وأنّ علامة الوصول إليه في علم القدرة منزوية ، ثم عرّفه بأجناس رجال الغيب... وفي الباب (62) يعود الجيلي لذكر الخضر مع أفلاطون وأرسطو والإسكندر، ويقول إنّ عين الحياة التي شرب منها الخضر فبقي حيّاً إلى اليوم هي مظهر الحقيقة الذاتية من هذا الوجود .

الفرقان بين خيال العوام الغافلين وخيال أهل الله العارفين

نرجع إلى ما كنّا بصدده: قلنا أن خيال ذوي النفوس الظلمانية الشيطانية يتوسع نحو الدركات السفلية . وأما بالنسبة للعوام أهل الغفلة والحجاب فإنّ قوتهم المخيلة تتوسّع في أرض السمسة بدون شعور منهم لكن أفقياً فقط ، أي في أقطار الأرض وأفاق الحسّ، لأنّ العالم المحسوس هو أيضاً شُعبة من شعب أرض السمسة تظهر في الخيال المنفصل . بل إن جسد كل إنسان هو صورة لروحه المتجسدة في الخيال المنفصل كما سبق ذكره . وهم العوام وقوة خيالهم أثرها ضعيف أو معدوم في عالم الحسّ إلا بواسطة الأسباب والجوارح والآلات والوسائط الحسية المألوفة المعروفة . لكن هم أيضاً لا يتمكنون من القيام بأيّ عمل أو صنع أي شيء إلا بعد تصوّرهم له في خيالهم .

وبالنسبة لأهل الحق والنور والكمال فإنّ خيالهم وتوسّعه في أرض السمسة يكون نحو الأعلى والأشمل إلى ما نهاية . وأصحاب الهمم النورانية العلوية والولاية الملكية يكون لخيالهم أثر في الخارج المحسوس خصوصاً إذا استعانوا بالأذكار والدعوات والرياضات الروحية والأرواح الملكية . وأما أهل الله تعالى أصحاب الولاية الرحمانية والهمم الربانية فعلى قطب همّتهم تدور رحي الوجود، وبأنفاس ذكرهم يحفظ الله العالم، ولهم في الباطن مقام : كُنْ فيكون حتى أنّ الأبدال منهم يتصوّرون في أيّ شكل شاؤوا وبصور مختلفة متعددة وفي أماكن متباعدة في نفس الوقت .

همة العارف الخلاقة الحافظة

أعطى الشيخ الأكبر مثالا لما عليه همم العارفين في (فص حكمة حقية في كلمة إسحاقية) من كتابه (فصوص الحكم) ففي هذا الفصّ تكلم عن الرؤيا وتعبيرها ثم قال:
[بالوهم يخلق كل إنسان في قوة خياله ما لا وجود له إلا فيها، وهذا هو الأمر العام . و العارف يخلق بالهمة ما يكون له وجود من خارج محل الهمة ، و لكن لا تزال الهمة تحفظه . و لا يؤودها حفظه، أي حفظ ما خلقته . فمتى طرأ على العارف غفلة عن حفظ ما خلق عُدم ذلك المخلوق، إلا أن يكون العارف

قد ضبط جميع الحضرات وهو لا يغفل مطلقاً، بل لا بد من حضرة يشهدها . فإذا خلق العارف بهمته ما خلق و له هذه الإحاطة ظهر ذلك الخلق بصورته في كل حضرة، و صارت الصور يحفظ بعضها بعضاً. فإذا غفل العارف عن حضرة ما أو عن حضرات وهو شاهد لحضرة ما من الحضرات، حافظ لما فيها من صورة خلقه، انحفظت جميع الصور بحفظه تلك الصورة الواحدة في الحضرة التي ما غفل عنها، لأن الغفلة ما تعم قط لا في العموم و لا في الخصوص.... فهذا حفظ بالتضمن، وحفظ الحق ما خلق ليس كذلك بل حفظه لكل صورة على التعيين.... فإياك أن تغفل عنها فإن تلك الحضرة التي يبقي لك الحضور فيها مع الصورة، مثلها مثل الكتاب الذي قال الله فيه " ما فرطنا في الكتاب من شيء " فهو الجامع للواقع و غير الواقع . و لا يعرف ما قلناه إلا من كان قرآنا في نفسه، فإن المتقي الله «يجعل له فرقاناً» و هو مثل ما ذكرناه في هذه المسألة فيما يتميز به العبد من الرب . و هذا الفرقان أرفع فرقان] انتهى. وإنما يندم المخلوق من همة العارف إذا غفل العارف عن تصويره لأنّ العارف قائم بالله الخالق المصور تعالى، وكل صورة في العالم تنعدم إذا رفع الله نظر حفظه لها وتصويره المتجدد لها . فزوال هذا الحفظ الإلهي يظهر عند سبب هو غفلة العارف عن ما صوره ، فتتعد حينئذ تلك الصورة في الخارج .

وقد أعاد الشيخ الكلام عن الخيال وعلاقته بالرؤيا في (فص حكمة نورية في كلمة يوسفية) الذي بدأه بقوله : [هذه الحكمة النورية انبساط نورها على حضرة الخيال وهو أول مبادئ الوحي الإلهي في أهل العناية] وفي داخل هذا الفصل قال: [فالعالم متوهم ما له وجود حقيقي، و هذا معنى الخيال . أي خيال لك أنه أمر زائد قائم بنفسه خارج عن الحق و ليس كذلك في نفس الأمر] .

علاقة المراني بالخيال

خصص الشيخ لمعرفة مقام الرؤيا الباب (188) من الفتوحات (ج 2 ص 375-380) ومما جاء فيه: [إن لله ملكا موكلا بالرؤيا يسمى الروح، وهو دون السماء الدنيا ، وبيده صور الأجساد التي يدرك النائم فيها نفسه وغيره وصور ما يحدث من تلك الصور من الأكوان . فإذا نام الإنسان أو كان صاحب غيبة أو فناء أو قوة إدراك لا تحجبه المحسوسات في يقظته عن إدراك ما بيد هذا الملك من الصور، فيدرك هذا الشخص بقوته في يقظته ما يدركه النائم في نومه، وذلك أن اللطيفة الإنسانية تنتقل بقواها من حضرة المحسوسات إلى حضرة الخيال المتصل بها الذي محله مقدم الدماغ، فيفيض عليها ذلك الروح الموكل بالصور من الخيال المنفصل عن الإذن الإلهي ما يشاء الحق أن يريه هذا النائم أو الغائب أو الفاني أو القوي من المعاني متجسدة في الصور التي بيد هذا الملك] إلى آخر ما فصله فليراجع فإنه نفيس فيه من العلوم ما لا يوجد في غيره .

وكذلك لتلميذ الشيخ وخليفته صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي كلام عال مفيد جدا عن الرؤيا وعالم المثال ذكره في كتابه (شرح الأربعين حديثاً) عند شرحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: [من رآني في المنام فقد رآني فإنّ الشيطان لا يتمثل بي] وكذلك عند شرحه لحديث: [من احتلم حُلماً لم يره كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد].

تشكل الأرواح الجانية في الصور يقيدها النظر

نرجع إلى ذلك المقام الذي ذكره الشيخ في الفصوص وهو مقام حفظ العارف لما تخلقه همته إذا لم يغفل عن الصورة التي أنشأها خياله . فمن فروع هذا المقام أنّ الأرواح إذا تشكلت في النظر المحسوس

بصورة معيّنة، فإنها لا تتمكن من خلق تلك الصورة ما دام الناظر يقيدها بنظره . وفي هذا يقول الشيخ في الباب التاسع المخصوص بالأرواح النارية كالجن (ج 1 ص 133):

[ولما كانوا من عالم السخافة واللفظ قبلوا التشكل فيما يريدونه من الصور الحسية . فالصورة الأصلية التي ينسب إليها الروحاني إنما هي أول صورة قبلها عند ما أوجده الله، ثم تختلف عليه الصور بحسب ما يريد أن يدخل فيها. ولو كشف الله عن أبصارنا حتى نرى ما تصوره القوة المصورة التي وكلها الله بالتصوير في خيال المتخيل منا لرأيت مع الآنات الإنسان في صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضا إن هذا العالم الروحاني إذا تشكل وظهر في صورة حسية يقيده البصر بحيث لا يقدر أن يخرج عن تلك الصورة ما دام البصر ينظر إليه بالخاصية ولكن من الإنسان . فإذا قيده ولم يبرح ناظرا إليه وليس له موضع يتوارى فيه أظهر له هذا الروحاني صورة جعلها عليه كالستر، ثم يخيل له مشي تلك الصورة إلى جهة مخصوصة فيتبعها بصره ، فإذا أتبعها بصره خرج الروحاني عن تقييده فغاب عنه وبمغيبه تزول تلك الصورة عن نظر الناظر الذي اتبعها بصره ، فإنها للروحاني كالنور مع السراج المنتشر في الزوايا نوره، فإذا غاب جسم السراج فقد ذلك النور، فهكذا هذه الصورة . فمن يعرف هذا ويحب تقييده لا يتبع الصورة بصره، وهذا من الأسرار الإلهية التي لا تعرف إلا بتعريف الله . وليست الصورة غير عين الروحاني بل هي عينه ، ولو كانت في ألف مكان أو في كل مكان ومختلفة الأشكال . وإذا اتفق قتل صورة من تلك الصور وماتت في ظاهر الأمر انتقل ذلك الروحاني من الحياة الدنيا إلى البرزخ، كما ننقل نحن بالموت ولا يبقى له في عالم الدنيا حديث مثلنا سواء . وتسمى تلك الصور المحسوسة التي تظهر فيها الروحانيات أجسادا وهو قوله تعالى: " وألقينا على كرسيه جسدا " وقوله: " وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام "] .

وقد ذكر الشيخ في الفصل (36) من الباب (198 / ج 2 ص 467) أنّ الإسم الإلهي المتوجّه على إيجاد الجنّ هو: " اللطيف " ثم قال: [...ثم اعلم أن نسبة الأرواح النارية في الصورة الجرمية أقرب مناسبة للتجلي الإلهي في الصور المشهودة للعين من الجسم الإنساني، وما قرب من النسب إلى ذلك الجناب كان أقوى في اللطافة من الأبعد] انتهى.

تشكل أرواح الموتى في صور حسية يقيدها النظرو وقصة الشيخ مع السبتي بن هارون الرشيد

تقييد صور الجنّ بالنظر كما سبق ذكره ليس خاصا بهم ، بل هو صحيح أيضا بالنسبة لأرواح الموتى عندما تتشكل حسا في صورة في عالم الدنيا كما ذكره الشيخ في الباب (408 / ج 4 ص 11-12) حيث ذكر اجتماعه في الطواف بالكعبة مع السبتي محمد بن هارون الرشيد الذي توفي قبل عصر الشيخ بعدة قرون . قال:

[كنت يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة بمكة قد دخلت الطواف، فرأيت رجلا حسن الهيئة له هيبة ووقار وهو يطوف بالبيت أمامي، فصرفت نظري إليه عسى أعرفه فما عرفته في المجاورين، ولم أر عليه علامة قادم من سفر لما كان عليه من الغضاضة والنضارة، فرأيته يمر بين الرجلين المتلاصقين في الطواف ويعبر بينهما ولا يفصل بينهما ولا يشعران به، فجعلت أنتبع بأقدامي مواضع وطئات أقدامه ما يرفع قدما إلا وضعت قدمي في موضع قدمه وذهني إليه وبصري معه لئلا يفوتني، فكنت أمر بالرجلين المتلاصقين اللذين يمر هو بينهما فأجوزهما في أثره كما يجوزهما ولا أفصل بينهما، فتعجبت من ذلك ، فلما أكمل أسبوعه وأراد الخروج مسكته وسلمت عليه، فرد علي السلام وتبسم لي وأنا لا أصرف نظري

عنه مخافة أن يفوتني، فإني ما شككت فيه أنه روح تجسد وعلمت أن البصر يقيد، فقلت له : إني أعلم أنك روح متجسد، فقال لي: صدقت ، فقلت له : فمن أنت يرحمك الله ؟ فقال: أنا السبتى بن هارون الرشيد، فقلت له : أريد أن أسألك عن حال كنت عليه في أيام حياتك في الدنيا ، قال: قل، قلت: بلغني أنك ما سميت السبتى إلا لكونك كنت تحترف كل سبت بقدر ما تأكله في بقية الأسبوع، فقال : الذي بلغك صحيح كذلك كان الأمر، فقلت له : فلم خصصت يوم السبت دون غيره من الأيام أيام الأسبوع ؟ فقال: نعم ما سألت، ثم قال لي: بلغني أن الله ابتداء خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة... فقلت والله لأعملن على هذا فتفرغت لعبادة الله من يوم الأحد إلى آخر الستة الأيام لا أشتغل بشئ إلا بعبادته تعالى وأقول إنه تعالى كما اعتنى بنا في هذه الأيام الستة فإني أتفرع إلى عبادته فيها ولا أمزجها بشغل نفسي فإذا كان يوم السبت أتفرع لنفسي وأتوصل لها ما يقوتها في باقي الأسبوع ... وفتح الله لي في ذلك . فقلت له : من كان قطب الزمان في وقتك ؟ فقال: أنا ولا فخر، قلت له : كذلك وقع لي التعريف، قال: صدقك من عرفك، ثم قال لي : عن أمرك، يريد المفارقة، قلت له : ذلك إليك، فسلم علي سلام محب وانصرف [انتهى.

فتأمل كيف تروحت جسمانية الشيخ عند تتبعه لوطات أقدام الروح المتجسدة للسبتى- رضي الله عنهما- بحيث أصبح يمرّ بين الرجلين المتلاصقين ولا يفصل بينهما ولا يشعران به . فبوضع الشيخ الأكبر قدمه على أثر قدم السبتى تسري الحياة الروحانية في جسمه فيتحول جسدا برزخيا لطيفا، مثلما فعل السامري لما رأى جبريل متجسدا فقبض قبضة من أثر قدمه ورماها على العجل الذهبي فسرت فيه الحياة وخار حتى فُتن به بنو إسرائيل...

الوشائج بين العقل والفكر والوهم والخيال والقوة المصورة

في الباب 369 من الفتوحات في معرفة مفاتيح خزائن الجود ، ومرجه إلى سورة الحجر، بيان لعلاقة الخيال بالتنزيه والتشبيه في فكر الإنسان إزاء الجناب الإلهي، ونلخص ما ذكره في ما يلي :

اعلم أنه ما من شيء أوجده الله في العالم إلا وله أمثال في خزائن الجود، وهذه الخزائن في حضرة علمه الذي وسع كل شيء . وهذه الأمثال التي تحتوي عليها هذه الخزائن لا تنتهي أشخاصها، فالأمثال من كل شيء توجد في كل زمان فرد في الدنيا والآخرة ولبقاء كل نوع وجد منه ما وجد ...

فكان من القوى التي خلقها الله - تعالى - في الإنسان الكامل الخليفة وفي الحيوان، وهو مطلق الإنسان ، قوة تسمى الوهم، وقوة تسمى العقل، قوة تسمى الفكر. وميز الحضرات الثلاثة لهذا الخليفة ، وولاه عليها ، وهي : حضرة المحسوسات، وحضرة المعاني المجردة في نفسها عن المواد وإن لم يظهر بعضها إلا في بعض المواد ، وحضرة الخيال . وجعل الخيال حضرة متوسطة بين طرفي الحس والمعنى، وهو خزانة الجبايات التي تجيبها الحواس . وجعل فيه قوة مصورة تحت حكم العقل والوهم، يتصرف فيها العقل بالأمر، وكذلك الوهم أيضاً يتصرف فيها

بالأمر. وقوى في هذه النشأة سلطان الوهم على العقل، فلم يجعل في قوة العقل أن يدرك أمراً من الأمور التي ليس من شأنها أن تكون عين مواد، أو تكون لا تعقل من جهة ما إلا في غير مادة؛ كالصفات المنسوبة إلى الله المنزه عن أن يكون مادة أو في مادة. فعلمه المنسوب إليه ما هو مادة ولا ينسب إلى مادة. فلم يكن في قوة العقل مع علمه بهذا إذا خاض فيها أن يقبله إلا بتصور، وهذا التصور من حكم الوهم عليه لا من حكمه.

فالحس يرفع إلى الخيال ما يدركه، وتركب القوة المصورة في الخيال ما شاءته مما لا وجود له في الحس من حيث جملته، لكن من حيث أجزاء تلك الجملة. فإن كانت القوة المصورة قد صورت ذلك عن أمر العقل بقوة الفكر، فذلك لطلبه العلم بأمر ما، والعلم مقيد بلا شك. وإن كان ما صورته المصورة عن أمر الوهم، لا من حيث ما تصرف به العقل من حكم الوهم، بل من الوهم نفسه، فإن تلك الصورة لا تبقى، فإن الوهم سريع الزوال لإطلاقه، بخلاف العقل فإنه مقيد محبوس بما استفاده.

ولما كان الغالب على الخلق حكم الأوهام لسلطنة الوهم على العقل، فإنه أثر فيه أنه لا يقبل معنى - يعلم قطعاً أنه ليس بمادة ولا في مادة - إلا بتصور؛ وذلك التصور ليس غير الصورة التي لا يحكم بها إلا الوهم. فصار العقل مقيداً بالوهم بلاشك فيما هو به عالم بالنظر. وأما علمه الضروري، فليس للوهم عليه سلطان، وبه يعلم أن ثم معاني ليست بمواد ولا في أعيان مواد، وإن لم يقبلها بالنظر إلا في مواد من خلف حجاب رقيق يعطيه الوهم.

دور الخيال وسبب الحيرة في الجناب الإلهي بين التنزيه والتشبيه

ولما علم الحق ما ركب عليه العالم المكلف مما ذكرناه، أرسل الرسل إلى الناس والمكلفين، فوقفوا في حضرة الخيال خاصة ليجمعوا بين الطرفين بين المعاني والمحسوسات. فهو موقف الرسل - عليهم السلام - فقالوا لبعض الناس من هذه الحضرة: "اعبد الله كأنك تراه"، ثم نبه هذا المخاطب المكلف بعد هذا التقرير على أمر آخر أطف منه، لأنه علم أن ثم رجالاً علموا أن ثم معاني مجردة عن المادة، فقال له: "فإن لم تكن تراه - أي تقف مع دليلك الذي أعلمك أنك لا تراه - فإنه يعني الله - يراك"؛ أي: الزم الحياء منه، والوقوف عند ما كلفك. فعدل في الخطاب إلى حكم وهم أطف من الحكم الأول. فإنه لا بد لهذا المكلف أن يعلم أنه يراه إما بعقله أو بقول الشرع. وبكل وجه فلا بد أن يقبده الوهم. فإن العبد بحيث يراه الله؛ فأخرجه عنه، فحده إذ ميزه، مع علمه أنه [ليس كمثل شيء]، فحيره. وهذه الحيرة سارية في العالم النوري (أي الملائكة) والناري (أي الجن) والترابي (أي الإنس)؛ لأن العالم ما ظهر إلا على ما هو عليه في العلم الإلهي؛ وما هو في العلم لا يتبدل. فالمرتبة الإلهية تنفي بذاتها التقييد عنها، والقوالب تنفي الإطلاق عنها بالوقوع. فعلمت سبب الحيرة في الوجود ما

هو؟ قال تعالى: [ما يبذل القول لدى] ، أي ما حكم به العلم وسبق به الكتاب . ففرغنا من العلم والكتاب إذ كان له الحكم . والخلفاء ، إنما هم خلفاء العلم والكتاب . فالعلم والكتاب حجابان عن الحق الذي هو غني عن العالمين . فمرجع الكون إلى العلم والكتاب .

فتنتج الأهواء مع إطلاقها ، ما تنتجه العقول مع تقييدها . فلا يسلم لعقل حكم أصلاً بلا وهم في هذه النشأة ؛ لأن النشأة لها ولادة على كل ما ظهر فيها . وما ثم أعلى من الحق رتبة ، ومع هذا تخيلته ، وقال: تخيليني . أمرها بذلك لكونه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ووسعها ما تعطيه حقيقتها . وجعل سعادتها في ذلك التخيل . ثم قال لها : [ليس كمثله شيء] ، فجمعت بين التنزيه فقيده ، وبين التشبيه فقيده ، فإنها مقيدة فلا تعلم إلا التقييد الذي هو حقيقتها.

تجلي الحق تعالى في الصور واختلاف العارفين في النظر إليها

وتجلي الحق تعالى في الصور وردت به الشريعة، وكثيرا ما تكلم الشيخ عنه كما فصل ذلك بعض التفصيل في الفصل (11) من الباب (198/ ج 2 ص 425-426) حيث يقول:

[مثال الأول البرزخي: أن ترى الحق في صورة يدركها الحس، فالمحققون يعطون الألوهية حقها ويعطون الحضرة التي ظهر الحق فيها بهذه الصورة حقها ؛ و الطائفة الأخرى تحكم على الحق بالصورة و تقول: لولا أنه على حقيقة قبلها ما صح أن يظهر بها إذ لم تكن غيره في وقت التجلي . و أما الذين جعلوا التوحيد بين الحكمين فقالوا : الحق على ما هو عليه في نفسه ، وهذه الصورة ظهرت بالحق لا أن الحق ظهر بها ، وجعلوا التوحيد فاصلا بين الحق والصورة ...

مرتبة أخرى: إذا ظهر أمران إلهيان في صورتين مختلفتين، والأمران برزخيان، فالحكم الإلهي في ذلك وهو أن ترى صورة الحق في البرزخ ، وصورة الملك في البرزخ، على صورة إنسيين كصورة موسى و هارون مثلا، أو ترى الحق في صورة شخصين معا في رؤيا واحدة في عالم البرزخ، مثل أن ترى الحق في صورة شاب و شيخ في حال واحدة و لا شك إنها الحق ليس غيره ؛ فحكم العالم من العلماء بالله و أهل الجود الإلهي في هذه الواقعة أن هذا إمداد إلهي لهذه الصورة التي ظهر فيها الحق؛ و أهل الجود أيضا و الفضلاء أصحاب الزيادات من العلم الإلهي مع الاسم البصير من الأسماء الإلهية يزيلون الحق بـ " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " و يتأولون الصورة بما يليق بها . و ما بقي من الأسماء الإلهية والطبقات من أهل الله أرباب المقامات و التحقيق، يتركون الحق حقا بما يليق به و الصورة صورة بما يليق بها ، وهو الأولى عندي] انتهى.

ثم ذكر الشيخ مراتب أخرى للتجلي في الصور ومواقف أهل الله منها فلترجع هناك .

وقد كرر الشيخ مسألة تجلي الحق في الصور وعلاقته بالخيال والتكوين، بكيفيات مختلفة في الكثير من أبواب الفتوحات . فمثلا في الباب (558/ ج4) المخصوص بالأسماء الحسنى أعاد ذكرها في العديد من حضرات الأسماء نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- حضرة الرحموت (ص 200) / حضرة السلام (ص 203) / حضرة الجبروت (ص 208)
- حضرة المتكبر (ص 210) / حضرة الخلق والأمر (ص 210) / حضرة المصور (212-213)
- حضرة الوهب (ص 217) / ...

موقع مرتبة الخيال المتصل والخيال المنفصل في مراتب الوجود

تكلم الأمير عبد القادر الجزائري في كتابه (المواقف) عن مرتبة عالم الخيال ضمن مراتب الوجود فقال - مع اختصار نبذ متفرقة من كلامه - :

[كليات التعينات والمراتب محصورة في ست مراتب : الأولى مرتبة الغيب المطلق وهو التعيين الأول ، المرتبة الثانية مرتبة الغيب الثاني بأسماء الألوهية ، المرتبة الثالثة مرتبة الأرواح، المرتبة الرابعة مرتبة عالم المثال، المرتبة الخامسة مرتبة عالم الأجسام، المرتبة السادسة مرتبة الإنسان الجامع لجميع المراتب المتقدمة ... فالمرتبة الرابعة هي مرتبة عالم المثال الخيالي ... وهذه المرتبة متعينة بعد مرتبة الطبيعة الكائنة مباشرة تحت مرتبة اللوح المحفوظ أو النفس الكلية . وتلي مرتبة عالم المثال الخيالي مرتبة الأرواح المَلَكِيَّة عَمَّار العرش والسموات والأرضين، وكلهم طبيعويون خلافا للأرواح التي هي فوق مرتبة الطبيعة فهم الملائكة المهيمون العالون (لكن إذا اعتبرنا مرتبة الطبيعة مرتبة تقديرية فقط إذ لا يوجد لها وجود عيني كما تقدم بيانه في البحث حول الطبيعة، فيمكن اعتبار مرتبة عالم المثال الخيالي مباشرة تحت اللوح المحفوظ، وقد تقدم القول بأنَّ العقل الأوَّل هو المخصوص بعالم السمسة) ... فمرتبة عالم المثال الخيالي هي الصورة الجسدية الخيالية البرزخية المركبة من الأجزاء اللطيفة التي لا تقبل الخرق والالتنام، بمعنى انفتاح خرق فيها وسده، كما هو ذلك في الأجسام العنصرية، فهي في حقيقتها أجسام نورانية تنفذ في الأجسام نفوذ الشعاع البصري والشمسي في الأجسام الشفافة، ولكنها تظهر للمدارك ظهور الأجسام الكثيفة، تظهر في هذه المثالية الأرواح الملكية النورية والأرواح الجنية النارية ... فكل صورة يظهر فيها الروحاني من ملك وجان، وكل صورة يرى الإنسان نفسه في النوم فيها، والصور التي تنتقل إليها أرواحنا بعد الموت، فهي من صور هذا العالم . وكذلك أرض السمسة التي ذكرها أكابر القوم هي من هذا العالم، لها من هذا العالم محل مخصوص من الخيال المنفصل الذي هو العماء . فالعماء الذي هو جوهر العالم وفيه وُجدت أشخاصه وأجناسه هو الخيال المنفصل المطلق المحقق بمثابة المرآة التي بسبب التوجه عليها ظهرت الصور الخيالية في المرآة، وظهور صور العالم فيه هي المتخيلات لأنَّ كل ما سوى الحق تعالى متخيَّل لأنَّه يتبدَّل من صورة إلى صورة دائما أبدا، وليس الخيال إلا هذا ... وقول أهل الله أنَّ العالم كله خيال لا يريدون أنه عدم محض كما تقول السوفسطائية، أو أنه لا وجود له إلا في الخيال المتَّصل كما توهم ذلك كثير من الجهلاء بطريق أهل الله، كابن خلدون في مقدمته، وأضرابه، فردَّ عليهم بجهل . وإتاما مراد أهل الله أنَّ العالم في حقيقة الأمر على خلاف ما تدركه مدارك الجمهور، فإنَّ ظاهره خلق، وباطنه حق (لأنَّه لا قيام للخلق إلا بالحق). أو قل: ظاهره حق وباطنه خلق (لأنَّ الله تعالى هو الظاهر فهل يبقى مع ظهوره تعالى للسوى وجود، وسبحات وجهه تعالى محرقة للسوى) . فالعالم كالخيال الذي يجده كل عاقل من نفسه، فإنَّ لكل إنسان خيالا هو شعبته من الخيال الذي وُجد فيه العالم . فإنك إذا أخذت عودا مثلا على طرفه جمرة وحركته طولا بسرعة ترى خطأ من نار، وإذا حركته دائريا ترى دائرة من نار لا تشك فيما أدرك بصرك . فإذا راجعت عقلك حكمت على الأمر بخلاف ما أدركه بصرك، فلا وجود إذا لخط النار ودائرة النار إلا في خيالك

المتصل لا في الخارج عن خيالك . وكذلك المسحور يدرك ببصره أمورا وصورا لا يشك فيها ولا يرتاب، ولا وجود لما أدرك إلا في خياله المتصل . فإنّ الساحر إذا أراد أن يظهر عند شخص أمرا ما أمسك الساحر ذلك الأمر في خياله المتصل، وخطف بصر ذلك الشخص الذي يريد سحره بخاصية اسم أو بخاصية نفسية اكتسبها بريضة ، وردّ ذلك الشيء إلى خيال ذلك الشخص، فيراه في خياله كما هو في خيال الساحر. هذا في اليقظة . وكذلك النائم يرى أشياء لا تتحصر، وتكون حوله جماعة غير نائمين لا يرون شيئا ممّا رأى، فلا وجود لما رآه إلا في خياله المتصل . فليست هذه المدركات معدومة من كل وجه ، وإلا لم تُدرَك ، ولا موجودة من كل وجه ، وإلا لأدركها الحاضرون ... والصور المثالية كُلية إلا أنّها محسوسة كما ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي: أنّ في سوق الجنّة صُورا، وكل من استحسّن صورة منها لبسها، وهي باقية على حالتها لا تنقص ولا تتغير. كذلك هذه الصور المثالية ، فلو أراد ألف ملك أو آلاف منهم أن يظهروا بصورة حيّة مثالية مثلا لظهروا بها في آن واحد وهي على حالتها لا ينقصها ذلك شيئا . وكذلك ما تصوّره القوة المصوّرة للإنسان، فكل صورة يتخيّلها لها وجود في هذا العالم، فلا فيمكن للإنسان تخيل شيء لا وجود له أصلا . فإنّ الأرواح الإنسانية لها التصوير بكل صورة، لكن في الخيال المتصل لغير الكَمَل . ولو أدرك الإنسان ما تتصور به روحه وتتشكل خارج خياله لأدرك أمرا مهولا. وكلّما أرادت النفوس شيئا تصوّرت به لها أرواحها إمّا في الخيال المتصل وهو للعموم، وإمّا في الخيال المنفصل وهو للخصوص من الأكابر، فإنّهم يخلقون ما شاءوا من الصور خارج الخيال المتصل صوراً محسوسة يكلمونها وتكلمهم وتبقى ما شاءوا إبقاءها، بشرط أن يحفظوها في مراتب الوجود الروحي والمثالي والحسيّ، فإذا غفلوا عنها انعدمت . وهذه الأرواح النورية والنارية المتجسّدة قد تُرى بعين الخيال أو بعين الحسّ، وكلا الإدراكين في العين الواحدة . وبين الإدراكين فرق . فإذا رأى الرائي الصورة وأدار النظر إليها ورآها تختلف أحوالها وأشكالها فليعلم أنّه رآها بعين الخيال، وإذا رآها ثابتة لا تتبدّل فليعلم أنّه رآها بعين الحسّ . وقد كان جبريل عليه السلام يأتي في صورة دحية أو في صورة أعرابي فيراه صلى الله عليه وسلم بعين خياله فيعرفه ، وتراه الصحابة بعين الحسّ فلا يعرفونه إلا دحية أو أعرابيا . (ومن هذا الباب الفرق بين الكشف الخيالي والكشف الحسيّ . ففي الكشف الخيالي إذا أغمضت عينيك بقي المكشوف ظاهرا لعين الخيال، وأمّا في للكشف الحسي فإنّ ذلك المكشوف يغيب عن النظر بمجرد تغميض العينين).

وعندما يتشكل الروحاني مطلقا بصورة حيوانية أو إنسانية يعطى حكم تلك الصورة التي يتشكل بها فيجوع ويعطش ويبرد ويسخن وهكذا في جميع خواص تلك الصورة لحكمها عليه . وإنّما سُمّي بعالم المثال لأنّه حاو لمثال كل شيء، ولأنّ الأشياء تظهر فيه ممثلة فما هي عين الممثل له ولا غيره، كما في المرآة المنامية . فإنّ الله تعالى إذا أراد أن يري أحدا من عباده شيئا من المغيبات الموجودة أو المعدومة كشفها أو مناما أراه ذلك بهذه الصور المثالية ، فإنّ صورته محيطية بكل ما يعلم . فكل ما يراه المكاشف في يقظته أو منامه من نبي وولي ومرئاض فهو من صور هذا العالم المثالي الروحاني، فيراه بعين الخيال أو بعين الحس كما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف، تقدّم وتأخّر فسئل عن ذلك فقال: "مُثلت لي الجنة والنار في عرض هذا الحائط" الحديث. فإنّه لو أدرك ذلك بعين الخيال ما أثر فيه التقدم والتأخّر، فإنّه أقوى من ذلك . وهذا هو المعروف عند الحكماء والمتكلمين بالمُثل الأفلاطونية فإنّ الله كشفه لهذا الإمام الإلهي ... وأمّا تسميته بالبرزخ فإنّه برزخ بين المعاني التي لا أعيان لها في الوجود الخارجي، وبين الأجسام النورية والطبيعية والعنصرية . فالمحسوسات تعرج إليه، والمعاني تنزل إليه، فتظهر بصورة برزخية جسدية خيالية،

فيكسو المعاني المجردة عن المواد أجسادا ويشكلها ويصورها كظهور العلم في صورة اللبن، وظهور الحق - تعالى - في النوم في صورة يعبرها عالم التعبير، وكظهور الملائكة في صور الذرّ يوم بدر. وقد قدّمنا أنّ الله تعالى أوجد الأرواح الملكية في مرتبة الطبيعة بعد خلق عالم المثال ...

ومن حقيقة الخيال الحكم على كل شيء من واجب ومستحيل وممكن، ولا يستحيل شيء عنده ففي أيّ صورة شاء يركّب الأعراض والمعاني ويصوّرها، ويريك الشخص الواحد في مكانين في آن واحد كما ورد في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: "مررت بموسى يصلي في قبره" ولما وصل إلى السماء السادسة قال: "فإذا أنا بموسى"، وموسى شخص واحد. ومن هذا الخيال المقبول في سبيل الله يراه المؤمن بعين إيمانه حيا يُرزق يأكل ويشرب، ويراه غير المؤمن ميتا ملقى. وكذلك سؤال القبر يراه المحجوب بلا حركة ميتا، ويراه صاحب البصيرة حيا يُسأل ويجيب. وكلاهما صادق في إخباره عن إدراكه، وإدراكه صحيح من وجه، لأنّ الخيال يجمع الضدين، يجمع بين الوجود والعدم، والحركة والسكون، والموت والحياة ... والصورة المثالية قد تسري منها اللذة والألم إلى الصورة الحسية لكون مدبّرها واحدا، فالإنسان يرى في النوم ما يفزعه فيستيقظ وقلبه يخفق، أو يرى أنه يجمع فيقوم وقد أمنى ... وقد يأكل أو يشرب بعضهم في الخيال والواقعة فيرجع إلى حسه شبعا وريانا كما وقع لأمام الأندلس بقي بن مخلد عندما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يسقيه لبنا في النوم، فاستقاء ليظمن قلبه فقاء لبنا في يقظته ... فالخيال المتصل لا يستحيل فيه شيء، وهو شعبة من الخيال المنفصل، فأحرى الخيال المنفصل الذي هو الحضرة الجامعة والخيال المطلق المنفصل المحقق هو الوهم عينه، لكن ليس هو الوهم الذي يقول عنه الحكماء أنه قوة تدرك المعاني المتعلقة بالمحسوسات كعداوة عمرو وصدقة زيد. وإذا تحكّم الخيال المطلق في إنسان لا يبقى عنده شيء مستحيل لا عقلا ولا عادة. وجميع المتشابهات الواردة في الكتب الإلهية والأخبار النبوية في حق الحق تعالى هي على ظاهرها لا يؤول شيئا منها، ولا يحيل شيئا من المستحيلات عادة، كالطيران في الهواء والمشي على الماء والدخول في النار بلا ضرر، والنفوذ من الجدران والتصوّر بكل صورة شاء، فإنّه يصير روحا مجردا لا تقيده صفة ولا شكل، ونسبة كل الصور إليه كنسبة صورته الخاصة إليه، فيؤثر في أيّ جسم أراد بأيّ شيء أراد، فهو روح العالم جميعه، والعالم كله صورته.

وإنّما وُصف الخيال بالمنفصل وبالمطلق، لأنّ الإنسان له قوة في مُقدّم دماغه صورتها كالدودة يتخيل بها الأشياء فتظهر في خياله المتصل لا في الخارج عنه، وهو شعبة من الخيال المنفصل، ووجه من وجوهه. فالخيال المنفصل المطلق المحقق حضرة ذاتية قابلة دائما للمعاني والأرواح فتجسدها بخاصيتها، فالصور التي تسمّى في العرف العام محسوسات، إنّما هي أرواح متجسدة في الخيال المنفصل كتجسد جبريل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولمريم عليها السلام. فوجود الأجسام الموجودة في الخارج تظهر في الخيال المنفصل وهو العماء والبرزخ الثاني، والعلم يظهر في صورة اللبن في الخيال المتصل المقيد، وحقيقة الخيال فيهما واحدة. وليس الخيال المتصل بحضرة ذاتية فإنّه يذهب بذهاب المتخيل - اسم فاعل - وهو على نوعين: منه ما يوجد عن تخيل وهو ما يمسكه الإنسان في نفسه، في مثل ما أحسّ به، أو ممّا صورته القوة المصوّرة، ومنه ما لا يوجد عن تخيل كالنائم ... وبما ذكرناه تعرف الفرق بين عصا موسى - عليه الصلاة والسلام - عندما ظهرت حياة تسعى، وبين عصي السحرة وحبالهم عندما ظهرت بصور حيات تسعى. فعصا موسى ظهرت حياة تسعى في الخيال المنفصل المحقق فهي كسائر المخلوقات التي تتبدّل صورها بأن يخلع جوهرها

صورة ويلبس أخرى . وأما حبال السحرة وعصيمهم فما ظهرت حيات تسعى إلا في الخيال المتصل أي خيال الحاضرين وأبصارهم ولا وجود خارجي حقيقي لما رأوه . قال تعالى: "سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ" ، فظهرت حيات تسعى في الأعين لا في نفس الأمر؛ ولو حضر معهم شخص لم يُسحر لرأها حبالا وعصيا ساكنة كما هي عليه . وجميع ما ذكره القوم في كتبهم من أرض السمسة وسوق الجنة وعالم المثال هي شُعب من الخيال المنفصل ووجوه من وجوهه] انتهى.

شرح خلاصة الباب الثامن من الفتوحات حول عالم الخيال

لخص الشيخ الأكبر معاني الباب الثامن من الفتوحات في فقرة من الباب (559/ ج 4 ص 328) تحت عنوان (سرّ ظهور الأجساد بالطريق المعتاد)، وشرحها الشيخ عبد الكريم الجيلي في كتابه (شرح مشكلات الفتوحات المكية) . فلنذكر ما قاله ونجعل سطرًا تحت كلام الشيخ محيي الدين للتمييز بينه وبين شرح الجيلي ، وما بين قوسين من كلام جامع هذا الكتاب .

قال: [اعلم رضي الله عنا وعنك أنّ الصوفية فرقوا بين الجسم والجسد، فقالوا إنّ الجسم هو كل صورة مرئية قابلة للأبعاد الثلاثة حالة كونها كثيفة الأصل طبعًا ، وقالوا أنّ الجسد هو عبارة عن كل صورة يتشكل بها روح من الصور الجسمانية . وإذا قد عرفت ذلك، فاعلم أنّ قول الشيخ رضي الله عنه: سرّ ظهور الأجساد بالطريق المعتاد: هو عبارة عن تصورات الأرواح الجزئية كما يجيء للأشخاص في حال تفكره من تصور روحه الجزئية بالصورة الخيالية المشهودة له غيبًا ، كما يجري للنائم من تصور روحه بالصورة المرئية في النوم المشهودة له حسًا وشهادة

فلا تقف فيه إنّ الأمر تضليل
لما تنزل روح الوحي جبريل

تجسد الروح للأبصار تخييل
قام الدليل به عندي مشاهدة

ولما كان الخيال وعالم المثال متشابهين كأنهما من جنس واحد وكان البرزخ أيضا شبيها لهما قال: البرزخ ما قابل الطرفين بذاته : أراد الشيخ رضي الله عنه أن يعلمك أنّ عالم الخيال برزخ لكونه قابلًا طرفي الجسم والروح الإنسانية بذاته، وأنّ عالم المثال أيضا برزخ لكونه قابل طرفي المعنى والصورة بذاته ... والمحل الذي تقيم فيه الأرواح بعد فراق الأجسام بين أحكام الدنيا والآخرة . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً على ما هو عليه صريحاً في الجزء التاسع عشر من كتاب " الناموس الأعظم والناموس الأقدم في معرفة قدر النبي صلى الله عليه وسلم " ، فمن أراد تحقيق الخيال والبرزخ والمثال وأرض الحقيقة التي ذكرها الشيخ في الفتوحات المكية فليُنظر في ذلك الجزء... وأبدى لذي عينين من عجائب آياته ما يدل على قوته ويستدل به على كرمه وفتوته : أراد بذي العينين كل من كان له نظر في عالم الأرواح ونظر في عالم الأجسام، احترازًا ممن هو مقصور على عالم الأجسام فكأنه ليس له إلا عين واحدة ... فالبرازخ المذكورة من الخيال وعالم المثال وعالم السمسة والبرزخ لها قوة لأنها شعبة من القدرة، وأمورها منوطة بالقدرة المحضة ليست كأموال الدنيا موقوفة على الحكمة والأسباب . وإذا صحّ أنّ لها هذه القوة والقدرة صحّ أنّ لها كرمًا وفتوة (قلت: الفتى الكريم مثل إبراهيم عليه السلام الذي أحى الطيور من البرزخ وهو الإنسان الكامل الذي هو برزخ البرازخ) . فهو القلب الحوّل : أي البرزخ متقلب في

الصور (قلت الإنسان الكامل هو قلب الوجود الحَوَّلَ لأنه مرآة لمن له في كل يوم شأن) ، والذي في كل صورة يتحوَّل، عوّلت عليه - أي على البرزخ - الأَكْبَر: يعني أهل الله لرجوعهم آخر الأمر إليه، حين جهلته الأصاغر المحجوبين . فله - أي للبرزخ (أو للإنسان الكامل) المضاء في الحكم وله القدم الراسخة في الكيف والحكم : فالكيف من الطرف الروحاني والكم من الطرف الجسماني. ولهذا كان البرزخ سريع الاستحالة. يعرف العارفون حاله، بيده مقاليد الأمور: لكونه قدرة محضة تتكون الأشياء فيه بالإرادة (والإنسان الكامل بيده مقاليد الأمور الوجودية لأنه هو الحاكم فيها بأمر الله تعالى ألا له الخلق والأمر) ، وإليه مسانيد الغرور: من أجل تحوُّل صورته فمن استند إلى شيء منها اغتر به . له - أي للبرزخ (أو للإنسان الكامل) - النسب الإلهي الشريف: أراد بالنسب هنا تكوين الأشياء بالقدرة ، ألا تراك تكوّن ما أردته في خيالك على حسب ما شئت، وإن كنت متمكنا كان ذلك في عالم المثال أو في العالم الذي تصير الأرواح إليه بعد الانتقال، ومن أراد الفنا والزوال . ولقد جرت لي واقعة عجيبة في هذا المعنى: وهو أنني رأيت امرأة وكانت قد ماتت مسوِّدة الوجه لما تلقاها العذاب لنظرها إلى النار، فألبستُ النار فيها صورة الجنة وقلت لها انظري إلى الجنة فنظرت فزال عنها السواد الذي في وجهها وتهللت حتى صارت كالقمر في الحسن والبهاء . وكثيرا ما أرى في النوم أمورا وأعرف أنّ تعبيرها في اليقظة غير ملائم للطبع فلا أقربها، وبعض الأحيان أنقلها إلى غير تلك الصورة المخالفة للطبع فإراها كما أريد . ولا يستطيع ذلك إلا من قدر على تصريف الأمور في المعنى وصار خرق العادة له عادة في العالم الروحاني ، ولا يعرف ذلك إلا من مارسه من العارفين . فالبرزخ تلك الصفة الإلهية القادرية (قلت النسب الإلهي الشريف للإنسان الكامل هو كونه عبد الله الكامل فلا أشرف من نسبة العبودية الكاملة لله تعالى) والمنصب الكياني المنيف : فهو خلق له صفة الحق . تلطف في كثافته وتكثف في لطافته ، لكونه يظهر بحكم كل من عالمي الكثافة واللطافة في صورة واحدة ؛ يجرحه العقل ببرهانه : الدلائل العقلية تنتج بالفكر صوراً خيالية والخيال من جملة البرازخ (أو يقال أن كثيرا من الأمور التي لا يقبلها العقل العادي توجد في عالم المثال البرزخي) ويعدّله الشرع بقوة سلطانه: أي يصرفه الشرع إلى غير ما ظهر في العقل لأنّ الشرع مرتبط بالوحي الإلهي فله الحكم على كل صورة ومعنى، فلذلك لم يكن للعقل في الشرع مجال . فالخيال يحكم في كل موجود لأنك تسري به في كل شيء ، ويستحضر كل موجود في عالمه ؛ وإلى صحة الأمور المشهودة بالدلائل العقلية أشار بقوله : ويدل على صحة حكمه بما يعطيه الشهود ويعترف به الجاهل بقدره والعالم ، ولا يقدر على ردّ حكمه حاكم] انتهى.

أمثلة لمشاهد قرآنية حصلت للشيخ الأكبر في عالم المثال

ليس القرآن عند الشيخ كلمات تُردّد أو معاني تتدبّر فحسب، بل آياته وكلماته وحروفه مطالع تجليات ومشاهد أسرار وعلوم ومظاهر عظيمة لا نهاية لها . وعندما يصف منازل القرآن، إنّما يصف أحواله هو وأذواقه ومشاهده . ولنذكر هنا أمثلة لبعض وقائعه القرآنية في عالم المثال :

في الباب 272 من الفتوحات المتعلقة بسورة الإخلاص، يصف الشيخ منزلها فيقول (ج2 ص581) : " فاعلم أنّ هذا المنزل وإن كان يطلب الأحذية والتنزيه من جميع الوجوه، فإنّه يظهر في الكشف

الصوري المقيد بالمظاهر كالبيت القائم على خمسة أعمدة ، عليها سقف مرفوع محيط به حيطان لا باب فيها مفتوح . فليس لأحد فيه دخول بوجه من الوجوه . لكن خارج البيت عمود قائم ملصق إلى حائط البيت يتمسح به أهل الكشف ، كما يقبلون و يتمسحون بالحجر الأسود الذي جعله الله خارج البيت، وجعله يميناً له وأضافه إليه لا إلى البيت . كذلك هذا العمود لا يضاف إلى هذا المنزل وإن كان منه ، إلا أنه ليس هو خاصاً به ، فإنه موجود في كل منزل إلهي، وكأنه ترجمان بيننا وبين ما تعطيه المنازل من المعارف . وقد نبه على ذلك ابن مسرة الجبلي في كتاب الحروف له . وهذا العمود له لسان فصيح يعبر لنا عما تحويه المنازل، فنستفيد منه علم ذلك . ومن المنازل ما ندخل فيه ونمشي في زواياه، فنجد الأمر على حد ما عرفناه فيه . ومن المنازل ما لا سبيل لنا إلى الدخول فيه مثل هذا المنزل . فنأخذ من هذا العمود التعريف بحكم التسليم، فإنه قد قام الدليل لنا على عصمته فيما يخاطبنا به في علم الكشف كالرسول في علم الحس، فهو لسان الحق . ومن الناس من يلحقه بأعمدة البيت . فإن بعض الحائط عليه ولا يظهر لنا منه إلا وجه واحد وسائر مستور في الحائط . فيقول بعض المكاشفين: إن البيت قائم على ستة أعمدة . فلا تناقض بين مثبتتي الخمسة والستة في قيام البيت عليها . فقد بينا لك ذلك حتى لا تتخيل أن الحق في أحد القولين ومع إحدى الطائفتين . فكل طائفة منها صادقة . فلماذا أخبرتك بكيفية ذلك . وهكذا جميع ما يظهر للناس أنهم اختلفوا فيه . فليس بين القوم بحمد الله خلاف فيما يتحققون به ، **بل هم في شغلهم أصح وأحق من أهل الحس فيما يدركونه بحواسهم** .

فالشخص يعني بالبيت هنا سورة الإخلاص، وأعمدته الخمسة هي آياتها الخمس . والعمود السادس ترجمان المعارف هو البسملة ، فبعضهم يعتبرها آية من كل سورة، وبعضهم يعتبرها آية مستقلة تفصل بين كل سورة وأخرى . وبسملة كل سورة عند العارفين بأسرار القرآن تنطوي على كل أسرار تلك السورة . وقد كرر هذا المعنى في آخر منزل سورة المسد في الباب 273، حيث يصف البسملة في مشهد آخر على هيئة دهليز البيت فيقول: " فهذا قد ذكرنا جميع ما يحويه هذا المنزل من خزائن العلوم . قال تعالى [وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ] . غير أنني تركت عند الدخول إلى هذا المنزل بيتاً واحداً في دهليز هذا المنزل لا يفتح لكل أحد . وقد فتح لي و دخلته وعرفت ما فيه ، وهو يتضمن ويخزن فيه جميع مفاتيح الخزائن كلها التي تتضمنها هذه المنازل التي في هذا الكتاب . وهو يحوي على أمور جليلة، وللعارف به تحقق في إيجاد الكائنات عنه" . يشير الشيخ إلى ما ذكره في مواقع أخرى أن البسملة للعارف الناطق بالله بمثابة " كن " للحق تعالى .

وأما كون بيت سورة الإخلاص لا باب له ولا سبيل للدخول فيه ، فلأنها لا تحتوي إلا على أسماء التنزيه التي لا سبيل إلى التخلق بها . وما يتمسح به من عمود البسملة هو عبارة عن التخلق بالاسم الرحيم .

وفي الباب 273 المخصوص بسورة المسد، فصل تفصيلاً وافياً دقيقاً مسهباً بيوت منزلها وخزائنها كل بيت وأقفاها ومفاتيحها . فالمنزل هو السورة . وبيوته هي آياتها، وخزائنها كلمات الآيات، وأقفاها حروفها، ومفاتيح الحرف حركته ونقطه إن كانت فيه نقط ، وحركات كل مفتاح على عدد ذلك الحرف بحساب الجمل المعروف، وأمّهات العلوم التي تظهر للعارف من كل حرف على عدد ذلك الحرف . فلمفتاح خزانتها الأولى مثلاً أربعمئة حركة ، لأن أول حرف في هذه السورة هو (ت) من الخزانة الأولى التي هي (تبت) ، وعدد التاء في حساب الجمل هو 400 ، فعدد العلوم المتعلقة بالتبابة التي تتجلى للعارف من هذا الحرف هو إذن 400 .

وفي أول هذا الباب بين الشيخ أن كل حضرة كونية تستمد من كلمة أو آية قرآنية . فأشار إلى موقع العقل الأول في بسملة فاتحة الكتاب قائلاً: " وصدر عن أم الكتاب الذي عنده حضرة تسمى أم الجمع، أدخلني الحق إياها فرأيتها ورأيت ظاهرها وباطنها، وعابنت مكان هذا العقل منها نكتة سوداء مستورة نقية ما بين حمرة وصفرة، وعابنت الرقيقة التي بين المكانة، وهذا المكان المعين . ورأيت موسى وهارون ويوسف عليهم السلام ناظرين إلى هذا العقل . وفرّج سبحانه من هذه الحضرة الجامعة التي اختصها لنفسه حضرات لا يعلم عددها إلا الله في السماء والأرض وما بينها وما تحت الثرى إلى حد الاستواء

(...) و شخص سبحانه مقام الصدق والصفاء، وعيّن فيه اثنتين وسبعين مرقاة، كل مرقاة منها تعطي علوما لمن يرقى فيها للصفاء الذي استلزمته هذه الصورة، فهي علوم كشف، إلى أن ينتهي إلى ذروتها، فتقابله حضرة الأُم بذاتها...". أشار الشيخ بأَم الكتاب وأَم الجمع إلى الفاتحة وبسملتها، وبالمراقي الـ: 72 إلى كلمات السور السابقة أي المعوذتين والإخلاص، كما تشير إلى عدد حروف سورة الإخلاص التي تسبق سورة المسد. وكأنه أشار بنكتة العقل إلى نقطة باء البسملة (تنظر في الفتوحات علاقة الباء بالموجود الأول: ج 1 ص 10). وأشار بذكر موسى وهارون ويوسف عليهم السلام إلى التوراة التي أول حروفها الباء. قال الشيخ (ج 1 ص 83): "قال لنا بعض الإسرائيليين من أحبارهم: ما لكم في التوحيد حظ، لأنّ سور كتابكم بالباء. فأجبتهم: ولا أنتم، فإنّ أول التوراة باء، فأفحم".

وفي مواضع أخرى، يتكلم الشيخ عن اجتماع العارف بأرواح الأنبياء والأولياء في حضرات آيات القرآن والأسماء الحسنى، وذكر أمثلة لاجتماعه هو ببعضهم في كتابه (التجليات) المستمد من سورة البقرة كما بيّناه في بحث خاص.

ومثال هذا أيضا ما نجده في الباب 278 المخصوص بسورة قريش حيث يقول: "واعلم أنّ هذا المنزل إذا دخلته تجتمع فيه مع جماعة من الرسل صلوات الله عليهم فتستفيد من ذوقهم الخاص بهم، علوما لم تكن عندك، فتكون لك كشفا كما كانت لهم ذوقا" (ج 2 ص 605).

وفي الباب 279 المخصوص بسورة الفيل يشير إلى تحققه بفاتحتها [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ (فيقول) سمعتها عن أحد، لكنني رأيتها من نفسي نظرت نظرة، فعلمت ما تضمنته من العلوم، وأعطيت نظرة فنظرت بها فعلمت بها من نظرت إليه من جميع ما تضمنته تلك النظرة من العلوم. وهذا هو علم الأذواق، ومن هنا يعلم قول من قال يسمع بما به يبصر بما به يتكلم".

ومن هذه الوقائع الروحية التي حصلت للشيخ قوله عن تحققه بالآية: [وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ] (ج 1 ص 382): "وقد سمعنا بحمد الله في بدء أمرنا تسبيح حجر و نطقه بذكر الله". ويقول أيضا: "ومن هنا نعرف أيضا تعرف النشأة الآخرة (...) فإنّ الروحانية على نشأة الآخرة أغلب من الحسية. وقد ذقناه في هذه الدار الدنيا مع كثافة هذه النشأة، فيكون الإنسان بعينه في أماكن كثيرة. وأمّا عامة الناس، فيدركون ذلك في المنام" (ج 1 ص 318).

وإنما تمكن الشيخ من ذلك مقام التحوّل في الصور عند تحقّقه بمنزل سورة القارعة الذي خصص له باب 283 (ج 2 ص 620) حيث يقول:

"اعلم أنّه لما وصلت إلى هذا المنزل في وقت معراجي الذي عرج بي ليريني من آياته سبحانه ما شاء ومعني الملك، فرعت بابه، (يشير الشيخ إلى كلمة القارعة) فسمعت خلف الباب قائلا يقول: "من ذا الذي يقرع باب هذا المنزل المجهول الذي لا يعرف إلا بتعريف الله؟" (يشير الشيخ إلى الآية [القارعة (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)]، فقال الملك: "عبد الحضرة عبدك محمد بن نور". ففتح فدخلت فيه، فعرفني الحق جميع ما فيه، ولكن بعد سنين من شهودي إياه. فكان ذلك شهودا صوريا من غير تعريف، ثم بعد ذلك وقع التعريف به. ولما عرفني بأنّه منزل مجهول، قضم ظهري. ولما وقع التعريف به، رأيت كله قواصم إلا أن يعصم الله ممّا رأيت، فخفت فسكن الله روعي، بما جلى لي، فرأيت في هذا المنزل تحوّل الصور الحسية في الصور الجسمية كما يتشكل الروحانيون في الصور. فتخيلت أنّ تلك الصور الأول ذهبت، فحققت النظر فيها فلم أدركها حتى أعطيت القوة عليها، فتحوّلت فأدركت المطلوب..."، ثم فصل الشيخ ذلك بأسهاب طويل، وكل ذلك مرجعه الآيتين: [يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)].

ويتكلم عن شمس كاف التكوين من كلمة " كن " التي تجلت شمسها للشيخ وعمره ثلاثون سنة فقال (ج2ص439): " والكاف كافان، كاف كن وهي كاف الإثبات، وكاف لم يكن، وهي كاف النفي. وفي هذا الكاف طلعت لنا الشمس سنة تسعين وخمسمائة، فأثبتنا نفي التشبيه بطلوع الشمس في لم يكن، ومن لم تطلع له فيه شمس قال بالتعطيل والشمس طالعة " .

وما هذه الشمس إلا شمس سورة البينة التي خصّص الشيخ لها كتاب " الفناء في المشاهدة " والباب 286 من الفتوحات حيث يقول (ج2ص633): " ولما دخلت هذا المنزل، وقع لي فيه التجلي في النور الذي لا شعاع له، فرأيت علماء، ورأيت نفسي به ، ورأيت جميع الأشياء بنفسي وبما تحمله الأشياء في ذواتها من الأنوار التي تعطيها حقائقهم، لا من نور زائد على ذلك . فرأيت مشهدا عظيما حسيا لا عقليا ، وصورة حقية لا معنى . ظهر في هذا التجلي اتساع الصغير لدخول الكبير فيه، مع بقاء الصغير على صغره، والكبير على كبره، كالجمل يلج سم الخياط . يشاهد ذلك حسا لا خيالا وقد وسعه، ولا تدري كيف، ولا تنكر ما تراه. فسبحان من تعالى عن إدراك ما تكيفه العقول، وفضل إدراك البصر عليها، لا إله إلا هو العزيز الحكيم " .

وفي الباب 293 المخصوص بسورة الشمس، ذكر دلالات التجلي الشمسي والقمري ثم قال: " واعلم يا أخي أنه ليلة تقيدي لبقية هذا المنزل، من بركاته رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد استلقى على ظهره وهو يقول: " ينبغي للعبد أن يرى عظمة الله في كل شيء حتى في المسح على الخفين ولباس القفازين " . وكنت أرى في رجليه - صلى الله عليه وسلم - نعلين أسودين جديدين وفي يديه قفازين، وكأنه يشير إلي مسرورا بما وضعته في هذا المنزل من العلم بما يستحقه جلال الله ، ثم يقول: " ما دام البدر طالعا فالنفوس في البساتين نائمة وفي جواسقها آمنة . فإذا كان الظلام ولم يطلع البدر، خيف للصوص . فينبغي أن يدخل الإنسان المدينة حذرا من اللصوص... " ثم شرح الشيخ هذا الكلام (ج2ص669).

وفي منزل سورة الحاقة التي خصّص لها الباب (315)، يذكر واقعة أخرى عجيبة خلال إشاراتة للآية 19 منها: [فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (19)]:

[... وأما في زماننا، فاتفق لامرأة أنها رأت في المنام كأنّ القيامة قد قامت وأعطاه الله ورقة شجرة فيها مكتوب عتقها من النار. فمسكتها في يدها، وانفق أنها استيقظت من نومها والورقة قد انقبضت عليها يدها، ولا تقدر على فتح يدها، وتحسّ بالورقة في كفها. واشتد قبض يدها عليها بحيث أنه كان يؤلمها، فاجتمع الناس عليها وطمعوا أن يقدروا على فتح يدها. فما استطاع أحد على فتح يدها من أشد ما يمكن من الرجال، فسألوا عن ذلك أهل طريقينا، فما منهم من عرف سرّ ذلك. وأما علماء الرسم من الفقهاء فلا علم لهم بذلك. وأما الأطباء فجعلوا ذلك لخلط قوي انصبّ إلى ذلك العضو، فأثر فيه ما أثر. فقال بعض الناس: " لو سألنا فلانا (يريدون إياي بذلك) ربما وجدنا عنده علما بذلك فجاءوني بالمرأة وكانت عجوزا ويدها مقبوضة قبضا يؤلمها. فسألته عن رؤياها، فأخبرتني كما أخبرت الناس. فعرفت السبب الموجب لقبض يدها عليها، فجنّت إلى أذنها وساررتها فقلت لها: " قربي يدك من فمك وانو مع الله أنك تبتلعين تلك الورقة التي تحسّين بها في كفك، فإنك إن نويت ذلك وعلم الله صدقك في ذلك فإنّ يدك تنفتح " . فقرّبت المرأة يدها من فيها وألزقتها، وفتحت فاهها ونوت مع الله ابتلاع الورقة. فانفتحت يدها وحصلت الورقة من فمها فابتلعته، وانفتحت يدها فتعجب الحاضرون من ذلك.

وفي منزل سورة الحجر التي خصّص لها الباب 369، شهد خزائن سور القرآن كلها في آيتها: (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه)، وذكر منها خزائن السور الثلاثة والعشرين الأولى - من الناس إلى الليل - ، جعل لكل سورة منها وصلا. وفي خزانة سورة الكافرون شهد واقعة وصفها بقوله (ج3ص376): [رأيت عينا من لبن حليب ما رأيت لبنا مثله في البياض والطيب في جرمه دخلت فيه حتى بلغ ثديي وهو يندفق، فتعجبت لذلك، وسمعت كلاما غريبا إلهيا يقول: " من سجد لغير الله عن أمر الله قربة إلى الله طاعة

الله فقد سعد ونجا. ومن سجد لغير الله عن غير أمر الله قربة إلى الله فقد شقي". فإن الله عز وجل يقول: [وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا] فإن الله مع الخلق لا الخلق مع الله لأنه يعلمهم فهو معهم...] وأحياناً تتجسد للشيخ بعض معاني الآيات بكيفية تكاد تكون حسيّة كآلية 144 من البقرة التي تجلّت له من خلال كتابته لفصل " الجمعة بعرفة " من باب الحج في (الفتوحات) فيقول (ا: 714):

[واقعة وقعت لنا في ليلة كتابتي هذا الوجه، وهي مناسبة لهذا الباب. كنت أرى فيما يراه النائم شخصاً من الملائكة قد ناولني قطعة من أرض متراسة الأجزاء ما لها غبار في عرض شبر وطول شبر وعمق لا نهاية له. فعندما تحصل في يدي أجدها قوله تعالى: [وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ] ... إلى قوله: [وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ]. فكنت أتعجب ما كنت أقدر أن أنكر أنها عين هذه الآيات، ولا أنكر أنها قطعة أرض. وقيل لي هكذا أنزل القرآن وأنزلت على محمد - صلى الله عليه وسلم - . فكنت أرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقول لي: " هكذا أنزلت عليّ فخذها ذوقاً وهكذا هو الأمر فهل تقدر على إنكار ما تجده من ذلك؟ " قلت: لا (...) فقلت: هذا كشف مطابق للجمعة التي جاء بها جبريل - عليه السلام - إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في صورة مرآة مجلوة وفيها نكتة وقال له: " يا رسول الله هذه الجمعة وهذه النكتة الساعة التي فيها... " و الحديث مشهور، فانظر ما أعجب الأمور الإلهية وتجليها في القوالب الحسية].

وفي كتابه (مشاهد الأسرار)، وصف الشيخ العديد من أمثال هذه التجليات . وقد بيّننا في كتاب خاص بالمشاهد أنّ مرجعها للسور المفتحة بالحروف المقطعة . والله أعلم .

مراجع في الفتوحات حول الخيال والبرازخ ، جمعها الشيخ محمود محمود الغراب في كتاب (الخيال عالم البرزخ والمثال من كلام الشيخ الأكبر) .

- تعريف البرزخ : ج1ص304 / ج2ص391 / ج4ص328 .
- علم البرزخ : ج2ص203، 609 / ج4ص337، 389 .
- تجلي الحقائق في الصور : ج1ص33، 57، 591، 592 / ج2ص66 .
- الوجود الخيالي : ج3ص46 / ج4ص211 .
- حقيقة الخيال المطلق : ج2ص310، 311، 312 / ج3ص46، 470 .
- حضرة الخيال هو الجبروت ومجمع البحرين : ج1ص100، 163، 304، 395 / ج2ص129، 311 / ج3ص42، 361، 470 / ج4ص337 .
- الخيال له الحكم في جميع الحضرات الوجودية : ج1ص41، 116 / ج2ص213، 312 ن 313 / ج3ص232، 451، 525 / ج4ص360 .
- توجه الاسم الإلهي القوي على إيجاد الخيال : ج1ص621 / ج3ص508، 509 / ج4ص281، 282، 325 .
- خلق الخيال : ج1ص126، 274 / ج3ص46 .
- الخيال هو الأحق باسم الإنسان الكامل : ج3ص290 .
- تجلي الحق في الحضرة الخيالية : ج1ص182، 383، 384 / ج2ص124، 296 ن 310، 312، 384 / ج3ص452، 507، 538 / ج4ص108، 200، 360 .

- الخيال هو الواسع الضيق : ج 1 ص 306 .
- الفرق بين الجسم والجسماني والجسد والروح والروحاني : ج 1 ص 133، 148، 149، 192، 755، 285 / ج 2 ص 333، 334، 470، 627 / ج 3 ص 22، 192، 452 / ج 4 ص 389 .
- أثر الخيال في العلم وإدراك الخيال بعين الحس وبعين الخيال : ج 1 ص 304، 240، 94، 45، 42...307 / ج 2 ص 103، 596، 594، 113 / ج 3 ص 507، 455، 509... / ج 4 ص 315، 420 .
- علاقة القوى الإنسانية بالخيال : ج 1 ص 94، 124، 125، 691، 608، 532، 396، 395، 391، 289، 240، 159 / ج 2 ص 375، 364، 151، 91، 48، 44 / ج 3 ص 38، 405، 364، 234، 185، 164، 107 / ج 4 ص 185 .
- الوهم : ج 1 ص 415 / ج 2 ص 326 / ج 3 ص 364، 365 / ج 4 ص 259، 409 .
- القوة المتخيلة : ج 1 ص 120، 289، 366 / ج 2 ص 192، 544، 691 / ج 3 ص 470، 364، 38 / ج 4 ص 211، 322 .
- الاحتلام : ج 1 ص 176، 305، 609 / ج 2 ص 609 / ج 3 ص 38 .
- الوحم : ج 2 ص 192، 377 / ج 3 ص 507، 508 .
- ولد الرؤيا : ج 2 ص 377، 378 .
- تمكن الشيطان من حضرة الخيال : ج 1 ص 158، 432 / ج 3 ص 71، 198 .
- السيمياء وتأثير الحروف : ج 3 ص 43 .
- الفرق بين عصا موسى وعصي السحرة : ج 1 ص 158، 234، 235 / ج 2 ص 576، 311، 37 / ج 3 ص 108، 288، 507 / ج 4 ص 109 .
- الخيال المتصل والخيال المنفصل : ج 2 ص 311 / ج 3 ص 42...442، 44 .
- الحب والخيال : ج 2 ص 337، 113، 325 / ج 3 ص 450، 235 / ج 4 ص 19، 344 .
- النوم : ج 2 ص 183، 198، 378 / ج 3 ص 38 / ج 4 ص 344 .
- التلبيس في حضرة الخيال : ج 2 ص 622 .
- تشكل الجن والوحانيين في الصور : ج 2 ص 620 .
- الواقعة أي المبشرة : ج 2 ص 491، 130، 32 / ج 3 ص 103 / ج 4 ص 395 .
- رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام : ج 3 ص 50 .
- الرؤيا وتعبيرها : ج 1 ص 165، 307 / ج 2 ص 85، 275، 375...380 / ج 3 ص 507، 454، 453، 119، 103 / ج 4 ص 27، 385 .
- أخذ الشيخ الأكبر أحكاما من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرؤيا : ج 1 ص 706، 599، 537، 437 / ج 2 ص 253، 254 / ج 4 ص 70، 552 / كتاب المبشرات .

الفصل الثاني

شرح على الباب الثامن من الفتوحات وهو في معرفة الأرض التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم - عليه السلام- وهي أرض الحقيقة وذكر بعض ما فيها من الغرائب والعجائب

مدخل: خلاصة ما ذكر من قبل حول القوة الخيالية

أرض الحقيقة أو أرض السمسة هي أرض الخيال الحقي عند أهل الله العارفين. وأصلها الحسي مجموعة من الخلايا في مقدم المخ موصولة بمختلف أجزائه. وعندما تنفخ الروح في الجسم تبدأ النشأة الروحية بالظهور في تلك الخلايا وتتوسع تدريجيا بعد الولادة بواسطة ما ترفعه إليها الحواس من العالم الخارجي المحسوس، وتتفاعلها مع القوة المصورة والقوة المفكرة. ولا تزال متوسعة في كل شخص إلى أن يموت فيتجرد حينئذ من الخيال المنفصل - المسمى بعالم الحس - إلى عالم البرزخ حيث يظهر السلطان الأعظم للقوة المخيلة، وتدبر الروح جسدا برزخيا مناسباً لمقامها في السعادة والإطلاق أو في الحصر لكن تحت والعذاب. وعند البعث يوم القيامة والدخول إلى الجنة أو النار، يعود للحس سلطانه هيمنة الروحانية المتصرفة بقوة الخيال. وفي الآخرة تستمر أرض الحقيقة في التوسع إلى ما لا نهاية... فكل ما يدركه الإنسان من فوق العرش إلى ما تحت الفرش، في الدنيا والآخرة بالغير والأنا الكلي، كل هذا والظاهر والباطن والحق والخلق، والأنا الشخصي والشعور منطوق ونابع من القوة المخيلة مظهر اسمه - تعالى - القادر الخلاق في الإنسان. فهي مجلى العظمة الإلهية التي لا يعجزها شئ، ولذا كانت مسرح بصائر العارفين. وهذه الأرض تتوسع بتوسع المدركات إما سفلياً، أو أفقياً، أو علوياً. فبالنسبة لأهل الشقاء والظلام تمتد نحو الأسفل إلى سجين، ثم إلى أسفل جهنم؛ وبالنسبة لأهل الغفلة والحجاب تتوسع في أفق أرض الحس الظاهر لا تكاد تتعداه إلا قليلاً؛ وبالنسبة لأهل الحق والكمال تنمو متوسعة نحو المقامات العلوية إلى ما لا نهاية. ولهذه القوة المخيلة مجالين: مجال الخيال المتصل، أي الخيال الناشئ من الخيال الداخلي الخاص بكل شخص والباقي في دائرة باطنه، يقظة ومناما؛ أما مجال الخيال المنفصل فله شعب كثيرة، وله وجود خارجي مستقل عن الشخص، فمنها الأجساد التي تظهر فيها الأرواح في الحس، ومنها عوالم البرزخ بين الدنيا والآخرة، ومنها سوق الصور في الجنة، ومنها ما تنشئه بعض الهمم من أفعال وأحوال... والمرور من مجال الخيال الباطني الخاص إلى الحس الظاهر يكون بواسطة توجيه الهممة: فبالنسبة لعامة

الناس أصحاب الهمم الأرضية والولاية النفسية لا يحدث من همهم أي أثر في عالم الحس إلا بواسطة الأسباب والآلات والوسائط المألوفة المعروفة. وبالنسبة لأصحاب الهمم الظلمانية والولاية الشيطانية السفلية كالسحرة والحساد وأصحاب العين والنفوس الخبيثة، يكون لهمهم أثر في الحس وفي النفس، ويستعينون في ذلك بالشياطين أو السحراً أو خواص الحروف والطلاسم والسيمياء. أما أصحاب الهمم النورانية العلوية والولاية الروحية فلهمهم آثار في الخارج المحسوس وفي النفوس وفي الأرواح، مستعينين بالملائكة والأرواح الطاهرة والأذكار والدعوات والرياضات الروحية. وبالنسبة لأصحاب الهمم الربانية والولاية الرحمانية الإلهية، فعلى قطب همتهم تدور رحى الوجود، وبأنفاسهم الطاهرة يرحم الله العالم، ولهم في الباطن مقام: " كن فيكون ". كل ذلك بتقدير العزيز العليم لا خالق سواه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

الشرح

العناوين الفرعية وما بين قوسين شرح لكلام الشيخ :

يا أخت بل يا عمتي المعقولة	أنت الأميمة عندنا المجهولة
نظر البنون إليك أخت أبيهم	فتنافسوا عن همة معلولة
إلا القليل من البنين فإنهم	عطفوا عليك بأنفس مجبولة
يا عمتي قل كيف أظهر سره	فيك الأخي محققاً تنزيله
حتى بدا من مثل ذاتك عالم	قد يرتضي رب الورى توكيله
أنت الإمامة والإمام أخوك والـ	مأموم أمثال له مسلولـه

(أرض الحقيقة هي مجلى القوة المخيلة النورانية التي تسطع في مرآتها الحقائق والمجردات وحتى المستحيلات في أشكال وصور مأخوذة من العالم المحسوس. وهي أخت للإنسان لأنها تنشأ فيه مع نشأته جسماً وروحاً، وتنمو بنموه. وهي وليدة تزواج الروح

بجسمه . وهي عمته لأنها نشأت أول مرة في أبينا آدم – عليه السلام – ومعه، فهي أخته كما هي أختنا، فكما تناسلت أجسامنا من جسمه، تناسلت كذلك قوانا المخيلة من قوته المخيلة الأولى التي هي أخته، وبالتالي فهي عمتنا، لا سيما وقد خلقها الله – تعالى – بداية من بقية طينة آدم أبينا الأول. وهي أيضا الأميمة، أي الأم بالتصغير للطفاتها ودقتها، ولأنها المولدة لكل ما ينشأ في بواطننا من التصورات والخواطر والمشاعر الحاكمة على الأفكار والعقائد والسلوكات. وهي مجهولة لأن أغلب علماء الظاهر، فضلا عن العوام، يجهلون قدرها ومكانة مرتبتها الوجودية ومدى تأثيرها على العقول والقلوب.

وذكر الشيخ للهمة المعلولة فيه إشارة إلى أن اعتلال القوة المخيلة يتناسب مع اعتلال الهممة في طلب الحق ومعرفته والعمل به، بحيث يرى أهل هذه الهمم في مرآة خيالهم عين ضعفهم، لكن لجهلهم ينسبون ذلك الضعف إليها فلا يرون فيها إلا وهما باطلا، وذلك لغلبة النفس الغافلة عليهم، فتنافسوا في سجن الحس لانهيار هممهم فيه، فهي معلولة مريضة به. ولا يكون للإنسان تأثير في الحس بهمته وتخيله حتى ينعقد من دائرة الحس...

إلا القليل، وهم العارفون بالله أصحاب النفوس الزكية المجبولة على صفاء الفطرة والجبلة الروحية الأصلية، فإنهم يعلمون قدرها كما مر بيانه في الفقرات السابقة، حتى جعلها الشيخ الأكبر أخص خصوصيات الإنسان الكامل.

وفي البيت الرابع تلويح إلى التزاوج والالتحام والتفاعل الذي يقع بين الآدمي وقوته المخيلة، بحيث يتولد منهما كل ما يعيشه الإنسان في داخله وفي خارجه كنتيجة لما يتصوره بواسطة مخيلته. وأخ هذه العمدة هو الروح النازل إلى الجسم ليتولد بينهما عالم المثال البرزخي الذي تنزل فيه الأرواح والمعاني متشكلة في صور، كما تصعد إليه المحسوسات متلطفة بواسطة القوة المخيلة.

والتوكيل المذكور في البيت الخامس يشير إلى برزخية عالم الخيال والمثال بين المجردات والأرواح من جهة، وعالم المحسوسات والكثائف من جهة ثانية، لأن الوكيل واسطة كالبرزخ بين طرفين. ومن القوة المخيلة نشأ عالم البرزخ، فهو العالم الذي بدا من مثل ذاتها، ولا تزال عند أهل السلوك العرفاني في نمو وتوسع حتى تبلغ غايتها عند الإنسان الكامل الذي منه به ظهور الوجود، فهو وكيل الحق – تعالى – وخليفته، ومنصته في قبة أرين مركز برزخ البرازخ، وبهمته الربانية يتم صلاح العالم (تنظر هذه المعاني في الباب 360 من الفتوحات المخصوص بسورة النور).

وفي البيت الأخير بيان كون القوة المخيلة هي الإمامة، لأن قوة الفكر التي هي أهم ما يتميز به الإنسان تابعة لها؛ وهي روح الخليفة الإمام الآدمي الذي أسجد الله له ملائكته، لأن الإمامة روح للمأموم؛ والإمام أيضا روح للإمامة إذ لا قيام لها إلا به، كما أن القوة المخيلة لا وجود لها ولا قيام لها إلا بالبدن الكثيف المحسوس. وأصلها الأول في آدم الطينة الآدمية، وموقعها في أبنائه المأمومين أمثاله المتناسلين منه يوجد في مقدم الدماغ، وهو

مجموعة من الخلايا العصبية في المخ أودع الله فيها سر هذه القوة منشأ أرض السمسة، أرض أغرب العجائب. وسميت بالسمسة للطفاتها وخفائها بحيث يسري الخيال في كل شئ أنيا في أسرع ما يتصور. واختار الشيخ هنا لأبياته العدد ستة، لأن القوة المخيلة تأخذ مادتها المصورة من الأشكال الحسية المنحصرة في الجهات الستة من الفضاء).

النخلة أخت آدم عليه السلام

اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم- عليه السلام - الذي هو أول جسم إنساني تكون، وجعله أصلاً لوجود الأجسام الإنسانية، وفضلت من خميرة طينته فضلة خلق منها النخلة. فهي أخت لآدم عليه السلام وهي لنا عمّة، وسماها الشرع عمّة، وشبهها بالمؤمن، ولها أسرار عجيبة دون سائر النبات.

(أخرج السيوطي في " الجامع الصغير " الحديث: " أكرموا عمّتكم النخلة فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله تعالى من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران، فأطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن فتمر ". قال عنه العجلوني في "كشف الخفاء": رواه أبو نعيم والرامهرمزي في الأمثال عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مرفوعاً، وأخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - . وروى البخاري في الأدب عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - ومثله في صحيح البخاري ومسلم: [قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْبَرُونِي بِشَجَرَةٍ مِثْلَهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ تُوِّي أْكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَلَا تَحْتُ وَرَقَهَا ؟ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَكْرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَتَمَّ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَلَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هِيَ النَّخْلَةُ. فَلَمَّا خَرَجْتُ مَعَ أَبِي قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ ! وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَهَا ؟ لَوْ كُنْتُ قُلْتُهَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: مَا مَنَعَنِي إِلَّا أَنِّي لَمْ أَرَكَ وَلَا أَبَا بَكْرٍ تَكَلَّمْتُمَا، فَكْرِهْتُ]. وقد قال الشيخ في الفتوحات وغيره من الحكماء أن أعلى درجة في مرتبة النبات التي تتلوها مرتبة الحيوان هي درجة النخلة، كما أن أعلى درجة في مرتبة الجماد التي تتلوها مرتبة النبات هي الكمأة، وأعلى درجة في مرتبة الحيوان التي تتلوها مرتبة الإنسان الحيوان هي درجة النسناس والقرد).

وفضل من الطينة بعد خلق النخلة قدر السمسة في الخفاء. فمد الله في تلك الفضلة أرضاً واسعة الفضاء، إذا جعل العرش وما حواه والكرسي والسموات والأرضون وما تحت الثرى والجنات كلها والنار في هذه الأرض، كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض. وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره، ويبهر العقول أمره (هي أرض الخيال المستوعب لكل العوالم كما مر بيانه).

تسبيح مخلوقات أرض الحقيقة

وفي كل نفس خلق الله فيها عوالم "يسبحون الليل والنهار لا يفترون" (الصور والمخلوقات الخيالية هي كسائر الموجودات تسبح بحمد الله - تعالى - من ناحية أخرى فإن أنفاس المخلوقات، والخواطر الواردة والصادرة على القلوب، كلها تتحول ملائكة تسبح الله دائما أبدا. وفي هذا يقول الشيخ في آخر الباب 155 من الفتوحات (ج 2 ص 254): [... فمن علمه الله منطق الحيوانات وتسبيح النبات والجماد، وعلم صلاة كل واحد من المخلوقات وتسبيحه، علم أن النبوة سارية في كل موجود، يعلم ذلك أهل الكشف والوجود. لكنه لا ينطلق من ذلك اسم نبي ولا رسول على واحد منهم، إلا على الملائكة، خاصة الرسل منهم، وهم المسمون ملائكة. وكل روح لا يعطي رسالة فهو روح لا يقال فيه ملك إلا مجازاً، كالأرواح المخلوقة من أنفاس المومنين الذاكرين لله، يخلق الله من أنفاسهم أرواحا يستغفرون لصاحب ذلك الذكر إلى يوم القيامة، وكذلك من أعمالهم كلها المحمودة التي فيها أنفاسهم...] وفي الفصل 21 من الباب 198 (ح 2 ص 443) يقول عند حديثه عن الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور كل يوم: [... وبعده هؤلاء الملائكة في كل يوم تكون خواطر بني آدم، فما من شخص مؤمن ولا غيره إلا ويخطر له سبعون ألف خاطر في كل يوم، لا يشعر بها إلا أهل الله. وهؤلاء الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور يجتمعون عند خروجهم منه مع الملائكة الذين خلقهم الله من خواطر القلوب، فإذا اجتمعوا بهم كان ذكركم الاستغفار إلى يوم القيامة... وكل ملك يتكون من الخاطر يكون على صورة الخاطر سواء []. وفي هذه الأرض ظهرت عظمة الله، وعظمت عند المشاهد لها قدرته. وكثير من المحالات العقلية التي قام الدليل الصحيح العقلي على إحالتها، هي موجودة في هذه الأرض) لأنه لا يستحيل شئ في عالم الخيال. والقوة المخيلة تنشأ من الصور ما تشاء لأنها من شعاع الروح الذي هو من أمر الله الذي يقول للشئ: " كن فيكون ". ينظر هذا المعنى في الفقرة السابقة: " الخيال مجلى اسمه تعالى القدير الخلاق " . وهي مسرح عيون العارفين العلماء بالله، وفيها يجولون.

لكل إنسان صورة في كل مرتبة من مراتب الوجود، ولكل صورة روح

وخلق الله من جملة عوالمها عالماً على صورنا، إذا أبصرهم العارف يشاهد نفسه فيها (لأن كل ما هو موجود في العالم المحسوس له أمثال في عالم المثال، بل ما من تحول في الخواطر إلا ولكل خاطر صورة في ذلك العالم المثالي). وقد أشار إلى مثل ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه فيما روي عنه في حديث: " هذه الكعبة، وأنها بيت واحد من أربعة عشر بيتاً " و " أن في كل أرض من السبع الأرضين خلقاً مثلنا، حتى أن فيهم ابن عباس مثلي ". وصدقت هذه الرواية عند أهل الكشف .

(ورد في الشرع ذكر صور للإنسان في بعض المراتب الوجودية. ففي الحديث أن الحق - تعالى - خير آدم - عليه السلام - في ان يختار أحد يديه - تعالى - وهما مقبوضتان،

فاختار اليمين، ولما فتحها - تعالى - رأى آدم فيها صور جميع بنيه [يراجع الحديث في الفصل 21 من الباب 198 (ج 2 ص 444) والباب 367 (ج 3 ص 346)]. وفي حديث المعراج وجود نسمة البشرية في السماء الدنيا: السعداء عن يمين أبيهم آدم - عليه السلام -، والأشقياء عن يساره. وذكر الشيخ في عدة مواضع من كتبه أن في المراتب العليا للجنان تحت فلك البروج، وفي المقامات الرفرفية بعليين صور لبني آدم، فيقول مثلاً في الباب 167 (ج 2 ص 280) عند وصفه لمعارج السالك: [...ورأى جنته المخصوصة به... فلما بلغ من ذلك أمنيته، رقي به إلى المستوى الأزهى والستر الأبهى، فرأى صور آدم وبنيه السعداء من خلف تلك الستور، فعلم معناها وما أودع الله من الحكمة فيها وما عليها من الخلع التي كساها بني آدم، فسلمت عليه تلك الصور، فرأى صورته فيهن فعانقها وعانقته واندفعت معه إلى المكانة الزلفى...]. وذكر أيضاً أنه ما من عمل يعمله العبد إلا ويكون له أثر في صورته الرفرفية العليا، حتى أنه إذا عصى ربه قبحت تلك الصورة، فيسدل بينها وبين الملائكة الرفرفية حجاب، إلى أن يعود إليها جمالها مرة أخرى، ومن هناك نزل التسبيح: (يا من أظهر الجميل وستر القبيح ولم يواخذ بالجريرة ولم يهتك الستر...). بل يقول الشيخ في الباب 357 (ج 3 ص 260): (واعلم أنه ما من صورة في العالم الأسفل إلا ومثلها في العالم العلوي) ثم أطل في تفصيل ذلك. ويتكلم الشيخ عن تجدد الصور على الإنسان بتجدد خواطره فيقول في الفصل 27 من الباب 198 (ج 2 ص 446):

[الإنسان سريع التغير في باطنه كثير الخواطر، يتقلب في باطنه في كل لحظة تقلبات مختلفة لأنه على الصورة الإلهية. وهو - سبحانه - كل يوم في شأن، فمن المحال ثبوت العالم زمانين على حالة واحدة، بل تتغير عليه الأحوال والأعراض في كل زمان فرد، وهي الشؤون التي هو الحق عليها لمن علم ما قال الله. ولا يظهر سلطان ذلك إلا في باطن الإنسان، فلا يزال يتقلب في كل نفس في صور تسمى الخواطر، لو ظهرت للأبصار لرأيت عجباً... فأسكنه - أي آدم عليه السلام - سماء القمر وجعل نسمة بنيه عن يمينه ويساره أسودة، يرى شخوصها أهل الكشف... فإن الله - سبحانه - ما يسوي صورة محسوسة في الوجود على يد من كان من إنسان، أو ريح إذا هبت فتحدث أشكالاً في كل ما تؤثر فيه، حتى الحية والدودة تمشي في الرمل، فيظهر طريق ذلك، فذلك الطريق صورة أحدثها الله بمشي هذه الدودة أو غيرها، فينفخ الله فيها روحاً من أمره لا يزال يسبحه ذلك الشكل بصورته وروحه إلى أن يزول فتنتقل روحه إلى البرزخ. وذلك قوله: " كل من عليها فان " . وكذلك الأشكال الهوائية والمائية، لولا أرواحها ما ظهر منها في انفرادها ولا في تركيبها أثر. وكل من أحدث صورة وانعدمت وزالت وانتقلت روحها إلى البرزخ، فإن روحها الذي هو ذلك الملك يسبح الله ويحمده، ويعود ذلك الفضل على من أوجد تلك الصورة الذي كان ذلك الملك روحها...].

مجلس الرحمة في أرض الحقيقة

فلنرجع إلى ذكر هذه الأرض واتساعها، وكثرة عوالمها المخلوقين فيها ومنها. ويقع للعارفين فيها تجليات إلهية: أخبر بعض العارفين بأمر أعرفه شهوداً، قال: " دخلت فيها يوماً مجلساً يسمى مجلس الرحمة، لم أر مجلساً قط أعجب منه (هي مجالس العبادات وفعل الخيرات والمناجاة مع الله تعالى وفي مقدمتها الصلوات)، فبينما أنا فيه إذ ظهر لي تجل إلهي لم يأخذني عني، بل أبقاني معي". وهذا من خاصية هذه الأرض. فإن التجليات الواردة على العارفين في هذه الدار في هذه الهياكل، تأخذهم عنهم، وتقنيهم عن شهودهم، من الأنبياء والأولياء وكل من وقع له ذلك، وكذلك عالم السماوات العلى والكرسي الأزهى وعالم العرش المحيط الأعلى، إذا وقع لهم تجل إلهي، أخذهم عنهم فصعقوا. وهذه الأرض إذا حصل فيها صاحب الكشف للعارف، ووقع له تجل، لم يفنه عن شهوده، ولا اختطفه عن وجوده، وجمع له بين الرؤية والكلام (في العديد من نصوصه يؤكد الشيخ أنه لا يمكن في حضرة الحق - تعالى - الجمع بين المكالمة والمشاهدة أو الرؤية، إلا في حضرة الخيال، لأن المشاهدة في غيرها تستلزم الفناء حيث لا كلام. فهو مثلاً يقول في الباب 350 من الفتوحات المتعلقة بسورة سبأ: " إن الله ما جمع لأحد بين مشاهدته وبين كلامه في حال مشاهدته، فإنه لا سبيل إلى ذلك، إلا أن يكون التجلي الإلهي في صورة مثالية، فحينئذ يجمع بين المشاهدة والكلام، وهذا غير منكور عندنا ").

قال: واتفق لي في هذا المجلس أمور وأسرار لا يسعني ذكرها، لغموض معانيها وعدم وصول الإدراكات، قبل أن يشهد مثل هذه المشاهد لها. وفيها من البساتين والجنات والحيوان والمعادن، ما لا يعلم قدر ذلك إلا الله - تعالى -. وكل ما فيها من هذا كله، حي ناطق كحياة كل حي ناطق، ما هو مثل ما هي الأشياء عليه في الدنيا (لأن كل صورة في عالم المثال تدل على معنى عند أهل المعرفة، كاللبن يدل على العلم، فدلالته عين نطقها)، وهي باقية لا تقنى ولا تتبدل، ولا يموت عالمها (الموت والاستحالة للأجسام، والصعق للأرواح، والصور المثالية ليست أجساماً ولا أرواحاً، فلا تموت ولا تصعق، وإنما تبقى منطبعة في عالم المثال لا تتبدل، كالمثل الأفلاطونية). وليست تقبل هذه الأرض شيئاً من الأجسام الطبيعية الطينية البشرية، سوى عالمها (أي عالم الصور المثالية والأشكال الخيالية والأجسام البرزخية لا الأجسام العنصرية الحسية) أو عالم الأرواح منا بالخاصية. وإذا دخلها العارفون إنما يدخلونها بأرواحهم لا بأجسامهم، فيتركون هياكلهم في هذه الأرض الدنيا ويتجردون.

مراسم الدخول في أرض الحقيقة

وفي تلك الأرض صور عجيبة النشاء بديعة الخلق، قائمون على أفواه السكك المشرفة على هذا العالم الذي نحن فيه، من الأرض والسماء والجنة والنار (هذه الصور العجيبة النشاء هي الحواس المشرفة على العالم. قال الشيخ في الباب السابع السابق لهذا الباب: " وجعل العقل مع سيادته على الفكر، أن يأخذ منه ما يعطيه. ولم يجعل للفكر مجالاً إلا في القوة

الخيالية. وجعل - سبحانه - القوة الخيالية محلاً جامعاً لما تعطىها القوة الحساسة. وجعل له قوة يقال لها : " المصورة ". فلا يحصل في القوة الخيالية إلا ما أعطاه الحس، أو أعطته القوة المصورة. ومادة المصورة من المحسوسات ؛ فتركب صوراً لم يوجد لها عين، لكن أجزاءها كلها موجودة حساً".

فإذا أراد واحد منا الدخول لتلك الأرض، من العارفين من أي نوع كان، من إنس أو جن أو ملك أو أهل الجنة، بشرط المعرفة، وتجرد عن هيكله، وجد تلك الصور على أفواه السكك قائمين موكلين بها، قد نصبهم الله - سبحانه - لذلك الشغل. فيبادر واحد منهم إلى هذا الداخل، فيخلع عليه حلة على قدر مقامه (أي مقامه في الجولان بالفكرة والخيال النوراني والاعتبار)، ويأخذ بيده ويجول به في تلك الأرض، و"يتبؤاً منها حيث يشاء"، ويعتبر في مصنوعات الله، ولا يمر بحجر ولا شجر ولا مدر ولا شيء، ويريد أن يكلمه، إلا كلمه كما يكلم الرجل صاحبه، ولهم لغات مختلفة (أي اختلاف ما توحى به الأشياء التي يشاهدها العارف في عوالم المثال).

وتعطى هذه الأرض، بالخاصية، لكل من دخلها، الفهم بجميع ما فيها من الألسنة. فإذا قضى منها وطره، وأراد الرجوع إلى موضعه، مشى معه رفيقه إلى أن يوصله إلى الموضع الذي دخل منه، يوادعه، ويخلع عنه تلك الحلة التي كساه، وينصرف عنه (أي ينصرف من الاعتبار والمشاهدات في عوالم المثال والفكرة والاعتبار، إلى العالم الخارجي المحسوس، فيرجع إلى عالم الحس وباطنه مكسو بما ناله من جولانه في عوالم المعنى)، وقد حصل علوماً جمة ودلائل، وزاد في علمه بالله ما لم يكن عنده مشاهدة. وما رأيت الفهم ينفذ، أسرع مما ينفذ، إذا حصل في هذه الأرض. وقد ظهر عندنا في هذه الدار وهذه النشأة ما يعضد هذا القول. فمن ذلك ما شاهدناه ولا أذكره.

قصة الشيخ الكرمانى مع شيخه

ومنها ما حدثني أوجد الدين حامد بن أبي الفخر الكرمانى - وفقه الله - (هو شيخ فارسي صوفي عارف، له مناقب وأشعار وتلاميذ وأتباع، وممن صحبه صدر الدين القونوي أشهر خلفاء الشيخ الأكبر، اجتمع بالشيخ الأكبر في قونية سنة 602 وكانت بينهما مودة عميقة ولقاءات في مصر والشام، توفي سنة 635 هـ. وقد كرر الشيخ هذه القصة التي ذكرها له الكرمانى في الباب 311 (ج 3 ص 42) وفيها وصف الكرمانى بأنه شيخ من شيوخ طريق الله ثقة عدل)، قال: [كنت أخدم شيخاً وأنا شاب، فمرض الشيخ، وكان في محارة، وقد أخذ البطن، فلما وصلنا تكريت قلت له: يا سيدي اتركني أطلب لك دواء ممسكاً من صاحب مارستان سنجار من السبيل. فلما رأى احتراقي، قال لي: رح إليه. قال: فرحت إلى صاحب السبيل وهو في خيمته جالس، ورجاله بين يديه قائمون، والشمعة بين يديه، وكان لا يعرفني ولا أعرفه. فرآني واقفاً بين الجماعة، فقام إليّ وأخذ بيدي وأكرمني وسألني: ما حاجتك؟ فذكرت له حال الشيخ، فاستحضر الدواء وأعطاني إياه، وخرج معي في خدمتي، والخادم بالشمعة بين

يديه، فخفت أن يراه الشيخ فيخرج، فحلفت عليه أن يرجع فرجع. فجئت الشيخ وأعطيته الدواء، وذكرت له كرامة الأمير صاحب السبيل بي، فتبسم الشيخ وقال لي: يا ولدي إني أشقت عليك لما رأيت من احترارك من أجلي فأذنت لك، فلما مشيت خفت أن يخجلك الأمير بعدم إقباله عليك، فتجردت عن هيكلي هذا ودخلت في هيكل ذلك الأمير وقعدت في موضعه، فلما جئت أكرمتك وفعلت معك ما رأيت، ثم عدت إلى هيكلي هذا، ولا حاجة لي في هذا الدواء وما استعمله].

فهذا شخص قد ظهر في صورة غيره، فكيف أهل تلك الأرض؟

تربة أرض الحقيقة وثمر أشجارها وأراضيها

قال لي بعض العارفين: لما دخلت هذه الأرض، رأيت فيها أرضاً كلها مسك عطر، لو شمه أحد منا في هذه الدنيا لهلك لقوة رائحته، تمتد ما شاء الله أن تمتد (هذا مثال لعوارف المعارف الإلهية التي يشمها أهل الأنفاس الرحمانية من العارفين بالله، وهي التي تكلم عنها في العديد من أبواب الفتوحات، منها الأبواب: 15 / 34 / 35 / 49 / 51 / 198 ... وكثيرا مايشير الشيخ إلى تلك الأنفاس العرفانية بالنسيم وبالروائح وبالمسك. فهو يقول مثلا في شرحه لديوانه " ترجمان الأشواق " عند البيت: " فجرت مدامعها وفاح نسيمها ": [سألت أودية معارفها ونم عالم الأنفاس بما تحمله من طيب أعراف أزهار المعارف الإلهية بحسب مشام الطالبين. وعند البيت: " روته الصبا عنهم "، يقول: [الصبا الريح الشرقية... فعالم الأنفاس التي هي الريح الشرقية روت لي..]. . والأنفاس الرحمانية هي مظاهر لتجليات الأسماء الحسنی، لكل اسم رائحة مخصوصة. والتطيب بها عبارة عن التخلق بذلك الاسم. وفي هذا يقول عند البيت: " تعطو برخص كالدمس منعم ** بالنند والمسك الفتيق مقرمذ ": [تتناول بيد النعمة على هذا العبد والقبول، والإشارة لمثل ما ورد في الخبر " إن الصدقة تقع بيد الرحمن فيرببها ". ثم وصف هذه اليد بالدمقس، فهي منزهة عن الشوب بالألوان، فإن الدمقس هو الحرير الذي ما تصبغ بلون غير لونه الذي خلق عليه، فوصفها بالتنزيه. ووصفها بالنعومة، وهو اللين، إشارة إلى يد العطف والحنان والرفق في تناول. ثم نعتها بالطيب الخالص والمشوب بغيره وهو الند، وجعلها ملطخة به، فهي عبارة عن التخلق بالأخلاق الإلهية والأسماء الحسنی، فإنه أخلاط من الطيب، فالتخلق بها في حق العبد... الخ]. وعند البيت " بيضاء غيداء بهتانة ** توضع نشرا كمسك فتيق "، يقول: [...البهتانة الطيبة الريح. إن لهذه الصفة في قلوبنا طيبا ونشرا... وإن لم نشهد ذاتها فإن لنا منها ما لنا من المسك رائحة وإن لم نشهد عينه، وهي هذه الآثار الإلهية التي في قلوب العباد، غير أن كل واحد ليس له شم لإدراك ماهي عليه من العطرية والنشر الطيب. وشبهها بالمسك لأنه أطيّب الطيب، ولاسيما إذا كان مفتتا فهو أطيّب وأليق بالمشام الإنسانية ولو كان ثم ما هو أطيّب من تلك الرائحة]. وعند البيت " يا مسك، يا بدر، ويا غصن نقا " يقول: [سماها مسكا لما تعطيه من الأنفاس الرحمانية اليمينية، لإظهار العلوم المحمدية]. وعند

البيت " ممسكا يفوح رياه لنا " ، يقول: [ممسكا، مجعولا في المسك وهو طيب يخرج من حيوان. أي هذا الطيب انبعث من مقام الحياة، تفوح رائحته لمشام العارفين] . وعند البيت " كالمسك جاد بها علينا الخرد " ، يقول: [كالمسك، يجمع بين الشم والذوق] . فتأمل كيف يعطي الشيخ معنى جديدا لنفس الكلمة ... وأما قوله : " لو شمه أحد منا في هذه الدنيا لهلك لقوة رائحته " ، فيعني أن الإنسان إذا كان يجول بفكره في عالم الحس الدنيوي ، وشم روائح المعارف العليا المعنوية ، فإنها تفنيه عن حسه وتجذبه إلى عوالم الاعتبار ودرك الأسرار . ففناؤه بها عن حسه هو ما عبر عنه بالهلاك) .

أرض الذهب في أرض الحقيقة وثمارها

ودخلت في هذه الأرض أرضاً من الذهب الأحمر اللين، فيها أشجار كلها ذهب وثمرها ذهب، فيأخذ التفاحة أو غيرها من الثمر فيأكلها، فيجد من لذة طعمها وحسن رائحتها ونعمتها ما لا يصفها واصف، تقصر فاكهة الجنة عنها فكيف فاكهة الدنيا (هذا مثال للمعارف الذاتية وأدواقها عند العارفين، ومثال أيضا لعلوم القرآن وأسراره كما عبر عن ذلك البوصيري - رحمه الله :-

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم لها معان كموج البحر في مدد وفوق جوهره في الحسن والقيم .
وقوله أن فاكهة الجنة تقصر عنها، تعبير عن كون جنة المعنى والمعارف أعلى وأشرف وأطيب من جنة الحس والزخارف) .

والجسم والشكل والصورة ذهب، والصورة والشكل كصورة الثمرة وشكلها عندنا، وتختلف في الطعم (لأنه طعم معنوي أشرف وأحلى من المطاعم الحسية بما لا يقدر، إذ هذه الأخيرة تشترك فيها حتى البهائم وأهل الكفر، بينما المطاعم المعنوية العرفانية مخصوصة بالمصطفين الأخيار. و اللون الأحمر يرمز للمعرفة المتعلقة بحضرة الذات، كما أشار إليه في الفصل الثالث من الباب الثاني من الفتوحات حيث يقول: [كل قلب تجلت فيه الحضرة الإلهية من حيث هي ياقوت أحمر، الذي هو التجلي الذاتي]. وإلى حمرة هذه المعرفة يشير في كتابه " عنقاء مغرب " فيقول: [... البحر المحيط، الذي لا يسمع لموجه غطيط ، في معرفة الذات والصفات والأفعال، بكر صهباء في لجة عمياء، وهي معرفة ذاته، جلّت عن الإدراك الكوني والعلم الإحاطي. غطس الغاطس ليخرج ياقوتها الأحمر، في صدفه الأزهر، فخرج إلينا من قعر ذلك البحر صفر اليمين، مكسور الجناحين، مكفوف العين، أخرس لا ينطق، مبهوتا لا يعقل] ... ثم يؤكد على العجز عن إدراك الذات فيقول: [فإن قلت فأين معرفة الياقوت الأحمر، المصون في الصدف الأزهر ؟ فأقول: إن معرفة الياقوت الأحمر أن لا يعرف ولا يحد ولا يوصف...العجز عن درك الإدراك إدراك...] .

وفي الثمرة من النقش البديع والزينة الحسنة ما لا تتوهمه نفس، فأحرى أن تشهده عين. ورأيت من كبر ثمرها بحيث لو جعلت الثمرة بين السماء والأرض، لحجبت أهل الأرض عن رؤية السماء، ولو جعلت على الأرض لفضلت عليها أضعافاً، وإذا قبض عليها الذي يريد أكلها بهذه اليد المعهودة في القدر عمها بقبضته، لنعمتها ألطف من الهواء، يطبق عليها يده مع هذا العظم، وهذا مما تحيله العقول هنا في نظرها (هذه كلها عبارات تدل على أن عوالم المعنى أوسع بما لا يقدر من عالم الحس الذي هو أضيق مراتب الوجود).

ولما شاهدتها ذو النون المصري نطق بما حكى عنه من إيراد الكبير على الصغير من غير أن يصغر الكبير أو يكبر الصغير، أو يوسع الضيق أو يضيق الواسع. فالعظم في التفاحة على ما ذكرته باق، والقبض عليها باليد الصغيرة والإحاطة بها موجود، والكيفية مشهودة مجهولة لا يعرفها إلا الله. وهذا العلم مما انفرد الحق به. (ذو النون من أكابر صوفية القرن الثالث، ولد سنة 179 وتوفي بمصر سنة 245 هـ، أورد الشيخ في الفتوحات الكثير من أقواله، وخصص لمناقبه وأقواله كتاباً كبيراً عنوانه " الكوكب الدرّي في مناقب ذي النون المصري ")

أزمنة أرض الحقيقة

واليوم الواحد الزماني عندنا هو عدة سنين عندهم، وأزمنة تلك الأرض مختلفة (الزمان في عالم المثال تابع للشعور وللحال لا للحركات الفلكية في عالم الحس. فزمن الإنسان وهو مستيقظ ليس هو نفس زمنه وهو نائم، وليس هو نفس زمنه وهو مستغرق في التفكير؛ وزمنه وهو صحيح مسرور ليس هو نفس زمنه وهو مريض حزين أو يائس، وزمن كل أرض من الأراضي السبعة يختلف تماماً بين أرض و أخرى. وزمن الدنيا لا يماثل بتاتا زمن البرزخ، وزمن البرزخ يختلف تماماً عن زمن يوم القيامة وعن ديمومة الجنة أو أحقاب جهنم. أما الأدوار الزمنية لأحكام الأسماء الحسنی، فكل اسم أيام معينة: فيوم الرب ألف سنة مما نعد، ويوم ذي المعارج خمسون ألف سنة، ويوم الشأن الآن الذي لا يتجزأ... وكمثال بسيط معروف: النائم يرى نفسه قد عاش في وضعية ما عدة سنين، ثم يستيقظ فيعلم أن رؤياه قد استغرقت بضع ثوان فقط).

أرض الفضة في أرض الحقيقة

قال: ودخلت فيها أرضاً من فضة بيضاء في الصورة، ذات شجر وأنهار وثمر شهّي، كل ذلك فضة، وأجسام أهلها منها كلها فضة، وكذلك كل أرض شجرها وثمرها وأنهارها وبحارها وخلقها من جنسها. فإذا تناولت وأكلت، وجد فيها من الطعم والروائح والنعمة مثل سائر

المأكولات، غير أن اللذة لا توصف ولا تحكى (هذا مثال آخر لذوق نوع آخر من المعارف، وهي المتعلقة بحضرات الصفات والأسماء الحسنى وتجلياتها تعلقا وتخلقا وتحققا. وإذا كانت أرض الذهب تعني حضرة القرآن العظيم، فأرض الفضة تعني الأحداث النبوية الشريفة. وإنما خص الشيخ بالذكر أرض الذهب وأرض الفضة لورود أحاديث نبوية تصف جنة من ذهب حديث أبي هريرة رضي الله عنه الثابت في الصحيحين أن أحمر وأخرى من فضة، منها مثلا النبي صلى الله عليه وسلم قال: "جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما". والجنتان تعني جنة الحس وجنة المعنى التي يتكلم الشيخ عنها هنا. وقد جمع الشيخ في هذه الفقرات ماتدرکه الحواس: فابتدأ بالششم ثم البصر ثم اللمس ثم الذوق...وقد تكلم الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه " جواهر القرآن " عن ما في آيات القرآن من مسك وند وجوهر أحمر وياقوت وزبرجد... وقد أكد الشيخ في هذه الفقرات على اللونين الأحمر الذهبي وعلى رائحة المسك لأنها ترمز لحضرة الذات، كما سبق ذكره).

أرض الكافور والزعفران في أرض الحقيقة

ودخلت فيها أرضاً من الكافور الأبيض، وهي في أماكن منها أشد حرارة من النار، يخوضها الإنسان ولا تحرقه، وأماكن منها معتدلة وأماكن باردة .
(وهذا مثال ثالث لصنف آخر من المعارف الذوقية ، كالمعارف المتعلقة بتوحيد الأفعال وموازينه الشرعية ؛ والأماكن الحارة تشير إلى مظاهر الجلال، والباردة للجمال، والمعتدلة للكمال. فاللون الأبيض للفضة وللکافور، يشير إلى النور الذي به تظهر الأشياء، أي إلى الاسم الظاهر . فأرض الفضة الصفاتية ، وأرض الكافور الأفعالية عبارة عن مجالي الظهور الإلهي، بينما الأحمر للذات كما سبق ذكره) .
وكل أرض من هذه الأرضين التي هي أماكن في هذه الأرض الكبيرة، لو جعلت السماء فيها لكانت كحلقة في فلاة بالنسبة إليها. وما في جميع أراضيها أحسن عندي ولا أوفق لمزاجي من أرض الزعفران.

(يتميز الزعفران بلونه الأصفر، وهو اللون البرزخي الأوسط بين طرفي الأحمر والأزرق في طيف الألوان، فهو أنسب الألوان للعالم البرزخي المثالي. وقد ورد في الحديث الجنة بناؤها لبنة من : "الشريف أن تربة الجنة من الزعفران. قال صلى الله عليه وسلم المسك الأذفر، وحبهاؤها اللؤلؤ و الياقوت، و تربتها فضة و لبنة من ذهب، بلاطها لا يبأس، و يخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، و لا يفنى شبابهم" ... الزعفران؛ من يدخلها ينعم فأرض الزعفران الصفراء هي أعدل الأمكنة المشيرة إلى المعرفة الكمالية الوسطية البرزخية. وهذا اللون هو لون الاسم الأعظم في عالم المثال حسبما ذكره الشيخ في جوابه عن السؤال 137 من أسئلة الحكيم الترمذي (ج 2 ص 121) حيث يقول عنه : [..فإذا أقيم في شاهد الحس في التخيل أو الخيال فيكون كسوته الثوب السابع الأصفر... وقال بعضهم:

رأيت كسوته جلدا أصفر قد صفر بورس أو زعفران...]. ثم إن الطبع الصفراوي يدل عند أهل الفراسة على الجنوح إلى العالم العلوي، كما هو حال الشيخ الأكبر (الباب 148 ج 2 ص 240). واللون الأصفر يشير أيضا عند الشيخ الأكبر إلى حضرة أسماء الأفعال، وهم ما صرح به في كتاب " الإسرا " حيث يقول في فصل " سفر القلب " : [فالأحمر للذات، والأكهب للصفات، والأصفر للأفعال] . قلت: إنما كان الأصفر للأفعال لأنها مشتركة بين الحق خالقها والمخلوق الظاهرة به، فهي برزخية بين الحق والخلق. وقد صرح الشيخ بعلاقة اللون الأصفر بالبرزخ في الباب 70 من الفتوحات، وهو باب الزكاة (وصل في فصل زكاة البقر / ج 1 ص 596) فقال: [...ولما كانت المناسبة بين البقر والإنسان قوية عظيمة السلطان، لذلك حيي بها الميت لما ضرب ببعض البقر... فوجبت الزكاة في البقر بين الإبل والغنم في الحيوان المزكى، والإنسان بين الملك والحيوان. ثم البقرة التي ظهر الإحياء بموتها والضرب بها برزخية أيضا في سننها ولونها، فهي لا يفرض ولا بكر عوان بين ذلك، فهذا مقام برزخي، فهي لا بيضاء ولا سوداء، بل صفراء، والصفرة لون برزخي بين البياض والسواد... ثم إن اللون الزعفراني ببرزخيته مناسب لموقع الإنسان الكامل الأوسط، ولهذا كان هو الأنسب للشيخ الأكبر. وعن علاقة الإنسان الكامل بالبرزخ والخيال ينظر الباب 360 (ج 3 ص 274...292). وعن مقام البرزخ الكمالي يتكلم الشيخ صدر الدين القونوي في شرحه للأربعين حديثا نبويا فيقول: [وأما الحضرات الخمس: فحضرة الغيب المشتملة على الأسماء والصفات والمعاني المجردة وباقي المعلومات المحيط بها علم الحق، وتقابل هذه الحضرة حضرة الحس المسمى بعالم الشهادة، وبين هذين الطرفين حضرة متوسطة هي من جملة ما يختص بالإنسان الكامل، وبين هذا الوسط وعالم الغيب المذكور حضرة نسبتها إلى عالم الغيب أقوى وأتم، وهي المعبر عنها بعالم الأرواح. وبين الوسط المشار إليه وعالم الشهادة الذي قلنا أنه حضرة الحس: حضرة نسبتها إلى عالم الشهادة أقوى، وهي حضرة الخيال المقيد. فجميع الحضرات والمراتب الوجودية المنسوبة إلى الحق وإلى العالم على سبيل التخصيص والاشتراك تبع لهذه الخمس. فافهم] .

بشاشة أهل أرض الحقيقة

وما رأيت عالماً من عالم كل أرض أبسط نفوساً منهم، ولا أكثر بشاشة بالوارد عليهم، يتلقونه بالترحيب والتأهيل (لأن الصور المثالية والأجساد البرزخية ليست عنصرية كثيفة، ولا تقبل الخرق والالتنام، فهي شبيهة ببساطة الأرواح. و بمجرد ما يسرح خيال الشخص في جولانه، تظهر له مباشرة الصور والخواطر والمعاني المتشكلة، أي ان بشاشتهم عبارة عن سرعة ظهور تلك الصور في مرآة الخيال).

عجائب مطعوماتها

ومن عجائب مطعوماتها، أنه أي شيء أكلت منها، إذا قطعت من الثمرة قطعة، نبتت في زمان قطعك إياها مكانها ما سد تلك الثلمة. أو تقطف بيدك ثمرة من ثمرها، فزمان قطفك إياها يتكون مثلها، بحيث لا يشعر بها إلا الفطن، فلا يظهر فيها نقص أصلاً (لأن الصور المثالية باقية منطبعة في حضرات الخيال لا تبلى ولا تفسد كما سبق ذكره، فيمكن تصور نفس الشيء ما لا يحصى من المرات بدون أن تتبدل صورته. والمطعومات هي أذواق المعارف. فإذا اقتطف المتعلم مثلاً من شجرة معرفة أستاذه أو من حضرة أخرى ثمرة فهم أو فاكهة إدراك لمعنى، فلا يظهر نقص أصلاً في تلك الفهوم والمعاني عند معطيها، بل بالعكس لأن العلم ينمو بالإنفاق، أو كالسراج الذي يمكن أن يوقد منه ما لا يتناهى من السرج بدون أن ينقص من ضوءه شيئاً، أو كالصور الكائنة في سوق الجنة، حيث يلبس نفس الصورة ما لا يحصى من الأشخاص بدون أن يقع في نفس الصورة نقص. وإلى تلك المطعومات المعنوية المثالية يشير الشيخ في الأبيات التي افتتح بها الباب 379 من الفتوحات وهو في معرفة منزل الحل والعقد، ويتعلق بسورة المائدة، وهي:

صحاف من اللجين	ومن جوهر وعين
أنتنا بها كرام	عليها ستور صون
فلما بدت إلينا	أكلنا من كل لون
فمنها علوم نعت	ومنها علوم كون
ومنها علوم حال	ومنها علوم عين
فمن قائل بوصل	ومن قائل ببين
فسبحان من تعالى	بتشبيه كل عين
فما كونه سواه	وما كونه بكوني).

نساء أرض الحقيقة

وإذا نظرت إلى نساءها، ترى أن النساء الكائنين في الجنة من الحور بالنسبة إليهن، كنسائنا من البشر بالنسبة إلى الحور في الجنان. وأما مجامعتهن، فلا يشبه لذتها لذة (النساء هنا ترمز إلى أبقار الأسرار، وإلى أنواع من العلوم الذوقية العالية المخصوصة بالطبيعة الذاتية الكلية والطبيعة الإنسانية وحضرات التجليات الصفاتية ومراتب الانفعال؛ وفي مثلها

كتب الشيخ أشعاره الغزلية الكثيرة كديوان ترجمان الأشواق وديوان الزينبيات وغيره، وفي مثلها أيضا كتب في رسالة الانتصار مخاطبا أحد المتصدرين للكلام في المعارف الصوفية من المشاركة: " فالحمد لله الذي جعل فتح هذا المغرب فتح أسرار وغيره، فلا تفتض أبقار الأسرار إلا عندنا، ثم تطلع عليكم في مشرقكم ثيبات قد فرضن عدتهن، فنكحتموهن بأفق المشرق، فتساوينا في لذة النكاح، وفزنا بلذة الافتضاض. وفي مثل هذه المعاني أنشد الشيخ الأكبر في مقدمة كتابه " ذخائر الأعلام في شرح ديوان ترجمان الأشواق ":

أَوْ رُبُوعٍ أَوْ مَعَانٍ كَلِمًا كَلَّمَأَ أَذْكَرُهُ مَنَ طَلَّلِ

أَوْ رِيَاضٍ أَوْ غِيَاضٍ أَوْ حِمَى أَوْ خَلِيلٍ أَوْ رَحِيلٍ أَوْ رَبِي،

طَالَعَاتٍ كَشْمُوسٍ أَوْ دُمَى أَوْ نِسَاءً كَاعْبَاتٍ نُهَدِّ

ذَكَرُهُ أَوْ مِثْلُهُ أَنْ تَفْهَمَا كَلَّمَأَ أَذْكَرُهُ مِمَّا جَرَى

أَوْ عَلَتْ جَاءَ بِهَا رَبُّ السَّمَآ مِنْهُ أَسْرَارٌ وَأَنْوَارٌ جَلَّتْ

مِثْلُ مَا لِي مِنْ شُرُوطِ الْعُلَمَا لِقُودِي أَوْ فُؤَادٍ مِنْ لَه

أَعْلَمْتُ أَنَّ لَصَدْقِي قَدَمًا صَفَةً قُدْسِيَّةً عُلوِيَّةً

فَأَصْرَفِ الْخَاطِرَ عَنْ ظَاهِرِهَا وَأَطْلِبِ الْبَاطِنَ حَتَّى تَعْلَمَا

وفي مثل هذا المعنى أنشد الحافظ أبو القاسم ابن عساكر:

لِقَوْلِ الشَّيْخِ أَنْبَأَنِي فَلَانَ وَكَانَ مِنَ الْأَنْمَةِ عَنْ فَلَانَ

إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْإِسْنَادَ أَحْلَى لِقَلْبِي مِنْ مَحَادَثَةِ الْحَسَانِ

وَمَسْتَمَلْ عَلَى صَوْتِ فَصِيحٍ أَلَذُّ لَدِي مِنْ صَوْتِ الْقِيَانِ

وَتَزْيِينِي الطَّرُوسَ بِنَقْشِ نَقْسٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْشِ الْمَغَانِي

....

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَخْبَارِ لَيْلَى وَقَيْسِ بْنِ الْمَلُوحِ وَالْأَغَانِي

وَحَفِظَ حَدِيثَ خَيْرِ الْخَلْقِ مِمَّا يَنَالُ بِهِ الرِّضَى بَعْدَ الْأَمَانِي

فَأَجْرُ الْعِلْمِ يَنْمُو كُلَّ حِينٍ وَذَكَرَ الْمَرْءُ يَبْقَى وَهُوَ فَانِي).

وأهلها أعشق الخلق فيمن يرد عليهم (العشق هو شدة التعلق، ولا أشد تعلقاً من الصور المثالية والخيالية بالشخص الذي ينشئها، فهي لا وجود لها إلا بنظره إليها، فتعلقها به تعلق الظل بشخصه). وليس عندهم تكليف، بل هم مجبولون على تعظيم الحق وجلاله – تعالى -، لو راموا خلاف ذلك ما استطاعوا.

أبنية أرض الحقيقة وبحارها وماؤها

وأما أبنيتهم (أي ما يبينه الخيال من صور، والفكر من تصورات)، فمنها ما يحدث عن همهم، ومنها ما يحدث كما تبني عندنا من اتخاذ الآلات وحسن الصنعة (وهي الآلات المعنوية للقى المصورة والمفكرة والعاقلة، المتعاونة مع القوة المخيلة، كالقواعد المبدئية والمنطقية والاستقراء والمقدمات مع نتائجها وغير ذلك).

ثم أن بحارها لا يمتزج بعضها ببعض، كما قال- تعالى:- "مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان"، فتعابن منتهى بحر الذهب تصطفق أمواجه ويباشره بالمجاورة بحر الحديد، فلا يدخل من واحد في الآخر شيء (إشارة إلى أمواج بحار الخواطر وتصوراتها، والواردات وأشكالها، وبحار مختلف العلوم والفنون والمعارف والمهارات الحرفية وغيرها مما تجول فيه الملكات الباطنة مع تميزها عن بعضها البعض: فلبحر الحديد هو اجس النفس الأمانة وفوقه عرش إبليس إذا كانت أمانة بالسوء، ولخواطر القلب الملكية بحر الفضة ببياضها الأزهر، وللروح وخواطره الربانية بحر الذهب، وللسر بحر الياقوت...).

وماؤهم أطف من الهواء في الحركة والسيلان، وهو من الصفاء بحيث أن لا يخفى عنك من دوابه ولا من الأرض التي يجري البحر عليها شيء، فإذا أردت أن تشرب منه، وجدت له من اللذة ما لا تجده لمشروب أصلاً (الماء هنا عبارة عن العلم الذي تحيي به القلوب ، وهو علم اليقين ، فإذا بلغ صفاؤه الغاية فهو عين اليقين ثم حق اليقين وحقيقته ، وهذا اليقين هو الذي يجعل صاحبه نافذ الإدراك في كل ما يرومه من الحقائق ، ولذته أطفى من كل مشروب حسي عند أهل المعاني. وفي مثل هذا يقول ابن الفارض في خمريته المشهورة عن خمرة المعرفة الباطنية:

وقالوا لي صفها فأت بوصفها خبير
أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء
ونور ولا نار وروح ولا جسم).

تكون أهل أرض الحقيقة

وخلقها ينبتون فيها كسائر النباتات من غير تناسل، بل يتكونون من أرضها تكون الحشرات عندنا، ولا ينعقد من مائهم في نكاحهم ولد، وإن نكاحهم إنما هو لمجرد الشهوة والنعيم (النكاح هنا هو عبارة عن تداخل الصور المثالية، وتوالج الأذواق والإدراكات المعنوية المتخيلة. والشهوة والنعيم عبارة عن التمتع بأذواق العرفان . وتكون الحشرات من الأرض لا يعني أنها تتولد من غير تناسل ، وإنما يعني خلقها الأول عند انطلاق ظهورها في الأرض ، كخلق آدم من طين ، وخلق الجان الأول من مارج من نار . وهذا ما أكده الشيخ في الباب السابق لهذا الباب حيث يقول : " وخلق الجان من النار ، والطير والدواب البرية والبحرية والحشرات من عفونات الأرض " .

مراكب أهلها

وأما مراكبهم فتعظم وتصغر بحسب ما يريد الركب (هي مراكب الهمم والتوجهات الفكرية والنفسية والروحية). وإذا سافروا من بلد إلى بلد، فإنهم يسافرون براً وبحراً (السفر في البر عبارة عن جولان الخيال والفكر في عوالم الحس، والسفر في البحر جولانهم في عوالم المعاني). وسرعة مشيهم في البر والبحر أسرع من إدراك البصر للمبصر (الخيال والفكر والخواطر والهمة تنتقل من ميدان أعلى إلى ميدان أسفل أو العكس، في أسرع من طرفة عين).

اختلاف أهلها

وخلقها متفاوتون في الأحوال: ففيهم من تغلب عليهم الشهوات (عبارة عن تصورات أهل الغفلة والحجاب)، وفيهم من يغلب عليهم تعظيم جناب الحق (عبارة عن ما تجول فيه همم وخواطر أهل التقوى والإحسان).

ألوان أرض الحقيقة ومعادنها

ورأيت فيها ألواناً لا أعرفها في ألوان الدنيا (هي ألوان الأحوال و الخواطر والمعاني المتفاوتة في صفاتها أو كدرها، وعلوها أو دناءتها، ولا شك أن عددها أكثر تنوعاً من الألوان الحسية. فلون الصفا أبيض، ولون الرضا أخضر، ولون اليأس أسود، ولون الشهوة أحمر..... الخ..).

ورأيت فيها معادن تشبه الذهب وما هي بذهب ولا نحاس، وأحجاراً من اللآليء ينفذها البصر لصفائها شفاة من اليواقيت الحمر (المعادن هنا هي معادن النفوس المتفاوتة في مقاماتها بين أعلى عليين وأسفل سافلين. فلكل مقام معدن مناسب في الكيمياء الروحانية: أي لكل نفس معدن حسب صفاتها واعتدالها وعلمها أو كدرها أو انحرافها وجهلها.

واليواقيت الحمراء هي نفوس الكمل أصحاب التجلي الذاتي. وقد ورد في الحديث الشريف لما سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - : أي الناس أكرم عند الله - تعالى - ؟ قال: فعن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا: نعم، قال: فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا".

ومن أعجب ما فيها إدراك الألوان في الأجسام السفلية التي هي كالهواء، ويتعلق الإدراك بألوانها كما يتعلق بالألوان التي في الأجسام الكثيفة (هي الألوان التي يكتسيها الهوى الغالب على جل النفوس السفلية).

أبواب مدائن أرض الحقيقة

وعلى أبواب مدائنها عقود من الأحجار الياقوتية، كل حجر منها يزيد على الخمسمائة ذراع. وعلو الباب في الهواء عظيم، وعليه معلق من الأسلحة والعدد ما لو اجتمع ملك الأرض كلها ما وفى بها (من المدائن المعنوية حضرات الأسماء الحسنى، وباب كل حضرة الاسم الإلهي الخاص بها كالحق القيوم والرحمن الرحيم، والحجارة عبارة عن الحروف أو الكلمة المشكلة لهذا الاسم. ومن المدائن المعنوية أيضا الكتب، وأبوابها عناوينها، والأسلحة والعدد عبارة عن المصطلحات التي لا بد للقارئ أن يتسلح بها ليتمكن من فهم العلم الذي يجده في الكتاب. وأشرف هذه المدائن على الإطلاق كتاب القرآن العظيم، لكل سورة منزل، وهي المنازل الأربعة عشر ومائة التي فصل الشيخ طرفا من علومها في أبواب الفصل الرابع من الفتوحات، لكل سورة باب، بدءا من منزل سورة الناس، وهو الباب 270، وصعودا حسب ترتيب المصحف إلى منزل الفاتحة، وهو الباب 383 ؛ كما قسمها إلى تسعة عشر صنفا وفصل ترتيبها حسب فواتحها في الباب 22، وهو في معرفة منزل المنازل ؛ وهو كالخلاصة لكتابه "منزل المنازل الفهوانية". وأبواب هذه المنازل القرآنية هي بسمة كل سورة، وعقودها الياقوتية كلماتها. ويمكن فهم عدد خمسمائة المذكور من عدة وجوه: فالعدد مائة يشير إلى الأسماء الحسنى مع الاسم الأعظم، والعدد خمسة يدل عند الشيخ على الحفظ، والحروف المقطعة الفاتحة لبعض السور هي من حرف واحد مثل "ن" و "ق"، إلى خمسة أحرف لا أكثر مثل "كهيعص". وأصول الكلام العربي كله كلمات لا يتجاوز عدد حروفها الخمسة. وقد ذكرنا أمثلة لمشاهد الشيخ في المنازل القرآنية في عالم المثال في آخر الفصل السابق. والله أعلم. في الباب الثاني من الفتوحات - وصل في الكلام على هذه الحروف المجهولة المختصة - يشير الشيخ إلى أنواع من تلك الحجارة القرآنية الكريمة فيقول : [" مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان. فبأي آلاء ربكما تكذبان " هل بالبحر الذي أوصله به فأفناه عن الأعيان ؟ أو بالبحر الذي فصله عنه وسماه بالأكوان ؟ أو بالبرزخ الذي استوى عليه الرحمن ؟ " فبأي آلاء ربكما تكذبان ". يخرج من بحر الأزل اللؤلؤ ، ومن بحر الأبد المرجان " فبأي آلاء ربكما تكذبان " " فله الجواري " الروحانية "

المنشآت " من الحقائق الأسمائية " في البحر " الذاتي الأقدسي " كالأعلام فبأي آلاء ربكما تكذبان "] .

نور وظلمة أرض الحقيقة

وعندهم ظلمة ونور (أي ظلمة الإنكار والجحود والهوى ، أو الحيرة أو الجهل أو العجز عن الإدراك، و النور نور الهداية والتبصر والعلم واليقين)، من غير شمس تتعاقب، وبتعاقبهما يعرفون الزمان (أي الزمان المعنوي، وهو الزمان الحقيقي المتمثل في الزيادة من العلم النافع والعمل الصالح. ومن الأقوال المأثورة: " لا بورك لي في يوم لم أزد فيه بالله علما ").

وظلمتهم لا تحجب البصر عن مدركه (قيل في هذا المعنى : نصف العلم قولك : لا أدري عندما لا تدري . وفي هذا المعنى أيضا : العجز عن درك الإدراك إدراك . فالإقرار بالجهل بحقيقة الذات الإلهية هو عين العلم ، فظلمة الجهل بها لاتحجب البصيرة عن إدراك أنه يستحيل إدراكها. قال تعالى: "ويحذركم الله نفسه" . وباعتبار أن الظلمة هي الإنكار والجحود بسبب غلبة الهوى أو غيره ، فالجحد لا يحجبه إنكاره عن رؤية الحق ، لكنه لا يعترف به ، وعدم اعترافه وإقراره هي عين ظلمته)، كما لا يحجبه النور.

غزو أهل أرض الحقيقة وسفرهم في البحر

ويغزو بعضهم بعضاً، من غير شحناء ولا عداوة ولا فساد بنية (كتصارع الأفكار والخواطر والميول والأهواء في باطن الإنسان، وأحوال البسط والرضا تغزو أحيانا أحوال القبض واليأس، كما تغزو كتائب العلم جحافل الجهل والوهم...) .
وإذا سافروا في البحر وغرقوا (أي استغرقوا في التفكير، أو التأمل والاعتبار، أو التصور والاستحضار والتشخيص الذهني أو الخيالي)، لا يعدو عليهم الماء كما يعدو علينا، بل يمشون فيه كمشي دوابه حتى يلحقوا بالساحل (أي إلى ما قصدوه من تأملهم واستغراقهم فيه) .

زلازل أرض الحقيقة

وتحل بتلك الأرض زلازل، لو حلت بنا لانقلبت الأرض وهلك ما كان عليها (أي زلازل المفاجآت النفسية والفكرية والعاطفية والعقلية التي تزعزع الفكر والخيال عن مألوفاتها، ومن أشدها الموت حيث تنهدم وتهلك وتفنى كل الصور الخيالية الدنيوية لتظهر صور عالم البرزخ إلى يوم البعث والنشور) .

وقال: لقد كنت يوماً مع جماعة منهم في حديث، وجاءت زلزلة شديدة بحيث أنني رأيت الأبنية تتحرك كلها تحركاً لا يقدر البصر يتمكن من رؤيتها لسرعة الحركة مروراً وكرووراً، وما عندنا خبر، وكأنا على الأرض قطعة منها، إلى أن فرغت الزلزلة، فلما فرغت وسكنت الأرض، أخذت الجماعة بيدي وعزنتي في ابنة لي اسمها فاطمة، فقلت للجماعة: إنني تركتها في عافية عند والدتها؛ قالوا: صدقت، ولكن هذه الأرض ما تزلزل بنا وعندنا أحد إلا مات ذلك الشخص، أو مات له أحد، وإن هذه الزلزلة لموت ابنتك فانظر في أمرها. فقعدت معهم ما شاء الله، وصاحبي ينتظرنني، فلما أردت فراقهم مشوا معي إلى فم السكة، وأخذوا خلعتهم، وجئت إلى بيتي فلقيت صاحبي فقال لي: إن فاطمة تنازع، فدخلت عليها فقضت. وكنت بمكة مجاوراً، فجهزناها ودفناها بالمعلى، فهذا من أعجب ما أخبرت عن تلك الأرض (هذا مثال ذكره الشيخ للوقائع الروحية البرزخية التي تقع لبعض الأولياء وأهل الكشف في عالم المثال في المنام أو في اليقظة).

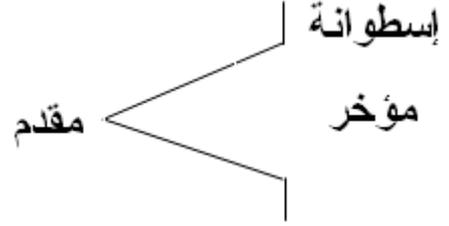
كعبة أرض الحقيقة

ورأيت بها كعبة يطوف بها أهلها، غير مكسوة، وتكون أكبر من البيت الذي بمكة، ذات أركان أربعة، تكلمهم إذا طافوا بها وتحببهم وتفيدهم علوماً لم تكن عندهم (هذه كعبة عالم المثال. وقد ذكر الشيخ واقعة عجيبة حصلت له مع الكعبة المشرفة والكلام الذي كلمته به والرسائل التي خاطبها بها وعنوانها " تاج الرسائل ومنهاج الوسائل "، وذلك في الباب 72 من الفتوحات المتعلقة بأسرار الحج. وباعتبار آخر: كعبة كل شخص هي قلبه كما بينه الشيخ في الباب 72 من الفتوحات الخاص بالحج، وأركانه الأربعة هي الأنواع الأربعة للخواطر: الرباني والملكي والنفسي والشيطاني).

سفن أهل أرض الخيال ومراكبهم البحرية

ورأيت في هذه الأرض بحراً من تراب، يجري مثل ما يجري الماء، ورأيت حجارة صغاراً وكباراً يجري بعضها إلى بعض كما يجري الحديد إلى المغناطيس، ليس في قوته أن يمتنع، فإذا ترك وطبعه جرت بعضها إلى بعض على مقدار من المساحة مخصوص، فتضم هذه الحجارة بعضها إلى بعض، فينشأ منها صورة سفينة. ورأيت منها مركباً صغيراً وشينيين (مفرد شيني وهو نوع من السفن. والشونة المركب المعد للجهاد في البحر)، فإذا التأمَت السفينة من تلك الحجارة، رموا بها في بحر التراب، وركبوا فيها، وسافروا حيث يشتهون من البلاد. غير أن قاع السفينة من رمل أو تراب، يلصق بعضه ببعض لصوق الخاصة، فما رأيت فيما رأيت أعجب من جريان هذه السفن في ذلك البحر. وصورة الإنشاء

في المراكب سواء. غير أن لهم في جناحي السفينة مما يلي مؤخرها اسطوانتين عظيمتين، تعلق المركب أكثر من القامة، وأرض المركب من جهة مؤخره ما بين الأسطوانتين مفتوح متساو مع البحر، ولا يدخل فيه من رمل ذلك البحر شيء أصلاً بالخاصية. وهذا شكله:



(مدار هذه الفقرة الملغزة على الشعر من حيث كونه من نسيج الخيال. فبحر التراب هو بحر الشعر، والحجارة: كلمات أبيات القصيدة، والسفينة هي القصيدة نفسها التي يقصد الشاعر بها التعبير عن ما في نفسه. والمراكب هي عبارة عن القصائد من البحور الشعرية الخفيفة والسريعة. والمركب الصغير هو المقطوعة الشعرية القصيرة، أو التي بحرها خفيف كالهجز والرجز والمجتث وما شابهه. ولعلاقة الشينيين بالجهاد: فالواحد منهما عبارة عن شعر الوعظ وما شابهه لما فيه من جهاد للنفس، والآخر شعر الهجاء لما فيه من هجوم على المهجور. وجناحا السفينة الصدر والعجز من البيت، والاسطوانتان العروض والضرب أو القافية من البيت، أي الكلمة الأخيرة من نهاية شطري البيت).

مدائن النور في أرض الحقيقة

وفي هذه الأرض مدائن تسمى مدائن النور، لا يدخلها من العارفين إلا كل مصطفى مختار، وهي ثلاث عشرة مدينة، وهي على سطح واحد، وبنائها عجيب.

(هي مدائن القوى البدنية، لأن أرض الخيال رغم وسعها الأشمل ما هي إلا شعبة من أرض البدن الإنساني، لكن البدن نفسه ما هو إلا صورة من الصور التي تسمى في العرف العام محسوسات، وهذه المحسوسات ما هي إلا أرواح متجسدة في الخيال المنفصل كتجسد جبريل لسيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- ولمریم - عليها السلام - . فوجود الأجسام الموجودة في الخارج تظهر في الخيال المنفصل، كالعلم يظهر في صورة اللبن في الخيال المتصل المقيد، وحقيقة الخيال فيهما واحدة. وقد خصّص الشيخ الباب 355 لسورة العنكبوت وعنوانه: " في معرفة السبل المولدة وأرض العبادة واتساعها وقوله تعالى: " إن أرضي واسعة فأياي فاعبدون " يعني أرض العبودية الواسعة، وبين حقيقتها فقال ما خلاصته:

[إن أرض بدنك هي الأرض الحقيقية الواسعة التي أمرك الحق أن تعبد فيها (...)]

وجعلها واسعة لما وسعته من القوى والمعاني التي لا توجد إلا في هذه الأرض البدنية الإنسانية. وأما قوله: " فتهاجروا فيها "، فإنها محل للهوى ومحل للعقل، فتهاجروا من أرض

الهُوى إلى أرض العقل منها، وأنت في هذا كله فيها ما خرجت عنها. فإن استعملك الهوى، أرداك وهلك، وإن استعملك العقل الذي بيده سراج الشرع، نجوت فأضاعت زوايا هذه الأرض بنور الشرع. ثم يعيدنا فيها في النشأة الأخرى كما خلقنا فيها، ويخرجنا إخراجاً لمشاهدته، كما أنشأنا منها وأخرجنا لعبادته. فخلق أرواحنا من أرض أبداننا في الدنيا لعبادته، وأسكننا أرض أبداننا في الآخرة لمشاهدته إن كنا سعداء. والموت بين النشأتين حالة برزخية، تعمر الأرواح فيها أجساداً برزخية خيالية مثل ما أعمرتها في النوم، وهي أيضاً متولدة من هذه الأجسام الترابية، فإن الخيال قوة من قواها].

فعالم الخيال الأوسع شعبة من أرض البدن، أرض العبودية التي يصفها الشيخ في الباب 351 المخصوص بسورة الأحزاب بقوله ما خلاصته: [العبودية ذلة محضة خالصة ذاتية للعبد، لا يكلف العبد القيام فيها، فإنها عين ذاته. فإذا قام بحقها كان قيامه عبادة. ولا يقوم بها إلا من يسكن الأرض الإلهية الواسعة التي تسع الحدوث والقدم، فتلك أرض الله، من سكن فيها تحقق بعبادة الله وأضافه الحق إليه: " يا عبادي إن أرضي واسعة فأياي فاعبدون"، يعني فيها. ولي مذعبت الله فيها من سنة تسعين وخمسمائة وأنا اليوم في سنة خمس وثلاثين وستمائة. ولهذا الأرض البقاء، فلا تقبل التبدل، لأن العبد لا يزال عبداً أبداً، فلا يزال في هذه الأرض أبداً، وهي أرض معنوية معقولة حاکمة على سكانها بذاتها، وهي مجلى الربوبية ومنصة المالك الحق وفيها يرونه. فمن كان من أهلها كان عبداً محضاً يشاهد الحق في عين ذاته، فالشهود له دائم و الحكم له لازم.

فألرب ربّ والعبد عبد فلا تخالط ولا تغالط] .

والشيخ يرى أن للبدن بقواه الحسية شرفاً أعلى من شرف القوى الروحانية، لأن القوى الحسية هي التي تهب للقوى الروحانية ما تتصرف فيه، وما يكون بها حياتها العلمية، من قوة خيال وفكر وحفظ وتصور و وهم وعقل. فالقوى الحسية هم خلفاء الله تعالى في النشأة الإنسانية).

وذلك أنهم عمدوا إلى موضع في هذه الأرض، فبنوا فيه مدينة صغيرة لها أسوار عظيمة، يسير الراكب فيها إذا أراد أن يدور بها مسيرة ثلاثة أعوام .

(هي مدينة الجسم وفي أعلاه الرأس حيث الدماغ والمخ محل القوى الباطنة وحيث ملتقى الحواس الخمس. والأعوام الثلاثة تشير إلى الأبعاد الثلاثة لحيز البدن. والنشأة البدنية خلال تكونها في رحم الأم في ظلمات ثلاث، قبل نفخ الروح في الشهر الرابع، تمر - كما ورد في الحديث الشريف - بثلاثة مراحل ، كل مرحلة أربعين يوماً). فلما أقاموها جعلوها خزانة لمنافعهم ومصالحهم وعددهم، وأقاموا على بعد من جوانبها أبراجاً تعلو على أبراج المدينة بما دار بها. (هي أبراج الحواس الخمسة المشرفة على العالم)،

ومدوا البناء بالحجارة حتى صار للمدينة كالسقف للبيت (أي الرأس كالسقف للبيت الجسم). وجعلوا ذلك السقف أرضاً، بنوا عليه مدينة أعظم من التي بنوا أولاً، وعمروها

واتخذوها مسكناً، فضاقت عنهم فبنوا عليها مدينة أخرى أكبر منها، وما زال يكثر عمارها وهم يصعدون بالبنيان طبقة فوق طبقة، حتى بلغت ثلاث عشرة مدينة.

(هي عبارة عن القوى الإنسانية التي ذكرها في الباب السابع السابق وهي: مدينة البدن، والمدائن الأربعة لقواه الأربعة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة، ثم أحدث فيه القوة الغذائية والمنمية والحسية والخيالية والوهمية والحافظة والذاكرة. وهذا كله في الإنسان بما هو حيوان، لا بما هو إنسان فقط. غير أن هذه القوى الأربعة: قوة الخيال والوهم والحفظ والذكر، هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان. فالمجموع ثلاث عشرة. ويمكن طي الأربعة الأولى في القوة الغذائية لأنها كالوزعة لها، وتعويضها بالحواس الخمسة: اللمس و السمع والبصر والذوق والشم، وهي المنطوية في القوة الحاسة، ويبقى المجموع ثلاث عشرة. وقول الشيخ أن هذه المدائن الثلاث عشرة على سطح واحد مع أن الواحدة فوق الأخرى، يعني أن كل هذه القوى تنتمي إلى نفس المستوى الإنساني في كل شخص، وسطحها المشترك هو البدن نفسه).

ثم إنني غبت عنهم مدة، ثم دخلت إليهم مرة أخرى، فوجدتهم قد زادوا مدينتين واحدة فوق أخرى.

(هما عبارة عن القوتين المخصوصتين بالإنسان، وبهما تميز عن الحيوان، وهما: القوة المصورة والقوة المفكرة، ولهذا فصلهما عن الثلاث عشرة بحدِيثه عن غيابه عنها، فيصبح المجموع خمسة عشرة. وباعتبار التناسب بين حقائق الإنسان ومراتب الوجود التي يعرج فيها أهل السلوك بأرواحهم وفكرتهم - كما فصل ذلك الشيخ الأكبر في الأبواب 167 و198 و367 من الفتوحات وفي كتاب "الإسرا" و"رسالة الأنوار" وكتاب "عقلة المستوفز" - يمكن القول أن تلك المدائن الخمسة عشر هي أيضا حسب ترتيبها الصاعد: أفلاك التراب فالماء فالهواء فالأثير فالسماوات السبعة فالفلك المكوكب ففلك البروج، ثم فوقها في الملكوت الكرسي وأخيرا العرش. وهذان الأخيران منفصلان من حيث المرتبة عن الثلاث عشرة الأخرى التي لها مظاهر حسية مشهودة للجميع بخلاف المظهر الملكوتي الغيبي للكرسي وللعرش. وتشبيهه البدن الإنساني وما يحتوي عليه من قوى وجوارح بالمملكة، نجده مفصلا في كتب أخرى للشيخ، منها: "تنزل الأملاك من عالم الأرواح إلى عالم الأفلاك"، فصل اختصاص المأموم بيوم الاثنين، ومنها "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية" .

ملوك أرض الحقيقة

ولهم ملوك فيهم لطف وحنان، صحبت منهم جماعة (هم عبارة عن الجوارح والحواس والقوى الحاكمة في الأرض البدنية الإنسانية الواسعة)، منهم: التالي وهو التابع، بمنزلة القيل في حمير. ولم أر ملكاً أكثر منه ذكراً لله، قد شغله ذكر الله عن تدبير ملكه. انتفعت به وكان كثير المجالسة لي (يعني به اللسان الذائر الحامل للقوة الناطقة، وأشار إلى حميرته بحمير، وإلى القول الصادر منه بالقيل، وسماه بالتالي التابع لأن كلام اللسان تابع لما في الضمير). ومنهم: ذو العرف، وهو ملك عظيم، لم أر في ملوك الأرض أكثر من تأتي إليه الرسل من الملوك منه، وهو كثير الحركة هين لين، يصل إليه كل أحد، يتلطف في النزول، لكنه إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، أعطاه الله من القوة ما شاء (يعني به العين حاسة البصر، الهيئة اللينة، الكثيرة الحركة لتتعرف على ما حولها، ورسل الملوك الآتية إليه نظرات الأعين الأخرى إليه، وعين الرضا والود تتلطف في النزول، ولكن عين السخط المحمرة تبدي المساوي. وكلمة " عرف " تلوح للأعراف، أي الأنفاس والروائح، وبهذا المعنى يكون " ذو العرف " هو الأنف الحامل لحاسة الشم، والرسل الوافدة عليه هي الروائح والأنفاس، وصاحب الأنفة هو الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء).

ورأيت لبحرها (هو في الحس بحر الدم الذي يعم كل أجزاء البدن التي لها حاسة اللمس، أما في المعنى فهو بحر الفكر) ملكاً منيع الحمى، يدعى: السابح، هو قليل المجالسة مع من يقصد إليه، وما له ذلك الالتفات إلى أحد، غير أنه مع ما يخطر له، لا مع ما يراد منه (ربما يكون المشار إليه هنا هو حاسة اللمس التي لا تشتغل إلا إذا قصد صاحبها ذلك، أما باعتبار بحر الفكر ، فملكه هو القوة المفكرة). ويجاوره سلطان عظيم اسمه: السابق، إذا دخل عليه الوافد قام إليه من مجلسه وبش في وجهه وأظهر السرور بقدمه، وقام له بجميع ما يحتاج إليه من قبل أن يسأله عن شيء. فقلت له في ذلك، فقال لي: أكره أن أرى في وجه السائل ذلة السؤال لمخلوق، غيرة أن يذل أحد لغير الله، وما كل أحد يقف مع الله على قدم التوحيد، وإن أكثر الوجوه مصروفة إلى الأسباب الموضوعية مع الحجاب عن الله، فهذا يجعلني أن أبادر إلى ما ترى من كرامة الوافد (ربما يكون المعنى هنا حاسة السمع، أي الأذن المستقبل للأصوات تلقائياً بلا تكلف).

قال: ودخلت على ملك آخر يدعى: القائم بأمر الله، لا يلتفت إلى الوافد عليه، لاستيلاء عظمة الحق على قلبه، فلا يشعر بالوافد. وما يفد عليه من يفد من العارفين إلا لينظروا إلى حاله التي هو عليها. تراه واقفاً قد عقد يديه إلى صدره عقد العبد الذليل الجاني، مطرقاً إلى موضع قدميه، لا تتحرك منه شعرة، ولا يضطرب منه مفصل، كما قيل في قوم هذه حالتهم مع سلطانهم:

كأنما الطير منهم فوق رؤسهم لا خوف ظلم ولكن خوف إجلال

يتعلم العارفون منه حال المراقبة (يعني بالقائم بأمر الله: القلب منبع الحياة وحضرة المراقبة، وهو قائم بأمر الله لأن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كما يشاء، كما ورد في الحديث الشريف. أما بالنسبة للجوارح الظاهرة فمن أنسبها للقائم بأمر الله: جارحة الرجل بساقها وفخذها، فبواسطتها يقوم الشخص واقفاً مثل ألف القيومية. وفي العديد من نصوصه نبه الشيخ الأكبر على شرف جوارح البدن وقيامها بعبادة ربها، فمثلاً في الباب 340 من الفتوحات المتعلقة بسورة الدخان، يقول: " فاعلم أن النفس الناطقة إذا أراد الله بها خيراً كشف لها عن نطق جميع أجزاء بدنها كلها بالتسبيح والثناء على الله بحمده، ولا ترى فيهم فتورا ولا غفلة ولا اشتغالا " إلى آخر ما فصله).

قال: ورأيت ملكاً يدعى بـ "الرادع"، مهيب المنظر، لطيف المخبر، شديد الغيرة، دائم الفكرة فيما كلف النظر فيه، إذا رأى أحداً يخرج عن طريق الحق رده إلى الحق. قال: صحبتته وانتفعت به (بالنسبة للقوى الباطنة " الرادع " هو العقل محل القوة العاقلة والمفكرة وقائد الضمير، وفي العديد من نصوصه يقول الشيخ أن أهم وظيفة للعقل هي رده للنفس من اتباع الهوى المناقض للشرع. أما في القوى الظاهرة فـ " الرادع " يعني جارحة اليد الباطشة بالحق).

وجالست من ملوكهم كثيراً، ورأيت منهم من العجائب مما يرجع إلى ما عندهم من تعظيم الله ما لو سطرناه لأعيا الكاتب والسامع. فاقترضنا على هذا القدر من عجائب هذه الأرض. ومداننها لا تحصى كثرة (لأن كل خلية من خلايا الجسم التي تعد بالآلاف الآلاف مدينة في غاية التعقيد في بنيتها ومهامها). ومداننها أكثر من ضياعها (مدائن البدن هي جوارحه ومختلف أجهزة الجسم الأخرى، كجهاز التنفس والهضم والجهاز التناسلي والكبد والكلى إلى غير ذلك من أجزاء البدن، أما ضياعه وباديته فهي ما بدا وظهر على جلده). وجميع من يملكها من الملوك ثمانية عشر سلطاناً، منهم من ذكرنا ومنهم من سكتنا عنه. ولكل سلطان سيرة وأحكام ليست لغيره (قد سبق بيان الخمسة عشر ملكاً، أما الثلاثة الآخرون فهم الذين ذكرهم الشيخ في الباب 353 المتعلقة بسورة لقمان، وهم المسلمون على النفس الناطقة، أي النفس النباتية والنفس الشهوانية والنفس الغضبية . أما باعتبار مراتب الوجود كما سبق ذكره، فالثلاثة التي فوق العرش هي: مرتبة الطبيعة واللوح المحفوظ أو النفس الكلية والقلم الأعلى أو العقل الأول. والله أعلم).

ترتيب مملكة أرض الحقيقة

قال وحضرت يوماً في ديوانهم لأرى ترتيبهم. فمما رأيت أن الملك منهم هو الذي يقوم برزق رعيته بلغوا ما بلغوا (مثال هذا القوة الغذائية تقوم بغذاء كل خلايا الجسم في نفس الوقت). فرأيتهم إذا استوى الطعام، وقف خلق لا يحصى عددهم كثرة يسمونهم الجبابة، وهم

رسل أهل كل بيت (وهم وزعة القوة الجاذبة التي تنقل الغذاء من مكان إلى مكان، فينقله من الفم إلى المعدة فإلى الكبد فإلى القلب فإلى سائر العروق وأجزاء البدن، وتساعده في ذلك القوة الدافعة)، فيعطيه الأمين من المطبخ على قدر عائلته (هذا الأمين هو القوة الماسكة، فهو الذي يمسك الغذاء في كل مكان حتى يأخذ التدبير فيه حقه، ثم يسلمه للدافع والجاذب) ويأخذه الجابي وينصرف.

وأما الذي يقسمه عليهم شخص واحد لا غير، له من الأيدي على قدر الجبابة، فيغرف في الزمن الواحد لكل شخص طعامه في وعائه وينصرف (القائم بهذه المهمة هو الدم الذي يضخه القلب). وما فضل من ذلك يرفع إلى خزانة. فإذا فرغ منهم ذلك القاسم، دخل الخزانة، وأخذ ما فضل وخرج به إلى الصعاليك الذين على دار باب الملك، فيلقيه إليهم فيأكلوه، هكذا كل يوم (يعني القوة الدافعة التي تدفع فضلات البدن إلى خارجه). ولكل ملك شخص حسن الهيئة، هو على الخزانة، يدعونه " الخازن " (أي القوة الماسكة التي هي من وزعة القوة الغذائية، أما " الخازن " من القوى الباطنة فهو القوة الذاكرة الحافظة لكل ما يعلمه الإنسان)، بيده جميع ما يملكه ذلك الملك. ومن شرعهم أنه إذا ولاه ليس له عزله.

ورأيت فيهم شخصاً أعجبتني حركاته، وهو جالس إلى جانب الملك، وكنت على يمين الملك، فسألته ما منزلة هذا عندكم؟ فتبسم وقال: أعجبك؟ قلت له: نعم، قال: هذا المعمار الذي يبني لنا المساكن والمدن، وجميع ما تراه من آثار عمله (الملك هنا هو النفس الناطقة أو أهم مميزاتها وهو العقل، وجهة يمينه محل القوة منه حيث يجلس الشيخ الناطق بهذه العلوم، وقوة العقل تكون باستنارته بنور الشرع، والمعمار بالنسبة للجسم هو النفس النباتية الطالبة للغذاء لتجبر به ما نقص منه فينمى به الجسم، فلا ينفك يتغذى دائماً، ووزعتها الأربعة الجاذب والماسك والهاضم والدافع. أما المعمار بالنسبة للباطن فهو القوة المصورة التي تبني كل الصور والأشكال في عوالم الخيال والمثال، والجبابة لموادها هم الحواس). ورأيت في سوق صيارفهم، أنه لا ينتقد لهم سكتهم إلا واحد في المدينة كلها وفيما تحت يد ذلك الملك من المدن (المكلف بالسكة عبارة عن القوة الهاضمة التي تغير صورة الغذاء وتكسوه صورة أخرى تقتضيها المصلحة، ونظيرها في المدن صانع النقد، لأن الدراهم المسكوكة هي التي بواسطتها تتغير السلعة إلى سلعة أخرى، ويشتري بها متاع ليباع ثم يشتري بدراهمه متاع آخر).

قال وهكذا رأيت سيرتهم في كل أمر، لا يقوم به إلا واحد، لكن له وزعة.

المستحيل في عالم الحس واقع في أرض السمسة

وأهل هذه الأرض أعرف الناس بالله. وكل ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الأرض ممكناً قد وقع، وإن الله على كل شيء قدير. فعلمنا أن العقول قاصرة، وأن الله قادر

على جمع الضدين، ووجود الجسم في مكانين، وقيام العرض بنفسه، وانتقاله، وقيام المعنى بالمعنى. وكل حديث وآية وردت عندنا مما صرفها العقل عن ظاهرها، وجدناها على ظاهرها في هذه الأرض. وكل جسد يتشكل فيه الروحاني من ملك وجن، وكل صورة يرى الإنسان فيها نفسه في النوم، فمن أجساد هذه الأرض، لها من هذه الأرض موضع مخصوص (قد سبق بيان هذا في الفقرات السابقة المتعلقة بالخيال المنفصل والمتصل والبرزخ والرؤيا).

رقائق أرض الحقيقة ممتدة إلى جميع العالم

ولهم رقائق ممتدة إلى جميع العالم، وعلى كل رقيقة أمين، فإذا عاين ذلك الأمين روحاً من الأرواح قد استعد لصورة من هذه الصور التي بيده، كساه إياها؛ كصورة دحية لجبريل (لأن لكل صورة في الوجود مثال في عالم المثال). وسبب ذلك أن هذه الأرض مدها الحق تعالى في البرزخ، وعين منها موضعاً لهذه الأجساد التي في الجنة، يسمى السوق (سوق الجنة الوارد ذكره في حديث شريف، يدخله أهل الجنة فيرون فيه صوراً في غاية الحسن، وكل من أعجبه صورة تلبس بها وتشكل بها في الحين. ونظير هذا حاصل في الباطن في الدنيا، عندما يتمنى الإنسان أن يكون على هيئة معنوية حسنة، ويتصور نفسه متحققاً بها). ونحن نبين لك مثال صورة امتداد الطرف الذي يلي العالم من هذه الأرض (أي عالم المثال البرزخي مجلى جولان القوة المخيلة): وذلك أن الإنسان إذا نظر إلى السراج أو الشمس والقمر، ثم جال بأهداب أجفانه بين الناظر والجسم المستنير، يبصر من ذلك الجسم المستنير إلى عينيه شبه الخطوط من النور تتصل من السراج إلى عينيه متعددة، فإذا رفع تلك الأهداب من مقابلة الناظر قليلاً قليلاً، يرى تلك الخطوط الممتدة تنقبض إلى الجسم المستنير. فالجسم المستنير مثال للموضع المعين من هذه الأرض لتلك الصور، والناظر مثال العالم، وامتداد تلك الخطوط كصور الأجساد التي تنتقل إليها في النوم، وبعد الموت، وفي سوق الجنة، والتي تلبسها الأرواح. وقصدك إلى رؤية تلك الخطوط، بذلك الفعل من إرسال الأهداب الحائلة بين الناظر والجسم النير، مثال الاستعداد. وانبعثت تلك الخطوط عند هذه الحال انبعثت الصور عن الاستعداد، وانقباض الخطوط إلى الجسم النير عند رفع الحائل، رجوع الصور إلى تلك الأرض عند زوال الاستعداد. وليس بعد هذا البيان بيان. وقد بسطنا القول في عجائب هذه الأرض وما يتعلق بها من المعارف في كتاب كبير لنا فيها خاصة.

خاتمة الكتاب

نختم هذا الكتاب بما ختم به الأمير عبد القادر الموقف 248 من كتابه " المواقف " حيث قال :

فها قد تمّ ما أراد الحق - تعالى - إظهاره على لسان عبده، من كشف بعض أسرار التجلي، بكليات المراتب، وبعض الأنواع تتميماً للفائدة ، مع تقييد ما لساداتنا في ذلك من إطلاقات، وتفسير ألفاظ مبهمات، وتفصيل أشياء أرسلوها مجملات، وتتوير مسائل ما برحت مظلمات، وحسر النقاب عن مخدّرات، لم تزل من وراء حجب الغيرة مصونات، ربما لا توجد في كتاب، فإنها من فتوح الوقت ووهب الوهاب ، حرصاً على توصيل العلم لإخواني، فإن قاسيت الجهل فعنّاني وأعياني . فمن عرف هذا الموقف حقّ المعرفة ، وأقام جداره فاستخرج كنزه وكشفه ، كان ممّن فتح له الباب، ورفع بينه وبين ربّه الحجاب، وقيل له : ها أنت وربّك .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . صلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

الفهرس

المقدمة

القسم الأول : الحقائق الوجودية الأولى

- الفصل الأول: مفاهيم أولية
- الفصل الثاني: حقيقة الحقائق
- الفصل الثالث: العماء
- الفصل الرابع: الهباء النوري
- الفصل الخامس: الهباء الجسمي
- خلاصة الفصول السابقة
- الفصل السادس: القلم الأعلى واللوح المحفوظ

القسم الثاني: العرش وترتيب الكون مكانا وزمانا

الفصل الأول : العرش الرحماني

- أنواع العروش
- مرتبة العرش
- والدا العرش وأنواع قوائمه
- الإحاطة العرشية
- كنز العرش الأدمي
- حملة العرش ووظائفهم
- قوائم العرش وحروفها وجهاتها
- عرش الفصل والقضاء
- العرش كجسد للعالم عند الأمير عبد القادر الجزائري
- العرش مظهر العظمة وحضرة الستواء الرحماني عند عبد الكريم الجيلي
- التناسب بين العرش والكعبة والقلب

الفصل الثاني : ترتيب الكون مكانا ومكانة وزمانا

- ترتيب الكون بالظهور في الإيجاد
- ترتيب العالم بالمكان الوجودي في الدنيا
- ترتيب العالم بالمكان الوجودي في الآخرة
- ترتيب العالم بالمكانة

الفصل الثالث : معرفة الدهر والزمان والأزل والأبد

- الأزل والزمان المتوهم والموجود والمقدر
- الأزل والأبد والقدم وأيام الله عند الجيلي
- أنواع الأيام عند الشيخ محيي الدين : أيام التكوير وأيام السلخ وأيام الشأن

الفصل الرابع : العناصر والكيمياء بالمفهوم التراثي الصوفي

- التعريف العام للعناصر ومراتب الوجود
- العناصر الأصلية العليا
- الأخلاق الإلهية
- منشأ العناصر الكثيفة
- هل النظرية الذرية للمادة صحيحة ؟
- العناصر الأرضية والأخلاق الإلهية
- الكيمياء والإكسير وتحويل المعادن
- علم الميزان عند جابر بن حيان
- حقيقة الكيمياء عند بعض الصوفية
- هل خواص الأجسام راجعة لها أم للمدرك لها ؟

الفصل الخامس : مبحث في شروط الوجود الحسي للشيخ عبد الواحد يحيى

القسم الثالث : الطبيعة وأركانها

الفصل الأول : مرتبة الطبيعة وأثارها

- الطبائع الأربعة وأركان الأسماء الإلهية
- الطبيعة كرحم الأم للكون
- التجلي في الصور والتحاولات الطبيعية، والطبيعة الذاتية العظمى العامة
- ملائكة الطبيعة وآثارها في البروج والأفلاك
- الطبيعة عبر مراتب الوجود
- المخطنون والمنصفون في حق الطبيعة
- الطبيعة ظاهر أمر الله عند الأمير عبد القادر
- رحم الطبيعة المعلقة بالعرش عند صدر الدين القونوي
- خلاصة

الفصل الثاني : ركن الهواء

- تولد الأركان الأربعة من الطبائع الأربعة
- الهواء أول ظاهر من الركن الأصلي الخامس ، وهو حياة العالم
- خصوصيت الهواء
- الحقيقة الهوائية عبر مراتب الوجود
- الحقيقة الهوائية في الكرسي والجنان
- البروج الهوائية
- المنازل الفلكية الهوائية
- سماء المشتري الهوائية
- الزمن الهوائي
- وظائف سماء المشتري وعلومها
- خصوصيات سماء المشتري وملائكتها
- الهواء العنصري الكثيف

الفصل الثالث : ركن الماء

- تكون الركن المائي
- الحقيقة المائية عبر مراتب الوجود
- هل الماء أول العناصر؟
- السماوات والكواكب والأزمنة المائية

الفصل الرابع : ركن النار

- تكون الركن الناري ومساقطه عبر مراتب الوجود

- حكم الأركان الأربعة في الكرسي والجنة والنار
- البروج والمنازل والسموات والمولدات النارية

الفصل الخامس : ركن التراب

- تكون الركن الترابي
- الحقيقة الترابية عبر مراتب الوجود
- المظهران المتعاكسان لرمزية التراب
- المقام الترابي لسقيط الرفرف بن ساقط العرش
- الرمزية المزدوجة لسواد التراب
- البروج الترابية
- خلق الإنسان عند حكم برج السنبله الترابي
- كوكب زحل الترابي في السماء السابعة
- الأزمنة الترابية ويوم السبت
- الصلاة المناسبة للسبت الترابي
- الأراضي السبعة والأيام السبعة والأسماء الحسنى السبعة
- خصوصيات الأرض
- الأراضي السبعة وسكانها من الجن ومناسباتها مع جسم ونفس الإنسان

الفصل السادس : الركن الخامس : أصل الأركان

- الركن الخامس هو أصل الأركان الأربعة
- مختلف وجهات النظر في تعيين أصل الأركان وسبب ذلك
- نظير الركن الخامس في الملكوت الأعلى
- العنصر الأعظم و(يس) وأقسام الفلك في إزار العظمة
- نظير الركن الخامس في العرش وفلك البروج الأطلس
- نظيره في الكرسي وأركان الإسلام وأحكام الشريعة
- مواقع الأركان في سدره المنتهى
- نظير الركن الخامس في السموات والصلوات

الفصل السابع : بعض مظاهر الرباعيات الوجودية في الكون والإنسان وعالم الولاية

- أوتاد البروج العرشية وعلومهم
- علوم الولاية والأدوار الزمنية
- الأوتاد الأربعة والكعبة والركن الخامس ونظيره في الأعداد والحروف
- علوم الأوتاد وفواتح السور النورانية المحمدية الثمانية والسبعون

- الأوتاد والطبائع الإنسانية وجهاتها الأربعة وطوائف الجنة والنار
- الأوتاد وفاتحة الكتاب ومنازل القمر
- هلاك الأمم والأخلاق الأربعة
- رجال الهيبة والجلال الأربعة
- الأوتاد والفصول الأربعة
- المشارب الأربعة وعلوم الوهب

القسم الرابع: نشأة الإنسان جسما وروحا

الفصل الأول: تسوية الإنسان حسا ومعنى

- نشأة الإنسان المنفردة بخلقه بيدي الحق تعالى
 - الإنسان الكامل الخليفة روح العالم وجمعه للحضرتين الأسمائية والكونية
 - نشأة جسد الإنسان ونفسه الناطقة
 - الطبائع والأخلاق في مزاج الإنسان
 - أنواع القوى في نشأة الإنسان
 - النفوس الثلاثة
 - الأنواع الأربعة للأجسام الإنسانية وسبب المودة بين الرجل والمرأة
 - اتصال الإنسان بالعقل الأول
 - الإنسان عمد خيمة الكون دنيا وأخرى
 - ابتلاء الإنسان بالفكر
 - جمعية الإنسان من الاسم الأعظم المفرد الجامع
 - المضاهاة بين حقائق الإنسان ومراتب الكون والحضرة الإلهية
 - في الإنسان الكامل، وأنه محمد عليه السلام وأنه مقابل للحق والخلق
- ### الفصل الثاني: القوى الباطنة للإنسان

- القوى الباطنية للإنسان وتفصيلها من كلام الشيخ شهاب الدين السهروردي
- أوصاف القوى الباطنة للإنسان وجمعيتها

الفصل الثالث : حقيقة الروح ومظاهره عند الأمير عبد القادر الجزائري

- تسوية الإنسان
- حقيقة الروح
- مثال لمن ليس له مثال : قوى الروح وكيفية تدبيرها
- القلب والعقل
- النفس ومراتبها
- أطوار الروح
- الروح بعد الموت
- مراجع حول الإنسان الكامل

القسم الخامس

حقيقة الخيال ومرتبته وعوالمه

الفصل الأول : حقيقة الخيال ومرتبته في الوجود

- تعريف علم الخيال وعالمه المتصل وعالمه المنفصل
- العماء هو الخيال المطلق
- الخيال هيولى جميع العوالم
- مجلى الخيال في أرض السمسمه عند العقل الأول
- الخيال مجلى اسمه تعالى القدير الخلاق
- الخيال هو الأحق بالإنسان الكامل
- الخيال شعبة من البدن
- الخيال طلسم في قعر حوض الجسم
- الحروف الخيالية وأثرها
- أطوار الخيال
- سماوات الخيال وأنبيأؤه
- الخيال الظلماني والخيال النوراني
- مملكة السمسمه وسلطانها الخضر
- الفرقان بين خيال الغافلين وخيال العارفين

- همة العارف الخلاقة الحافظة
- علاقة المرآئي بالخيال
- تشكل الأرواح في الصور
- قصة الشيخ الأكبر مع السبتي بن هارون الرشيد
- تجلي الحق تعالى في الصور
- موقع الخيال في مراتب الوجود
- شرح خلاصة الباب الثامن من الفتوحات حول الخيال
- مراجع في الفتوحات حول عوالم الخيال

الفصل الثاني : شرح الباب الثامن من الفتوحات المتعلقة بأرض الحقيقة و السمسمة .